المسيحية
والعصر الجديد

الثقافة والسياسة
والدبلوماسية

دار ومكتبة الرواق

المسيحية والعصر الجديد

الثقافة والسياسة والدبلوماسية

محمد مســجد جامعي

ترجمة: عباس كمّونة الأسدي

REWAQ BAGHDAD
center for publicy policy
dar@rewaqbaghdad.org
www.rewaqbaghdad.org
07835774081
بغداد / العرضان

٢٩٨
ج ٢٨٦ جامعي، محمد مسجد.
المسيحية والعصر الجديد / محمد مسجد جامعي.
/ ط١ ، بغداد: دار الرواق، ٢٠٢٣
(٣٣٢) ص ؛ (١٧,٥ × ٢٥) سم.
١- المسيحية - أ - العنوان
٢٠٢٣/٢٦٦١

دار ومكتبة الرواق

مركز رواق بغداد للسياسة العامة

عنوان الكتاب: المسيحية والعصر الجيد
الثقافة والسياسة والدبلوماسية
تأليف: محمد مسجد جامعي

ترجمة: عبّاس كمّونة الأسدي

الطبعة الأولى : 2024

ISBN: 978-9922-8930-3-7
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق (2661) لسنة 2023

جميع الحقوق محفوظة لدار ومكتبة الرواق
يمنع نسخ أو أستعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

Legal Note:
Publishing this material has been funded by Rewaq Baghdad Center of Public Policy; however the views expressed in this document do not reect the Center’s offcial policies nor its opinions.

المحتويات

المؤلِّف في سطور ١٣
مقدّمة المترجم ١٥
مقدّمة المؤلِّف ١٩

الفصل الأوّل

الثورة الناعمة في الكنيسة الكاثوليكية

استقالة البابا المفاجئة ٢٥
انتخاب بابا مختلف ٢٦
الحاكم والأسقف ٢٧
الطرق المسيحية ٢٩
ردود الفعل حول بذخ الكنيسة ٣٠
أوّل بابا شعبي ٣٢
بقايا الحالة الترفية ٣٢
المنطق السلوكي ٣٤
ثلاثة بابوات وثلاث مقاربات مختلفة ٣٥
روح عصرنا ٣٨
البابا ومعارضوه «إصلاح الهيكلية» ٤٠
الهيكلية الكاثوليكية المعقدة: ٤٠
أجواء معادية لرجال الدين في أوروبا ٤٢
المعسكر اليساري الجديد ٤٣
ثقافة بولص السادس المنفتحة ٤٤

بابا معادٍ للشيوعية ٤٥
استقالة البابا ٤٦
نسيان الرسالة الدينية........................ ٤٧
السلوك المغاير ٤٨
معارضون من الداخل........................ ٥٠
أسباب الموفقية........................ ٥١
الثورة الثقافية في الكنيسة الكاثوليكية ٥٢
سوابق الأسقف مارتين ٥٣
إيرلندا والكنيسة الكاثوليكية ٥٤
الثقافة الإنكلوساكسونية لما بعد الحداثة ٥٥
عواقب مدمرة ٥٦
توجه أخلاقي بحت........................ ٥٧
متخلّفون عن الزمان مائتي عام........................ ٥٧
شخصية مارتيني الجذابة........................ ٥٩
ملتزم وصاحب فكر حر........................ ٦٠
خليفة يُوحنَّا بولص الثاني........................ ٦١
متخلفون عن الزمان ٦٢
تشييع مهيب ٦٣
الأفكار الجديدة في الكنيسة الكاثوليكية ٦٣
رجل يعرف أوروبا........................ ٦٥
المعرفة بروح الزمن ٦٦
الإصلاحات الكنسية ٦٧
انتقاد سلمي ٦٩
الدين والنظام الحقوقي ٧٠
النظام الفقهي والحقوقي في الإسلام........................ ٧١

المسلمون والعصر الجديد ٧١
مشكلات الكنيسة الكاثوليكية ٧٢
الكنيسة الكاثوليكية والحاجة إلى التغيير ٧٤
لماذا استقال البابا فجأة؟ ٧٦
شخصية بنديكيت السادس عشر ٧٩
سلطة الروح اللاتينية ٨٢
منزلة البابا ٨٥

الفصل الثاني

إيران والفاتيكان

تاريخ العلاقة ٨٩
قيود الفاتيكان في العلاقة مع إيران ٩٠
تحوّل في النظرة إلى إيران ٩١
استثمار الظروف الجديدة ٩٣
كيفية ظهور العقيدة التكفيرية ٩٤
الآفاق الجديدة للتعاون بين إيران والفاتيكان ٩٤
ظهور العقيدة التكفيرية ٩٥
١.الاتجاه التكفيري ٩٦
٢.مقاتلو السعودية ٩٦
٣.الإسلام والجاهلية ٩٨
٤.في مواجهة الغرب ٩٩
٥.انتصار الوهابية ١٠٠
٦.الخلافات المذهبيّة والقوميّة ١٠١
٧.التعاون بين إيران والفاتيكان ١٠٢
٨.إمكانيات التعاون الواسعة ١٠٣
الموروث الفلسفي في إيران المعاصرة ١٠٤

ترجمة كتاب مرجع الكنيسة الكاثوليكية إلى الفارسية ١٠٥
استمرار الفلسفة في إيران ١٠٥
فلسفة الحضارة الجديدة وثقافتها ١٠٦
دَور الفلسفة في إيران المعاصرة.. ١٠٧
العولمة وحوار الأديان... ١٠٧
حقيقة العولمة وضرورة الحوار ١٠٩
الحوار الديني والتوقعات المتبادلة ١١١
مجالات التعاون... ١١٢
الحوار المشترك بين الشيعة والمسيحية ١١٤
المراكز العلمية للكنيسة.. ١١٨
الغرب والإسلام.. ١٢٣
التعرّف على الشيعة ١٢٦
حتى بين الباحثين والمحققين؟ ١٢٧
مع سوء نواياهم؟ ١٢٩
حكومة داخل حكومة.. ١٥٢
الفاتيكان ووسائل الإعلام ١٥٩

الفصل الثالث

إيران ومسيحيو المنطقة

نحن ومسيحيو الشرق الأوسط... ١٧٣
كنائس الشرق الأوسط... ١٧٤
القوى الكبرى ومسيحيو المنطقة....................................... ١٧٦
الثورات العربية ١٧٨
قطبان جديدان في المنطقة ١٧٩
أهمية إيران للأقليات ١٨١
إيران ومسيحيو المنطقة.. ١٨٢

مسيحيو منطقتنا ١٨٣
استلهام من تجربة الإمام موسى الصدر ١٨٤
الربيع العربي ومكانة المسيحيين ١٨٥
الربيع العربي ١٨٦
المطاليب الإسلامية ومكانة المسيحيين ١٨٦
الخطر الطائفي ١٨٨
قضية التبشير ١٨٩
إيران والأقليات الدينية ١٨٩
إمكانات السياسة الدينية النشطة ١٩٠
ثقافة الأقليات المحلية ١٩١
أهمية حضور الأقليات ١٩٢
أهمية حضور الأقليات في المنطقة ١٩٣
المسيحية التبشيرية ١٩٣
إيران والكنيسة الأرمنية ١٩٤
الثقافة والفن الإيراني والأرمني ١٩٥
مشكلات الشرق الأوسط ١٩٦
أهمية تعزيز الأواصر ١٩٧

الفصل الرابع

المسيحية في أميركا اللاتينية

تنصير أميركا اللاتينية ٢٠٠
موجة مضادة للكنيسة ٢٠١
البابا في أميركا اللاتينية ٢٠١
مشكلة الكنيسة ٢٠٣
فترة عصيبة ٢٠٥
مقاربة البابا الجديدة ٢٠٦

دَور الشخصيات الدينية ٢٠٨
الكنيسة في أميركا اللاتينية وتحدّيات المستقبل ٢١٠

الفصل الخامس

الكنيسة الأرثوذكسية «استعادة الدور»

نحن والكنيسة الأرثوذكسية الروسية ٢٢٩
حقيقة الكنيسة الأرثوذكسية ٢٢٩
إيران والكنائس الأرثوذكسية ٢٣١
حقيقة روسيا الأوروآسيوية ٢٣٢
الأقلية المسلمة في روسيا ٢٣٣
مسيحيو الشرق الأوسط ٢٣٤
الاعتراف المتبادل «على هامش لقاء البابا وكيريل» ٢٣٤
بداية التوتر بين الكنيستين ٢٣٥
جهود لخفض التوتر ٢٣٧
المنزلة الخاصة للكنيسة الروسية ٢٣٨
مسار التصالح بين الكنيستين ٢٣٩
دروس وعبر لنا ٢٤٠
التقارب الكنسي «التقريب بين المذاهب الإسلامية» ٢٤٢
خلفيات العلاقة بين الكنيستين ٢٤٣
سقوط الكتلة الشرقية ٢٤٤
الفاتيكان ونزعة الهيمنة ٢٤٤
إضعاف الكنيسة الأرثوذكسية ٢٤٥
إضعاف الهوية الروسية ٢٤٦
قضية التوحيديين ٢٤٦
مرونة الفاتيكان ٢٤٧
نهاية النزاع ٢٤٩

كيريل «البطريارك الدبلوماسي» ٢٥٠
الانتفاع من التجارب الكنسية ٢٥١
حلول لِلعالَم الإسلامي ٢٥٣
الكنيسة الأرثوذكسية وأزمة البلقان ٢٥٤

الفصل السادس

الهجرة المتوسطية والتداعيات

ظاهرة الهجرة في المتوسط ٢٦٣
الهجرة واستعادة الهوية ٢٧٦
الهجرة بين التكيف والتنافر ٢٨٤
العودة إلى الدين في العالَم المعاصر ٢٩١
تأملات حول التفاهم المتبادل بين الإسلام والغرب ٣٠٣
معرفة المسألة ٣٠٣
انهيار الكتلة الشرقية ٣٠٥
حدثان مهمان ٣٠٧
استعداء الإسلام ٣٠٨
الحجب الإعلامية الضخمة ٣١٠
قضية البوركيني ٣١١
فهرس الأعلام ٣٢٥
أسماء الأماكن ٣٢٨

المؤلِّف في سطور

ولِد "محمّد مسجد جامعي" في أسرة علمائيّة عريقة في (طهران) عام (١٩٥٣). درس في جامعة (طهران)، ونال شهادة الدكتوراه في (الجغرافيا السياسية) من جامعة (بيزا الإيطالية). كما دَرَسَ ودَرَّسَ لأعوام عديدة في الحوزة العلمية بمدينة (قم) وشارك في دروس البحث الخارج لآيات الله العظام (الوحيد الخراسانيّ، والميرزا جواد التبريزيّ).

شغل منصب سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية لدى الفاتيكان في الأعوام (١٩٩١– ١٩٩٧)، ثمّ مديرًا عامًّا للشؤون الثقافية في وزارة الخارجية الإيرانية، ثم سفيرًا لإيران في المغرب. وبعد عودته من المغرب باشر – وإلى يومنا هذا– بالتدريس في كلية (العلاقات الدولية) التابعة لوزارة الخارجية الإيرانية، وأصبح منذ عام (٢٠٠٧) مستشارًا في جامعة (الأديان والمذاهب)، وعضوًا في الهيئة العلمية للجامعة. لديه العديد من المؤلَّفات، تتركّز حول قضايا: الجغرافيا السياسية، وعلم الاجتماع السياسي، والعلاقة المتبادلة بين الدين والمجتمع، والدين في العالَم المعاصر، والشرق الأوسط والعالَم العربي، ومعرفة المسيحية والحوار الديني، وتاريخ صدر الإسلام والإسلام المعاصر، وفيما يلي بعضٌ من أهمّ مؤلَّفاته: (الفكر السياسي لدى الشيعة والسنة "الخلفيات والنتائج"، إيران والجغرافيا السياسية للمنطقة "المكشوف والمستور"، الجغرافيا السياسية لمنطقة الخليج الفارسي "السعودية وإمارات المنطقة"، التطورات السياسية في الكويت ودَور الشيعة، المسيحية والعصر الجديد "الثقافة والسياسة والدبلوماسية"، السياسة والحوار الديني، الإسلام والمسيحية في العصر الجديد، الدين والهوية في عالم اليوم، المسيحية الإنجيلية، أفغانستان وطالبان الجديدة، كورونا والعالَم العابر)، والمشاركة أيضًا في الكتاب المعنون: (Ucraina 2022, la storia in pericolo)، والكتاب المعنون: (Noi Fnatelli).

مقدّمة المترجم

بينما كنتُ في سفرة استجمام واستراحة خارج مدينة سكناي وإطار عملي، فإذا بجرس الهاتف يرنّ عليّ، وخلف الخطّ رجلٌ وقور، عرّفني بنفسه أولًا، ثم اقترح – بعد عبارات المجاملة– ترجمةَ كتابٍ للدكتور «محمّد مسجد جامعي»، فوافقتُ على الفور؛ لأنني كنت على معرفة بأفكار الدكتور، ومنهجه في الكتابة، وإبداعاته في الطرح، وذلك عبر كتاب (الفكر السياسي عند الشيعة والسنة «الخلفيات والنتائج»)، الذي ترجمته عن شغف قبل أكثر من عقد من الزمن ونشره مشكورًا المجمع العالَمي لأهل البيت – عليهم السلام؛ لما فيه من أفكار جديدة على صعيد العنوان الذي خرج به الكتاب. على أيّ حال، توقعت – وجاءت توقعاتي صادقةً– أن يكون الكتاب الجديد على غرار سابقه، وهكذا كان، ولكنّه كان يحمل هذه المرة عنوانًا آخرَ مقاربًا للحوار الإنساني بين الإسلام والمسيحية، ودراسة معاصرة لهذه الديانة، من قبل شخص عايشها عن قرب، وعمل معها إنسانيًا ودبلوماسيًا وسياسيًا ودوليًا، وعاشر شخوصها في عقر الدار؛ حينما عمل لسنوات سفيرًا لبلاده في الفاتيكان، وأقام علاقات مع شخصيات على مستويات مختلفة من رعايا المسيحية إلى القمة المتمثلة بالبابا، مرورًا بالشخصيات الوسطية، والمفكرين والعلماء من تلك الديانة، فجاءت عباراته مقاربةً للواقع، منبثقةً من الحاضنة، مستلّة من أهل الدار، ولكن بقراءة شرقية إسلامية هذه المرة، ومن هنا تكمن أهمية هذا الكتاب، وكذلك أهمية ترجمته إلى العربية؛ ليطّلع الإنسان الشرقي والعربي تحديدًا على ما يدور في كواليس الكنيسة، وخاصة الكاثوليكية التي دار الحديثُ عنها، بالتفصيل الذي قد لا يجده القارئ في مطاوي الكتب المماثلة.

الكتاب الذي تسلّمته بعد عودتي من سفرتي السياحية أدخلني في سياحة من نوع آخر، سياحة فكرية في عالَم آخر حمل عنوان «المسيحية والعصر الجديد»، تجوّل فيه المؤلِّفُ عبر العديد من المقالات والمقابلات في أروقة ذلك العالم البعيد عنّا نسبيًا. ولمّا كانت سمة عصرنا الانفجار المعرفي، فإنَّني رأيتُ أنَّ الاطلاعَ على العالَم المسيحي بمركزية الفاتيكان لا يقلّ أهمية عن أيّ معلومة أخرى نأخذها من هنا وهناك، خاصة إذا كان لهذه الجهة دَور ديني وسياسي في بَلورة شكل العالَم المعاصر. صحيح أنَّ الفاتيكان تابعٌ لجهة دينية لها الكثير من الأتباع في أنحاء العالَم، لكنَّ تأثيراته السياسية كبيرة، خاصة أنَّ نشاطاته لا تعرف الحدود، وتمتدّ بامتداد الأتباع. من هذا المنطلق أخذت على عاتقي ترجمة هذا الكتاب إلى العربية، مع ملاحظات عدّة، لا بدَّ أن تسجّل في بداياته:

أولًا: الكتاب - كما أشرت أعلاه- هو مقالات ولقاءات منشورة على أزمنة مختلفة، لكنَّها متقاربة تعود إلى فترة التسعينيّات من القرن الماضي، حينما كان المؤلِّفُ قريبًا من ساحة الحدث الذي تناوله الكتاب، وإلى بدايات هذا القرن.

ثانيًا: تمّ حذف بعض الفقرات التي لا تتلائم مع الظرف الحالي، أو أنَّ تاريخها قد انقضى ولا فائدة تُرتجى منها، وطبعًا بالاتفاق مع المؤلِّف المحترم.

ثالثًا: الكتاب توزّع على ستة فصول ذكرها الكاتبُ في مقدّمته، لكن ما أودّ الإشارة إليه هو شمولية النص الذي تجوّل بين المسيحية بتشعّباتها، وعلاقتها وارتباطاتها الدولية، سواء ما يخصّ منطقتنا، أو ما يخصّ المناطق الأخرى التي تشكّل موطنًا للمسيحيين، خاصة في القارّة الأميركية، ودَور الكنيسة في وقوع أحداث دولية هزّت العالَم في العقود الأخيرة، وهو دَور تجاوزَ الديني إلى السياسي. وكذلك تحدّث عن التحدّيات التي تواجه الدين بشكل عام، والمسيحية على وجه الخصوص؛ لكونها موضوع الكتاب، وكذلك ما بين الديانات، خاصة الإسلامية. وهذا بحث اضطر فيه المؤلِّف للانتقال إلى ظاهرة الهجرة، التي تفاقمت وأصبحت تشكّل واحدةً من الأزمات العالمية، لسرد مصاديقَ من هذه التحدّيات ودراسة الحلول المناسبة لها.

رابعًا: حاول المؤلِّف، وهو أكاديمي وعالم دين في الوقت نفسه، أن يبتعدَ عن الردود المتسرّعة، التي عادة ما تصدر استنادًا إلى الانتماء؛ ليعالج بهدوء تامٍّ وبنَفَسِ الدبلوماسيِّ المنفتحِ على الآخر كلَّ ما يرتبط بموضوع الكتاب، وبحياد تامٍّ وتحليل عميق، مشفوعًا بمصاديقَ شهدها بنفسه عندما كان سفيرًا في الفاتيكان والمغرب.

عبّاس كمّونة الأسديّ

١٣/ ١٢/ ٢٠٢٢

مقدمة المؤلِّف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذا الكتاب هو مجموعة مقالات، ونصوص مقابلات، كُتِبت أو أُجريت في السنوات الأخيرة، وفي مناسبات مختلفة، وعلى الرغم من أنّها كانت تنسجم وبصورة تامّة مع تلك المناسبات خاصّة، فإنّها لم تفقد قيمتها العامة وتحمل في طيّاتها ما هو مفيد ونافع.

ويشتمل الكتابُ على ستة فصول: يتطرّق الفصلُ الأول إلى خصوصيات الكنيسة الكاثوليكية، ونقاط قوتها وضعفها في الآونة الأخيرة. وتعدّ هذه المؤسسة الدينية الاجتماعية من أقدم المؤسسات العالمية وأوسعها، التي تواجه العديد من المشاكل على الرغم ممّا تتوفّر عليه من نقاط القوة أيضاً، التي عادة ما يتم تجاهلها من قبل النقاد. وقد قام البابا الحالي فرنسيس الأول - وما زال- بتغييرات هادئة ولكنّها كبيرة، يمكن عدّها بأنّها من أهمّ الإجراءات التي شهدتها الكنيسة في نصف القرن الأخير وبعد مجمع الفاتيكان الثاني[1]، الذي قام بإصلاحات كثيرة في الكنيسة الكاثوليكية.

وقد أوضحنا في الكتاب سياسة هذا البابا واختلاف منهجه عن منهج آخر اثنين من البابوات اللذين سبقاه، وكذلك الانتقادات الصريحة للكاردينال الإصلاحي الإيطالي المعروف «مارتيني»، كما أشرنا إلى موضوع التنحّي المفاجئ للبابا السابق بنديكيت السادس عشر، وتحدّثنا ما وسعنا المجال من تفصيل وتحليل عن هذا الموضوع، على الرغم من أنَّ تناول هذا الموضوع بشكل دقيق يحتاج إلى تأليف كتاب مستقلّ بذاته.

---

(1) second vatican council (vatican11).

يتناول الفصلُ الثاني بشكلٍ أساس خصائص الفاتيكان وكيفية وضع سياساته، وآفاق التعاون بيننا وبينه؛ ذلك أنَّ التعرف بشكل دقيق على هذا المركز وفهم بواعث قلقه وتحسسه يساعد على إرساء قواعد صحيحة للتعاون الفعّال والمؤثر معه، وهي قضية تستحوذ على أهمية مضاعفة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الإمكانيات الاستثنائية التي تتمتع بها بلادنا، وعلى الرغم من الطبيعة المحافظة التي يتّسمون بها، فإنَّهم راغبون أيضًا بمثل هذا التعاون، وهم يشعرون بأنّه من الممكن قيام مثل هذا التعاون مع إيران، وما يساعد على ذلك المرحلةُ الزمنيةُ التي نمرّ بها، فيما يبدو أنَّ ظروف القرنين الميلاديّين السادس عشر والسابع عشر تعيد نفسها مع بعض الاختلاف بطبيعة الحال، إذا ما أدرك الطرفان طبعًا هذه الظروف.

وتتضاعف إمكانية مثل هذا التعاون في مناسبات حساسة مختلفة يتحسس منها الطرفان، مثل مؤتمر السكان في القاهرة[1]، والملتقيات الأخرى التي نظّمتها الأمم المتحدة في تسعينيات القرن الماضي في كوبنهاغن[2]، وبكين[3]، وإسطنبول[4].

وهناك مناسبات مهمة جدًا تثير هواجس الكنيسة، وتتعلّق بمصير المسيحيّين في المنطقة التي تعرضت لهزّةٍ بعد انطلاق الثورات العربية، بحيث أدّى ذلك إلى هجرة كثير منهم وحتى الآن. إنَّ قيام مثل هذا التعاون بإمكانه أن ينير أفكارَ الرأي العام، ويشكّل ضغطًا على حُماة التكفيريّين الغربيين والإقليميّين، ويعزز مكانة إيران، كونها من أشدّ المعارضين للجماعات والأفكار التكفيرية، وأكثر المدافعين عن بقاء الأقليات الدينية الموجودة في المنطقة. ولكن للأسف لم يحصل مثل هذا التعاون على الرغم من وجود المناخ المناسب له.

أمّا الفصل الثالث، فقد تطرّق إلى العلاقة المتبادلة بين إيران والمسيحيين، بل وجميع الأقليات الدينية في منطقة الشرق الأوسط، ولا سيما بعد الثورات العربية التي

---

(1) International conference on population and devlopment (ICPD), september 1994.
(2) world summit for social devlopment, march 1995.
(3) Forth world conference on women: Action for equality, devlopment and peace, September 1995 .
(4) Second united nations conference on human settlements (HABITAT), JUNE 1996.

عرّضت وجود هذه الأقليات للخطر. ويمكن القول: إنَّ هذا الفصل هو متمم لأبحاث الفصل الثاني.

إنَّ إيران لا تعرف إلى حدٍّ ما تراثها الديني الثرّ، وكذلك الديني الثقافي والديني الفنيّ، ومن ثمَّ، فهي لا توظّف كثيرًا هذه الحقائق؛ لتعزيز لحمتها الوطنية وتقوية علاقاتها بالآخرين، الذين يرحّبون بمثل هذه الأمور؛ ذلك لأنَّنا نشترك مع معظم الأديان – سواء الإبراهيمية منها أو الآسيوية– بالتاريخ والثقافة، فالشهداء المسيحيون المعروفون الأوائل بينهم إيرانيون، قُتلوا في مناطق الإمبراطورية الرومانية، بحيث توجد قبور بعضهم في كنائس مدينة روما. وينطبق هذا الكلام أيضًا على اليهود وأنبياء بني إسرائيل.

وتتجلّى أهمية العلاقة المتبادلة بين إيران والمسيحيين والأقليات الدينية بصورة أكبر، خاصة بعد غزو داعش للعراق واقترابه من بغداد وأربيل، حينما هبّت إيران وبسرعة؛ لنجدة المدينتين من دون قيد أو شرط. هذا التطور قسّم المنطقةَ على قطبين رئيسين، أحدهما: مجموعة أهل السنة بقيادة السعودية وتركيا وقطر، والآخر: إيران ومعها جميع الأديان والمذاهب والطوائف الأخرى، من المسيحية بجميع تشعّباتها، والإيزيدية، والصابئة، إلى الدروز، والعلوية، والزيدية، والإسماعيلية. وبطبيعة الحال، فإنَّ المسيحية استحوذت على أهمية خاصة لأسباب مختلفة، من الأقباط في مصر إلى المارونيين والأرامنة في لبنان، وصولًا إلى الآشوريين والكلدان في العراق، والبروتستانت في عموم المنطقة. وقد حاولنا في الفصل الثالث تسليط الضوء على جوانب من هذه الحقائق.

ويختصّ الفصلُ الرابع بالمسيحية في أميركا اللاتينية، التي كانت مرتعًا للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنَّ المشاكل التي واجهتها هذه الكنيسة، ومواقفها السياسية والاجتماعية قد أدّت إلى تعرّضها إلى هجوم الكنيسة البروتستانتية الأميركية في العقدين الخامس والسادس وما بعدهما من القرن الماضي. والبابا الحالي قبل أن يكون أرجنتينيًّا، فهو ابن أميركا اللاتينية من وجهة نظر أبناء هذه القارة. وقد عمل – وما زال– على تغيير الظروف السائدة كليًا، حتّى أصبح عَمَليًا الشخصية الأولى في هذه القارة، ممّا أدى بدوره إلى إحياء الكنيسة الكاثوليكية.

يتطرّق الفصلُ الخامس إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وتتعلّق معظمها بكنائس بلدان أوروبا الشرقية والبلدان المسيحية، التي كانت مرتبطة بالاتحاد السوفيتي سابقًا. وهذه الكنيسة التي تتسم بسنن شرقيّة قويّة، بسبب جذورها البيزنطية، غير معروفة تقريبًا في إيران، ولكن للأسف، فإنَّ تطورات السنوات الأخيرة، ونمو الجماعات التكفيرية، جعلها تفرّ من التراث الإسلامي والسنن الشرقية، إضافةً إلى ميولها نحو غرب أوروبا، وجهودها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والانصهار في بوتقته.

وفي الوقت الراهن تعدّ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من أهم الكنائس الأرثوذكسية، فمنذ انهيار الكتلة الشرقية ظهرت تكهنات بأن تلعب هذه الكنيسةُ دَورًا مهمًا في إضفاء الهوية على روسيا، وهو ما حصل فعلًا، بيد أنَّ هذا لا يعني نمو الاعتقادات الدينية، بقدر ما يعني القيام بِدَور توضيح ملامح الهوية الروسية بعد مرحلة الشيوعية. الشيء المهم هنا هو كثرة نفوس المسلمين، وخاصة الشيعة من الآذريين في روسيا، ومن هنا وبلحاظ تزايد النموّ السكاني لهم، وتناقص النمو السكاني للروس، فإنَّ المعرفةَ المحايدة لهذه الكنيسة التي تحدد ملامح الهوية الروسية المستقبلية تنطوي على أهمية بالغة، وكذلك كيف تنظر هذه الكنيسة إلى نفسها، وما هي المنزلة التي تضع المسلمين فيها.

أمّا الفصل الأخير من الكتاب، فإنَّه يتناول بشكل رئيس موضوع المتوسط والهجرة؛ وهو موضوع أصبح أحد أهم بواعث القلق، بل أهم التحدّيات للبلدان الأوروبية، وخاصة جنوب أوروبا، وهو حدث مستمرّ تؤثر تداعياته على أوروبا وأميركا وسائر البلدان الصناعية، وعلى البلدان الإفريقية والدول الإسلامية أيضًا. ومن ثمَّ، فإنَّ منطقة المتوسط قد أصبحت محطةً لتناقضات الثقافة والدين والهوية، وتجلّت هذه الحقيقة في الهجرات، سواء المهاجرون الذين حطّوا رحالهم منذ زمن في تلك البلدان وأصبحوا مواطنين، أو المهاجرون الجدد - الشرعيون منهم وغير الشرعيين- الذين يصلون تباعًا إلى هناك. ولا شك في أنَّ جزءًا مهمًا مِن القضايا المرتبطة بالمهاجرين القدماء ناتجة عن موجات الهجرة الجديدة وتبعاتها.

ولا ننسى أنَّ التطورات الحالية من السرعة، بحيث باتت تغيّر الظروف بشكلٍ جذريّ، وفي مدّة قصيرة، بل وقصيرة جدًا، ومهما يكن من أمر فلا بدّ مِن العودة إلى الخلفيات؛ لمعرفة الوضع الموجود حاليًا. وإنَّ جزءًا من هذه المقالات واللقاءات يتضمن فهمًا محايدًا لهذه الخلفيات، على الرغم من أنَّ الأمر في الوقت الراهن قد لا يكون كذلك، وهو ما أوضحناه تفصيلًا.

محمد مسجد جامعي

الفصل الأوّل
الثورة الناعمة في الكنيسة الكاثوليكية[1]

استقالة البابا المفاجئة

مرّت على الكنيسة الكاثوليكية طوال تاريخها البالغ نحو ألفي عام منعطفات كثيرة، أمّا أسبابها، فكانت تختلف حسب المراحل التي مرت بها. وهذه المراحل هي عبارة عن القرون الأولى، والقرون الوسطى، ومرحلة الثورة الصناعية وما بعدها، ثم المرحلة المعاصرة. ويعدّ عام (٢٠١٣) في المرحلة المعاصرة عامًا استثنائيًا، وربّما سيمثل نقطة انعطاف كبيرة فيما يتعلق بالعلاقة بين البابا وأتباعه. في شهر شباط من العام السابق أعلن البابا السابق بنديكيت السادس عشر (١٩٢٧ - ٢٠٢٢)[٢] في خطاب ألقاه لجمع من الكرادلة، أنَّه سيستقيل من منصبه في الثامن والعشرين من شهر شباط/ فبراير، وفعلًا نفّذ ما أعلنه. وهذه الظاهرة تعدّ نادرة جدًا، إذ إنَّ عدد البابوات الذين استقالوا بهذه الطريقة في السابق وعلى طول التاريخ، لم يتجاوز الأربعة، على الرغم من أنَّ هذه الاستقالات لم تكن طوعية مائة بالمائة، بل إنَّ هذه الظاهرة غير مسبوقة لستة قرون مضت على الأقل. وسبّبت استقالةُ البابا المفاجئة صدمةً للجميع، سواء للكاثوليك أو سائر المسيحيين وغيرهم. وتصدّر هذا الخبر في تلك البرهة الزمنية جميع الأخبار الأخرى على مستوى العالم، وشكّل ضربة موجعة حقا للكنيسة الكاثوليكية ومركزيتها، بحيث عجز المتحدّث باسم الفاتيكان عن التوضيح، وتقديم أجوبة عن الأسئلة المتعلّقة بهذا الحدث على الرغم من قدرته الكلامية.

---

(١) مقال نُشِر في قسمين متتاليين، في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٢٨ و٢٩ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٤.

(2) Pope Benedict XVI.

انتخاب بابا مختلف

أمّا الحدث الأهم، فهو انتخاب البابا الجديد فرانسيس (١٩٣٦)[1]؛ كونه شخصًا من خارج أوروبا، ومن العالم الثالث والقاره الأميركية، من نصفها الجنوبي، ومن الرهبان[2] اليسوعيين في الوقت نفسه. فقد كانت شخصيته، وسوابقه، وكلامه، وتعامله، وسيرته، ومواعظه، وشعبيته، وتواضعه، وقدرة تأثيره، وتجاوزه للتقاليد، تختلف تمامًا عن أسلافه، بحيث لم تمرّ مدّة طويلة، حتى حاز على ودّ واحترام الجميع، لتختاره مجلة التايم كرجل العام، وفعلت الشيء نفسه مؤسسات مهمة أخرى، كصحيفة الفاينانشيال تايمز[3]، والاتحاد الأوروبي.

وقد كان هناك تقليد سائد منذ القدم، أن يلقي البابا كلمته للناس يوم الأحد من شرفة الطابق العلوي لمبنى مشرف على ساحة القديس بطروس[4]، كما يستقبل الناس في صبيحة أيام الأربعاء في قاعة «بول السادس» (١٨٩٧ – ١٩٨٧)[5] الكبيرة؛ ليلقي عليهم خطبه ومواعظه.

وبحسب الإحصائيات التي تنشر عن أعداد البطاقات، التي توزع لحضور مراسم أيام الأربعاء، فإنَّ المشاركين في هذه المراسم في غضون تسعة أشهر، بعد انتخاب البابا الجديد، هي أكثر بثلاثة أضعاف من المشاركين في المراسم نفسها لعام (٢٠١٢) كلّه. وهذا لا يشمل الذين يصغون إلى خطابات البابا في خارج القاعة؛ لنفاد كميات بطاقات الدخول. وأيضًا حسب توقعات بلدية روما، فإنَّ أعداد الذين كانوا يستمعون إلى البابا في المدّة نفسها، أيام الأحد في ساحة القديس بطرس، يتجاوز المائة ألف، وهذا ما لا تمكن مقارنته بأيٍّ من العهود السابقة. ففي هذه المدّة استمع إلى البابا أكثر من (٦/ ٦) مليون شخص بصورة مباشرة. وهذا يعدّ تطورًا كبيرًا، بل وكبيرًا جدًا في عالم متطور، قلما تجد فيه أحدًا يرغب في الاستماع إلى المواعظ الدينية. وقبل حصول هذا الشيء لم يكن أحد يتوقع – سواء من بين سلطات الكنيسة أو خارجها– أن يحظى

---

(1) Pope Francis.
(2) Jesuit.
(3) Financial Times.
(4) St.Peter's Square.
(5) Paul VI Audience Hall.

بابا بهذا القدر من الترحاب والاستقبال، وتستقطب مواعظه هذا العدد الكبير من الناس.

فقد كان هناك بشكل عام سوء ظن بالكنيسة الكاثوليكية ومستقبلها، وهذا ما تناولته بدقة الشخصية المعروفة في الكنيسة الكاثوليكية الكاردينال مارتيني (١٩٢٧ – ٢٠١٢)[١]، في مقابلة أجريت معه قبل أيام من وفاته، وكان لها صدى واسعٌ بعد وفاته؛ بسبب سوء الظن العام بالنسبة للكنيسة والكنسيون.

حقيقة الأمر أنَّ هذه القضية تنطوي على أبعاد مختلفة، ولا يمكن تحليلها بهذه السهولة. ولأهمية الموضوع سنطرح هنا بعض النقاط، وهي بطبيعة الحال ليست إلا جانبًا من هذه الأبعاد، ولا بد من دراسة الموضوع مع ملاحظة السياق التاريخي والديني، ومسار تطور الكنيسة الكاثوليكية.

والسؤال الذي يُعرض هنا هو: ما خصوصيات شخصية البابا الجديد وسلوكه وأقواله، مقارنةً بأسلافه، بحيث حظي بمثل هذه الشعبية؟ وهناك أسئلة كثيرة أخرى لا يمكن التوصل إلى الجواب المطلوب من دون الاهتمام بها، لكنَّ من الأفضل الآن معالجة السؤال الرئيس الذي طرحناه.

الحاكم والأسقف

كانت الكنيسة وعلى مدى ثلاثة قرون محظورةً، وتعمل في السر في محيطها الأصلي، التي كانت تخضع غالبًا للإمبراطورية الرومانية، غير أنَّه حصلت في بدايات القرن الميلادي الرابع انفراجةٌ، وأصبحت المسيحيةُ الديانةَ الرسميةَ للإمبراطورية. وبالتزامن مع هذا التطور، انتقلت عاصمةُ الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية؛ لكنَّ روما بقيت على مكانتها الدينية؛ كونها مركزَ الكنيسةِ، حتى أواخر القرن الرابع، حينما اعترف الأساقفةُ بالعاصمة الجديدة القسطنطينية.

ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف، أن يحتل البابا مقامَ الشخصية الأولى في روما ودائرتها الجغرافية الواسعة، التي كانت تشكّل الجزءَ الغربي من الإمبراطورية. وقد ارتفعت مكانةُ البابا والمؤسسات التابعة له، بعد سقوط روما في مواجهة برابرة

(1) Carlo Maria Martini.

الشمال في القرن الخامس؛ وذلك لانقطاع العلاقة بين روما والمناطق الغربية من أوروبا عمومًا مع القسطنطينية، وبقيت الكنيسةُ - متمثلةً بشخصية البابا- المؤسسةَ الوحيدة المعتبرة والواسعة.

استمر هذا الوضع لقرون طويلة، على الرغم من أنَّ الملوك أو الحكّام المحليين برزوا في أقاليم صغيرة أو كبيرة، لكن مع ذلك بقي البابا والمؤسسة الكنسية على مكانتها، بل ربّما ارتقت هذه المكانة؛ لما كانت تمثله هذه المؤسسة دينيًا ودنيويًا، على الرغم من أنَّ هذه المكانة كانت تختلف كثيرًا عمّا كان موجودًا في القسطنطينية، وفي إطار إمبراطورية الروم الشرقية أو المسيحية، الموجودة في المحيط الإسلامي.

إنَّ ما يتعلق ببحثنا هذا، هو أنَّ المؤسسة الكنسية اكتسبت في المحصلة صفات دنيوية وملكية وترفية، وفقًا لما أملته متطلبات الزمن. وهذه الحالة انتشرت في مناطق حضور البابا وحكمه، أمّا في المناطق الأخرى خارج نطاق سلطته، فكانت هناك على الدوام سلطتان: «دنيوية» و«دينية- دنيوية». فالحاكم والأسقف كانا دائمًا مع بعض، سواء في العاصمة، أو في المدن الأخرى، بل حتى في القرى أحيانًا، فإلى جانب البلاط أو القصر الملكي أو قصر الحاكم، كان هناك قصر آخر يتعلق بأسقف المنطقة والمدينة. وإلى جانب البلاط ومقرّ عمل الملك أو الحاكم المحلي، كانت هناك كنيسة كبيرة وفخمة، تعدّ الكنيسة العامة للمدينة، إلى جانب كونها مقرًّا لنشاطات الأسقف. ومثلما كان للحاكم منطقةٌ خاصةٌ تخضع لحكمه، كان لكل أسقف أيضًا منطقةٌ جغرافيةٌ تخضع لتوجيهاته.

وكنتيجة لهذه الظاهرة، والتي كانت في بعض الأحيان خارج إرادة البابا وأصحاب الكنائس، أنِ اصطبغتِ المؤسسة الدينية في داخلها بحالة مَلكية، وهيمنت على كل جوانبها. بل أصبح في بعض الأحيان مقرُّ عمل الأسقف أو محلّ سكنه، أكثرَ فخامة من مقرّ عمل الحاكم المحلي ومحل سكنه، وأكثر ارتفاعًا منه وهو ما ينطوي على معنى كبير، بل كان في بعض الأحيان مثيراً للريبة والتساؤل.

ولم يقتصر الأمر على المبنى وحسب، وإنَّما ينسحب على جميع القضايا، من اللوحات، والمقتنيات الثمينة الموجودة في هذه المباني، والألبسة والأجهزة، والتحف، ووسائل الزينة، والطعام، ولوازم الطبخ والشراب، وما إلى ذلك. ومعظم اللوحات المتبقية حاليًا تعود إلى العهود التي سبقت الثورة الصناعية بقليل، وما بعدها. ويلحظ

في جميع هذه اللوحات الأسقف، وهو يرتدي أفخر الثياب، ممّا تمكن مشاهدة الفارق الكبير بين ما كان يرتديه، وما كان يلبسه عامّة الناس. مضافًا لذلك، فإنَّ نظرته إلى الحضور وملامح وجهه تكشف عن علاقة غير ودية، بل فوقية في التعامل. فهناك العديد من اللوحات، التي تبين الفقراء على عتبة بوابة الكنيسة بلباسهم البالي، وهم يتوسلون إلى الأسقف المساعدةَ، في حين أنّه يمر من أمامهم من دون مبالاة.

بطبيعة الحال، فإنَّ الكنيسة بكليتها لم تكن على هذه الشاكلة، فما قلناه ينطبق على المسؤولين الرسميين للكنائس. وهنا لا يمكن تقديم تعريف دقيق لمعنى السلطات الرسمية، والهيكلية الرسمية للكنيسة، وطبيعة العلاقة الداخلية بين المذهب الكاثوليكي وتشكيلاته، ولكن يمكن القول عمومًا: إنَّ هذه المجموعة تمثل جزءًا من المنظومة الكنسية.

الطرق المسيحية

الجزء الآخر هو عبارة عن الطرق المختلفة التي ظهرت على مدى التاريخ وفقًا للظروف، وشكّلت تجمعات منظمة، اتخذت من الرهبنة عنوانًا لها. وعلى الرغم من أنَّ هذه التجمعات كانت تعيش في مقرات خاصة بها، فيما كان بعضها يمارس نشاطه الخاص، فإنَّها كانت تحظى بالشعبية وتعيش حياة الفقراء. هذه المجموعات كانت تمارس الأعمال التبشيرية والخدمية والتعليمية والعلاجية والإنسانية، ممّا جعل حياة الكنيسة الكاثوليكية مدينة إلى هؤلاء إلى حدّ كبير.

فالكنيسة الكاثوليكية من دون هذه المجموعات واجهت مشاكل كثيرةً، خاصة بعد مرحلة الثورة الصناعية. وهي التي أوصلت المسيحية إلى أقصى نقاط العالم، ونقلتها إلى المناطق المكتشفة بعد الاكتشافات الجغرافية الواسعة في القرن الخامس عشر، ولا سيما اكتشاف القارة الأميركية، وقامت بعملية التبشير حتى اليوم، إذ تعدّ الأكثر نشاطًا في مجال العلاقات بين الثقافات وبين الأديان.

يجب القول هنا: إنَّ واحدة من إنجازات الإدارة لدى هذه الكنيسة، هي الجمع بين هذه الطرق والأفراد، وبين الشخصيات الكنسية الرسمية. وعلى الرغم من النزاعات التي حصلت بين هاتين الفئتين على طول التاريخ، فإنَّهما تعايشا مع بعض بما يكمل بعضها الآخر، وهي حالة لم نرَ مثيلها في الشرق إلا ما ندر.

ردود الفعل حول بذخ الكنيسة

ما ذكرنا أعلاه استمر في عهد الثورة الصناعية وما تلاها، خاصة بعد أن حصلت الكنيسة الكاثوليكية على إمكانيات مادية جديدة بفضل اكتشاف القارة الأميركية، ونقل الذهب إلى إسبانيا والبرتغال، اللتين كانتا تخضعان للبابا. ولم يستطع تيار الإصلاح الديني والبروتستانتية الأوروبية من إيجاد تغيير في هذا المنهج. بل يمكن القول: إنَّ الكنيسة الثرية بذهب أميركا الجنوبية، استغلت الإبداعات الفنية والمعمارية المنبثقة عن الثورة الصناعية، واتخذت منهجًا أكثر بذخًا وترفًا من الماضي. فقد تشبّعت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا بعد الثورة الصناعية بفنون تلك المرحلة، أكثر من أيّ مؤسسة أخرى.

وقد شهدنا أول رد فعل واسع ضد هذه النمطية من حياة الترف من قبل الثورة الفرنسية الكبرى. فهذه الثورة – وقبل أن تكون ضد الملك يومذاك وهو لوييس الرابع عشر[١] وزوجته التي كانت تعيش حالة البذخ- جاءت؛ لتطيح بالأشراف وتقارع صفة الترف، وربّما كان هذا هو السبب الرئيس؛ لإعدام أكثر من سبعمائة شخص من الأساقفة طوال هذه الثورة، ومصادرة أموال الكنيسة.

وبعد تراجع الحرارة والاندفاعة الثورية، تم إصلاح العلاقة بين الكنيسة والحكومة الفرنسية، وشعر الفرنسيون الذين كانوا في بدايات تحركاتهم الاستعمارية بالحاجة إلى الكنيسة. والطريف هنا أنَّ الفرنسيين كانوا ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أهم سلطة أوروبية تدافع عن حقوق الكاثوليك خارج أوروبا[٢].

فلم تؤدِ مواقف الثورة الفرنسية إلى إيجاد تغيير معين في المنطق السلوكي للكنيسة، خاصة خارج فرنسا، حتى هبت رياح الأفكار الاشتراكية والماركسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وباتت تشكّل أمواجًا أكثر قوة وعصفًا، حيث كان قطّاع كبير من الثوار هم من عمال المناطق الصناعية والتشكيلات المنظمة، بعكس الثورة الفرنسية التي كان معظم ثوارها من الطبقة الوسطى، ولهذا تحولت أفكارهم

---

(1) Louis XIV.

(٢) قال لي سفير الفاتيكان السابق لدى طهران الأسقف كوبل jean-paul gobel: في ذروة النقاش حول علاقة الدين بالدولة، وموضوع العلمانية في البرلمان الفرنسي في العقد الأول من القرن العشرين، قال وزير الداخلية: ((إنَّ هذا النقاش، وفصل الدين عن الدولة ليس للتصدير))؛ كناية على أنَّ جميع هذه النقاشات هي قضايا داخلية، ولا نعمل بها في الخارج.

ومعتقداتهم إلى تيارات اجتماعية وسياسية.

إنَّ طبيعة اعتراض ثوار الثورة الكبرى، واليساريين على الكنيسة الكاثوليكية، لم تكن واحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى النصف الأول من القرن العشرين، فلكلّ كانت له مواقفه وأفكاره وانتقاداته الخاصة. لكنَّ كليهما كان له موقفه الناقد لسلوك الكنيسة والمؤسسة الكنسية وشخوصها الرسميين في البذخ والترف. بل كانا يعترضان بشكل عام على حالة الترف التي كانت سائدة حينذاك. أمّا الكنيسة، فكانت تعدّ انتقادات الفرنسيين هي بمثابة انتقادات أبنائها، لكنَّها تنظر إلى اعتراض اليسار بشكل آخر، ممّا دفعها لاتخاذ رد فعل إزائه. وقد انتقل رد الفعل هذا في أواخر القرن التاسع عشر إلى دائرة الفكر الديني، بحيث كتب البابا يومها رسائل في هذا الموضوع.

وتأثرت بعض الفئات الدنيا من الكنيسة الكاثوليكية بالفكر اليساري مع اتساعه في العقود الأولى من القرن العشرين وانتشاره بين الناس؛ لنشاهد ظاهرة تحت عنوان «القس العامل»، وهو القس الذي تقبّل فكرة العمل، وكان يمارسه إلى جانب أقرانه في المناجم والمصانع وغيرها من المراكز الصناعية، إلا أنَّ هذه الظاهرة لم تغير من سلوك الطبقات العليا من الكنيسة.

وبينما كانت هذه الطريقة في البذخ تؤول إلى الضعف والزوال، كانت أوروبا تتقدّم نحو نوع من الاشتراكية غير الحكومية، فيما تلاشت ظاهرة الأشراف بشكل أو بآخر كطبقه اجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية. بل يمكن القول: إنَّها انتهت بعد الحرب العالمية الأولى؛ إذ انتهى دور الملوك والأباطرة الأشراف من قياصرة روسيا وحتى أباطرة النمسا والمجر[1]. ومع وقوع هذه التطورات، إلا أنَّ الكنيسة الكاثوليكية كانت متأخرة وبطيئة في الخروج من هذه الطبيعة والحياة المترفة. وكمثال على ذلك البابوات الذين كانوا يتبوؤون أعلى المناصب الدينية، كانوا كالأباطرة الذين تخلوا تدريجيًا عن التقاليد والطقوس الإمبراطورية، في حين كان نظراؤهم قد فعلوا الأمر ذاته، ولكن قبلهم بمدّة. ومن المناسب أن نذكر بعض الأمثلة هنا.

---

(1) Habsburg.

أوّل بابا شعبي

يعدّ يُوحنَّا الثالث والعشرين[١] أول بابا سعى إلى التخفيف من حدة هذه التقاليد الثقيلة، والتقرب إلى عامة الناس قدر الإمكان، والتحدّث إليهم عن قرب؛ ولهذا السبب أصبح أحد أكثر البابوات شعبية في القرن العشرين. وقد التقيت شخصيًا في إيطاليا بالكثير من كبار السن، الذين يتذكرونه جيدًا، ويكنّون له الاحترام التام، على الرغم من مواقفهم السلبية من الفاتيكان.

فقد كان سائدًا في الفاتيكان بأن يختبئ بستاني الفاتيكان الذي يرعى حدائقه، عندما يتمشّى البابا في أروقة الحدائق؛ لكي لا يكون سببًا في تشتت أفكاره. أمّا البابا بولص الثالث والعشرين في الأيام الأولى لحضوره في الفاتيكان، فقد انتبه لهذه الظاهرة وهو يتجول في أحد الأيام في الحديقة، فدعا البستاني إليه وتحدّث معه، ومن يومها لم يعد البستاني يختبئ عن البابا.

المثال الآخر يرتبط بيُوحنَّا بولص الأول[٢]، فقد تقلّد البابوية لشهر أو أكثر قليلًا وسرعان ما أصبح محبوبًا لدى الناس لخصوصياته الأخلاقية وتواضعه، حتى عدّ بعضهم وفاته المفاجئة بأنَّها نتيجة مؤامرة دُبِّرت له؛ بسبب سلوكه وتواضعه. وقد ألغى هذا البابا وإلى الأبد تقاليد التتويج الباهظة للبابا بعد انتخابه.

وأخيرًا، يُوحنَّا بولص الثاني[٣]، الذي ألغى جلوس البابا على العرش الوثير، فقد كان سائدًا قبل ذلك أن يُحمَل البابا من قبل أربعة أشخاص أقوياء وهو جالس على الأريكة. وهناك أيضًا أمثلة كثيرة حول محاولات الكنيسة للتخفيف من الأعباء والانطباق في سلوكها مع مقتضيات الزمان. وفي غير ذلك كانت الكنيسة من دون شك ستواجه الكثير من المشاكل إلى يومنا هذا.

بقايا الحالة الترفية

حقيقة الأمر أنَّ ما عبّرنا عنه بتخفيف القيود عن الكنيسة لا يشمل جميع المنظومة الكنسية الكاثوليكية الرسمية، فلم يحصل هذا الأمر في جميع مفاصلها؛ وذلك لأسباب

---

(1) Pope John XXIII.
(2)Pope John Paul I.
(3) Pope John Paul II.

عديدة، منها يعود إلى عادات وأخلاق الشخصيات الكبرى في الكنيسة، ومنها إلى الظروف التي لم تكن تسمح بإجراء مثل هذه التغييرات، وتقف عقبة أمام وقوعها.

يعدُّ الأساقفةُ الأشخاصَ الرئيسيين في الكنيسة الكاثوليكية، ويقطنون في العادة في مبانٍ يعود بعضها إلى القرون الوسطى، ومعظمها يتعلق بمرحلة ما بعد الثورة الصناعية، وهي مبانٍ فاخرة وفخمة وجميلة وهي في الحقيقة آثار ذات قيمة تاريخية.

ولا يقتصر الأمر على السكن، وإنَّما يتعداه إلى مستلزماته، فالأشياء الموجودة في هذه المباني من النوع الفاخر والثمين، وقد لا تجدها في مكان آخر؛ لذا فإنَّ هذه المساكن أشبه ما تكون بمتحف فاخر أكثر من كونها محلًا للسكن، وعلى الأسقف أن يسكن ويمارس عمله فيها. ولمّا كانت مثل هذه الأماكن تحتاج إلى الخدم لنظافتها وترتيبها، فإنَّ الراهبات كُنَّ يقمن بهذا الدور في العموم.

ولا ريب في أنَّ هذه الطريقة من المعيشة، لها تبعاتها النفسية والأخلاقية والسلوكية، إلا أنَّ الكثير من الأمور في الحقيقة لم تكن بإرادة الأسقف نفسه، فكان عليه أن يعيش في مثل هذه الظروف التي تختلف كثيرًا عن الحياة الاجتماعية المعاصرة.

إنَّ حياة هؤلاء الأساقفة كانت في المستوى المتوسط بقدر ما يتعلق الأمر بهم، بمعنى أنَّهم كانوا يستعملون الأطعمة وضرورات الحياة ممّا تستعمله الطبقة المتوسطة من الناس، لكنَّ مساكنهم كانت تتوفر على الإمكانات الكبيرة الفخمة، ممّا يخلق تناقضًا بين الحالتين. وقد لمست شخصيًا ومرارًا وعن قرب معيشة هؤلاء الأساقفة والكرادلة في المدن المختلفة، حينما كنت أحلّ ضيفًا عليهم أثناء مهمتي في الفاتيكان، إذ كانت الأطعمة التي يتناولونها، وحتى وسائط النقل بمستوى الطبقة المتوسطة في المجتمع لا أكثر. كذلك كان مستوى معيشة الكرادلة العاملين في الفاتيكان الذين يعدّون بمثابة الوزراء في «الكوريا الرومانية»[١].

(١) Roman Curia هو الجهاز التنفيذي في الفاتيكان.

المنطق السلوكي

هنا تكمن المشكلة الرئيسة، وهي القضية التي كانت توجه لها انتقادات شديدة من قبل اليسار في الماضي، وتواجه اليوم انتقادات من رجال الكنيسة أنفسهم مثل الكاردينال مارتيني، سواء كانت متعلقة بالأسقف أو الكاردينال أو بالقس أحيانًا، أو بالكنائس الفخمة، التي لا يشعر الجيل الجديد في داخلها بالعلاقة الحميمة والتفاعل في الدعاء، الذي يجب أن تتوفر عليه البيئة الدينية، فهو ينظر إليها بمشاعر كلها إعجاب، لكنَّها خالية من البعد الديني المطلوب. وهذا لا يعود إلى غياب العقيدة عن الناظر، إنَّما هذه الأبنية لا تلهمه شيئًا، بل يمكن القول: إنَّها غريبة عليه من الناحية المعنوية. ويوضح مارتيني هذه النقطة بشكل صريح في مقابلته الأخيرة التي نشرت تحت عنوان «متخلفون عن الزمان مائتي عام».

إنَّ القضية التي ترتبط بالأشخاص والسلوك، وكيفية التعاطي بين الكنسيين وعامة الناس هي خارج إرادتهم إلى حد ما، إنَّما هي نتيجة طبيعية للمعيشة والعمل في تلك المباني والمقرّات، التي تنتج مثل هذه الأخلاق والسلوك، بل وتعيد إنتاجها أحيانًا. أقول تعيد إنتاجها، بدليل أنّ السنن الموروثة من الماضي توضح سلوك رجال الدين الكاثوليك وتحدده إلى حد كبير، من دون أن يستطيع أحد تجاوزها وتخطيها إلا ما شذ وندر.

بل إنّ شخصية بارزة مثل الكاردينال مارتيني الذي يعدّ من أهم المنتقدين المعاصرين، كان يعمل ويمارس سلوكًا مماثلًا لسلوك أقرانه. غير أنَّ ما اختلف فيه عنهم أنَّه كان متبحّرًا في الكتاب المقدس والأيام الأولى للمسيحية، وصاحب ذوق حسن في إعادة تعريف مفاهيمها بلغة العصر، ما جعله يكسب شعبية في نطاق أبرشيته في ميلانو، حتى بلغ عدد الحاضرين لجنازته يفوق المائتي ألف شخص، ولا يعود سبب هذا التقدير من قبل المثقفين بشكل أساس إلى سلوكه المتواضع، وإنَّما إلى قدراته العلمية والفكرية.

ثلاثة بابوات وثلاث مقاربات مختلفة

هنا نقاط كثيرة ترتبط، خاصة بكيفية القيادة التي اعتمدها البابا يُوحنَّا بولص الثاني والبابا بنديكيت السادس عشر؛ ذلك أنَّ توقعات الناس من الكنيسة المعاصرة متأثرة بشكل كبير من زعامة هذين البابوين. وبشكل إجمالي يمكن القول: إنَّ هدف البابا الأسبق هو الارتقاء بمكانة الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان على المستوى العالمي والدولي، فقد أراد لها أن تصبح مركزًا سياسيًا ودينيًا مؤثرًا على المستوى العالمي. وقد اشتدّ هذا التيار، خاصة بعد تفكك الكتلة الشرقية، إذ كان له دور كبير في الإعداد لمقدّمات هذا التفكك، وعلى ضوء ذلك يمكن فهم الأهداف التي كان يتوخاها في عقد التسعينيات من القرن الماضي، فهو كان يبذل جهدًا متعدد الأهداف، منها: السعي لإلحاق دول الكتلة الشرقية، ولا سيما بولندا إلى الاتحاد الأوروبي، والسعي لتطوير وتنشيط العلاقة مع الكنائس المختلفة عبر زيارتها، وخاصة الكنائس الأرثوذكسية، ولكن على الرغم من إبداء رغبته الكبيرة لزيارة الكنائس المصرية والكنيسة الأرثوذكسية الروسية، فإنَّ هذه الكنائس لم تسمح له بذلك.

وبعكس ذلك كانت لبنديكيت السادس عشر سياسة انقباضية، وكان يقول بغموض: إنَّنا يجب أن ننصرف إلى شؤوننا الداخلية، ونقوي عُرَى كنيستنا من الداخل، ما يعني اتخاذه مقاربة مختلفة تمامًا عن يُوحنَّا بولص الثاني، إلا أنَّ جهله بالحقائق الاجتماعية؛ لانصرافه إلى التدريس طوال حياته وتزعمه مجمع عقيدة الإيمان[١] في الفاتيكان، وعقده الكلامية، جعل من الكنيسة الكاثوليكية تعيش حالة من الانطواء، حتى بين مريديه ومواطنيه من الألمان[٢].

---

(1) Congregation for the Doctrine of the Faith.

(٢) قال لي مرة المنظّر المعروف في الإلهيات الحرّة ليونـاردو بـوف leonarda boff: ((استدعوني إلى روما لمناقشة نظرياتي الدينية، وتم الاتفاق على التحدّث مع الكاردينال راتسينغر. استمر الحوار طويلًا، ليقرر أخيرًا نزع الزيّ الديني الذي ارتديه، فقلت له في النهاية: يا حضرة الكاردينال! إنَّك تعيش وتعمل لسنوات في داخل الفاتيكان، في حين أنا أعيش بين فقراء ساوباولو sao paulo الذين يعانون الفقر المادي والفقر الثقافي والأخلاقي والديني؛ إنَّنا لا يمكننا أن نفهم بعضنا الآخر)).

المسألة الأخرى حول راتسينغر هي أنَّ المعيار لديه في حقانية الكنائس المختلفة الموجودة في المسيحية حاليًا هو قربها أو بعدها عن أسس الكنيسة الكاثوليكية. ووفقًا لهذه الرؤية فإنَّه يعدّ الكنائس البروتستانتية، ومنها الكنيسة اللوثرية، أنَّها ليست بكنيسة، وإنَّما عبارة عن تجمع للأفراد المؤمنين. وولّد هذا الكلام خاصة استياءً بين اللوثريين الألمان، بينما مثل كلامًا غامضًا لدى الكاثوليك الألمان، الذين عبّروا عن فرحهم الشديد في بداية انتخابه لكونه ألمانيًا.

في مثل هذه الظروف حل البابا الجديد في الكنيسة، حاملًا معه شخصية مختلفة تمامًا من حيث الأداء والسوابق. واستطاع من طريق الإجراءات الثورية والجادة القفزَ على المشاكل المتعددة، والوصول إلى الناس إلى حد الاندماج والغرق في صفوفهم. ولم يصدق الناس في بداية الأمر هذا الشيء إلا أنَّهم سرعان ما واجهوه بالحفاوة نفسها.

فهو كان أسقف بوينس آيرس[1] في الأرجنتين، وقد وصل إلى مرتبة الكاردينال عام (٢٠٠١)، لكنّه كان يتمتع ومنذ البداية بشخصية شعبية؛ فقد تخلى عن مقرّ إقامة الأسقف الفخم في العاصمة، واختار شقة من غرفتين، إحداهما للاستراحة والأخرى لاستقبال المراجعين. وكان شأنه شأنَ المواطن العادي يستقل الحافلة والمترو، ويعيش مع الناس، ويرتبط معهم، ويحمل همومهم ومشاعرهم. ومن الطريف أنَّه كان من أنصار الفريق المعروف «سن لورنزو»[2]، ومن مشجعيه في الملاعب، بل إنَّه استقبل أعضاء هذا الفريق مرة، حتى بعد أن تبوأ منصب البابا.

وهنا لا بد أن نشير إلى أنَّ ما قلناه أعلاه يتعلق بأوروبا وحسب، لا بالمناطق الكاثوليكية الأخرى ومنها أميركا اللاتينية؛ ذلك أنَّ لكنيسة أميركا اللاتينية وأصحابها حكايةً أخرى مختلفة عن أوروبا في جميع الأبعاد.

إنَّني شخصيًا لا أعرف البابا الجديد كما كنت أعرف سابقَيه عن قرب، إلا أنَّني تعرفت أثناء مهمتي على عدد من القساوسة والكرادلة المنحدرين من أميركا اللاتينية، فهم يختلفون عن أقرانهم الأوروبيين بكونهم أكثر صميمية وبعيدين عن التكلف – ويصح هذا أيضًا على دبلوماسييهم- ولا يعانون من تراث الكنيسة الأرثوذكسية الأوروبية الثقيل.

فبعد انتخابه، لم يذهب إلى مقرّ إقامته الملكي المخصّص للبابا، وبقي في الفندق الموجود في الفاتيكان الخاص بالشخصيات الكنسية، التي تأتي إلى روما من مناطق أخرى، كما أنّه لم يقبل الصليب والخاتم الذهبيين المخصصين للبابا مكتفيًا بصليبه وخاتمه الشخصيين. ولكنّ الأهم من ذلك هو طريقة تعامله وسلوكه مع الناس، إذ يتقرب إليهم من دون أيّ تكلف، خاصة المرضى والمعاقين، وبعضهم بمظهر غير مناسب أبدًا، ويحتضنهم ويقبلهم، وهذه الطريقة من التعامل غير مسبوقة، فبينما كان

(1) Buenos Aires.
(2) San Lorenzo.

البابا في السابق يحاط برجال الحماية والأمن عندما يقترب من الناس، ويتعامل معهم بتكلف شديد، كان هذا البابا يعاشر الناس بنحو حقيقي غير متصنع[١].

وهذا ينطبق أيضًا على كيفية كلامه، إذ يتصف بالبساطة والأريحية، بينما جرت العادة أن يخطب البابا لدى انتخابه في الناس، ويختار قبل ذلك لنفسه لقبًا، اختار البابا الحالي - ولأول مرة في التاريخ- لقب «فرانسيس» أو«فرانشسكو»[٢]، وهو اسمُ مؤسسٍ لطريقةٍ بهذا الاسم، وهو راهب عاش قبل سبعة قرون، ناذرًا حياته لخدمة الفقراء والعاجزين، قائلًا إنَّ فرانسيس هو شخصيته المفضلة متخذًا من اسمه لقبًا له.

السائد أنَّ البابا وحين يجري انتخابه، يختار عبارات تقول: إنَّ الإله يمنحكم البركة والسلامة، ويحيطكم بالصفح والرحمة، لكنّ فرانسيس قال فجأة: ((ليلة سعيدة))، ممّا أثار استغراب الجميع، ثمّ قال: ((إنَّ مجلس الكرادلة اختارني بعنوان أسقف روما))، ولم يقل بعنوان البابا. هذه الأمور كلها أظهرت ومنذ البداية أنَّه شخصية مغايرة، وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد.

يقول أحد أصدقائي، وهو قسيس إيطالي عالم، وكبير في السن، وكثير التجربة: إنَّ فرانسيس قام وبعكس أسلافه بالإجراءات بنفسه وبدأ بها. فمن عادة البابوات أن يكتبوا الرسائل الرسولية أو الرسائل المختلفة البابوية، ثم يطلبوا من الكنيسة تنفيذها وتحقيقها، غير أنَّ فرانسيس تحدّث إلى الآخرين من طريق أفعاله، كيف يعملون ويعيشون ويبلّغون.

وبهذه الطريقة تعامل مع القضايا المعقدة والغامضة، والفساد المالي والإداري، وربّما الأخلاقي داخل الفاتيكان. وهذه المشاكل تكدست في السنوات الأخيرة ليُوحنَّا بولص الثاني؛ لأنَّه كان مريضًا بشدة، وعلى الرغم من إصرار بعض حاشيته، فإنَّه كان يرفض التنحي رغم عجزه عن إدارة المجموعة؛ لهذا، فإنَّ الإشراف على الأمور الداخلية أصبح ضعيفًا جدًا.

---

(١) على الرغم من أنَّ البابا بنديكيت السادس عشر شخص مرن وخلوق وخجول، فإنَّه عندما كان يصافح الآخرين باليد اليمنى يضع اليد اليسرى حائلًا أمام الطرف المقابل؛ حتى لا يقترب منه أكثر من اللازم، مثلما هو الحال لدى أشراف أوروبا وأفراد الأسرة الملكية البريطانية. وهذه العادة ما زالت موجودة حتى الآن بين الطبقات العليا في أوروبا.

(2) Francesco.

وبعد انتخاب راتسينغر[١] بنديكيت السادس عشر، توجهت الأنظار إليه لإصلاح الأوضاع بسبب حضوره الطويل في الفاتيكان واطلاعه على مشاكله، إلا أنَّ ذلك لم يحصل، بل أضيفت إلى المشاكل الموجودة مشاكل جديدة، بحيث تسرب بعضها إلى خارج الفاتيكان، وتناولته وسائل الإعلام ممّا لم يسبق له مثيل أن تناول الإعلام القضايا الداخلية للفاتيكان إلى هذا الحد. وكانت الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان في أدنى مراتب الشعبية، حينما تنحى راستينغر عن المنصب. إنَّ ما فعله فرانسيس لمواجهة هذه المشكلات شيء جذاب بحد ذاته، وهو ما سنتحدّث عنه في مناسبة أخرى.

روح عصرنا

على الرغم من كل هذه الملاحظات، فإنَّه تجب الإشارة إلى حقيقة أخرى، وهي أنَّ عالمنا شهد تغييرات واسعة، خاصة في العقدين الأخيرين، وينظر في إيران إلى هذه التغييرات من الزاوية السياسية البحتة؛ لهذا لا يوجد في العموم إدراك صحيح لطبيعة هذه التحولات وأبعادها.

خذ على سبيل المثال حدث وفاة مانديلا[٢]، الرجل الأسود الذي كافح العنصرية في نظام عنصري، ثم وصل إلى سدة الرئاسة، فقد كانت ردود الفعل العالمية والبلدان الغربية خصوصًا على وفاته واسعةً جدًا، ولم تقتصر هذه الردود على الحكومات والدول، وإنَّما امتدت إلى عامة الناس، بل حتى قادة الدول الذين كانوا يدعمون النظام العنصري بقوة، شاركوا في مراسم تشييعه ودفنه.

وقامت شركة أبل التي تعدّ واحدة من أشهر الشركات على مستوى العالم، بعرض صورة مانديلا فقط، وعلى مدى أيام في صفحتها الرئيسة على الإنترنت بعد وفاته، في حين تعدّ شركة أبل شركةً تقنية خاصة تطورتْ بفضل العلم والتكنولوجيا، ونمت وتفوقت بشكل سريع ممّا لا يمكن تصوره.

مثل هذه الأحداث لم يكن بالمقدور تصورها إلى زمن قريب؛ ذلك أنَّ التعامل مع السود كان بصورة أخرى، وكانوا على هامش المجتمع الدولي حقًا. أمّا العنصرية، فلم تكن موجهة ضد السود وحسب، وإنَّما ضد كل الذين كانوا يصنَّفون على أنَّهم

(1) Joseph Ratzinger.
(2) Nelson Mandela.

خارج طبقة النخبة في عالم الأمس.

فقد كان يُكتَب على واجهات الكثير من المطاعم في ألمانيا وهولندا وبلجيكا حتى أوائل ستينيات القرن الماضي «ممنوع دخول الكلاب والإيطاليين!»، والمقصود بهم المهاجرون الإيطاليون الذين دخلوا تلك البلدان من أجل العمل. ومثل هذا التعامل، بل وأشد منه كان يجري مع المواطنين القادمين من البرتغال وإسبانيا واليونان، وكذلك مع الإيرلنديين الذين يهاجرون إلى إنكلترا. إلا أنَّ كل هؤلاء أصبحوا الآن ضمن الاتحاد الأوروبي.

إنَّ مثل هذا العالم لم يعد يطيق السلوك الأشرافي لأرباب الكنيسة. وهنا يكمن السر في النجاح الباهر الذي حققه فرنسيس، فقد اتسم سلوكه بالبساطة والتواضع والبعد عن التكلف والتصنع الذي كان جزءًا من ثقافة الماضي؛ وقد جاء إلى الميدان في الوقت المناسب.

من القضايا المهمة التي تطرح هنا هي الاتجاه الذي ستذهب به الكنيسة الكاثوليكية تحت زعامته، وهو أمر مهم، سواء للعالم المسيحي أو العالم الإسلامي وللأديان الأخرى أيضًا، بل لكل المجتمعات في العالم[1]. ومهما يكن، فإنَّ النجاح الذي حققه في مدّته الأولى يثبت الكثير من الحقائق، ومنها أنَّ العالم على شفا تحولات كبرى بدأت من الأسفل؛ لتترك تأثيرها على المستويات العليا.

إنَّ هذا الأمر هو الذي أرغم الكثير من الشخصيات الكنسية، التي لا توافق البابا في سلوكه على التزام الصمت، فثمة الكثير من رجال الكنيسة، لا يوافقون منهجه وأفكاره، لكنَّهم لا يستطيعون التحرك ضدها؛ للقبول الذي حظيت به لدى شريحة واسعة من الناس. ويبدو أنَّ يُوحنَّا بولص الأول كان يعاني من المشكلة نفسها، إلا أنَّ الزمن لم يكن في صالحه، ولهذا قصرت مدّة زعامته للكنيسة، وربّما قُضي عليه من قبل معارضيه كما يقال.

(١) قد يواجه المسلمون مشاكل كبيرة بلحاظ ما يمرون به الآن، ففي سوريا وبعض الدول التي شملها الربيع العربي عنفٌ وأعمال بربرية، وبلحاظ التغييرات التي يشهدها العالم ومن مصاديقها صعود البابا الحالي، سواء كانت هذه المشاكل ترتبط بكرامتهم ومنزلتهم، أم ترتبط بحفظ أبنائهم وشبانهم، وقدرتهم على إبقائهم أوفياء لديانتهم وتراثهم.

علی أيّ حال، فإنَّ هذه التجربة تخضع للتأمل والتحليل، ويمكن أن تشكّل عبرة للجميع، ولفهمها يجب أن تدرس بشكل محايد يراعي ما هو مطلوب. وربّما كان أحد هذه الدروس المستقاة منها هو أنَّ الدين والاتجاه الديني ما يزال حيًا وحاضرًا وفعّالًا، على الرغم من كل ما كُتِب عن ذلك بعد انهيار الكتلة الشرقية. أمّا تجاهله، فهو ليس هروبًا من أصل الدين، إنَّما يعود إلى عدم شعبية المُنادين به، وعدم الرغبة في الأساليب التي تتبع لتبليغه.

البابا ومعارضوه «إصلاح الهيكلية»[1]

يعدُّ البابا الحالي – البابا فرنسيس الأول- ظاهرة جديدة على مدى التاريخ المعاصر للكنيسة الكاثوليكية، فهو استثنائي في سلوكه ومنطقه، وفي منهج حياته، وفي خطبه ورسائله، وفي نظرته إلى الكنيسة ورسالة الكنيسة، وإدارته لها في المستويات العليا، وفي داخل التنظيمات المعقدة والغامضة للفاتيكان. والأهم من ذلك التنسيق بين هذه المجموعة. وما ساعده على تجاوز هذه التقاليد بشكل رئيس هو حياته البسيطة والبعيدة عن التشريفات، وانفتاحه على استقبال الأفراد والجماعات المختلفة بكل حفاوة وصميمية.

هذه الخصائص جعلت من هذا البابا عمليًا الأكثر شعبية من أقرانه، بل فاق حتى البابا يُوحنًّا الثالث والعشرين[2]، وهو البابا الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة في أواسط القرن العشرين. وبات الآن الشخصية الأهم على المستوى العالمي، بحيث أصبح مرجعًا أخلاقيًا لقطاع كبير من سكان العالم. أمّا المشكلة الكبرى التي واجهته بعد انتخابه، فهي هيكلية الكنيسة، وأصبحت الشخصيات الكاثوليكية هي الأكثر معارضة له ولخططه في الكنيسة؛ وذلك لأسباب عديدة سنناقشها فيما يلي باختصار.

الهيكلية الكاثوليكية المعقدة:

تعدّ مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية الأقدم والأوسع والأثرى على مر التاريخ. ومن الصعوبة بمكان إطلاق هذه الصفات على مجموعة أخرى غير كاثوليكية؛ ذلك

---

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٢/ ١/ ٢٠١٦.

(2)Pope john XXIII.

لأنَّ هذه المؤسسة هي جزء من الديانة، بل كلها، وأنَّ النظام الكنسي هو عبارة عن منجز اجتماعي وتاريخي لسلسلة من العقائد الدينية، ولها جذور دينية عميقة، وليست محصلة للعقود والاعتبارات الاجتماعية، أو ظاهرة منبثقة من عمق التاريخ والتطورات التاريخية.

ومن الطبيعي أن تتوفر مثل هذه المؤسسة المعقدة على مشكلاتها الخاصة، ولا بد لنا أن نفهم التطورات الدينية للعصر الجديد في أوروبا من طريق الإدراك الصحيح والمحايد لهذه الهيكلية الكنسية. فهذه التطورات لم تأتِ من سلسلة قضايا نظرية وفلسفية، أو احتجاجات اجتماعية.

ولا بد أيضًا من معرفة قضية الإصلاحات الدينية في أوروبا بعد الثورة الصناعية، التي استقطبت الكثير من المثقفين المسلمين من طريق الالتفات إلى هذه النقاط؛ ذلك أنَّ الاحتجاجات إنَّما وقعت عمليًا بسبب هذه الهيكلية التي أشرنا إليها، على أنَّها فاقدة للاعتبار وللحجية المسيحية التي أيّدها المسيح، المسيحية المستنبطة من الكتاب المقدس، على الرغم من أنَّ المحتجين أذعنوا في نهاية المطاف حينما واجهوا الواقع إلى نوع آخر من التنظيمات الدينية التي تتناسب مع مبادئهم، والمثال الواضح على ذلك هو «الكنيسة اللوثرية» والتي تأسست على يد مؤسس الإصلاحات الدينية.

ومن الأفضل لنا أن نتجاوز هذا البحث الفلسفي والكلامي المعقد، ونبدأ من العصر الجديد، إذ كان البابا الحاضر في روما وقبل وحدة إيطاليا، يحكم المناطق الوسطى والشمال الشرقي من إيطاليا الحالية. فقد كان زعيمًا للكنيسة الكاثوليكية على المستوى العالمي، وملكًا على المناطق المذكورة، فقد كان يمارس هذه المهمة كما يمارسها ملوك أوروبا من دون أيّ اختلاف.

هذه الحالة أصابها الضعف منذ بدايات القرن التاسع عشر؛ ذلك أنَّ الحربين اللتين خاضهما الفرنسيون والنمساويون مع البابا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أضعفتا من مكانة البابا إلى حد كبير، إلا أنَّ الضربة القاضية جاءت بعد معركة أنصار الوحدة الإيطالية سنة (١٨٧١)، فقد أصبح البابا بعدها حبيس الفاتيكان، ولا يحق له الخروج منه، بل إنَّه كان لا يستطيع الذهاب حتى إلى مقر إقامته الصيفي الواقع

في قلعة غاندولفو[1]، التي لا تبعد عن روما سوى خمسة وعشرين كيلومترًا! واستمر هذا الوضع حتى سنة (١٩٢٩)، حينما تم التوقيع على معاهدة لاتيران[2] بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية.

أجواء معادية لرجال الدين في أوروبا

من الطبيعي أن تتأثر الكنيسة الكاثوليكية وتفرعاتها، ولا سيما المركزية منها، بكل هذه التطورات التي جرت. في خضم ذلك، كان من الواضح إلى حد كبير الاتجاه المحافظ للكنيسة وشخصياتها الدينية وسلوكها الخاص، بحيث يستطيع المرء أن يميز هذه الشخصيات، وكونها من رجال الدين، حتى وإن لم ترتدِ الزيّ الديني، ويعود ذلك في الأساس إلى ما أشرنا إليه وأوضحناه سابقًا، خاصة أنَّ ميول قادة إيطاليا الموحدة – سواء من العسكريين أمثال غاريبالدي[3]، أو من المثقفين والسياسيين أمثال كاميلو كافور[4]– كانت معادية لرجال الدين، أو ما اصطلح عليه انتي كلريكال[5]. بل يمكن القول: إنَّ عامة المثقفين والمتعلمين في القرن التاسع عشر في أوروبا كانوا على هذه الشاكلة. مضافًا لذلك، فإنَّ إيطاليا كانت متأثرة إلى حد بعيد بالثورة الثقافية في فرنسا.

هذه الحالة ساعدت على انطواء الكنيسة على نفسها أكثر فأكثر، وجعلتها تتراجع من دون أن تبدي أيّ مقاومة تذكر بوجه موجة معاداة القساوسة، وعلى الرغم من استمرار علاقتها مع عامة الناس ومعظمهم كان آنذاك من البسطاء والأميين، فإنَّ الجميع استسلم للواقع الجديد وتكيّف معه من دون أيّ اعتراض.

معاهدة (١٩٢٩)

تعدّ معاهدة (لاتران) بحد ذاتها معاهدةً سياسيةً وحقوقيةً، إلا أنَّ نتائجها الدينية لم تكن قليلة الأهمية، فقد أذعن أعلى مسؤول في الكنيسة ومساعداه بأنَّهم لن

---

(1) Castel Gandolfo.
(2) Latiran Treaty.
(3) Giuseppe Garibaldi.
(4) Camillo Benso,Count of Cavour.
(5) Anticlerical.

يتدخلوا في الشؤون السياسية والحكومية، وهذا بحد ذاته كان أكثر من قرار سياسي، وإنَّما تصميم ديني اعترفت الكنيسة به رسميًا، وتحول إلى جزء من الديانة الكاثوليكية وبحجية دينية. وهذا يعني أنَّ الكنيسة وبأساليبها الخاصة التي اتخذتها بعد سنة (١٨٦١) أذعنت للواقع الجديد، وكانت ترغب بالعمل وفقًا لهذا الإطار والاستمرار به. وعلى الرغم من أنَّ معاهدة (١٩٢٩) غيّرت تمامًا الشروط والظروف السائدة، والمكانة السياسية والاجتماعية للكنيسة، فإنَّ نمط التفكير والسلوك والتعاطي والأخلاق لم يتغير، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي والسياسي.

عُقِدت معاهدة (١٩٢٩) مع الديكتاتور الإيطالي الفاشي موسيليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥)[1]، إذ التزمت الكنيسة في ظلّ حكمه الصمتَ المطبَقَ، وبقيت تراقب مجرى الأمور وحسب. انصبّ جهد موسيليني في عقد الثلاثينيات على إيجاد إمبراطورية إيطاليا الكبرى؛ لهذا قام بمهاجمة إفريقيا، واحتل إثيوبيا وإريتريا، ومناطق من الصومال وليبيا، وتحالف مع هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) قبل الحرب العالمية الثانية متبعًا سياساته، ومنها السياسة المعادية لليهود، ودخل معه الحرب العالمية الثانية.

في نهاية الحرب واجهت إيطاليا كارثة كبرى لا مثيل لها، فقد وقف ملك إيطاليا سنة (١٩٤٣) إلى جانب الحلفاء، بعدما كانت إيطاليا بجانب ألمانيا قبل ذلك. هذا القرار أدى إلى وقوع أزمة وظروف قاسية، بعد أن أثار الألمان الذين قتلوا الآلاف من الجنود الإيطاليين، وسبّب مذابح ومجاعة رهيبة، ومع ذلك، فإنَّ الكنيسة واصلت العمل بمنهجها ومنطقها الفكري والأخلاقي أنفسهما.

المعسكر اليساري الجديد

تغيرت الأمور كليًا بعد الحرب العالمية الأولى على مستوى إيطاليا، وعلى مستوى القارة الأوروبية، وعلى مستوى العالم ككل، فقد برز قطب جديد، يمتلك عناصر القوة والعقيدة، ومتحالف مع بعضه في الوقت نفسه، ويطمح إلى توسيع نفوذه وتمديد سلطته، خاصة مع وجود أنصار مضحّين، يواجهون المخاطر من دون خوف، ولا يفكرون إلا بكسب السلطة والقدرة، وفي الوقت نفسه كانوا يعادون الدين

(1) Benito Mussolini.

والكنيسة أكثر من مثقفي القرن التاسع عشر، ولم يكن هذا العداء مجرد اتجاه فكري، إنّما كان عقيدة راسخة.

لم تستطع الكنيسة في مثل هذا الظرف الجديد أن تقف موقف المتفرج، خاصة مع ارتفاع أصوات تدعوها للحضور والمواجهة الناعمة على الأقل، أضف إلى ذلك أنّ الكنيسة معادية بذاتها لليسار وليس لليمين؛ لهذا فهي كانت قادرة على التزام الصمت إزاء شخص مثل موسيليني، لكنّها لم تستطع الصمت على تهديدات اليسار، إذ كان الحزب الشيوعي في تلك الأثناء على وشك الإمساك بالسلطة في إيطاليا وفرنسا. بلحاظ ما ذكرنا يمكن القول: إنّ المنعطف الكبير للكنيسة الكاثوليكية منذ بداية القرن التاسع عشر، وخاصة بعد الوحدة الإيطالية، حصل بعد الحرب الثانية، وقبل ذلك كان منطقها الفكري وسلوكها ثابتًا ومستقرًا إلى حد ما.

ثقافة بولص السادس المنفتحة[1]

شهدت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا بعد هذه الفترة الزمنية تغييرات كبرى، يحتاج الحديث عنها إلى مجال أوسع. وعلى الرغم من أنّ الفهم الصحيح لهذه التغييرات ينطوي على أهمية كبرى، خاصة أنّنا نعيش في زمن «العولمة»، ونواجه تحدّيات دينية كبيرة في الداخل والخارج، فإنّنا سنغض الطرف عنها في الوقت الحاضر.

يعدُّ البابا بولص السادس (١٨٩٧ - ١٩٧٨) آخر بابا في القرن العشرين، مارس مهمته في إطار الكنيسة التقليدية، التي تبلورت في القرنين التاسع عشر والعشرين، فعلى المستوى الثقافي وثقافة الانفتاح في أوروبا، يعدّ هذا البابا الأبرز من بين أقرانه، لكنّ الأهم من ذلك أنّ الأوضاع العامة، وتكنولوجيا المعلومات، وانفتاح المجتمعات، في عهده سمحت له إلى حد ما بممارسة مهامه في الإطار التقليدي للكنيسة. فقد كانت الكنيسة إلى جانب عامة الناس، الذين كانوا بدورهم عالقين عمليًا في البرزخ بين القديم والجديد، فيما لم تتجاوز توقعاتهم من الكنيسة عمّا كانت

(1) Pope Paul VI.

عليه هذه التوقعات في الماضي، وكانوا يثقون بها ويعتمدون عليها. وإذا كانت ثمة تخلفات، فهي كانت معزولة عن بعضها؛ ذلك أنَّ وسائل الإعلام والمجتمع لم يكونا في وارد جمع هذه التخلفات، وتحويلها إلى تيار جارف.

وكمثال على ذلك الاحتجاجات ضد الاعتداءات الجنسية على الأطفال من قبل القساوسة، التي بدأت في أميركا في تسعينيات القرن الماضي، وامتدت إلى أوروبا في العقد الذي تلاه، ومن ثم أصبحت تحدّيًا قاسيًا للكنائس في البلدان الكاثوليكية البحتة، مثل: إيرلندا، والنمسا، وبلجيكا. هذه الاحتجاجات لم تتطور إلى موجة عارمة، ولم تتسبب بوقوع أزمات؛ فقد استطاعت الكنيسة أن تواصل طريقها مع كسب ثقة الناس بها، لكن سرعان ما تغيرت الأمور، وارتفع المستوى الثقافي والتوقعات لدى الجمهور، بحيث لم تستطع الكنيسة أن تغير نفسها بما يتناسب وهذه التطلعات، كما سنرى لاحقا.

بابا معادٍ للشيوعية

بعد وفاة البابا بولص السادس سنة (١٩٧٨)، انتُخِب يُوحنَّا بولص الأول (١٩١٢ – ١٩٧٨)[1]؛ ليحل محله، ليبقى في هذا المنصب لمدّة قصيرة. وعلى الرغم من وفاته المبكرة، فإنَّه حظي بشعبية حتى زعم الكثير من العارفين بالقضايا الداخلية للفاتيكان بأنَّه جرى تسميمه! بسبب منهجه المغاير لسنن الفاتيكان، وأنا أعرف شخصيًا العديد من أصحاب الاختصاص الذين يؤمنون بهذا الشيء.

بعد يُوحنَّا بولص الأول انتُخِب يُوحنَّا بولص الثاني (١٩٢٠ – ٢٠٠٥)[2] لمنصب البابا، والذي يعدّ الأول من غير الجنسية الإيطالية منذ (٤٥٠) عامًا. وكان لأصوله البولندية، وتجربته كأسقف لمدينة كراكوف[3] القديمة والعريقة في بلد شيوعي، دور في تكوين شخصيته المعادية للشيوعية، إلى الحد الذي ترك تأثيرًا كبيرًا على نشاطاته الواسعة. هذه الظاهرة أخذت بُعدًا أكثر شدة بعد انتخاب ريغان للرئاسة الأميركية وبقائه في المنصب لثماني سنوات، وهذا بحد ذاته يحتاج إلى تفصيل كثير.

---

(1) Pope John Paul I.
(2) Pope John Paul II.
(3) Krakow.

ومهما يكن، فإنَّ خصائص البابا يُوحنَّا بولص الثاني، وكونه بولنديًا وسياساته، أدت كلها إلى أن يغض الطرف عن الكثير من انحرافات الكنيسة، كما غضت عنها وسائل الإعلام، حتى أصابها نوع من المرض المزمن بسبب المدّة الطويلة التي قضاها في المنصب (٢٦) عامًا، بحيث تكرست حالات الفساد؛ لغياب الرقابة والشخصيات الدينية المستقلة فكريًا، لتتكشف أولى علائمها بعد انهيار الكتلة الشرقية وفي أميركا عقد التسعينيات.

استقالة البابا

في السنوات الأخيرة من عمره، كان يُوحنَّا بولص الثاني يعاني من المرض، بل من شدة المرض، وكان قد أوجد في الكنيسة نظامًا مركزيًا يعتمد على الشخص، فالأساقفة كانوا ينتخبون مباشرة من الفاتيكان، وكذلك الكرادلة، الذين كانوا ينتخبون عبر البابا مباشرة، وكان هناك توجهٌ للتغاضي عن الفساد المالي والجنسي، ولم يكن البابا قادرًا على تمشية الأمور في أواخر عهده؛ فنمت وبشكل سريع مجموعات قريبة منه تدعمه ويدعمها، مثل مجموعة (ابيوس دي)[1].

وبعد يُوحنَّا بولص الثاني انتُخِب راتسينغر[2] «بنديكيت السادس عشر»[3]. وهو شخص عالم وأستاذ في الإلهيات والكلام المسيحي، لكنَّه كان منعزلًا وبعيدًا عن الحقائق الاجتماعية، فقد أمضى حياته في التدريس، ولكن من دون أن تكون له ارتباطات مباشرة مع الناس، وما زاد الطين بِلّة أصوله الألمانية. وعلى الرغم من أنَّه كان شخصًا بارزًا من الناحية العلمية والأخلاقية والإنسانية – حسب معرفتي به عن قرب–، فإنَّ انتخابه مثّلَ كارثةً للكنيسة؛ لأنَّه فتح الباب على مصراعيه للمتسلقين والمستغلين، وهو ما أثار اعتراض الجميع.

وقد قال لي السيد مارتين (١٩٤٥)[4]، رئيس أساقفة دبلن مرة: ((إنَّني أعملُ في ظروف صعبة حقًا. لقد فقدنا ثقة الناس بنا))؛ وذلك بسبب فضائح القساوسة

---

(1) Opus Dei.
(2) Joseph Aloisius Ratzinger.
(3) Pope Benedict XVI.
(4) Diarmuid Martin.

الجنسية مع الأطفال. ففي مكان مثل النمسا غادر الآلاف من الناس كنائسهم لهذا السبب، وسرعان ما انتقلت هذه الظاهرة إلى بلجيكا. وإلى جانب ذلك ارتفعت مستويات الفساد المالي، ما أثار حفيظة المراكز المالية الأوروبية والإيطالية؛ لأنَّ مصرف الفاتيكان لم يتورع عن ارتكاب أيّ إجراء غير قانوني! كل هذه المشكلات، إضافة إلى المشاكل الداخلية الكثيرة للفاتيكان، والناتجة عن سوء الإدارة، وغياب الرقابة، أدت في النهاية إلى استقالة البابا بنديكيت الساس عشر.

نسيان الرسالة الدينية

أدت هذه الأمور إلى أن ترتفع الأصوات ضد الكنيسة، حتى من قبل الشخصيات الدينية الكاثوليكية المحافظة. فقد وجه كاردينال ميلانو المعروف، والعالم الذي كانت له منزلة في الأوساط الشعبية الكاردينال مارتيني[1]، وقبل وفاته بأيام انتقادًا صريحًا للكنيسة، كان له صدى واسعٌ في الأوساط، وركّز في انتقاده على وضع الكنيسة، وطريقة إدارتها، ونسيان رسالتها الدينية، حتى أنَّه قال بالحرف الواحد: ((إنَّ الكنيسة متخلفة عن زمانها بمائتي عام... الكنائس عامرة ولكن من دون عبّادها، وزائروها من السواح فقط، الذين ينظرون إليها على أنَّها اثرٌ تاريخي وفني، لا غير)). ولم يقتصر الانتقاد على هذا الرجل، وإنَّما امتد إلى قطاع واسع من الكنسيين، من رجال الدين وغيرهم، وإن التزموا الصمت لسبب أو لآخر.

ومن قبيل الصدفة أنَّني كنت في روما حينما استقال بنديكيت السادس عشر، وفاجأ الجميع بهذه الاستقالة. وقد دُعي أستاذ التاريخ المسيحي المعاصر في جامعة بولونيا[2] السيّد ألبرتو ميلوني (و: ١٩٥٩)[3] - وأنا أعرفه شخصيًا- إلى روما، للمشاركة في الاجتماع الاستثنائي للفاتيكان؛ لتقديم الاستشارة حول مستقبل الكنيسة الكاثوليكية. وقد قال لي بالحرف الواحد: ((إنَّنا نمرّ بفترة عصيبة جدًا، والثقة بنا باتت تهبط بشكل كبير، وهناك نوع من التخبّط، وباتت مرجعيتنا الأخلاقية موضع شك!)). والقصد من التخبّط طبعًا هو التخبّط في التوجه والإدارة، أمّا المرجعية الأخلاقية التي

(1) Carlo Maria Martini.
(2) University of Bologna.
(3) Alberto Melloni.

تحدّث عنها، فلم يقصد منها المرجعية للمؤمنين وحسب، وإنَّما تشمل أيضًا غير المؤمنين؛ فقد كانت توصيات البابا وتعاليمه منذ الحرب العالمية الثانية مهمة حتّى لمن كان يعارض الكنيسة لأي سبب كان.

في مثل هذه الظروف، عُقِد اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا، ويبدو أنَّه كان اجتماعًا صاخبًا؛ فقد بعثت الشخصيات الدينية داخل الفاتيكان، وقبل أن تنتهي عملية الانتخاب، رسائل تهنئة إلى الكاردينال أنجيلو اسكولا (١٩٤١)[١] - كاردينال ميلانو الحالي- باعتباره هو البابا الجديد، وفي هذا دلالة على المشاكل التي كانت تعصف داخل الفاتيكان، إذ كانت لهذه المجموعة مصالح متباينة مع الكنيسة الكاثوليكية. وهذا لا يعني أنَّ هذا الرجل مطعون فيه، فأنا أعرفه شخصيًا وعن قرب، فهو أحد أفضل الكرادلة، وكان لسنوات رئيسًا لجامعة (لترانسه)[٢] المعترف بها، بل في ذلك دلالة على أنَّ الذين أبرقوا إليه، كانوا يتطلّعون لانتخاب شخص معين.

وأخيرًا، يُنتخَب الكاردينال بيرجوليو[٣]، وهو أرجنتيني من أصل إيطالي، في حدث استثنائي؛ ذلك أنّ شخصيته وأفكاره وطريقة حياته كانت معروفة للآخرين تقريبًا، فقد كان يختلف عن غيره في أفكاره وسلوكه وحياته؛ إذ كان يقيم في وحدة سكنية بسيطة من غرفتين، وليس في مقرّ إقامة أسقف العاصمة المعروف بالفخامة، كما كان يعاشر الناس، ويتابع معهم في الملاعب مسابقات لعبة كرة القدم التي يحبها.. انتُخِب هذا الرجل لمنصب البابا على الرغم من أنَّ الذين انتخبوه كانوا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة.

السلوك المغاير

منذ اليوم الأول لانتخابه، كشف البابا الجديد عن منهجه المغاير بشدة لأسلافه وقال: ((أريد - وأنا في موقع أسقف مدينة روما وخليفة بطرس- أن أدير الكنيسة بمساعدتكم جميعا)). وهذه هي المرة الأولى التي يتحدّث فيها بابا بهذه الطريقة، وإنَّه لا يهدف إلى إدارة الكنيسة وفقًا لتشخيصه وقراره الفردي، وإنَّما على أساس التعاون

---

(1) Angelo Scola.
(2) Pontifical Universita Lateranense.
(3) Jorge Mario Bergoglio.

والتشاور مع الآخرين. ولكنّ الأهم من ذلك هو طريقة حياته الشخصية وتعاطيه مع الناس، فلم يذهب مطلقًا إلى مقرّ إقامة البابا، واختار مقرّ ضيوف الفاتيكان كسكن له، وكان يأكل ممّا يأكل منه الآخرون، على الرغم من أنَّ تغيير الطعام هو للحيلولة من إمكانية تسميم البابا، كما حصل ليُوحنَّا بولص الأول، وتوفي بعد انتخابه بمدّة قصيرة!

كان تعامله مع الناس طبيعيًا وصميميًا وبلا تكلف، فقد كان يحتضن المرضى الذين يبتعد عنهم الآخرون، من دون أن تبدو عليه علامات التصنع، وهو ما لم يفعله أيّ بابا من قبل، على الرغم من أنَّ بعض الراهبات، خاصة اللواتي يقدّمن الخدمات الطبية كُنَّ يقمن بمثل هذه الخطوة، فإنَّ البابوات الذين سبقوه لم يفعلوا ذلك، إن لم يقوموا بعكسه، فقد كان معروفًا عن راتسينغر أنَّه كان يضع يده اليسرى، حائلًا عندما يصافح زائريه؛ لكي لا يقتربوا منه كثيرًا.

ويعود السبب في شعبية البابا الحالي ومنزلته بالدرجة الأولى إلى سلوكه هذا وحياته الشخصية، ولا سيما في عالم اليوم، إذ تمكن مراقبة كل صغيرة وكبيرة بفضل تكنولوجيا الاتصالات.

على سبيل المثال يقوم رئيس تحرير صحيفة ريبوبليكا(1) السابق اسكالفاري (١٩٢٤ - ٢٠٢٢)(2)، الذي يعدّ حسب أحد الأساتذة الإيطاليين بأنَّه ربّ ظاهرة الانفتاح والتنوير في أوروبا، بمراسلة البابا، ومن ثم ملاقاته. وقد ترك سلوك البابا في هذا اللقاء تأثيرًا كبيرًا، حتى طغى على موضوع الحوار. فلدى دخوله يضع البابا قطعتين من العملة؛ ليتناول كأسين من القهوة له ولضيفه من الجهاز الآلي، ثم يبدأ بالحديث. وبعد هذا اللقاء يُثني اسكالفاري - ولعلها للمرة الأولى في حياته- على شخصية دينية!

ولا شك في أنّ شعبية البابا تعود في جزء منها إلى تصوراته وأفكاره، فقبل شهور عدة تم نشر أهم ملاحظاته الفكرية حول قضايا العالم المختلفة: (من البيئة إلى الفقر، والتنمية غير المسؤولة، والاستهلاك، والنظام الاقتصادي العادل)، في كراس لقي صدى واسعًا لدى الجمهور؛ لما يتضمنه من أفكار مهمة ومعاصرة.

(1) La Repubblica.
(2) Eugenio Scalfari.

معارضون من الداخل

بطبيعة الحال، فإنَّ هذه الأفكار وهذه الطريقة لا بد أن تواجه معارضة من داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها، فقد تسرب حوارٌ جرى بين اثنين من الشخصيات الكاثوليكية، تضمن أمانيَّ لهاتين الشخصيتين باغتيال البابا! أمّا مبادرته لإصلاح بنية الكنيسة، فتضمنت إشراكه رجالَ الدين في القرار، خلافًا لسلفه يُوحنًّا بولص الثاني الذي كانت إدارته فردية ومركزية؛ إذ سعى لإشراك الآخرين في اتخاذ القرار وتنفيذه. يقول أحد المختصّين بشؤون الكنيسة: ((إنَّه يعمل مثل بابا الأرثوذكس وليس بابا الكاثوليك، فهو يرى نفسه إلى جانب الأساقفة والكرادلة وليس فوقهم)).

أضف إلى ذلك أنَّه سعى بكل جد لمواجهة أيّ نوع من الفساد والانحراف، مع إشراك الآخرين في التعاطي مع هذه الحالات ومعالجتها وليس بشكل فردي. ومن خطواته الأولى التي أقدم عليها وضْعُ رقابة كاملة على بنك الفاتيكان، بل بشكل عام على الشؤون المالية للفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية. وكان هذا البنك - وبسبب استقلاله عن النظام البنكي الإيطالي والأوروبي ككل- معروفًا بقيامه بالعديد من التخلفات، مثل غسيل الأموال، ونقل أموال طائلة مشكوك فيها، ودخوله في معاملات غير قانونية، حتى بلغ الذروة في التخلف في السنوات الأخيرة. أمّا الآن، فتجري العمليات المصرفية للفاتيكان تحت رقابة صارمة من مجموعة من الشخصيات البنكية والكنسية اختارهم البابا بنفسه. وحظيت هذه الرقابة على ثناء مؤسسة مانيفال[1] الأوروبية التي تتولى تقييم سبل مكافحة التخلفات البنكية وفقا للتقارير الصادرة عنها.

كذلك الأمر بالنسبة للفضائح الجنسية، فقد انتشرت هذه الفضائح في السنوات الأخيرة، حتى باتت تزكم الأنوف داخل الفاتيكان نفسه، ونشرت الصحافة في حينها العديد من التقارير حول الموضوع، بما كان يمثل كارثة، حتى وإن كانت نسبة صحة مثل هذه المعلومات قليلة. وبالنسبة للفساد المالي، فإنَّ الأمر تعدّى موضوع بنك الفاتيكان إلى الاستغلال الواسع من داخل الفاتيكان نفسه، ومن شخصيات معروفة

(1) Moneyval.

من الطراز الأول، ننأى هنا عن ذكر أسمائها، بحيث لم يشهد الفاتيكان مثل هذا الفساد الواسع الذي أصبح حديث الشارع الإيطالي؛ وقد قام أحدهم بمنح هبة إلى المشفى الكاثوليكي في روما قدرها (١٥٠) ألف يورو، كتكفير عن فساده المالي. ومن الطريف أنَّ البابا نفسه وقبل أيام من عيد الكريسميس اعتذر لدى اجتماعه بموظفي الفاتيكان عمّا أسماها بفضائح الفاتيكان.

أسباب الموفقية

إنَّ خصائص القدرة المستحصلة عن الدين تختلف عن تلك المأخوذة عن السياسة والاقتصاد والعسكر. فالمؤمنون والمعتقدون في الحالة الأولى هم العنصر الأساس في تعزيز هذه القدرة والقوة، أو إضعافها، على الرغم من أنَّ الأمور تتغير عندما تترسخ هذه القدرة، وتصبح جزءًا من بنية النظام، فإنَّ معدل إقبال المؤمنين أو إدبارهم يبقى في النهاية، يلعب دورًا كبيرًا في تعزيز، أو إضعاف القدرة المستحصلة من الدين.

ومن المعتقد أنَّ البابا أدرك هذه القاعدة جيدًا؛ لهذا قام بإصلاحاته في الكنيسة مستعينًا بالرأي العام وبرجال الدين الذي يفكرون على طريقته، وكان يؤكد هذا الأمر باستمرار وأنَّه سيواصله بقوة. كان هذا هو سر نجاح البابا، الذي لم يكن ليصل إليه؛ لو لم يبدأ بنفسه، ولم يقف الرأي العام بجانبه إلا بعد شعوره بأنَّه فرد صادق لا غبار على تاريخه؛ لهذا سارع إلى دعمه في مواجهة الضغوط الهائلة التي واجهها من الكنيسة الكاثوليكية. وعلى حد علمي فإنَّه لم يكن أيّ عارف بشؤون الكنيسة يصدق بأنَّه سيحقق النجاح في الشهور الأولى بعد انتخابه، إلّا أنَّه استطاع أن يمضي قدمًا في مشروعه على الرغم من جميع العقبات التي واجهته، وذلك للأسباب التي أشرنا إليها.

وسوى ذلك، فإنَّه استطاع أن يستقطب أعدادًا كبيرة من الكاثوليك للعودة إلى ديانتهم عن رغبة، في ظاهرة لم نشهد مثيلها ربّما في العقود الأخيرة. وهذا الكلام ينطبق أيضًا على الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية، التي كانت تواجه ضغوطًا كبيرة من الكنيسة البروتستانتية بنوعها الأميركي، وكذلك على القارة السمراء، وعلى آسيا، بل حتى على أوروبا نفسها، التي كان اليأس قد أخذ منها مأخذًا من مستقبل الكنيسة. ما

قلناه آنفا تدعمه الحقائق والإحصائيات؛ وحقيقة الأمر أنَّه لا تمكن مناقشة التطورات الدينية وفقًا لمعايير العلوم الاجتماعية والسياسية، وهذه ظاهرة كشفتْها بشكل واضح التجربةُ الإدارية للبابا الحالي.

الثورة الثقافية في الكنيسة الكاثوليكية[1]

جرى في الثاني والعشرين من أيار/ مايو سنة (٢٠١٥) استفتاء مهم وحساس في إيرلندا، أثارت نتائجه استغرابًا، بل أَسِف كثيرٌ من الشخصيات الكنسية وغير الكنسية، وكان موضوع الاستفتاء حول زواج المثليين، إذ شاركت أعداد لا بأس بها في الاستفتاء، وحصل على نسبة موافقة بلغت (٦٢٪) على الرغم من التوصيات المؤكدة، التي صدرت عن الكنيسة الكاثوليكية الإيرلندية وشخصياتها المعروفة، بل إنَّ بعض هذه الشخصيات كانوا يقولون لأنصار هذا التوجه بأنَّنا نعي حالتكم ونحترمكم ونقبل بكم، ولكن لا تصوّتوا على هذا الاستفتاء، ولا تغيروا الدستور. ولكن وقع المحذور، وأصبحت إيرلندا أول دولة تعترف بالزواج المثلي، استنادًا إلى هذا الاستفتاء، وعلى الحقوق المترتبة على ذلك!

وبعد إعلان النتائج، قال كبير أساقفة دبلن السيد ديارمويد مارتين[٢]: ((إنَّ هذا لم يكن استفتاء عاديًا، وإنَّما هي «ثورة ثقافية» و«ثورة اجتماعية». إنَّني كنت على ثقة بأنَّ النتيجة ستكون هكذا بلحاظ الدعاية الواسعة التي جرت، وعودة الكثير من الموافقين عليه من البلدان الأخرى، التي يعملون فيها إلى الوطن للمشاركة في هذا الاستفتاء. لم تكن مؤامرة، فالشعب هو الذي أعطى رأيه، حتى أنَّ (٩٠٪) من الشبان، الذي شاركوا هم من المتعلمين في المدارس الكاثوليكية! في الحقيقة ثمة تغير كبير، وعلينا أن نفكر فيما إذا كانت الكنيسة قد عملت بمسؤوليتها، وعلينا أن نعرف كيف نستطيع إقامة علاقة مع الثقافة التي تبلور أفكار الشباب)).

واستعمل آخرون عنوان الثورة الثقافية والثورة الاجتماعية، ومنهم وزير الصحة الإيرلندي المنحرف، الذي عدَّ الاستفتاء بأنَّه صفة من صفات الجمهورية،

---

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٧/ ٦/ ٢٠١٥.

(2) Diarmuid Martin.

ودليل على عودة الجمهورية إلى بلاده. وبطبيعة الحال، فإنَّ ردة الفعل على هذه الظاهرة تجاوزت إيرلندا، وربّما ستشكل نقطة انعطاف في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والمجتمع الأوروبي ككل. وفيما يلي نشير إلى بعض الملاحظات في هذا الصدد، باختصار:

سوابق الأسقف مارتين

إنَّني أعرف شخصيًا الأسقف مارتين مذ كنت في الفاتيكان، فقد بدأ التعاون بيننا سنة (١٩٩٣)، عندما كان قسيسًا ومساعدًا لمجمع «العدالة والسلام»[1]، حينما تقررت إقامة مؤتمر القاهرة للسكان[2]، من قبل الأمم المتحدة، وبمشاركة جميع أعضائها للبحث في قضايا الأسرة وحقوقها، وقد أبدى البابا يُوحنَّا بولص الثاني حساسية تجاه هذه القضية، فيما كان السيد مارتين هو الأعرف من غيره من مسؤولي الفاتيكان، والأكثر نشاطًا في هذا المجال، حتى أصبح يومها أحد المقربين إلى البابا.

يقول السيد مارتين بصراحة: ((إنَّ أفضل حلفائنا في هذا الموضوع هم البلدان الإسلامية))، ولكن كانت السفارة الإيرانية تتعاون معه عمليًا، وهو ما صرح به مرات عدة. ففي تلك الأيام كنّا نلتقي مرتين في الشهر على الأقل، حتى وصل التعاون ذروته قبل أشهر قليلة من عقد مؤتمر القاهرة في سبتمبر/ أيلول (١٩٩٤).

بعد ذلك تم تعيينه كمراقب دائم للفاتيكان في جنيف، وكان يتمتع بنشاط ملحوظ في الأقسام الدولية للفاتيكان، حتى انتقل إلى دبلن عام (٢٠٠٣). بلحاظ هذه السوابق فإنَّه من الطبيعي أن يدرك التطورات المختلفة على الساحة الأوروبية والغربية، بل العالمية. وقد تم إيفاده إلى دبلن؛ لحسن سيرته وشهرته من أجل تهدئة المجتمع الكاثوليكي الإيرلندي، الذي كان متوترًا بشدة بسبب استغلال شخصيات الكنيسة للأطفال، فاستطاع أن يهدئ الأمور إلى حد ما، ممّا زاد في شهرته وشعبيته.

ذهبت عام (٢٠١٠) إلى دبلن للمشاركة في مؤتمر «الإلهيات بين الثقافات والدرسات بين الأديان»، فأبرق لي مارتين بأنه يرغب بلقائي بعد كل هذه السنوات، مقترحًا أن يجري اللقاء في مقرّ إقامة سفيرنا السيد رحيم بور، وفعلًا التقينا على مائدة

---

(1)Pontifical Council for Justice &Peace.

(2) International conference on population and devlopment (ICPD), september 1994.

الغذاء، فتحدّث عن الأجواء السيئة السائدة في إيرلندا، وسوء الظن المهيمن عليها، والمشاكل التي تقف عقبة في طريقه وإنجازاته هناك، وقال إنَّه ومن أجل الاقتراب من الناس، وكسب ثقتهم، أعلن في العام السابق عن إيفاد ممثل عن أبرشية دبلن إلى جميع منازل هذه المدينة، وهي خطوة لم تكن مسبوقة بين الكاثوليك، على الرغم من قيام بعض الكنائس البروتستانتية الأميركية بفعل هذا الشيء. وطوال مدّة إقامتي في المدينة كنت أسمع من كل من التقيته عبارات الثناء والمديح لهذا الأسقف، وأنَّه يختلف عن غيره من الأساقفة.

إنَّني سردت هذه التفاصيل؛ لتوضيح مكانة الشخص الذي أطلق على الاستفتاء الأخير بأنَّه «ثورة ثقافية واجتماعية»، فهو لم يكن أسقفًا محليًا قليلَ التجربة وبعيدًا عن الأحداث، بل إنَّه كان في خضم الأحداث المحلية والإقليمية والدولية، بل إنَّه لعب دورًا في بعضها. وهنا علينا أن نعرف ما الذي حصل؟ ولماذا حصل ذلك؟

إيرلندا والكنيسة الكاثوليكية

تعدّ الهوية الوطنية لثلاثة بلدان أوروبية هي (إيرلندا وبولندا وكرواتيا) كاثوليكية بشدة لأسباب مختلفة. فإنكلترا كانت ولقرون تعادي الكنيسة الكاثوليكية بشدة، أضف لذلك أنَّ إيرلندا كانت تحت الاستعمار الإنكليزي الكامل، حتى أوائل القرن العشرين. وما موجات الهجرة الإيرلندية إلى أميركا إلا كنتيجة لما تعرض له هذا الشعب من ضغوط إنكليزية، وكذلك بسبب القحط والمجاعة؛ نتيجة مصادرة الإنكليز منتجاتهم الزراعية، وليس بسبب الكوارث الطبيعية. مضافًا لذلك، فإنَّ عامة الكنائس الكاثوليكية كانت مغلقة، وكان الناس مضطرين لدخولها عبر أبواب خلفية سرية، كما أنَّه كان ممنوعًا وإلى فترة طويلة تأهيل القساوسة، ومن يرغب في التعليم الديني كان عليه أن يتوجه إلى فرنسا. بعد مدّة أدرك الإنكليز أنَّ القساوسة يعودون، وهم يحملون أفكارًا ثورية؛ لهذا قرروا تأسيس مدارس دينية تحت إشرافهم لتعليم المتطوعين إليها. إنَّ تعاطي إيرلندا وكنيستها مع إنكلترا شابته الكثير من التعقيدات، ممّا أدى إلى أن تحظى الكاثوليكية بأهمية خاصة في الثقافة الوطنية الإيرلندية، حتى العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة.

الثقافة الإنكلوساكسونية لما بعد الحداثة

تقع إيرلندا في أقصى غرب أوروبا والمحيط الأطلسي، ولهذا كانت بعيدة عن التطورات الكبرى التي وقعت في أوروبا بعد الثورة الصناعية، وما زاد الطين بِلّة الاستعمار الإنكليزي لها، الذي جعلها في عزلة عن العالم، ولهذا، فإنَّ فنونها المعمارية بقيت متخلفة، مقارنة بالأجزاء المتطورة من أوروبا.

وتعدّ اللغة الإيرلندية العنصر المهم في فهم إيرلندا، فلهذا الشعب لغته الخاصة ولكنّ اللغة الإنكليزية أصبحت هي اللغة المهيمنة في البلاد واللغة الأم التي يتحدّثون بها. وقد منحتها هذه اللغة، إضافة لموقعها الجغرافي وبلحاظ علاقتها الخاصة مع إنكلترا وأميركا، خصائصَ مميزة، وأتاحت لها إمكانيات خاصة. أمّا علاقتها المميزة مع أميركا، فهي بسبب وجود أقلّية إيرلندية منسجمة إلى حد كبير، ومتغلغلة في النسيج الأميركي، فهؤلاء ليسوا من الإنكلوساكسون، ولا يرغبون في التحالف مع أميركا وإنكلترا، تمامًا بعكس أستراليا وكندا وحتى نيوزيلندا المتحالفين معهما في المجالات المختلفة السياسية والعسكرية، غير أنَّ الإمكانيات التي أتاحتها اللغة الإنكليزية جعلتهم ينتفعون منها غاية الانتفاع، مقارنة مع إنكلترا، خاصة أنَّ بلدهم صغير ورخيص ومستقر، وفيه قوى عاملة مناسبة، وضمن القارة الأوروبية نفسها.

وتقع المقرّات الأصلية لمنصات تويتر وغوغل، وعدد آخر من الشركات المتعددة الجنسية في إيرلندا، وحسب الأسقف مارتين، فإنَّ هذا هو أحد الأسباب التي أعطى فيها الإيرلنديون رأيهم في الاستفتاء؛ لأنَّ هاتين المنصتين تؤيدان الزواج المثلي، ومن ثمّ، فإنَّ الناس أدلوا برأيهم لصالح الاستفتاء؛ خشيةً من المشكلات الاقتصادية التي قد تنجم عن مغادرتهما البلاد.

أدخلت هذه التطورات الشعب الإيرلندي في متاهات قضايا غير نابعة من ثقافتهم، وإنّما من ثقافة ما بعد الحداثة الإنكلوساكسونية. فهم أبناء ظروفهم قبل أن يكونوا أبناء تاريخهم.

عواقب مدمرة

هنا تكمن القضية الأساسية، فالثقافة الجديدة أدت إلى أن تقف الأكثرية في مجتمع صغير ومحافظ ومعزول إلى وقت قريب ضد قيمها السابقة. فقد دُونت مقدّمة الدستور الإيرلندي سنة (١٩٧٣)، وكان مليئًا بالمفاهيم الدينية والأخلاقية والمسيحية، ممّا كان يمثل حالة استثنائية، ربّما من بين البلدان الأوروبية، يضاف لذلك، فإنَّ المثلية كانت ممنوعة حتى عام (١٩٩٣)، وكما يقول الأسقف مارتين: إنَّ تسعين بالمائة من الشبان الذين صوّتوا لصالح الاستفتاء، هم من الذين درسوا في المدارس الكاثوليكية، ولكن على الرغم من كل ذلك وعلى الرغم من التراث الكاثوليكي العريق في هذا البلد، لاحظنا أنَّ هذه الظاهرة متناقضة ليس مع الدين وحسب، وإنَّما مع الطبيعة البشرية ومتطلبات المجتمع الإنساني السليم كذلك.

فقد طالب المصوتون بتغيير الدستور، وحتى قوانين الكنيسة حول قضية الزواج، بمعنى أنَّ الكنيسة مكلفة بالاعتراف بالزواج المثلي، وإجراء العقد الديني فيما لو راجعها المتزوجان. يقول مارتين: إنَّه يخشى أن يتعرض القسيس للمساءلة القانونية تحت طائلة التمييز، لو رفض الاستجابة لهذه الحالات.

ومع الأسف، فقد تغيرت الظروف بعد هذا الاستفتاء لصالح أنصار هذا التوجه في معظم الدول الأوروبية والغربية، واتخذت الأحزاب والشخصيات السياسية والاجتماعية مواقفَ تدعم هذا التيار من دون التفكير بالعواقب المدمرة لذلك، وانتشرت موجة واسعة المساندة لأنصاره، بحيث لم تعد قادرة حتى على تشخيص النتائج المترتبة عليه.

إنَّ عامة هؤلاء هم من أنصار حماية البيئة والطبيعة البكر؛ لهذا يعارضون التلاعب بالجينات سواء في الزراعة أو البيطرة، وفي تربية النباتات والحيوانات بشكل عام، ومن المعارضين الحقيقيين لإدخال أيّ عامل يغير البيئة عن طبيعتها، أو يؤدي إلى ارتفاع حرارة الأرض من الوقود الأحفوري إلى غازات الدفيئة، ومن الطاقة النووية إلى منتجات البولي إثيلين، متناسين الإنسان نفسه وأنَّه يجب تجنب كل ما يهدد سلامة المجتمع الإنساني. فمثلما أنَّ الحرية الفردية يجب ألّا تكون ذريعة لتدمير البيئة، فإنَّ هذه الحرية يجب ألّا تكون سببًا في تدمير قوام المجتمع الإنساني والسنن التاريخية، فالأسرة هي خلية المجتمع، ويجب أن تبقى سالمة.

توجه أخلاقي بحت

بغض النظر عن أيّ شيء، لا بد من الإذعان بأننا نعيش في عالم يتعرض فيه الجيل الجديد لكثير من الفعل وردود الفعل، ويشهد تطورات هائلة على الأصعدة كافة، ولا بد أن نتعرف على هذه التحولات بشكل صحيح. يقول مارتين بعد الاستفتاء: إنَّ أول ما يسأل عنه البابا السابق بنديكيت السادس عشر في لقاءاته الدورية معه في الفاتيكان، باعتباره أسقف دوبلين: هل الكنيسة الكاثوليكية في إيرلندا مرتبطة مع المراكز التي تبلور الثقافة المعاصرة؟ وما هي نقاط الالتقاء معها؟

لا ريب في أنَّ قضية الزواج والأسرة تعدّ واحدة من أهم المسائل المطروحة، ويعتمد ثباتها واستقرارها واستمرارها على عوامل عديدة في العصر الحاضر، بل يمكن القول: إنَّها أصبحت مشكلة عامة وعالمية. وعلى الرغم من أهمية البُعد الأخلاقي للقضية، فإنَّ هذا البعد لوحده لا يكفي لإعطاء ضمانات كافية لاستقرارها، وفي هذا الصدد لا يمكن تجاهل العوامل الأخرى: (الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية)، وكذلك الأمواج العاتية المتأتية من خارج الحدود. وتبلغ هذه العوامل من القوّة بحيث تستطيع أن تهدد هوية الشعوب، ولكن مع ذلك يمكن - بالتخطيط التنموي الصحيح، والتعليم المناسب، والدقة في العمل والتدريب الإعلامي - الوقوف بوجه هذه الهجمة، بل لا بدّ من الوقوف أمام هذا الغزو، وإنَّ استقرار الأسرة يعتمد على مراعاة هذه الأمور، وليس فقط التأكيد على المعايير والقيم الأخلاقية.

إنَّ مشكلتنا الكبرى في الاستيعاب الصحيح لهذه العوامل هو توجهنا الأخلاقي البحت، بمعنى أنَّنا لا نأخذ بقدر كافٍ من الجدية هذه العوامل المؤثرة الأخرى. وأنَّ نتيجة مثل هذه النظرة هي التأكيد على التوصيات الأخلاقية فقط، في حين تتطور هذه المشكلات وفقًا لمسارها المنطقي، وهو ما يجب أن نعيه وندركه جيدًا.

متخلّفون عن الزمان مائتي عام[1]

تحت هذا العنوان نشرت وسائل الإعلام العالمية، ولا سيما الغربية والأوروبية، نبأ وفاة الكاردينال مارتيني، فقد كان شخصية شعبية مشهورة على الرغم من أنَّه لم

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ١٠/ ٩/ ٢٠١٢.

يكن معروفًا إلى حد كبير خارج إيطاليا، إلا من قبل الشخصيات الكاثوليكية في جميع أنحاء أوروبا.

إنَّ انتشار نبأ الوفاة بشكل واسع، وتحت عنوان «متخلفون عن الزمان مائتي عام»، يكشف عن حاجة أتباع الكنيسة الكاثوليكية، بل الكنائس الأخرى أيضًا إلى كنيسته[١]؛ لهذا، فإنَّني سأتطرّق فيما يلي إجمالًا إلى هذه الشخصية والتعريف بها.

تعرفت على الكاردينال مارتيني منذ بداية مهمتي في الفاتيكان[٢]، واسمه الكامل هو «كارلو ماريا مارتيني»[٣]. فمنذ الأيام الأولى لاستقراري في الفاتيكان في أواسط تسعينيات القرن الماضي، بذلت جهدي لإقامة علاقات مع الشخصيات المسيحية المعروفة - سواء أكانت كاثوليكية أم غير كاثوليكية- ووجدت ترحيبًا من قبلهم أيضًا. وكانت شخصية السيد مارتيني تختلف عن شخصيات الكرادلة يومذاك، وكان حينها أسقف مدينة ميلانو، ورئيس مجلس أساقفة أوروبا[٤]، وقد التقيت به وتحدّثت إليه مرات عدة، وكان شخصًا ناجحًا جدًا في كلا منصبيه.

قد كان للفاتيكان ولأسباب تاريخية مشاكل دائمة مع شمال إيطاليا، وكانت الأحزاب اليسارية ذات الميول المعادية للكنيسة والفاتيكان تتمتع بالقوة في هذه المنطقة. وقد وضع البابا السابق يُوحنَّا بولص الثاني[٥]، وفي خطوة ذكية مارتيني على رأس كنيسة ميلانو، وكان حينها قسيسًا. وتعدّ ميلانو التي هي عاصمة الشمال الإيطالي مركزًا اقتصاديًا وصناعيًا مهمًا. كان هذا أواخر سنة (١٩٧٩)، حينما كانت ميلانو تشهد اضطرابات عمالية ونقابية واسعة من قبل اليسار، وهي اضطرابات تركت تأثيرها على عموم الوضع في كل إيطاليا. وبعد شهور عدة رُفِّعَ مارتيني إلى منصب الأسقف، الأمر الذي مثّل حالة استثنائية؛ لأنَّه كان يسوعيًا[٦]، واليسوعيون يبقون على الدوام على مستوى القس. وأصبح سنة (١٩٨٣) كاردينالًا، وهي حالة أكثر

---

(١) سيذكر المؤلّف في الصفحات القادمة أنَّ عبارة "الكنيسة متخلفة مائتي عام عن زمانها"، قالها الكاردينال مارتيني لصحيفة "كوريره دلاسرا" الإيطالية الواسعة الانتشار، وقبل أيام فقط من وفاته.

(٢) كاتب المقال كان سفيرًا لدى الفاتيكان في السنوات المذكورة.

(3)Carlo Maria Martini.

(4) Council of the Bishops>Conferences of Europe.

(5) Pope John Paul II.

(6) Jesuit.

استثنائية، وقبل إرساله إلى ميلانو كان رئيسًا لأهم جامعة كاثوليكية «غريغورين»[1]، التي تخرّج فيها أكثر البابوات في القرون الأخيرة.

شخصية مارتيني الجذابة

كان مارتيني أكثر الكرادلة الموجودين في إيطاليا، بل في أوروبا شعبية ونجاحًا، واستطاع أن يجعل من كنيسة ميلانو الأكثر نشاطًا وحيوية، وهو متخصّص في نصوص الكتاب المقدس، بل أحد أبرز العارفين به في عصرنا الحاضر، ولعل من أهم ما قام به أنَّه استثمر هذه المعرفة للتحدّث مع الجيل الجديد، ما وفر له الأرضية الخصبة للنجاح في ميلانو.

وبمبادرة شخصية قام بعقد جلسات خطابة أسبوعية في كنيسة ميلانو الكبرى، ممّا لم تعهده الكنيسة من قبل، يشارك فيها حتى الأفراد غير المؤمنين؛ لما كانت تحتويه من مضامين علمية جذابة. وإنَّني أعرف شخصيًا أساتذة كثيرين بارزين غير المتدينين، كانوا يشاركون في هذه الجلسات، ويستفيدون من موضوعاتها العلمية، وهي ظاهرة قل نظيرها في إيطاليا. وقد كان يدعو الأشخاص غير المعتقدين بالدين إلى الحوار، فيلبّون الدعوة، ويطرحون آراءهم بكل صراحة. وبطبيعة الحال، فإنَّ نجاحه لم يكن يقتصر على هذا الأمر، بل كان يتمتع بشخصية متينة وثابتة حتى في قوام جسمه، فقد كان ناضجًا، طويلًا، عريض المنكبين، قوي الساعد، نافذ البصر. كما كان سلوكه محكمًا، لا تجد فيه أثرًا لضعف النفس، والميل إلى المجاملة، وكسب ود الآخر، مع وجه بشوش. تضاف إلى قوة شخصيته معرفته الواسعة، خاصة بالمجتمع والثقافة الأوروبية وتاريخ الكتاب المقدس.

إنَّني أؤكد على هذه النقاط؛ لكون رجال الدين الكاثوليك في إيطاليا وفي أوروبا اليوم، يعانون من مثل هذه المشاكل، فهم يسعون لدى الالتقاء بالمؤمنين، وعامة الناس إلى كسب مودتهم بطريقة انفعالية؛ وهذه الطريقة في كسب الود سلوك معقد، يطول بنا المقام إذا أردنا التفصيل فيه، ويقترن غالبًا بالمجاملة والتظاهر بالمحبة، ولعل من الأنسب أن نقول هي عملية «كسب الشفقة والاستعطاف»، بل هو إلى حد ما

(1) Pontifical Gregorian University.

«سلوك نسائي» أقرب إلى كونه رجاليًا، وهذا السلوك هو الذي جعل بعضهم في أوروبا يتهم أصحاب الكنيسة بالشذوذ الجنسي.

أمّا لماذا تطورت الأمور إلى هذا الحد، فتلك حكاية طويلة، لكن هذه الحالة ليست فردية أو عرضية أو حتى إرادية، إنَّما هي تجربة القرون الثلاثة الأخيرة، هي التي أدت إلى ما أدت اليه، وهو موضوع يجب البحث فيه في مقام آخر. وبلحاظ ما ذكرنا، فإنَّه تمكن معرفة أساس الكثير من المشكلات الدينية في أوروبا المعاصرة. ومهما يكن، فإنَّ مارتيني لم يكن على هذه الشاكلة، إذ كانت له - كما قلنا- شخصيته الرجولية الثابتة؛ فكان يستقطب الناس بما يمتلكه شخصيًا، وليس بطريقة المجاملة والإفراط في التودد، إذ لا مكان لهذه الطريقة في أوروبا الحالية. إنَّني أعرف شخصيًا العديد من الكرادلة في شمال إيطاليا، لا أذكرهم؛ احترامًا لهم، ليس لهم النفوذ الذي يتناسب مع مواقعهم وشخصياتهم، للسبب الذي أشرنا اليه.

ملتزم وصاحب فكر حر

إنَّ الشخصية الرجولية المستقلة والمعتمِدة على الذات، التي كان يمتلكها مارتيني، أنتجت رؤى دينية وعلمية مستقلة. والمهم في ذلك أنَّ هذه الرؤى - وبعكس ما يقال اليوم في وسائل الإعلام- لم تكن مجرد أفكار تقدّمية وحرة، بل إنَّها كانت تعتمد على النص الديني. إنَّ هذه الأفكار التي تختلف عن التعاليم الحالية للكنيسة الكاثوليكية، استُلهمت من المبادئ الأولية على الرغم من ظاهرها التنويري، ولم تكن مجرد فكر حر خارج الالتزام الديني.

وحقيقة الأمر أنَّ انفراده نسبيًا بهذه الرؤى ناتج في معظمه عن بنية التشكيلات الدينية للكنيسة الكاثوليكية، وكذلك السياسة الخاصة للبابا السابق يُوحنَّا بولص الثاني. هذا السبب الثنائي جعل من عناصر القرار الديني في الكنيسة الكاثوليكية يلتزمون جانب الحيطة أكثر من اللازم، وهذا بحد ذاته يحتاج إلى تفصيل في الكلام.

فقد كان يُوحنَّا بولص الثاني وبعكس سابقَيه: بولص السادس[1] ويُوحنَّا الثالث والعشرين (١٨٨١ - ١٩٦٣)[2] من المحافظين جدًا من الناحية العقائدية،

(1) Popr Paul VI.
(2) Pope John XXIII.

وهذا يعود إلى حد كبير إلى كونه من أصول بولندية؛ ذلك أنَّ الكنيسة البولندية، مقارنةً بالكنائس الكاثوليكية في أوروبا، كانت كنيسة مغلقة ومحافظة، وأصبحت أكثر انغلاقًا بعد سيطرة الشيوعيين على الحكم هناك. وأدت هذه الخصلة، مع الميل إلى المركزية المفرطة، إلى أن تتسم الشخصيات الكنسية - التي ترتقي في مناصبها- بصفات معينة، أهمها أن تكون شخصية محافظة في الاعتقاد والعلم. وأدى بروز هذه الظاهرة إلى أن تصبح الشخصيات الكنسية بعد وصول يُوحنًّا بولص الثاني إلى منصب البابا محافظة في توجهاتها. كمثال على ذلك، فإنَّ مجلس الكرادلة في العقود الثلاثة الأخيرة أصبح أكثر محافظة من العقود التي سبقته بكثير. وربّما كان هذا هو سبب انتخاب البابا الحالي بعد وفاة سلفه، والذي يعدّ الأكثر محافظة في التاريخ المعاصر.

في مثل هذه الظروف، من المفترض أن يصبح شخص مثل مارتيني وحيدًا، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد كان هناك الكثير من القساوسة الذين يشاطرونه في الرأي، لكنّهم لم يكونوا مؤثرين. ولا بد من القول هنا: وجود العديد من الكرادلة الذين يمتلكون رؤى مغايرة للموقف الرسمي، يصرحون بها في الحوارات الخاصة، وهم في معظمهم من ألمان أوروبا ومن أميركا اللاتينية.

خليفة يُوحنًّا بولص الثاني

عانى يُوحنًّا بولص الثاني منذ أواسط التسعينيات من الضعف والمرض، واشتد به المرض حتى تساءلت الصحافة الإيطالية حينها عن مدى ضرورة بقاء البابا في منصبه مدى العمر، ودعت إلى استقالته وانتخاب بابا جديد، وقد لقيت هذه الرؤية حينها الكثير من الأنصار والمعارضين.

في تلك الأيام بالضبط طُرِحت قضية خلافة مارتيني، فقد كانت تحدو الكثير من الشخصيات والأشخاص غير المؤمنين، وعدد من المتدينين رغبة في أن يصبح خليفة للبابا، حتى أنَّ البعض صرحوا وكتبوا علانية في هذا الموضوع، إلّا أنَّ مارتيني لم يتحدّث ببنت شفة، فقد كان كما عهدناه راسخًا ثابتًا واثقًا بنفسه، ممّا زاد من اندفاع أنصاره نحوه. وفي عام (٢٠٠٢) بلغ عمره (٧٥) عامًا، وتنحى عن منصبه على الرغم من قدرته على الاستمرار بمهامه لسنوات أخرى، وهاجر إلى بيت المقدس؛ ليقضي وقته هناك بالعبادة والتأمل.

فضلًا عن ذلك، لم توجه له أيّ تهمة باستغلال منصبه ومكانته، في وقت كانت إيطاليا تعجّ بالفاسدين والمافيات، إذ كان الكثير من الشخصيات الكاثوليكية والفاتيكانية ربّما متهمة بالاشتراك في الفساد، حتّى كشف الإعلام حينها عن بعضها، ووصل بعض هذه القضايا إلى المحاكم، في حين كان مارتيني بعيدًا عنها تمامًا.

في عام (٢٠٠٥) توفي البابا يُوحنَّا بولص الثاني، وكان على شورى الكرادلة أن يبحث عن بابا جديد، وقيل إنَّ بعضهم كان راغبًا في انتخاب مارتيني لهذا المنصب، ولكن من الصعب تأكيد مثل هذه الإشاعات؛ لأنَّ الأمور تجري بسرية تامة، حتى انتخب راتسينغر[١] لهذا المنصب، إذ كانت له مواقف مغايرة تمامًا لمارتيني حسب العارفين بالأمر، لتغلق من جديد أيّ نافذة أمل لمحاكاة الحاجات الواقعية للكاثوليكية المعاصرة.

متخلفون عن الزمان

عبارة «أنَّ الكنيسة متخلفة مائتي عام عن زمانها» قالها مارتيني لصحيفة «كوريره دلاسرا»[٢] الإيطالية الواسعة الانتشار، وقبل أيام فقط من وفاته. وقد أشار في هذا اللقاء إلى مواضيع مهمّة، ليقول في الختام إنَّ الكنيسةَ بحاجة إلى تغيير، يقوم به البابا والأساقفة.

هذا الكلام صدر عن أحد أعلم الشخصيات الكاثوليكية المعاصرة وأكثرها معرفة، ولا يمكن إدراك هذا الكلام بالشكل الصحيح إلا حينما نعرف مسار تطور المبادئ المسيحية وتطورات العصر الجديد، والتغيرات التي طرأت عليها في القرن الأخير لمماشاة الضرورات الزمانية، وبقاء هذه المشاكل على الرغم من كل ذلك.

هنا يجب ألّا نقع في الخطأ! فلا يقصد من هذا الكلام عموميات الكنيسة الكاثوليكية، فعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى المؤسسة التعليمية للكنيسة الكاثوليكية على المستويات كافة: (الابتدائية، والمتوسطة، والجامعية)، فهي تعدّ من أنجح المؤسسات وأكثرها تطورًا في عالم اليوم، وهذا ينطبق أيضًا على المؤسسات الخدمية والعلاجية، وإن كانت أقل من التعليمية، إلا أنّها الأكثر تطورًا في زمننا هذا. فالمقصود إذًا من

---

(1) Joseph Aloisius Ratzinger>
(2) Corriere della Sera.

كلامه هو مكانة الكاثوليكية الأوروبية لا غير، فقد أصبح لمن له معرفة بالثقافة الأوروبية أنَّ الديانة الكاثوليكية في أوروبا باتت تلفظ أنفاسها، ولهذه الظاهرة أسباب عديدة، للكنيسة دَور فيها؛ والدليل على ذلك هو الشعبية التي اكتسبها مارتيني.

تشييع مهيب

في السنوات الأخيرة توفي الكثير من الكرادلة - سواء في أوروبا أو في إيطاليا- وبعضهم بارزون جدًا مثل «بيو لاغي» (١٩٢٢ - ٢٠٠٩)[١]، إلا أنَّ طقوس الدفن لم تتجاوز البعد الرسمي المحدود، بينما ألقى أكثر من مائتي ألف شخص في ميلانو نظرة الوداع على جثمان مارتيني في ثلاثة أيام، وشارك الآلاف في مراسم الدفن، التي حضرها رئيس الوزراء والمسؤولون الرسميون والدينيون في ميلانو. وفي هذا دلالة على أنَّ الأوروبيين وعلى الرغم من كل العوائق والمشاكل، يحترمون رجال الدين المستقلين الأحرار العلماء، بل أكثر ممّن سواهم من غير رجال الدين، الذين يتمتعون بالمزايا نفسها. وإنّني أرجو أن تتاح الفرصة المناسبة للحديث عن الخصائص الفكرية لهذا الرجل.

الأفكار الجديدة في الكنيسة الكاثوليكية[2]

يعدُّ مارتيني أحد مفكري الكنيسة الكاثوليكية في العصر الحاضر على الرغم من فعالياته الاجتماعية المختلفة، خاصة عندما كان أسقفًا لميلانو. فقد كان معجبًا بالمفكرين الكاثوليك الألمان، وقام بترجمة كتب مختلفة لكارل راهنر (١٩٠٤ - ١٩٨٤)[٣] وهانس كونج (١٩٢٨ - ٢٠٢١)[٤]، وكانت له إبداعات كثيرة، بلحاظ معرفته باللغات اليونانية واللاتينية والعبرية، إلا أنَّه كان يصرح بها محتاطًا، بسبب تعارضها مع معايير الكنيسة الكاثوليكية. ويشتمل كتابه الموسوم «الإيمان والمعرفة»[٥]، الذي طبع باللغة الإيطالية على الكثير من المواضيع المهمة، وهو عبارة عن مجموعة من

(1) Pio Laghi.

(٢) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٣٠/ ٩/ ٢٠١٢.

(3) Kari Rahner.
(4) Huns Kung.
(5) Credere e Conoscere.

الحوارات بين مارتيني والسناتور إينياتسيو مارينو (١٩٥٥)[1]، وسنحاول فيما يلي تسليط الضوء على بعض هذه المواضيع.

إنَّ ما يميز مارتيني عن نظرائه المعاصرين هو فهمه للمسيحية كما كانت في عهودها الأولى، وليس من طريق تراث القرون الوسطى. وكما قلت، فإنَّه كان من المتخصصين الممتازين في اللغات القديمة اليونانية واللاتينية والعبرية، وخاصة اليونانية إذ كان مقتدرًا فيها، بحيث كان العضو الوحيد من رجال الدين في المجمع الذي يتولى مسؤولية تصحيح ونشر الكتاب المقدس باللغة اليونانية القديمة، وذلك في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

ويعلم من له معرفة بالتقاليد والثقافة الجامعية والبحثية في أوروبا القرن العشرين، بأنّ الأجواء المعادية لرجال الدين، بل للدين نفسه[2] كانت من الشدة بحيث لم يكن يسمح لأي رجل دين بالدخول والمشاركة في مثل هذه النشاطات، باستثناء رجل الدين المتخصّص والمنفتح على الحوار العلمي والنقدي، وكان مارتيني في تقديرهم من هذا الطراز، بحيث تمكن ملاحظة هوامشه على صفحات الكتاب المقدس الذي طبعوه.

والمهم هنا، هو أنَّ فهمه للمسيحية كان يستند على أساس النصوص الأولى، والظروف العامة لعصر المسيح – عليه السلام- والحواريين والمسيحيين الأوائل. ولهذا السبب تحديدًا كان يوصي طلابه دائمًا بالتركيز في دراساتهم على اللغات القديمة والتاريخ القديم، وهو موضوع لم ينل الاهتمام اللازم؛ لأنَّ كاثوليكية عصرنا هي استمرار لكاثوليكية القرون الوسطى، وتتغذى على تراثه.

وبطبيعة الحال، فإنَّ هاتين المرجعيتين تنتجان نوعين من التفسير، وقد تكون هذه النقطة هي السبب في الفهم المتباين لموضوع الأخلاق الجنسية.

(1)Ignazio R. Marino.
(2) Anticlerical.

رجل يعرف أوروبا

كان مارتيني على معرفة وافية بالثقافة الأوروبية والمجتمع الأوروبي، وبآليات تطوره وضروراته ومقتضياته؛ مع كل ما تتوفر عليه من ثقافة معقدة ومتنوعة.

فبصرف النظر عن القطاع الذي يقطنه السلافيون، فإنَّ الجزء الشمالي، والنورمان، والجيرمان، والإنكلوساكسون، واللاتين، كانوا على الدوام – وما زالوا– في تفاعل وتبادل متواصل، فضلًا عن التحولات الخاصة بكل مجموعة من هذه المجموعات، التي تجري في نطاقها الخاص. في هذه الأثناء كانت أميركا والثقافة الأميركية هي أهم عامل مؤثر خارجي، تغلغل بشكل متزايد بعد الحرب العالمية الثانية. مضافًا إلى أنَّ التطورات الصناعية، وما بعد الصناعية، أثرت بشكل تصاعدي على الفرد والمجتمع الأوروبي، وأوجدت ظروفًا جديدة في هذا المجتمع.

وليس ثمة الكثير في أوروبا ممّن يستطيع إدراك هذه المجموعة من التطورات وتحليلها بما هو مناسب، وحتى في الأوساط العلمية والجامعية، فهناك الكثير ممّن يستطيع فهم المجتمع الأوروبي المعاصر، ولكن في غير مواكبة للزمن. ولعل الأزمة التي يمر بها الاتحاد الأوروبي في جزء منها تعود إلى هذه الحقيقة. ولعل غياب المعرفة الكافية هو الذي دفع إلى توسيع الاتحاد؛ لضم هذا العدد من الأعضاء، بما لا ينسجم مع قدرته الاستيعابية، وكذلك في موضوع الوحدة النقدية أو النظام المالي المشترك. فكيف يمكن وضع نظام مالي لبلدان تمتلك البنية والتقنية المعرفية، مثل ألمانيا، وهولندا، والسويد، إلى جانب نظام بلدان مثل اليونان، والبرتغال، تفتقد للبنية المتناسبة مع الوضع الجديد للاتحاد، حتى لو أحسنّا الظن، وقلنا إنَّ هذه البلدان تقوم بدور تكميلي ليس إلا، فبلد مثل اليونان يجب أن يعتمد اقتصاده على السياحة، وعلى الزراعة باعتباره بلدًا متوسطيًا، لا أن يصبح بلدًا صناعيًا بمستوى الدنمارك مثلًا.

إذًا، فالإنتاج الفكري والديني والفلسفي، ومبادرات المؤسسات المسيحية الأوروبية، تكشف عن غياب معرفة دقيقة بالظروف الموجودة، وهذه حقيقة أشار إليها مارتيني في لقائه الأخير، تحت عنوان «متخلفون عن الزمان مائتي عام»، هذا على الرغم من أنَّ للمسيحية بعض المؤسسات التي سبقت الزمان وربّما سبقته كثيرًا.

ومن بين المجموعات الدينية المتعلقة بالكنيسة الكاثوليكية هم اليسوعيون، الذي يتوفرون على ظروف أفضل ممّن سواهم؛ وذلك لصعوبة نظام الاختبارات لديهم

وتطور النظام التعليمي والتربوي، وتراثهم العلمي والتجريبي الغني. إضافة لذلك، فإنَّهم يقطنون في مجمعات سكنية مشتركة، فعلى سبيل المثال ثمة مجمع سكني كبير قرب جامعة غريغورين في روما يعود إليهم تقريبًا، حيث يسكنه اليسوعيون العاملون في روما من كل قومية وبلد. وهذا النمط من الحياة المشتركة يغني ثقافتهم، ويزيد من نضجهم بسبب التنوع الثقافي والفكري واللغوي، فتراهم يتكلمون بلغات حية عدة، وكان مارتيني من هذه الفئة، ومن اليسوعيين النادرين، الذين وصلوا إلى مرتبة الكاردينال؛ لأنَّ معظم اليسوعيين لا يتجاوزون مرتبة الأسقف.

المعرفة بروح الزمن

إنَّ الثقة بالنفس التي كان يتصف بها مارتيني وقدرته العلمية ومعرفته بالمجتمع والثقافة المعاصرة، هي أسباب جعلته منفتحًا على زمانه، فكان يعتقد أنَّ المراسم العبادية للكنيسة الكاثوليكية ثقيلة إلى حد ما، ولا تخرج عن الإطار التشريفي ولا يمكن أن تلبي حاجة الجيل المعاصر، فهي مراسم جذابة ومقنعة للأوروبيين في الماضي، ما قبل القرن التاسع عشر، حينما كانوا تحت سلطة الإمبراطوريات الكبرى، وقد تبلورت بهذه الصيغة بما ينسجم مع أجواء تلك المدّة ومشاعرها وأفكارها وتصوراتها وتوقعاتها.

أمّا طريق الحل الذي طرحه، فهو الارتباط مع الجمهور بعيدًا عن تشريفات الكنيسة، والسماح للآخرين بإبداء آرائهم، حتى وإن كانوا بعيدين عن الدين. ومن المعروف أنَّه كان راغبًا حتى في التحدّث إلى «الكتائب الحمر»[1]، الذين ارتكبوا أعمالًا إرهابية في السبعينيات، واختطفوا رئيس وزراء إيطاليا حينها ألدو مورو (١٩١٦)[2]، ثم قتلوه. فقد كان يقول: إنَّ المسيح – عليه السلام- جاء ليتحدّث إلى الناس وإبلاغ كلمة الحق، وذلك بأن يكون في أوساطهم ويتعايش معهم ويتحدّث إليهم. وهذا يعني أنَّه كان معارضًا لسلسلة الرتب، التي تجعل من القساوسة والأساقفة مجرد مناصب للعمل، تقطع علاقتهم بالناس وتحددها في الإطار الذي تريده الكنيسة، على الرغم من أنَّه لم يتحدّث حول هذا الموضوع بشكل صريح.

---

(1) Red Brigades.
(2) Aldo Moro.

لهذا السبب بالضبط فتح أبواب كنيسته أمام الجميع، فكان يحضر جلساته كل من يرغب ومن أيّ فئة كان، فيتحدّثون ويستفسرون ويستمعون للأجوبة، فكانت هذه - كما قلنا سابقًا- مبادرة غير مسبوقة أكسبته الشهرة والشعبية؛ والغريب أنَّه كان محبوبًا في صفوف غير المؤمنين، أكثر من شعبيته في صفوف المتدينين، الذين كانوا يسايرون معايير الكنيسة.

يقول أحد أصدقائي وهو من المتخصصين البارزين في الإلهيات المسيحية، ومن خريجي جامعة غريغورين المسيحية: ((إنَّني أسعى لحضور خطب مارتيني، التي كانت تلقى أسبوعيًا في كنيسة ميلانو الكبرى، حيث كنت أتعلم منه الجديد في كل مرة))، والطريف في الأمر أنَّ هذا الرجل كان لا دينيًا ويعيش في فلورنسا.

ينقل البروفسور كارلو ملوني (١٩٧٠ - ٢٠٢٣)[1]، أستاذ التاريخ المسيحي، ورئيس مؤسسة يُوحنَّا الثالث والعشرون[2] في إحدى مقالاته بأنَّه سُئِل من أحد أصدقائه اللا دينيين عن سبب عدم مشاركة البابا شخصيًا في مراسم دفن مارتيني، فيجيبه بأنَّ المراسم أقيمت على أعلى المستويات وبمشاركة رئيس وزراء إيطاليا، لكنَّ صديقه يقول: إنَّ البابا كان لا بد أن يشارك في هذه المراسم.

ومهما يكن، فإنَّ التقليد الذي أرساه مارتيني في كنيسة ميلانو حظي بإقبال كبير، حتّى خلفه الكاردينال تيتامنزي (١٩٣٤ - ٢٠١٧)[3]، الذي استمر عليه بعد إحالة مارتيني على التقاعد، بل استمر أيضًا في فترة الكاردينال إسكولا[4]، الذي تلاه.

الإصلاحات الكنسية

كان مارتيني يركز على نقطتين فيما يتعلق بالكنيسة: الأولى النظام الكنسي، والثانية الضوابط العبادية الحقوقية للكنيسة.

فقد كان يعدّ النظام الكنسي بأنَّه نظام ثقيل إلى حد كبير، ويتسم بالجانب البروتوكولي، ممّا لا يتناسب مع المتطلبات المعاصرة، ممّا أدى إلى خلو الكنيسة من

---

(1) Carlo Meloni.
(2) Fondazione per le Scienze Religiose Giovanni XXIII.
(3) Dionigi Tettamanzi.
(4)Angelo Scola.

المؤمنين والمستمعين، على الرغم من فخامة أبنيتها وأناقة ملابس القساوسة والأساقفة. فيما يتعلق بالنظام الكنسي، كان معارضًا لطريقة انتخاب الأساقفة بصورة غير ديمقراطية، حسب رأي النقاد حتى المتدينين منهم، إلا أنَّه لم يكن يصرح بذلك حفظًا لمقام البابا ومنزلته.

أمّا ما يتعلق بالضوابط الكنسية أو بعبارة أخرى بفقه الكنيسة، فكان يطالب بإعادة النظر بل إجراء تعديلات عليها. فهو يعتقد – كما الكثير من المتخصصين– بأنَّ الفقه الحالي للكنيسة الكاثوليكية يعود إلى القرون الوسطى، وليس المسيحية الأولى. على سبيل المثال، فإنَّ الطلاق ممنوع في الكنيسة الكاثوليكية تحت أيّ عنوان، وبأي شكل كان، إلا في حالات استثنائية ونادرة جدًا، ممّا لا يمكن أن يسمى طلاقًا، وإنَّما إبطال عُرَى الزوجية، الذي لا يمكن أن يتم إلا بعد موافقة أرباب الكنيسة، وبعد مسار طويل وتفصيلي، حيث تقر الكنيسة ببطلان علقة الزوجية أثناء وقوعها. بعبارة أخرى، فإنَّ الكنيسة تصل إلى نتيجة بعدم وقوع الزواج أساسًا، وليس حصوله ثم الافتراق من بعد.

ومن تداعيات هذا المنع هو إجراء الطلاق خارج إطار الضوابط الكنسية، ومن دون أخذ رأي أرباب الكنيسة، ومن ثم، فإنَّ الزوجين لا يستطيعان بعدها استخدام الخبز المقدّس في أثناء الطقوس الكنسية، وهذا ما يؤدي إلى وقوع مشاكل كثيرة، كنت شاهدًا على بعض حالاتها، إلا أنَّني أتجنّب ذكرها الآن.

وهذا يعني – فيما يعنيه– أنَّ زواج المرأة والرجل ثانية لا مشروعية له برأي الكنيسة؛ لأنَّ انفصاله جرى بطريقة غير مشروعة، وهذا ما يسبب مشاكل للمؤمنين بالكنيسة على الأقل. كان مارتيني يعتقد بأنّه لا بد من إعادة النظر بهذا القانون، وكان يقول: إنَّ عدم السماح للمرأة المطلقة المتزوجة ثانية باستخدام الخبز المقدّس، إنَّما هو ظلم للمرأة ولأولادها الذين ستتغير نظرتهم إلى الكنيسة.

الحالة الأخرى هي عدم موافقة الكنيسة على استخدام أيّ وسيلة لمنع الحمل. ولهذا المنع استدلال خاص للكنيسة سنتناوله في مكان آخر، ونناقش تداعياته على المؤمنين في أوروبا. فبعد انتشار مرض الإيدز، واستخدام الواقيات كأفضل وأسهل وأرخص وسيلة لمنع انتشار هذا المرض الفتاك، طُرِحَ موضوع استخدام الواقيات خاصة في بلدان العالم الثالث، والدول الإفريقية الفقيرة، التي تعدّ أكثر ضحايا الإيدز،

غير أنَّ الكنيسة واصلت معارضتها، ممّا وجه لها ولمكانتها ودورها ضربة كبيرة أخرى، إذ ارتفعت أصوات عامة الأطباء، وخبراء منظمة الصحة العالمية والمنظمات غير الحكومية، وأنصار حقوق الإنسان والبيئة، بل جميع الأحزاب الأوروبية.

كان مارتيني معارضًا لهذه المعارضة من قبل الكنيسة، وكانت له أسبابه بالطبع. كما كان معارضًا لحفظ الحياة بأي ثمن وتحت أيّ ظرف. فقد كان يقول: إنَّ العلوم والتكنولوجيا الجديدة وفرت إمكانية استمرار الحياة النباتية للشخص المشرف على الموت من دون أن تكون له حياة إنسانية مرضية، أو على الأقل يمكنه الحصول عليها في المستقبل المنظور. وهو شخصيًا لم يسمح في الشهور الأخيرة من عمره باستخدام هذه الوسائل لحفظ حياته.

وبشكل عام فقد كانت آراؤه في الأخلاق الجنسية، وشرعية زواج القساوسة التي ترفضها الكنيسة الكاثوليكية، تختلف عن المواقف الرسمية. والجدير بالذكر أنَّ هذه الآراء قبل أن تكون منبثقة من سماته الخاصة به وتحرره ونظراته التقدّمية، فهي متأثرة بمعرفته لمسيحية ما قبل القرون الوسطى، ومعرفته بزمانه ومجتمعه المعاصر. وحقيقة الأمر أنَّ آراءه في هذه الموضوعات تتناسب مع المسيحية الأولى ونصوصها أكثر من المواقف الكاثوليكية الموجودة. وعليه يمكن القول: إنَّ التراث الثقيل للقرون الوسطى وضع الكنيسة الكاثوليكية في وضع صعب وحرج.

انتقاد سلمي

لا بد من دراسة مواقف مارتيني حول الحضور السياسي – الاجتماعي للكنيسة في فرصة أخرى، ولكن على الرغم من اختلافه الكبير مع مواقف الكنيسة الرسمية، فإنَّه لم يطرح أفكاره بشكل مثير، بل دعا في آخر مقابلة معه إلى حل المشاكل الموجودة عن طريق البابا والأساقفة.

وعلى الرغم من أنَّ الإصلاحات الكنسية في القرون الماضية كانت تقترن بالاحتجاجات والتمرد والثورة، فإنَّ هذه الأساليب لم تعد تستخدم تقريبًا بعد حروب الثلاثين عامًا المعروفة. وأيقنت الكنيسة والكنسيون عمليًا بضرورة استخدام الأساليب الإقناعية السلمية للإصلاح. فهي كانت تسعى لإيفاء الدور الوسيط المهدئ حتى بين صراعات أصحاب التوجهات المختلفة داخل الكنيسة الواحدة، أو

أصحاب الكنائس المختلفة. وبتعبير آخر، فإنَّها كانت تسعى للبقاء على استقلالها في النزاعات والصراعات، ولا تقف إلى جانب طرف ضد آخر.

ومن المتوقع إلى حد كبير أن يأخذ الجيل المقبل من رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية بمحمل من الجد آراء مارتيني؛ لأنَّ مقاومتها حاليًا يعود إلى النظام المعقد والبيروقراطي الحاكم على الكنيسة، وليس لمجرد أنَّها آراء فلسفية وكلامية مختلفة. والطريف أنَّ مارتيني نفسه انتقد مرارًا هذا النظام «المتخلف».

يمكن أن تصبح آراء مارتيني - كونه رجل دين مسيحيًا مفكرًا وعالمًا عارفًا بمجتمعه وثقافته- محطّ تأمل واهتمام، خاصة طريقة تعامله مع الآخرين وبمحورية الكنيسة؛ فقد كان يكشف عن مواقفه من دون أن يثير حفيظة الآخرين، ويعتقد أنَّ الزمن كفيل بإثبات صحتها، وستجد طريقها إلى التطبيق في الوقت المناسب.

الدين والنظام الحقوقي[1]

منذ بداية مهمتي في الفاتيكان استقطب اهتمامي ولأسباب مختلفة الكاثوليك، الذين يتكلمون اللغة الألمانية. ويعتقد أنَّ الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا أكثر نظمًا من الناحية التاريخية والثقافية من نظيرتها اللاتينية. وقد لفت انتباهي إلى حد كبير بقاء القطاع الألماني كاثوليكيًا، حتى بعد التطورات الجديدة والتحولات الدينية والتاريخية الكثيرة في داخل ألمانيا نفسها. وما يلفت الانتباه أكثر هو فهم مكانة الكنيسة الكاثوليكية ومواقفها في سويسرا؛ لما يتمتع به هذا البلد من خصوصيات، خاصة ما يتعلق منها بالتطورات الدينية.

وما استنتجته من مجموع حديث الأصدقاء في قسم «حوار الأديان» في طهران، أنَّ إيران وسويسرا اتفقتا على فتح حوار حول الدور الذي يمكن أن يؤديه الدين بلحاظ النظام الحقوقي الحاكم في المجتمع. وربّما كان هذا من أصعب البحوث وأبعدها نتيجةً في مثل هذا الموضوع في الحوار المشترك؛ لأنَّنا نعيش في ظروف مغايرة تمامًا، ومع ذلك سأحاول فيما يلي الإشارة إلى بعض الملاحظات التي ترتبط بنا.

---

(١) مقالة تم تقديمها إلى ملتقى "دور الدين في المجتمع" في المرحلة الرابعة للحوار مع سويسرا في مدينة زوريخ الألمانية في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥.

النظام الفقهي والحقوقي في الإسلام

للإسلام كدين خصوصياته الاستثنائية ومنها: نظامه الفقهي والحقوقي، الذي يوفر حياة اجتماعية تنسجم مع مبادئه وأسسه. والمهم هنا أنَّ هذا النظام الفقهي هو جزء من الإسلام ككل، لذلك يجب الإيمان به والعمل به أيضًا. والإسلام من هذا المنظور هو أشبه إلى اليهودية منه إلى المسيحية. وبطبيعة الحال، فإنَّ هذا لا يعني بأنَّ النظام الحقوقي الذي حكم المجتمعات الإسلامية طوال التاريخ كان نظامًا إسلاميًا على الدوام، بل كانت هنالك قوة داخلية تدفع هذه المجتمعات نحو تحقيق ذلك النظام الفقهي.

وهنا يُطرَح سؤال آخر هو: ماذا يعني هذا النظام الفقهي؟ وهل هو نظام واحد؟ بالطبع، فإنَّ الأمر ليس كذلك، بل كانت هناك مدارس فقهية مختلفة منذ بدايات الإسلام، انقرض الكثير منها، ولم يبقَ في القرون التالية إلا عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليدين. إنَّ النظام الحقوقي الفقهي في المجتمعات الإسلامية المختلفة وعلى مر التاريخ كان مزيجًا من العرف والثقافة المحلية والنظام الفقهي المذكور، إذ كانت حصة كل من هذه العوامل والمؤثرات تتغير حسب الظروف، على الرغم من أنَّ المعتقدين بالأصالة كانوا يسعون لتغيير النظام الحقوقي لصالح استقرار الأحكام الفقهية.

وبلحاظ ما ذكرنا، فإنَّ الأنظمة الحقوقية الموجودة في البلدان الإسلامية لم تكن تتعارض مع الدين، خاصة في المناطق التي شعّت فيها الحضارة الإسلامية في الماضي؛ والسبب في ذلك أنَّ هذا النظام كان متجذرًا في عقائد الناس والهوية الدينية للمجتمع، بل هو الذي بلور هذه الهوية فكان منسجمًا معها لقرون طوال، ولكن كيف يبدو الوضع في عصرنا الحاضر؟

المسلمون والعصر الجديد

بدأ التعاطي الجاد والمتواصل للمسلمين مع العصر الجديد أوائل القرن التاسع عشر تقريبًا وبأبعاده المختلفة، ولكنَّ البعد الحقوقي والفقهي يعود إلى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وكان السؤال المطروح يومها: كيف يجب أن يكون النظام الحقوقي للمجتمع الجديد؟ ولم يكن الكلام يدور في تلك الأيام عن تنحية النظام الفقهي الحاكم، على الرغم من قوة المدافعين عن النظام الحقوقي الجديد

وتغلغلهم، بل يبحث عن تكييف الجديد والقديم مع بعض؛ وذلك لأسباب أهمها: أنَّ المجتمع كان مجتمعًا إسلاميًا، وكان يستند على عرف وتقليد ونظم متجذر في الأعماق، وكذلك لوجود مشتركات ونقاط التقاء كثيرة بين النظام الحقوقي الجديد والنظام الفقهي، إلا أنَّ حصة العناصر الفقهية ارتفعت أوائل القرن العشرين بعد عقود من التحولات الاجتماعية والفكرية والسياسية.

ومهما يكن، فإنَّ النظام الحقوقي في المنطقة الإسلامية لم يؤدِ إلى مشكلة دينية حادة، لكي نتحدّث عن الدور الذي لا بد للدين والالتزام الديني أن يؤديه في هذا المضمار.

ولا يمكن أن ننكر هنا وجود قضايا جديدة تطرأ في المستقبل، بسبب تغير الموضوعات والعناوين ممّا يجعلها تتطلب أحكامًا خاصة بها. من الأفضل هنا أن نشير إلى التجربة الإيرانية، إذ طرأت في العقود الأخيرة قضايا مختلفة وكثيرة، من حقوق المرأة إلى القضايا الحقوقية المرتبطة بالعمل والعمال والملكية الفكرية وجميع ما بات يُطلق عليه اليوم بالأخلاق الجنسية وتعديل الجينات الوراثية. فقد وجدت كل من هذه الموضوعات إجابات طبق المباني الفقهية والأصولية بعد اتضاحها، وسجلت إيران نجاحًا في هذا المجال.

مشكلات الكنيسة الكاثوليكية

أود هنا أن أذكر إحدى الخواطر من دون أن يكون الهدف هو المقارنة، ففي الأشهر الأولى من مهمتي في الفاتيكان زرت المونسينيور إليو سجريسكا (١٩٢٨ - ٢٠١٩)[1]، رئيس مركز الأخلاق الطبية في جامعة القلب المقدس[2] الكاثوليكية، وهي جامعة معتبرة مرتبطة بالفاتيكان، وقد ارتقى فيما بعد إلى منصب كاردينال، ودار محور الحديث عن مشروعية استخدام وسائل منع الحمل من عدمها، وكان الرجل يعدّها أمرًا غير مشروع، حتى في حالة العزل خارج الرحم. وكان يرى أنَّ الطريقة المشروعة الوحيدة لمنع الحمل هو «المنع الفسيولوجي»؛ لأنَّ النطفة لا تنعقد في تلك المدّة؛ لعدم وجود البويضة أساسًا، ولا يحصل التلقيح؛ لعدم استعداد الرحم عمليًا.

---

(1) Monsignor Elio Sgreccia.
(2) Bio-ethics Center, Sacred Heart Catholic University.

ولكن القضية هنا هي أنَّه لا يمكن تحديد هذه الأيام بوجه دقيق خاصة للشباب، ويمكن أن يقع الحمل إلى حد كبير، ممّا يؤدي إلى وقوع مشاكل، لا حصر لها.

وقد قدّم بعض الاستدلالات لموقفه لا أذكرها هنا؛ لأنَّها انتزاعية، بل انتزاعية بشدة مع الاعتذار للأصدقاء الكاثوليك، فتعاملنا مع مثل هذه القضايا يختلف بشكل كبير، وينطبق على واقع الحياة ويتوافق معها، لهذا فإنَّ الاستنباطات الجديدة يمكن أن تتبدل إلى قوانين جديدة.

بلحاظ ما ذكرنا لا بد من القول: إنَّ بعض القضايا المطروحة على الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، لا تعدّ قضية مهمة بالنسبة لنا، أو على الأقل ليست بتلك الشدة، مثل الإجهاض، أو الموت الرحيم، أو قضايا أخرى تتعلّق بتغيير الجنس والتعديل الوراثي.

بعد استفتاء (٢٠١٥) في إيرلندا حول قانونية الزواج المثلي، واجهت الكنيسة تحدّيات، مثل موقفها من هذا القانون الذي اعترف بهذا الزواج، وماذا ستفعل لو راجعها المثليون لإجراء عقود الزواج في الكنيسة؟ وماذا سترد الكنيسة أو القسيس لو واجه شكاوى من المثليين في المحكمة تحت عنوان العنصرية؟

لا توجد مثل هذه الحالات بين المسلمين حاليًا لأسباب مختلفة، ومن المستبعد جدًا أن يواجهوا مثلها في المستقبل. وهذا لا يعني نفي الميول المثلية، إلا أنَّه من المستبعد جدًا ظهور ظروف مشابهة بين المسلمين حتى في المستقبل البعيد. فمثل هؤلاء الأفراد لا يمكنهم التظاهر بالمثلية؛ لأنَّ الواقع الاجتماعي لا يسمح بذلك أبدًا، كما هو الحال الآن في الكنائس الكاثوليكية في البلدان الآسيوية وحتى الإفريقية.

على أيّ حال، فهذه القضية هي حقيقة واقعة في أوروبا الحالية، ويبقى موقف الكنيسة الكاثوليكية منها ومن الموضوعات المماثلة ودلالاتها النظرية مهمًا لنا جميعا ويساعدنا على إدراك القضايا والموضوعات الجديدة بشكل أفضل للعثور على الحلول المناسبة لها.

الكنيسة الكاثوليكية والحاجة إلى التغيير[1]

على حين غرّة أعلن البابا بنديكيت السادس عشر[٢] الألماني جوزيف راتسينغر[٣] استقالته بسنّ الشيخوخة، وتنحّى عن منصبه في الثامن والعشرين من فبراير/ شباط؛ ليعقد شورى الكرادلة بعدها أولى اجتماعاته لتعيين الخليفة له. ومثّلت استقالة البابا حالةً نادرة جدًا في تاريخ المسيحية الكاثوليكية، ممّا أوجدت موجةً عارمة من الأخبار التي تناولتها وسائل الإعلام الكبرى. وعلى الرغم من الأسباب التي ذكرتها وسائل الإعلام لهذه الاستقالة المفاجئة والكلام الكثير الذي قيل في ذلك، فإنَّ البابا أعلن أنَّ كبر سنه وعجزه عن أداء مهامه هو الذي دفعه للاستقالة وقال: ((إنَّ الله يريد منّي أن أتفرغ للدعاء والتأمل)). وأجرى البابا لقاءه الأخير مع الكرادلة قبل أن يتوجّه إلى منتجعه الصيفي جنوب روما.

ما منزلة البابا لدى الكاثوليك؟ وما مدى تبعية الفرد المسيحي المؤمن للبابا؟ وما حدود طاعته له؟ وما صلاحيات البابا؟

كما تعلمون، فإنَّ البابا يتعلق بالمسيحيين الكاثوليك، أمّا المجموعات المسيحية الأخرى، فلها تعريف مختلف لشخوصهم من الطراز الأول. ومن الضروري أن نشير هنا إجمالًا إلى فروع الديانة المسيحية الأخرى، إذ ينقسم المسيحيون من غير الكاثوليك إلى ثلاثة أقسام تقريبًا: الأول، الأورثوذكس، ويقطنون في روسيا، والبلدان المسيحية التي كانت ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وفي أوروبا الشرقية. والثاني، البروتستانت الذين يعيشون في شمال أوروبا وأميركا وكندا وأستراليا، ولهم تعليمهم ومبادئهم الخاصة، ويمكن عدّ الأنجليكان شعبة من البروتستانت. والثالث، أتباع الكنيسة الشرقية في مفهومها الشرق أوسطي ومنهم الأرمن. ولدينا في المنطقة كنائس متعددة، وقليلة السكان نسبيًا، يعود تاريخها إلى ماضٍ بعيد يصل إلى عهد السيد المسيح – عليه السلام– والحواريين، وكلها تعرف بالكنائس الشرقية، وهي شرقية – كما قلنا– وليست بيزنطية.

(١) لقاء أجراه الباحث في شوون المسيحية السيد مصطفى رستگار مع الدكتور محمد مسجد جامعي، وصدر لاحقًا في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٥/ ٣/ ٢٠١٣.

(2) Joseph Aloisius Ratzinger.

(3) Pope Benedict XVI.

لهذه المجموعات الأربعة حضور فعّال في العالم المسيحي، وأهمها هي الكنيسة الكاثوليكية. ويعدُّ البابا المرشد الروحي للكاثوليك في العالم. ويعني منصب البابا تحققًا اجتماعيًا ودينيًا وسياسيًا وتنظيميًا لمجموعة من الاعتقادات التي يجب أن يدين بها جميع الكاثوليك؛ بمعنى أنَّ أيّ كاثوليكي إنَّما هو على هذا المذهب؛ لأنَّه يجب أن يقبل زعامة البابا وحجية كلامه وتوصياته. ومن أهم خصائص الكاثوليكية هي القبول بتفسير البابا للمسيحية من دون قيد أو شرط. والبابا هو المصداق الأتم والأكمل للمسيحية.

إذًا، للبابا من هذا البُعد حكم مسيح عصره؟

يمكن القول بذلك تقريبًا، فالبابا رجل معصوم بنظر الكاثوليك، لكن لهذه العصمة تفاسير مختلفة، بمعنى أنَّ البابا معصوم في الحالات التي تتعلّق برسالته. فمنصب البابا هو نتيجة طبيعية لسلسلة من الاعتقادات الكاثوليكية التي تكاملت من الناحية النظرية على مر التاريخ.

هل يمكن القول بوجود أوجه شبه بين البابا وأتباعه، وبين مراجع التقليد ومقلديهم في المذهب الشيعي؟

نعم، هناك شبه، ولكنَّهما قضيتان مختلفتان من الأساس، فهناك وجه شبه بين الإسلام والمسيحية، والتشيع والكاثوليكية، ولكنَّهما ليسا على سياق واحد، لاختلاف الهيكلية والبنية الداخلية لكل منهما، وإذا أردنا أن نتحدّث باختصار، فنقول: إنَّ المرجعية في المذهب الشيعي، تعني مراجعة الأفراد إلى المرجع الحيّ بما يرتبط بالعمل بالأحكام الإسلامية وكيفية تطبيقها عمليًا. هذه العلاقة أنتجت حقيقة باسم المرجعية، ولكنَّ هذه المرجعية لا يحقّ لها سوى استنباط الأحكام الشرعية، أمّا منصب البابا، فليس على هذه الشاكلة، إنَّما يتمتع بصلاحيات وقدرة كبيرة تصل أحيانًا إلى حد التشريع، بمعنى أنَّه يقوم بعملية التشريع لبعض القوانين الدينية، إضافة لذلك، فإنَّ الفرد حر في حالة المرجعية الشيعية باختيار مرجعه، أو العدول عنه في بعض الحالات، أو أنَّه يستطيع أن يعمل بالاحتياط وفق المعنى الفقهي من دون أن يقلد مرجعًا معينًا، لكنَّ الأمر يختلف في الكاثوليكية، فلا يستطيع الفرد الكاثوليكي أن يتجاهل البابا وحجية كلامه وتوصياته؛ لأنَّ ذلك من

مبادئ الكاثوليكية، ولا يستطيع أيّ كاثوليكي أن يعدل عن البابا أو يرفض بابويته؛ لأنَّ مراجعة غير البابا في الأمور الدينية لا معنى له.

لماذا استقال البابا فجأة؟

من الأفضل أن نراجع كلام البابا نفسه، فقد قال إنَّه تنحى عن المنصب لمصلحة الكنيسة وبعد تأملات وأدعية كثيرة، وهذا الكلام مفهوم لمن يعرف وضع الكنيسة الحالية، فقد واجهت الكنيسة الكاثوليكية في السنوات الأخيرة تهديدات مختلفة من داخل الكنيسة، بل من داخل الفاتيكان نفسه ومن خارجه. وهذه التهديدات كانت موجودة بطبيعة الحال دائمًا ولكنَّها وصلت ذروتها في هذه المرحلة، فهو لم يستطع عمليًا مواجهة كل هذه التهديدات، كما لم يستطع أن يتجاهلها؛ ليستسلم في نهاية المطاف إلى نداء ضميره، ويعترف باستقالته بأنّه غير قادر على حل المشاكل وإدارة الكنيسة.

وتشمل بعض هذه التهديدات المطالبة المستمرة والضغوط الخارجية المتزايدة للاعتراف بحقوق المثليين. وبعضها الآخر يتعلق بالفساد الأخلاقي والجنسي لبعض القساوسة حتى في بلدان تعدّ مراكز تقليدية وتاريخية للكنيسة الكاثوليكية مثل إيرلندا والنمسا وبلجيكا، ممّا سبب أزمات شديدة، وأدى إلى ظهور دعوات لإعادة النظر في القوانين المتعلقة بزواج القساوسة، وبعضها يرتبط بالقضايا الداخلية للفاتيكان ومكتب البابا نفسه وسكرتيره الخاص.

هل هناك أمثلة محددة لهذه الضغوط بخصوص القبول بحقوق المثليين من قبل البابا؟

في إحدى أيام الآحاد حيث يلقي البابا خطبه للمؤمنين في ساحة القديس بطرس[1] وقعت حادثة نادرة جدًا يمكن عدّها مثالًا واضحًا لهذا الموضوع، إذ يشكل السياح الكاثوليك وغير الكاثوليك، القادمون من أقصى نقاط الدنيا، إضافة إلى السكان المحليين الجزء الأكبر من المشاركين في هذه المراسم، فقد قامت أربعة نسوة من بين الحضور في هذه المراسم وأثناء خطبة البابا بالتعري النصفي، وهي حادثة غير مسبوقة لكنَّها لقيت دعمًا مباشرًا وفوريًا من قبل وسائل الإعلام والأوساط التي

---

(1) St. Peter's Square.

تطالب بالاعتراف بحقوق المثليين. وعدّت هذه الاوساط هذه الفعالية احتجاجًا على البابا والكنيسة الكاثوليكية، ورفضها الاعتراف بحقوق المثليين. وغير هذه الضغوط واجهت الكنيسة أنواعًا أخرى من التهديدات، منها: انخفاض أعداد الأفراد الذين يرتادون الكنيسة، وتراجع دور الكنيسة والتعاليم الكاثوليكية في المجتمعات، وزيادة أعداد الأشخاص الذين يستقيلون من الكنيسة رسميًا.. كل هذه الأسباب تكشف عن مدى صعوبة ظروف الكنيسة، وكان الكاردينال مارتيني ناقش قبل ذلك هذه القضايا في كتابه الأخير «الإيمان والمعرفة»[1].

لم تواجه استقالة البابا في إيران بردود فعل واسعة لعدم وجود مسيح كاثوليك، وتم تداول الخبر على مستوى الإعلام فقط، ولكنَّ العالم المسيحي، ولا سيما الكاثوليكي صدم لهذا الخبر؟

نعم، هو كذلك، فحينما قدّم البابا استقالته كنت فى إيطاليا، ويمكن القول: إنَّه فجّر قنبلة خبرية حقيقية، إذ قامت جميع وسائل الإعلام الإيطالية والأوروبية من التلفزة إلى المواقع الخبرية بتغطية هذا الخبر وعلى رأس عناوينها، بل إنَّ وسائل الإعلام أنفسها تفاجأت به، وأدخلت المجتمع في دوامة من طريق تغطيتها الواسعة للحدث، كما شكّل مفاجأة للسلطات السياسية والكنسية الكاثوليكية، مثال ذلك ما شهدته بنفسي، حينما كانت القنوات التلفزيونية الإيطالية تنقل مقاطعَ من خطاب السيد اسكالا[2] كاردينال ميلانو في كنيسة المدينة، وهو يتحدّث مستغربًا لما حصل، ويثني على البابا في الوقت نفسه، وممّا قاله: ((إنَّ هذا الحدث كان مثيرًا جدًا، ولا يمكن تصوره وتصديقه ويبعث على الحيرة)).

بل إنَّ المتحدّث باسم الفاتيكان السيد لومباردي (١٩٤٢)[3] قال في أول مقابلة بعد هذا الحدث، ونقلته قنوات الإذاعة والتلفزة عامة: ((لا أستطيع توضيح ما حصل، ومن الأفضل ألّا أجيب على الأسئلة حاليًا وأنتظر لأرى ماذا سيحصل، وربّما سأوضح فيما بعد حول هذا الموضوع)). على أيّ حال، كانت الاستقالة من الغرابة، إذ هيمنت على نشاط جميع وسائل الإعلام الإيطالية والأوروبية، بل إنَّ ردود الفعل

(1) Credere e Conoscere.
(2) Angelo Scola.
(3) Federico Lombardi.

جاءت أكثر ممّا لو كان البابا قد فارق الحياة.

ألم يكن هذا الاستغراب بسبب ندرة هذا الحدث، إذ إنَّ أيّ بابا لم ينفصل عن منصبه بهذه الطريقة؟ وأعتقد أنَّ هذا الحدث غير مسبوق، أن يستقيل بابا بهذه الطريقة، بل إنَّ الموت الطبيعي هو الذي كان يحول بينه وبين كرسي البابا.. هل ثمة أنموذج مماثل لما جرى؟

نعم، فإنَّ عرف الكنيسة وقناعة الناس في أن يبقى البابا في منصبه حتى نهاية عمره، ولا معنى لعزله أو استقالته، فهناك حالة واحدة في التاريخ بخصوص استقالة البابا، ولكن لم تكن بهذه الصورة. ويعود هذا الموضوع إلى نحو ستة قرون مضت، وله قضية معقدة وتفصيلية نذكرها فيما يلي باختصار:

في تلك الأيام كان هناك اثنان من البابوات يطلق على أحدهما البابا الجيد، والآخر البابا السيئ. فالبابا الجيد هو الذي كان ينتخب بالطريقة المعهودة وعن طريق مجلس الكرادلة، أمّا البابا غير الجيد، فهو الذي يتم اختياره لأسباب سياسية، ولحل هذه المشكلة وانتخاب بابا حقيقي عن طريق مجلس الكرادلة، يقدّم البابا الجيد المنتخب استقالته طوعيًا، لتسقط تلقائيًا شرعية البابا غير الجيد، ليفتح الطريق لانتخاب بابا جديد عن طريق مجلس الكرادلة. وهذا الموضوع يختلف بطبيعة الحال عمّا حصل مع بنديكيت السادس عشر، ولكن إذا لاحظتم نص استقالة راتسينغر[١]، فهو يقول أيضا: إنّني استقيل من منصبي طواعية وعن علم ودراية.

وهناك حالة أخرى حصلت أواسط التسعينيات من القرن الماضي للبابا السابق يُوحنَّا بولص الثاني[٢]، لا تخلو من فكرة حول هذا الموضوع، فقد وصل الضعف والمرض يومها بالبابا يُوحنَّا بولص الثاني حدًا، لا يستطيع معه أداء مسؤولياته إلا بصعوبة. أتذكر حينها - وكنت في الفاتيكان- أنَّ الصحافة بدأت تتناول الموضوع وتدعو إلى تنحّيه عن منصبه ممّا أثار جدلًا واسعًا. فقد كتب أحد الصحفيين المعروفين واسمه السيد ليفي[٣] مقالة دافع فيها عن البابا، وقال إنَّ هذا الجدل يؤذيه ويجب أن نتجنبه في مثل هذه الظروف. والطريف في الأمر أنَّ ليفي كان يهوديًا!

---

(1) Joseph Aloisius Ratzinger.
(2) Pope john paul II.
(3) Arrigo Levi.

شخصية بنديكيت السادس عشر

وما الخصائص التي كان يتصف بها راتسينغر؟

إنَّني أعرف شخصيًا السيد راتسينغر، فقد كان على رأس المجلس العقائدي الكاثوليكي[1] عندما بدأت مهمّتي في الفاتيكان، وهو مجلس يقرر صحة المعتقدات الكاثوليكية، ويفرز ما هو من صميم العقيدة الصحيحة، وما هو خارجها ويحدد مبادئ العقيدة ومقوماتها، كما ينظر في تطبيق المعايير الكاثوليكية الصحيحة على الأفراد ورجال الدين، فيخلع الزيّ الديني عن رجال الدين الذين لديهم آراء مختلفة عن الموازين الكاثوليكية، وكمثال على ذلك فقد خلع السيد راتسينغر زيّ هانس كونج[2]، وكذلك ليوناردو بوف (١٩٣٨)[3] أحد قادة لاهوت التحرير. ومهما يكن، فقد كان أول الشخصيات التي التقيت بها رسميًا في الفاتيكان بعد تقديم أوراق عملي، وقلت له: إنَّ السبب في زيارته واللقاء به في البداية كان احترامًا لشخصيته العلمية والفلسفية.

ولا بد من القول إنَّ السيد راتسينغر هو أحد أهم المتخصصين في الإلهيات المسيحية في القرن العشرين ومن أعلم البابوات في الجانب الفلسفي على طول التاريخ المسيحي. وقد أعرب السيد راتسينغر عن عميق شكره لتصبح بعدها علاقتنا علاقة صميمية. وبعدها كنت أزوره بين الفينة والأخرى، كما كنت أرافق الشخصيات الدينية القادمة من إيران لزيارته، بخلاف سفراء البلدان الأخرى، الذين كانت تربطهم علاقات مع من بيده الأمور التنفيذية. كما أنَّني زرته مرة بعد انتهاء مهمتي، وهو في المحصلة كان من الناحية الأخلاقية رجلًا وقورًا قليل الكلام وخجولًا إلى حد ما. أمّا من الناحية العلمية، فكان كثير العلم ودؤوبًا على الحركة والنشاط في الإطار الديني، أكثر من غيره من الشخصيات الكنسية.

ولكن مع ذلك، وعندما انتُخِب لمنصب البابا سنة (٢٠٠٥)، طرحت وسائل الإعلام بعض القضايا المتعلقة به؟

إنَّ ما طُرِح في وسائل الإعلام حول السيد راتسينغر هو في معظمه كلام أجوف، وضجة إعلامية لا غير، ولا أساس لها من الصحة، وذات أبعاد سياسية في

---

(1)Congregation for the Doctrine of the Faith.

(2) Huns Kung.

(3)Leonardo Boff.

الجزء الأكبر منها. فبعد انتخابه أثار الإعلام ضجة بأنّه كان ضابطًا نازيًا في عهد هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية، ونشروا صورًا له وهو يرتدي الزيّ العسكري. وحقيقة الأمر أنَّ الشبان والأحداث في تلك البرهة الزمنية كانوا يجبرون على الخدمة العسكرية، وبالتالي فقد اضطر بدوره إلى ارتداء هذا الزيّ في ظروف الحرب التي كانت تمر بها ألمانيا. فاتهامه بكونه ضابطًا نازيًا لا أساس له من الصحة، ومن الدعايات الإسرائيلية، التي كانت تحاول فرض ضغوط عليه كونه ألمانيًا؛ لإبداء المزيد من المشاعر تجاه إسرائيل. وتحقق لها ما أرادت وكسبت منه امتيازات كثيرة حتى اعترف بذلك فيما بعد شيمون بيريز (١٩٢٣ - ٢٠١٦)[1] وكبير الحاخامات، وأثنوا عليه حتى بعد استقالته.

هل تلوثت ساحة البابا أيضًا بعد الاحتجاجات على الفضائح التي ارتكبها القساوسة في موضوع الاعتداء على الأطفال في بعض البلدان؟

على حدّ علمي لم توجّه أيّ تهمة حول وجود انحراف أخلاقي لدى السيد راتسينغر. أمّا الموضوع الآخر الذي يجب أن نتحدّث عنه، فهو توضيح ما يقال عنه: الفساد الجنسي في الكنيسة، والاعتداء الجنسي على الأطفال، أي: إنَّ هذه القضية هي التي باتت تُطرَح على أنَّها فضائح جنسية للكنيسة، ولهذه القضية سبب واضح هو الحساسية المفرطة تجاه الأطفال في المجتمع الغربي، فثمة مسائل يتحسس منها هذا المجتمع، كالأطفال والنساء والأقليات، ووصل الأمر إلى ملاحقة الآباء والأمهات قضائيًا، لو اشتكى منهم أولادهم.

أمّا موضوع الاعتداء الجنسي على الأطفال، فقد طُرِحَ أساسًا في الكنيسة الأميركية في التسعينيات، فقد قدّم بعضهم شكاوى بأنَّهم تعرّضوا للتحرش من قبل القساوسة ومن الأساقفة الكاثوليك أحيانًا، حينما كانوا أطفالاً. وقد دفعت الكنيسة ثمنًا باهظًا جراء هذه التهمة، وكان البابا السابق يشير دائمًا إلى هذا الموضوع. وفي أوائل العام (٢٠٠٠) انتشرت فضائح الفساد الجنسي لرجال الكنيسة في أوروبا هذه المرة، وتم تشكيل محاكم لهذا الأمر، وطُرِحَ هذا الموضوع للمرة الأولى في إيرلندا، التي تعدّ أكثر البلدان كاثوليكية، ثم في بلجيكا والنمسا؛ ليتطور الأمر إلى فضيحة. وكان السيد

---

(1) Shimon Peres.

راتسينغر يعتذر للضحايا نيابة عن الكنيسة الكاثوليكية دائمًا، لكنَّ هذه المشكلة كانت أكبر من أن تحل بالاعتذار، بل حتى مع دفع الكنيسة غرامات بملايين الدولارات للضحايا؛ لأنَّ القضية كانت ذات جذور عميقة، ولا بد من التعاطي معها بواقعية أكبر. وهذه إحدى قضايا الكنيسة الكاثوليكية التي تعود إلى العزوبية الإجبارية للقساوسة ورجال الدين، وهي مشكلة دعا مارتيني[١] لإعادة النظر فيها في المستقبل.

ما تأثير استقالة البابا على الكنيسة والعالَم المسيحي الكاثوليكي؟

من السابق لأوانه الحديث عن تأثيرات هذه الاستقالة، ولا بدّ من الصبر قليلًا حتّى نقف على هذه التأثيرات، لكنَّنا نستطيع أن نتكهّن ببعضها، فقد طُرِحت مواضيع كثيرة بعد استقالة البابا في حينها، ومنها مكانة الكنيسة الكاثوليكية في القرن الحادي والعشرين. وقد هاتفني أحد أصدقائي وهو البروفسور ألبرتو ميلوني[٢]، الأستاذ المعروف في تاريخ المسيحية المعاصرة، وخاصة مجلس الفاتيكان الثاني[٣] في اليوم التالي لاستقالة البابا، وقال إنَّه ذاهب إلى مؤتمر حول منزلة الكنيسة في القرن الحادي والعشرين، الذي أُقيم على الفور بعد الاستقالة، في حين يجب التحضير لمثل هذه المؤتمرات في أوروبا منذ مدة. وأوضح أنَّ المؤتمر يجمع النخب المتخصصة في تاريخ الكنيسة والكنيسة المعاصرة؛ للبحث وتبادل الآراء في هذا الموضوع. لهذا، فإنَّه لا يقتصر على البابا نفسه والاستقالة التي قدّمها، وإنَّما يدرس تأثير ظروف المجتمع الجديدة في القرن الحادي والعشرين على مكانة الكنيسة ومنزلة البابا، التي أصبحت موضوعًا أساسيًا. ولا ريب في أنَّ البحث يتجاوز دراسة هذه المكانة إلى ما هو أبعد، إلى كيفية إدارة الكنيسة في الظروف الجديدة التي يواجهها المجتمع الأوروبي والعالم أجمع.

وهل هناك قانون مدون حول منصب البابا، وكونه دائميًا؟

الموضوع الآخر الذي يُطرَح بصورة جادة بعد استقالة جوزيف راتسينغر[٤]، ويجري الحديث عنه بكثرة هو منصب البابا وديمومته مع عمره. فمن الناحية الدينية،

(1)Carlo Maria Martini .
(2) Alberto Melloni.
(3)Second Vatican Council.
(4) Joseph Aloisius Ratzinger.

هل يجب أن يبقى هذا المنصب مع البابا حتى وفاته، أم يمكن عزله في ظروف معينة وشروط محددة؟ وهل يمكن تحديد مدّة لبقائه في المنصب وفقًا لقدرته الجسمية النفسية؟ هذه القضايا كلها تدخل في إطار البُعد الديني والتنظيمي والسياسي.

أمّا من يخلف بنديكيت السادس عشر، فقد جرى الكثير من الحديث حتى سمعنا أنَّه وصل إلى حد الرهان. أجل! للأسف، فإنَّ الأمور جرت بشكل يصل الرهان فيه إلى الدائرة الدينية، فيما كان يحوم سابقًا حول الرياضة والسياسة. فللمرة الأولى يجري الرهان - وهو خطأ لا غبار عليه- على موضوع ديني حول خليفة البابا وهويته وشكله الظاهري وأصوله، إذ يجب ألّا تسقط القيم الدينية إلى هذا القدر حتى لدى الآخرين لنشهد مثل هذه الظاهرة.

سلطة الروح اللاتينية

ولكن ماذا عن الأوساط الدينية والجهات ذات العلاقة؟ هل بُحِث في هذه الأوساط بشكل جاد حول بابا المستقبل؟ ما نظرتهم إلى البابا؟

إنَّ ما ميز الكنيسة الكاثوليكية حتى أواخر القرن العشرين هو سيادة الروح اللاتينية عليها. وقبل أن أدخل هذا البحث لا بد من ذكر ملاحظة حول مسيحية الكاثوليك. فالكنيسة الكاثوليكية هي كنيسة عالمية، بمعنى أنَّ أتباعها هم من أنحاء العالم كافة، من اليابان وكوريا في شرق العالم، إلى تشيلي والأرجنتين في أقصى غربه، فلا يوجد في العالم بلد ليس فيه مسيح كاثوليك. فعلى الرغم من تمركز الكاثوليك في بعض البلدان، فإنَّ الكنيسة الكاثوليكية تحظى ببُعد عالمي، للسبب الذي ذكرنا. ولهذا السبب، فإنَّ الشخصيات الكاثوليكية تمتاز بتنوع قومي وعنصري كبير. وعلى الرغم من هذا التنوع، فقد هيمنت على الكنيسة حتى الستينيات والسبعينيات روح لاتينية، والسبب في ذلك يعود إلى أنَّ جميع شؤون الكنيسة الكاثوليكية من الآداب والتقاليد إلى التنظيمات وجميع الخصوصيات، تستوجب وجود شخص لاتيني في صدر الكنيسة الكاثوليكية. والسبب في ذلك نفسي يعود إلى خصائص الشعوب؛ ذلك أنَّ اللاتينيين والإيطاليين تحديدًا يتميزون بمرونة عالية، وليسوا مثل الألمان والسويديين والدنماركيين الذين يتسمون بالصلابة. ومن الممكن جدًا أنَّ البابا لو كان إيطاليًا لما استقال من منصبه، فالسمة الألمانية واضحة في أفكار راتسينغر وكلامه وسلوكه وقراراته، حتى

استقالته التي حملت الطابع الألماني. إنَّ معظم البابوات قبل يُوحنَّا بولص الثاني[1] ولمدة (٤٥٠) عامًا كانوا من إيطاليا، ليس بسبب وجود الفاتيكان، بل لأنَّ الإيطالي ينسجم مع الروح الحاكمة على الكنيسة الكاثوليكية.

ومهما يكن، فقد تم انتخاب يُوحنَّا بولص الثاني من بولندا بعد أكثر من أربعمائة عام، ولكن هل كان انتخابه لمصلحة الكنيسة أم لا؟ من الأفضل ألّا نتكلم في هذا الموضوع، ولكن كانت ليُوحنَّا بولص الثاني مكانته الخاصة به، وقلما تعرض للانتقاد من الآخرين. وقد طرأت فيما بعد ظروف جديدة وخاصة جدًا للكنيسة الكاثوليكية، حصلت معها تغييرات كبيرة على الكنيسة، تبعًا للتطورات المتسارعة، وقد تخلخلت الموازين العالمية في العالم الجديد من الناحية الاجتماعية مع حلول فئات وطبقات جديدة، لنواجه الآن عالمًا جديدًا ومعه سلسلة من التوقعات الجديدة. ومن غير الواضح ما إذا كانت الكنيسة قادرة على حفظ وحدتها أمام هذه الحقائق، كما كان عليه الحال في الماضي. وباتت القضيّة الأهم من أصول البابا مسألة قدرته على حفظ انسجام الكنيسة الكاثوليكية ووحدتها، التي تعرضت لهزات، وابتعدت كثيرًا عن الكنيسة القديمة، وكما قال الكاردينال مارتيني[2] إنَّ الكنيسة الكاثوليكية متخلفة (٢٠٠) عام عن الزمن وهي بحاجة إلى سلسلة من التغييرات.

فهل تستطيع الكنيسة هضم هذه التغييرات؟ وهل البابا الذي يعدّ قمّة هرمها قادر على أن يصبح رجل هذه التغييرات مع حفظ انسجامه مع جماعة المؤمنين؟ ولهذا تُطرَح الآن أسئلة مهمة عن الكنيسة والبابا الذي يتولّى إدارتها، فليس ثمة تصوّر خاص لدى مختلف أصحاب الاختصاص سواء من الموالين للكنيسة أو المعارضين لها، وهم في تزايد مستمر حول مستقبل الكنيسة والبابا، وعلى الأقل في الأيّام القلائل التي تلت إعلان البابا استقالته، كما أنَّه لم يتم التوصل إلى نتيجه حول من سيخلفه. ومع ذلك تجري حاليًا مشاورات مكثّفة جدًا في مجلس الكرادلة، الذي لم يجتمع حتّى الآن بصورة رسمية، وكذلك بين الطبقة الدينية المثقفة، وليس ثمة إجماع حتى الآن حول البابا المقبل، وانحداره الجغرافي أو الثقافي.

---

(1) Pope John Paul II.
(2)Carlo Maria Martini.

هل مجلس الكرادلة يعمل بصورة مستقلة في انتخاب البابا؟

يبدو في ظاهر الأمر أنَّ مجلسًا من الكرادلة مؤلَّفًا من (١١٨) شخصًا يقومون بانتخاب البابا، ولكن الأمر ليس كذلك، فهناك جماعات الضغط الداخلية التي تمارس نفوذها، ويمكن أن تأتي هذه الضغوط في جزء منها من المجلس نفسه، وفي جزء آخر من التنظيمات الكنسية، بل حتى من الفاتيكان نفسه. وما يجري الحديث عنه في أوروبا وجود مجموعة تحت اسم «أوبيوس دي»[1]، وهي إحدى الطرق التي تأسست حديثًا، ومدّت نفوذها إلى الكنيسة والفاتيكان في عهد البابا يُوحنًّا بولص الثاني، وحسبما تناهى إلى سمعي، فإنَّ القلق كان يساور الجميع من تأثير هذه الجماعة على مجلس الكرادلة وانتخاب بابا يخضع لتأثيراتها. على أيّ حال، فإنَّ عملية الانتخاب ليست نزيهة إلى تلك الدرجة ليتم اختيار البابا من بين الكرادلة من دون أن تكون له ميول معينة؛ فهناك أنواع من الضغوط واللوبيات الداخلية والخارجية التي تمارس لانتخاب البابا. أمّا ما هي عوامل الضغط هذه؟ وإلى ماذا تهدف؟ وما خصوصياتها؟ فذلك موضوع متشعّب.

يمكن أن نطرح السؤال بالصيغة الآتية: أين تضع جهود الفاتيكان في سياق الحسابات الدولية؟ خاصة إذا نظرنا إلى دور المنظمات غير الحكومية في قرارات المنظمات الدولية أواسط الثمانينيات – ومثال ذلك الفاتيكان الذي يمارس نشاطًا على هذا الصعيد- بل إنَّ هذه المنظمات تترك تأثيرها على سياسات الدول المضيفة لها، كما يمكن للفاتيكان أن يؤثر ربّما على السياسات الإيطالية. ما دور الفاتيكان مثلًا في عملية السلام بين العرب وإسرائيل، وفي سائر الدول، سواء أكان هذا الدور سياسيًا أو معنويًا وأخلاقيا؟ بعبارة أخرى، إنَّ هناك تزايدًا في دور اللاعبين غير الحكوميين. هل يمكن القول: إنَّ البابا يعمل بطريقة المنظمات غير الحكومية؟

بدايةً، إنَّ الفاتيكان ليس NGO (منظمة مجتمع مدني)، ولا يفسر غير الحكومي بالمعنى الذي ذكرته في منطوق السؤال، فهناك مقرّ مقدس يطلق عليه Holy see كونه حقيقة دينية، وهناك الفاتيكان state ، أي: الدولة، فالبابا يمارس مهمة زعامة الكنيسة الكاثوليكية ورئاسة دولة الفاتيكان في آن واحد، والفاتيكان بدوره ليس NGO ليؤثر

(1) Opus Dei.

على الدولة المضيفة، بل هناك اتفاق تفصيلي[1] بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية عام (١٩٢٩) يعين حدود الدولة داخل الدولة، ويحدد معالمها وجميع أبعادها، وهو الاتفاق الذي عُدِّل فيما بعد.

بناءً على ذلك، فإنَّ الفاتيكان ليس NGO، بل هو دولة يخاطب العالم بهذه الهوية، ولا يقدّم توصيات أخلاقية، وله علاقات سياسية ودولية ثنائية ومتعددة، وهذه العلاقة ليست تحت عنوان الزعامة الروحية، وإنَّما تحت عنوان الدولة state، التي تتبادل السفراء مع الدول الأخرى. نعم، هي دولة، ولكنَّها أيضًا تتزعم مجموعة كبرى نطلق عليها بالكاثوليكية. والكاثوليكية كما هو معروف فرع من المسيحية، وليس كل المسيحية، وعليه، فإنَّ البابا ليس زعيمًا لكل المسيح، وإنَّما الجزء الكاثوليكي منه.

منزلة البابا

أساسًا، أين تضع منزلة البابا في العالم المعاصر من الناحية السياسية والمعنوية؟ وهل تعدّ قراراته تنفيذية؟

من الناحية السياسية، يعدّ الفاتيكان دولة؛ وقد بذل يُوحنَّا بولص الثاني - وعلى مدى ستة وعشرين عامًا قضاها في منصب البابا- كل جهده؛ ليجعل من هذه الدولة مؤثرة، ولها سمعتها ومكانتها في الأوساط الدولية، إذ كان الفاتيكان وقبل يُوحنَّا بولص الثاني، الذي انتُخب سنة (١٩٧٩) ضعيفًا جدًا على المستوى الدولي، وكانت الدول التي تقيم علاقات معه قليلة جدًا لا تتجاوز الأربعين دولة، وبينها إيران طبعًا.

وقد أقامت إيران علاقاتها السياسية بالفاتيكان منذ سنة (١٩٥٣)، أمّا معظم الدول التي كانت ترتبط مع الفاتيكان بعلاقات سياسية، فهي من الدول الكاثوليكية، كدول أميركا اللاتينية، وبعض الدول الأوروبية، ولم تكن هناك علاقات بين بعض الدول الغربية التي لا تدين بالكاثوليكية والفاتيكان، مثل إنكلترا، التي أقامت هذه العلاقات أواسط الثمانينيات من القرن الماضي. وما أريد أن أؤكد عليه هو أنَّ الدول

(1) Lateran Treaty.

الأوروبية الكاثوليكية فقط هي التي كانت على علاقة بالفاتيكان، أمّا أميركا اللاتينية، فكلهم من الكاثوليك، فيما أقامت المكسيك علاقتها في التسعينيات. إذًا، فالفاتيكان كدولة لم تكن ذات تأثير كبير، إنّما كانت تتمتع بمكانة محدودة جدًا، وتتعامل بحذر واحتياط.

ولا بأس هنا أن نذكر أنموذجًا آخرَ، إذ يقول أحد الأساقفة الذين كانوا يعملون في الفاتيكان وتوفي فيما بعد: ((ذهبت إلى البرتغال عام (١٩٧٤) بجواز سفر خاص بالفاتيكان، وعندما دخلت مطار لشبونة[1] لم يتعرف أيّ من مسؤولي المطار على هوية الجواز الذي أحمله. ولكن خُتِم أخيرًا، على الرغم من أنَّهم لم يتعرفوا عليه)). وهذا المثال دليل على أنَّ الفاتيكان كان مجهولًا على الرغم من أنَّ البرتغال هي أيضًا من البلدان الكاثوليكية.

والحق أنّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني كان واسع الصدر، وعمل منذ انتخابه على استغلال كل إمكانياته؛ لتفعيل القدرات التي تستبطنها الكنيسة الكاثوليكية، واستطاع أن يجعل من الفاتيكان دولة معروفة على المستوى العالمي. وعندما توفي كانت مكانة الفاتيكان قد تغيرت كثيرًا عمّا كانت عليه، إذ سارعت البلدان لإقامة علاقات معه. فعلى سبيل المثال لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين دول أوروبا الشرقية والفاتيكان، ما عدا يوغسلافيا، ولكن عندما تهاوت الكتلة الشرقية بدأ السباق بين بلدانها؛ لإقامة علاقات مع الفاتيكان سواء في شرق أوروبا، أو في آسيا الوسطى. ويمكن في الواقع تقسيم نشاط الفاتيكان إلى مرحلتين: ما قبل يُوحنَّا بولص الثاني وما بعده.

كيف تصف وضع دولة الفاتيكان؟ دولة داخل الدولة الإيطالية! قد لا يكون سؤالي دقيقًا، ولكن كيف تكون للكاثوليك زعامة مستقرة هناك، فيما لا توجد للبروتستانت مثل تلك الدولة، وإن كانت ضمن دولة أخرى؟

سؤالك ليس دقيقًا، وعليك أن تعرف شيئًا عن الإلهيات الكاثوليكية. فلا يمكن لأحد أن يكون كاثوليكيًا من دون أن يؤمن بهذه الإلهيات، وهذا الإيمان يستلزم القبول بمركزية الكاثوليكية، والقبول أيضًا بمرجع ديني واحد وهو البابا، بمعنى أنَّ البابا ومنصبه هو تحقيق للعقيدة الكاثوليكية. والبابا هنا ليس مجرد شخصية متفق

---

(1) Lisbon.

عليها، وهذا المنصب إنَّما هو نتاج من عقيدة يتبناها الشخص الكاثوليكي، الذي يؤمن بزعامة البابا، تبعًا لإيمانه بهذه العقيدة. وعليه، فإنَّ الكاثوليكي المؤمن إنَّما يؤمن بالكنيسة وبالأسقف بعدّه رئيسًا للكنيسة وبالبابا بعدّه رئيسًا للأساقفة. وكل هذا يعود إلى القضايا الإلهية الاعتقادية للكاثوليكي. أمّا البروتستانتي، فليس كذلك، وليست لهم مثل هذه الاعتقادات، ليختاروا أحدًا ما في منصب البابا. وتختلف الكنائس البروتستانتية عن بعضها، وليس لها بالتالي شخص تحت عنوان البابا.

ما الفرق بين البابا بنديكيت السادس عشر[١]، والبابا يُوحنَّا بولص الثاني؟ إنكم أشرتم إلى ذلك في كلامكم، ولكن ما الفرق بينهما من حيث الشخصية وقدرة النفوذ والكاريزما؟

ثمة اختلاف كبير بين الاثنين، فالسيد راتسينغر[٢] البابا بنديكيت السادس عشر هو رجل ألماني يميل إلى العزلة، وهو أستاذ جيد في الإلهيات، كان عاكفًا على التدريس أو المطالعة، حينما كان أسقفًا وكاردينالًا، وقد تم تعيينه سنة (١٩٨٢) - وبإصرار من يُوحنَّا بولص الثاني- رئيسًا للمجمع العقائدي[٣] للفاتيكان، وهو منصب مهم وحساس. إليكم هذا المثال: حينما كنت في الفاتيكان ذهبت إلى مؤتمر، عُقِد في البرازيل والتقيت هناك بالقس ليوناردو بوف[٤] المعروف بالإلهيات الحرة، وكان قد جرى قبل ذلك نزع لباسه الديني، فقال لي: ((قبل أن يخلع المجمع الزيّ الديني الذي أرتديه، طُلِب مني أن أذهب إلى روما. ذهبت إلى هناك ووضّحت معتقداتي هناك، وكان السيد راتسينغر هو الذي استنطقني)). وأضاف - وهنا مربط الفرس-: ((فخاطبت راتسينغر قائلًا: أيّها الكاردينال، أنا أعيش بين الفقراء والبائسين في ساوباولو[٥]، وأنت تسكن في روما في جناحك في الفاتيكان! ولا يمكن أن يفهم بعضنا البعض)).

أجل، هذا هو راتسينغر على الرغم ممّا أكنّ له من احترام لمعرفتي به وبقدراته العلمية، ولعلاقتي الوثيقة به أيام كنت في الفاتيكان. والحقيقة أنَّه أمضى أكثر من

---

(1) Pope Benedict XVI.
(2)Joseph Aloisius Ratzinger.
(3)Congregation for the Doctrine of the Faith.
(4) Leonardo Boff.
(5) Sao Paulo.

عشرين عامًا في غرفته في الفاتيكان، غارقًا في كتب الإلهيات وأبحاثها ومتمكنًا منها.
أمّا البابا يُوحنَّا بولص الثاني، فهو من مدينة كراكاو[1]، المدينة الحيوية حتى في الحقبة الشيوعية، ولم يكن في يوم من الأيام أستاذًا، بل عاش بين الناس واكتسب قدرة كبيرة في التعرف عليهم. وكما يقول المسيحيون والشخصيات المسيحية، فإنَّ كليهما من الجناح المحافظ من الناحية الاعتقادية والدينية، فعلى سبيل المثال كان البابا السابق محافظًا جدًا في موضوع الأخلاق الجنسية المسيحية، حتى قال عنه أحد الصحفيين الأميركيين بأنَّ نظام الفاتيكان استاليني[2]، حيث تأتي كل التعليمات من الأعلى، بل إنَّه قارن بين الصحيفة الرسمية للفاتيكان مع صحيفة البرافدا[3]، التي كانت تصدر في الاتحاد السوفيتي السابق؛ ليستدل بذلك على الاتجاه المحافظ للبابا السابق في القضايا الدينية. وفي الإجمال، فإنَّ كليهما البابا بنديكيت السادس عشر، ويُوحنَّا بولص الثاني محافظان في موضوع تعيين الأسقف من قبل الكنيسة وليس الناس، وفي موضوع المباحث الإلهية المتعلقة بالأخلاق الجنسية وغير ذلك، غير أنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني كان دقيقًا في كلامه ويحسب له بدقة.

هل كان بنديكيت هو الخيار الأفضل بعد وفاة يُوحنَّا بولص الثاني؟

كلا! فقد كان البابا يُوحنَّا بولص الثاني لا يسمح بتطور الأشخاص، فلم يكن في مجمع الكرادلة[4] الذي يتراوح أعضائه بين (١٦٠ إلى ١٧٠) شخصًا أفراد بارزون بمستوى يُوحنَّا بولص الثاني. فهذا البابا كان يختار أفرادًا من خطه ومنهجه أنفسهما، ولا يسمح بصعود من لا يرضى به إلى مناصب عليا. يقول السفير الألماني في الفاتيكان وهو على المذهب الكاثوليكي – السفارة الألمانية في الفاتيكان تُعطى بشكل دوري لسفير كاثوليكي مرة وبروتستانتي مرة أخرى-: إنَّ البابا رفض ترفيع الأسقف لهمان (١٩٣٦ – ٢٠١٨)[5] رئيس مجلس الأساقفة الألمان[6] إلى كاردينال، وبالطبع أصبح فيما بعد كاردينالًا.

---

(1) Krakow.
(2) Stalinistic.
(3) Pravda.
(4) Council of Cardinals.
(5) Karl Lehmann.
(6) Conference of the German Bishops.

الفصل الثاني

إيران والفاتيكان[1]

قبل الدخول في هذا البحث لا بدّ أن نشير إلى ملاحظة هامة، وهي أنَّ الكثير يعتقد بأنَّ البابا هو زعيم جميع المسيحيين في العالَم ومرجعيتهم الفاتيكان، في حين أنّ البابا هو زعيم الكاثوليك وحسب، وهناك فروع أخرى للمسيحية مثل البروتستانت وهي طائفة متنوعة جدًا، والأرثوذكس، والإنجليكان، والكنائس المتعددة المستقلّة في الشرق الأوسط، ولِكلّ من هؤلاء تشكيلاته وزعامته الخاصة. وترتبط فيما بينهم حاليًا علاقات وثيقة على الرغم من التوترات والعداء الذي كان يحكم هذه العلاقة سابقًا. وإنَّنا سنبحث هنا العلاقة مع الفاتيكان، وربّما نتطرّق أيضًا إلى الكنائس الأخرى.

تاريخ العلاقة

كانت هناك علاقات في الماضي بين البابوات وملوك إيران، وطبقًا للوثائق الخطية، فإنَّ هذه العلاقات تعود إلى العهد الإيلخاني، واستمرت حتى العهد الصفوي، إذ بلغت ذروتها، ولا سيّما في عهد الشاه عباس (١٥٧١ - ١٦٢٩)، وتراجعت هذه العلاقات بعد سقوط الصفويين، بسبب التوترات التي سادت حينذاك، لكنَّها عادت إلى سابق عهدها في العهد القاجاري، واستمرت إلى هذا اليوم.

ذات يوم قال لي المرحوم الأسقف يُوحنَّا عيساوي (١٩١٤ - ١٩٩٩)، وهو الأسقف الإيراني الوحيد في العقود الماضية، والأسقف الكلداني للكاثوليك: ((في أوائل خمسينيات القرن الماضي، وكنت أسقفًا شابًا، قمت مع ممثل البابا في إيران الأسقف باولو بابالاردو (١٩٠٣ - ١٩٦٦)(٢) بزيارة آية الله كاشاني (١٨٧٥ -

---

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٢/ ٢/ ٢٠١٦.

(2) Paolo Pappalardo.

١٩٦١)، وكان يومها رئيسًا لمجلس الشورى الوطني، وتحدّثنا عن الفاتيكان، فقال: يجب أن تكون لنا علاقات دبلوماسية. ورحب بابالاردو بهذه التوصية، فقررت الحكومةُ الإيرانية على إثر ذلك إقامة علاقات مع الفاتيكان على مستوى السفراء، وحصل ذلك في سنة (١٩٥٣))). ومنذ ذلك الحين كانت هناك علاقات على مستوى السفراء بين الجانبين.

وكانت إيران من أوائل الدول الإسلامية والآسيوية، لها هذا المستوى من العلاقات. وحينما بدأت مهمتي في الفاتيكان في النصف الأول من عقد التسعينيات كانت هناك ثلاثة بلدان أخرى، إضافة لإيران تقيم علاقات على مستوى السفير المقيم، هي تركيا وإندونيسيا ومصر. أمّا لبنان، فكان سفيرها من المسيحيين الموارنة.

ويحمل كل الدبلوماسيين الذي أعرفهم، من الذين أمضوا سنوات خدمتهم في إيران، ذكريات طيبة وإيجابية، سواء من الذين جاؤوا قبل الثورة أو بعدها، ويسردون الكثير من الذكريات المتأثرة بالآداب والحيوية والانفتاح والتقاليد الخاصة بالإيرانيين، حتى أنَّ الأسقف جيوفاني باتيستا ريم (١٩٣٤)(١)، الذي كان يشغل مساعد الكاردينال سودانو (١٩٢٧ - ٢٠٢٢)(٢) رئيس وزراء الفاتيكان أثناء مهمتي هناك، لا ينفك عن سرد ذكرياته عن إيران كلّما ألقاه، وخاصة مراسم عيد النيروز؛ لأنَّه كان في مهمة في طهران في الستينيات.

قيود الفاتيكان في العلاقة مع إيران

على الرغم من هذه الأجواء الإيجابية من جانب شخصيات الكنيسة الكاثوليكية، سواء في الفاتيكان، أو أوروبا والغرب، أو في دائرة العالم الثالث، فقد تأثرت هذه الكنيسة بالأجواء السياسية والإعلامية الدولية، إذ قلّما تستطيع الكشف والإفصاح عن هذه النظرة الإيجابية عن إيران. ولا يُنكر بأنَّ للكنيسة الكاثوليكية منطقها الفكري والسياسي والتحليلي الخاص بها، والذي يختلف عن منطق الآخرين؛ وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ثم بعد مجيء البابا يُوحنَّا بولص

---

(1) Giovanni Battista Re.
(2) Angelo Sodano.

الثاني[1]، ومن بعده البابا الحالي. ومع كل هذه الشخصيات لا تستطيع الإفصاح عمّا في داخلها في الحالات الحساسة مثل إيران؛ وذلك لتأثير الأجواء العامة في بلورة نظرة الكنيسة إلى إيران أولًا، ومراعاة هذه الأجواء ثانيًا. وهذا لا ينطبق على بلد مثل الصين مع وجود مشاكل كثيرة بين الطرفين، لكنَّه يصح على إيران لأسباب كثيرة معقدة، حتى بلغ الأمر حدًّا أن تحجب هذه الأجواء على حسن ظن الأفراد العارفين بتاريخ هذا البلد وحضارته وإمكانياته والعلاقة الدينية والثقافية المتبادلة، وتجعلهم يفضلون التزام الصمت.

تحوّل في النظرة إلى إيران

حدثان مهمان وقعا في السنوات الأخيرة، أدّيا إلى وقوع تحول كبير في النظرة إلى إيران قلما تم إيلاء أهمية لهما هنا في داخل البلد، الأول: التقدّم السريع لداعش في العراق، وإمكانية سقوط بغداد وأربيل لولا الدعم الإيراني السريع واللا مشروط، وتهديد البلدان المجاورة مثل الكويت والأردن. والثاني: مفاوضات (٥+١)، على الرغم من العقبات والعراقيل التي وضعتها إسرائيل والسعودية وما شاكلهما، وإنفاقهم المليارات من الدولارات. وما يزيد من أهمية الموضوع صعود الجماعات التكفيرية والتهديدات الداعشية بدعمٍ من حلفائهم العرب وغير العرب من الغربيين أنفسهم.

لمس الفاتيكان هذه الوقائع بوضوح لارتباط هذه القضية، وبشكل مباشر مع كنائس الشرق الأوسط، وكذلك الكنيسة الكاثوليكية الأوسطية. فقد تجاهل الغربيون في أحداث سوريا والعراق شخوص هذه الكنائس، حتى وصل الأمر إلى بلد مثل فرنسا ألّا يصغي إلى المارونيين حلفائه التاريخيين في المنطقة، بحيث صدرت انتقادات علنية ولأكثر من مرة إزاء هذا التجاهل، كما أنَّني شهدت بنفسي مرارًا مثل هذا العتاب.

وبغض النظر عن حساسية الفاتيكان تجاه مكانة المسيحيين وخاصة الكاثوليك، وحضورهم في منطقة الشرق الأوسط بعدّها مهد المسيحية، فقد كان يراودهم

(1) Pope John Paul II.

إحساس بأنَّ الظروف تسير باتجاه آخر، وأنَّ المسيحيين سيضطرون عاجلًا أم آجلًا لمغادرة أرض الأجداد، وأنَّ الغرب من حيث يدري أو لا يدري يساعد على تسهيل هذا الأمر.

بعد انطلاق الثورات العربية وبتحريض من السعودية وحلفائها، أصبحت المنطقة ثنائية القطب، ووجدت البلدان والأحزاب والشخصيات الاجتماعية والدينية نفسها في هذه الحلقة شاءت أم أبت. القطب الأول هو قطب أهل السنة بزعامة السعودية تقريبًا، والقطب الآخر يضم ما سوى ذلك تحت مظلة إيران، من الشيعة الاثني عشرية، أو الزيدية، أو الإسماعيلية، أو العلوية، أو الدرزية والنصيرية. وانضمت سائر الأديان والمذاهب الأخرى، ولا سيما المسيحية إلى القطب الثاني، ليس اختيارًا، وإنَّما كأمر واقع نظرًا لخصوصيات كل من القطبين.

هذا هو التصور السائد، فقد انتابهم شعور بأنَّ الدولة الوحيدة القوية القادرة على الوقوف بوجه الجهات التي تريد القضاء عليهم هي إيران. أمَّا الآخرون ومهما كانت أقوالهم تصبّ في صالحهم، فإنَّ أفعالهم كانت لا توحي بذلك وموجهة ضدهم، وهذه هي عين الحقيقة.

تغيرت تدريجيًا نظرة الفاتيكان إلى إيران جراء هذه التطورات، على الرغم من أنَّ هذا التغيير جاء متأخرًا. وفي هذا يقول الكاردينال جين لوي توران (١٩٤٣ - ٢٠١٨)[1]، لدى عودته من زيارة إلى إيران في تلك الفترة: ((إنَّ السلام في الشرق الأوسط يستحيل من دون إيران)). وكان توران يشغل منصب وزير خارجية الفاتيكان لسنوات عديدة، وأنا أعرفه شخصيًا وعملت معه عن قرب، فهو يعدّ ومن دون شك أحد أبرز أصحاب الرأي السياسيين، ليس في الكنيسة الكاثوليكية وحسب، وإنَّما في كل أوروبا، التي تستأنس إلى آرائه أوساطها الحزبية والاجتماعية والسياسية، وليس المسيحية فقط. وعلى الرغم من صراحته، فإنَّ كلامه لا يخرج عن الإطار المحافظ للكنيسة؛ لهذا، فإنَّ كلامه يعكس الكثير من الحقائق.

والقضية المهمة هنا، هي أنَّ هذا التغيير اقترن بشكل أو بآخر مع نوع من التبدل في رؤى النخب السياسية والإعلامية، وحتى على مستوى الرأي العام، وهذا ما ساعد

---

(1) Jean-Louis Pierre Tauran.

رجال الفاتيكان على إبداء آرائهم بحرية أكبر؛ ذلك أنّهم لا يقدرون على الإفصاح عن هذه الآراء من دون مراعاة مجموعة الملاحظات التي تعود بشكل أساس إلى الرأي العام. وهذا يعود إلى القيود التي يفرضها الشأن الديني أكثر من كونه ناجمًا عن التوجه المحافظ البحت، فقائد جماعة دينية لا يستطيع أن يتحدّث ويتخذ مواقفَ، كما يفعل القائد السياسي والاجتماعي.

على أيّ حال، فإنَّ هذا التغير في النظرة هو تغير حقيقي وجاد في سياق الأوضاع المتأزمة، ولا بد أن يؤخذ على محمل الجد. ومن المناسب أن نتطرّق هنا إلى المثال الآتي:

تعدّ صحيفة افنيره[1] - التي تصدر بالإيطالية، وتوزع بأعداد متوسطة، وذات اتجاه كاثوليكي، وترتبط نسبيًا بمؤتمر أساقفة إيطاليا[2]- من أشد الصحف الإيطالية عداءً لإيران، لكنَّ مواقفها تغيرت كليًا بعد وقوع تلك الأحداث، وهي المرة الأولى التي يحصل فيها مثل هذا الشيء طوال معرفتي بها على مدى عقدين من الزمن.

استثمار الظروف الجديدة

هنا يجب أن نبحث عن طريقة للاستفادة من هذه الظروف لصالح التعاون المتبادل بين الجانبين، ولكن لماذا لا يشبه الفاتيكان الدول الأخرى؟ ولا يمكن التعامل معه بنفس الطريقة؟

من الأفضل ألّا نتطرّق إلى هذا الموضوع؛ لأنَّ شرحه يطول، بيد أنَّ المهم هو تناول مكانة الفاتيكان لدى الكاثوليك، والبلدان الكاثوليكية والمراكز الكاثوليكية، وأيضا مكانته العالمية، سواء لدى الرأي العام، أو ما يعود منها إلى السياسة الدولية. وتنطوي هذه القضية على أهمية أكبر مع وصول البابا الحالي إلى هذا المنصب. فالبابا فرانسيس ربّما سيكون الأكثر شعبية ونفوذًا من بين الشخصيات المستقلة في العالم، ليتحدّث عن مشاكل العالم المعاصر وآلامه، ويصغي إليه الكثير من أتباعه.

---

(1) Avvenire.
(2) Coferenza Episcopale Italiana.

وبطبيعة الحال، فإنَّ هذه المنزلة ليست دينية وحسب، وتنطبق هذه الحالة حتى على الكاثوليك والبلدان الكاثوليكية، فالعلاقة الحسنة مع الفاتيكان حتى وإن كانت شكلية، تبعث على الثقة. بمعنى آخر، فإنَّ أولئك أصبحوا - وطوال العقود الأخيرة لدى الكثير من سكان العالم المعاصر- معيارًا يُقاس عليه، ومعيارًا للثقة في العلاقة مع الآخرين، ولا سيما المسلمين.

وعلى الرغم من أنَّ الفاتيكان، كدولة ونظام يختلف كثيرًا عن الدول والأنظمة الأخرى، لكنَّه يحمل في تكوينه منظومة الدول والحكومات. فلا بد إذًا من العمل مع هذه المجموعة والتعاون معها، وهو ما يؤدي - بلا شك- إلى الارتقاء في العلاقات بما فيه صالح الطرفين، ولا يحصل هذا إلا بملاحظة التعقيدات والحساسيات الموجودة، وإلا، فإنَّ النتيجة ستكون عكسية، وهو ما سنتطرّق إليه لاحقًا.

كيفية ظهور العقيدة التكفيرية[1]

الآفاق الجديدة للتعاون بين إيران والفاتيكان

أضحت منطقةُ الشرق الأوسط ثنائية القطب شئنا أم أبينا، وذلك بسبب مجموعة من الأفعال وردود الأفعال العقائدية والسياسية والتاريخية والاجتماعية. أحدهما: القطب السني، وينضوي تحته الكثير من أهل السنة تحت قيادة السعودية، وإلى حد ما تركيا ومصر وقطر. أمّا القطب الآخر، فهم عامة الشيعة وأتباع سائر الأديان والمذاهب، من المسيحية إلى الإيزيدية والصابئة والعلوية والدروز، الذين يتلقون الدعم من إيران. اشتدت هذه القطبية بعد دخول داعش إلى العراق، ولولا الدعم الإيراني الفوري لسارت الأمور بطريقة أخرى. وعلى ضوء هذه التطورات، كان بإمكان إيران والفاتيكان تنشيط التعاون الثنائي.

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٤/ ١٢/ ٢٠١٦، تحت عنوان "الآفاق الجديدة للتعاون بين إيران والفاتيكان: تطرف وعنف باسم الدين، أيّ مقاربة للدين؟"، كما أُلقي هذا المقال في الدورة العاشرة للحوار الديني بين إيران والفاتيكان بتاريخ ٢٢ و٢٣ نوفمبر ٢٠١٦، في مؤتمر "التطرف والعنف باسم الدين، أيّ مقاربة للدين؟".

ظهور العقيدة التكفيرية

إنَّ ما يُطلَق عليه اليوم بالتطرف الإسلامي هو ظاهرة معقّدة، لا بدّ لفهمها القيام بدراسة دقيقة لكثير من القضايا. وإنَّ وصف هذه الظاهرة كونها إسلامية قد حال من دون التطرّق إلى أبعادها المختلفة وطبيعة علاقتها بالإسلام. فهل هي ذات هوية دينية وإسلامية حقًا، أم أنَّ الإسلام مجرّد ذريعة وغطاء لحقيقة لا تمتّ للإسلام بصلة، بل هي معادية له؟

لا نشكّ في أنَّ هذا التيار بشكله وخصائصه وامتداداته الحالية لا يمكنه أن يجد له موطئ قدم في العالَم من دون أن يكون عالميًا، ويصحّ هذا الكلام على كل العناصر التي تشكل قوام هذا التيار. بمعنى أنَّ هناك مجموعة من العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، لعبت دورًا في ولادة هذه الظاهرة، والأهم من ذلك أنَّ هذه العوامل ليست داخلية بحتة في إطار العالَم الإسلامي، بل إنَّ بعضها يعود إلى خارج هذا العالَم، بدءًا من العولمة، والارتباطات الرقمية، وإلى التدخل الواضح للقوى الكبرى.

وقد كان لهذه القوى دور مؤثر جدًا منذ عهد الاستعمار، وبعد الحرب العالمية الثانية في بلورة خارطة الشرق الأوسط لأسباب استراتيجية، والتنافس بين القوى الكبرى، وقضية النفط واستمراره في التدفق. وقد لا نجد أيّ منطقة أخرى في العالم الثالث متأثرة إلى هذا الحد بهذا التدخل السافر، وينطبق هذا الأمر أيضًا على التطرف الحالي في المنطقة. فبغض النظر عن الخلفيات التاريخية، دعمت هذه القوى التيارات المتطرفة المختلفة؛ لمواجهة الشيوعية وغيرها من المنافسين، بل إنَّها أوجدت بعضهم وافتخرت بهم، من «الأفغان العرب» إلى طالبان والإرهابيين، الذين انبثقوا بعد الثورات العربية. فحينما يقول وزير الخارجية الفرنسي الأسبق لوران فابيوس (١٩٤٦)[1] بوجود نوعين من الجهاد: الجهاد الجيد، والجهاد السيئ، إنَّما هو يعني بأنَّهم يقفون وراء الجيد منه! وهذه هي حقيقة الأمر.

(1) Loran Fabius.

ولا يمكن أن ننكر هنا وجود عوامل داخلية كثيرة لعبت دورًا كبيرًا في إيجاد هذه الظاهرة، إذ نتطرّق فيما يلي إجمالًا إلى أهم هذه العوامل، التي أدّت إلى ظهور العقيدة التكفيرية ومراحل تطورها:

١. الاتجاه التكفيري

إنَّ العقيدة التكفيرية في شكلها الحالي هي نتيجة تركيب عقيدتين مختلفتين، الأولى: العقيدة الوهابية، والأخرى: عقيدة سيد قطب حول المجتمع الجاهلي والمجتمع الإسلامي. وهذه العقيدة تنشط في سوريا والعراق وليبيا ومناطق أخرى في آسيا وإفريقيا، سواء أكانت هذه العقيدة مرتطبة بالقاعدة، أو داعش، أو بوكو حرام، أو حركة الشباب، أو سائر الجماعات الإرهابية، الصغيرة منها والكبيرة.

والخلاصة أنَّ أميركا وحلفاءها بعد احتلال أفغانستان من قبل الاتحاد السوفيتي أوائل الثمانينيات، حاولوا كسر شوكة المحتلين ومنع تقدّمهم نحو المياه الدافئة، ولم تكن القوى الجهادية الأفغانية قادرة لوحدها على تنفيذ هذه المهمة، لهذا طلبت العون من السعودية والبلدان المماثلة لإرسال متطوعين إلى أفغانستان. هذه الخطوة استحوذت على اهتمام هذه البلدان التي كان يؤرقها الشبان أصحاب الميول السياسية الإسلامية، فكان إرسالهم إلى الخارج هو أفضل حل لها، فوظفت جميع إمكاناتها الدينية والحكومية والإعلامية؛ لتعبئة هذه الجماعات، وإرسالها إلى الحدود الأفغانية الباكستانية. لقد توفرت جميع التسهيلات، وأُرسِلت أعداد كبيرة من بلدان مختلفة، معظمها عربية، ليطلق عليهم فيما بعد لقب «الأفغان العرب».

٢. مقاتلو السعودية

إنَّ القسم الأكبر من هؤلاء المقاتلين هم من السعوديين، وسبب ذلك أنَّ المملكة تعرضت في أواسط عقد السبعينيات إلى اضطرابات كثيرة، معظمها نابعة من جذور دينية. فالثروة التي هبطت على السعودية أوائل السبعينيات وبعد حرب عام (١٩٧٣)، والعقوبات النفطية، غيّرت بشكل سريع في الوضع الاجتماعي والأخلاقي والديني

للناس عامة، وجاء رد الفعل على هذا التغيير، العودة إلى التعاليم الأولى لمحمّد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢). فالعقيدة الوهابية كانت على الدوام هي الحاكمة على النظام والمجتمع السعودي، وقد تم تبنّي هذه العقيدة لانسجامها مع الظروف الجديدة التي نشأت في ظلها الدولة السعودية بعد المعارك التي خاضها عبد العزيز مع الإخوان الوهابيين التابعين للوهابية المتطرفة والتكفيرية لابن عبد الوهاب. فالسعودية التي تبلور نظامها على يد عبد العزيز لا يمكن أن تدار بالعقيدة التكفيرية للإخوان؛ لأنَّهم لا يعترفون بالحدود ولا بالجماعات الداخلية الأخرى من غير الوهابية، ولا تعني «المواطنة» بالنسبة لهم أيّ شيء لكي يعترفوا بها ويراعوا حقوقها. وأنَّهم كانوا يعارضون كل ما هو جديد من التلغراف والهاتف والسيارة، التي لا تمكن إدارة الدولة من دونها.

وعلى الرغم من الهزائم القاسية التي تلقاها الإخوان، فإنَّ عقيدتهم بقيت في المجتمع السعودي، خاصة في «نجد» لتبرز بين الفينة والأخرى. وعزز هذا الاتجاه التطورات التي وقعت في النصف الأول من عقد السبعينيات؛ لتبلغ ذروتها في حادث احتلال المسجد الحرام في الأول من محرم عام (١٤٠٠هـ) نوفمبر (١٩٧٩) على يد جهيمان العتيبي (١٩٣٦ - ١٩٨٠). وعلى الرغم من قمع هذه الحركة، وقتل جميع الذين شاركوا فيها أو إعدامهم، فإنَّ جهيمان وأفكاره لاقت استقبالًا لدى شريحة واسعة من فئة الشباب، ومنهم أسامة بن لادن (١٩٥٧ - ٢٠١١)، ليشكّلوا فيما بعد معارضة وتهديدًا للنظام الحاكم. وجاء الحل الأنجع لمواجهة هذا التهديد بإرسالهم إلى الخارج؛ للتخلص منهم أولًا، واكتساب الشرعية من طريق الظهور بمظهر الدولة الداعمة للجهاديين المحاربين للشيوعية الكافرة ثانيًا.

وهذا الكلام ينطبق على دول أخرى، مثل مصر والجزائر والسودان، التي واجهت معارضة دينية سياسية من قبل الشباب، خاصة في مصر في النصف الثاني من عقد السبعينيات، من أولئك المتطرفين المتأثرين بأفكار سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦)؛ لتتشكل جماعات جهادية مختلفة، ترى أنَّ مسؤوليتها ليست مواجهة النظام الحاكم وحسب، وإنَّما مجتمعها أيضًا.

٣. الإسلام والجاهلية

أمّا عقيدة سيد قطب، فهي باختصار تقسّم المجتمع إلى قسمين: إمّا أن يكون جاهليًا أو إسلاميًا، ومعيار ذلك هو تطبيق الإسلام عَمَليًا في جميع جوانبه، فإذا لم يكن كذلك، فهو مجتمع جاهلي، حتّى لو كان أفراده مسلمين يقومون بواجباتهم الدينية من الصلاة والصيام والحج، ولا بدّ من مواجهة هذا المجتمع حتّى يتحقق الإسلام في كلّ أبعاده.

أمّا الأسباب وراء هذه النتيجة التي توصّلَ إليها سيد قطب، فذلك بحث مستقل. غير أنَّ المهم في ذلك هو أنَّ هذه الافكار استقطبت في الظروف الاجتماعية العصيبة في النصف الثاني من السبعينيات وعقد الثمانينيات الكثير من الشباب والطلاب. وواجهت الجزائر بعد عام (١٩٨٠) جراء هذه الأفكار مشاكل داخلية كثيرة بعد أن استهوت الكثير من الأنصار. وهذه الظاهرة تنطبق أيضًا على عامة البلدان العربية التي واجهت مشاعر دينية جياشة وانسدادًا سياسيًا، إذ عصفت أفكار سيد قطب بالعالم العربي وكانت السبب الرئيس وراء الاحتجاجات السياسية.

هذه الدول أيضًا لم يسؤها إرسال شبانها إلى الخارج، ولكن ليس على الطريقة السعودية العلنية. فتدفق الآلاف من الشباب نحو أفغانستان بدعم مالي وتموين وتسهيلات سعودية. والطريف في الأمر أنَّ عددًا كبيرًا منهم كان يقضي مدّة محكوميته في السجون، إذ أطلق سراحهم، ولكن إلى أفغانستان مباشرة، ومنهم أيمن الظواهري (١٩٥١ – ٢٠٢٢)، الذي خلف ابن لادن في قيادة القاعدة.

وعلى الحدود الأفغانية الباكستانية تجمّعت فئتان من الجهاديين سعودية وغير سعودية، إذ كانت تعتقد الأولى بأفكار جهيمان والوهابية الإخوانية، التي تعدّ الآخرين مشركين، حتّى وإن تظاهروا بالإسلام، وتعتقد بضرورة تبني العقائد الوهابية والعمل بها، حتّى يصبح المسلم موحدًا، وفي غير ذلك يجب قتاله حتى الإذعان إلى الدين الحق. وكانت لهؤلاء بطبيعة الحال مواقف أشدّ تجاه المسلمين من غير السنة؛ لأنهم من وجهة نظر ابن عبد الوهاب خارجون عن الدين. أمّا المجموعة الأخرى، فكانت متأثرة بأفكار سيّد قطب، وتفكر بالمجتمع أكثر من تفكيرها بالفرد، وتقول بلزوم محاربة المجتمع الذي لا يأخذ بالإسلام بكل أبعاده، ويلتزم بكل تفاصيله. وعلى الرغم من اختلاف هذين الاتجاهين من حيث النشأة والتشكيل، فإنَّهما متماثلان من حيث

النتيجة. وكشفت التقارير التي تسربت من داخل أروقة «الأفغان العرب» أنّ هاتين المجموعتين التقتا في الجانب العملي على الرغم من هذه الفروقات بين المعتقدين، وربّما كانت الشخصية الأهم لهذا التجمع هو الفلسطيني عبد الله عزام (١٩٤١ - ١٩٨٩)، الذي عاش سنوات في السعودية ولعب أكثر من غيره دورًا في إيجاد هذه التشكيلة، وكان أستاذًا في العلوم الإسلامية، ومن الأوائل الذين التحقوا بأسامة بن لادن في أفغانستان.

٤. في مواجهة الغرب

انتظمت العقيدة الجديدة - وهي «القاعدة» التي أصبحت النواة المركزية لعقيدة المجموعات الجهادية لاحقًا- في عقد الثمانينيات، وبلغت نضجها أثناء احتلال الكويت. وقد اتخذت موقفًا واضحًا وللمرة الأولى في مواجهة حضور القوات الأميركية والغربية عمومًا، والتي استدعتها السعودية إلى المنطقة؛ لحمايتها مقابل صدّام.

وشهدت العقيدة التكفيرية تطورات واسعة في عقد التسعينيات، خاصة من الناحيتين السياسية والدينية بعد وصول طالبان إلى السلطة في أفغانستان، ووصول ابن لادن وقادة القاعدة إلى كابول، وبدأت تنشط بشكل واسع حتى بلغت ذروتها في أحداث (١١) سبتمبر (٢٠٠١). وساعدت الظروف العامة في البلدان العربية وبعض البلدان الإسلامية على انتشار هذه العقيدة وتغلغلها في صفوف المجتمع سريعًا. وساعدت على انتشارها في المناطق الأخرى المشاكل التي كان يعاني منها المسلمون في البوسنة والشيشان وغير ذلك. أضف إلى كل ذلك انتشار الأطباق اللاقطة والاتصالات عبر الإنترنت، وتفاقم المشاكل الناتجة لدى المهاجرين المسلمين في أوروبا، ولا سيما لدى الجيل الثاني والثالث، وتزايد الفقر والبطالة، والهجرة من القرى إلى المدن، وظهور المناطق السكنية المتخلفة في أطراف المدن الكبرى، والأعداد الكبيرة من الشبان المتعلمين، ممّن لا يمتلكون الإمكانيات اللازمة للعيش بكرامة. والأهم من كل ذلك التجارب الفاشلة لبلدان المنطقة، التي انتجت تنمية غير متناسقة وغير مستقرة، والتي شهدنا نتائجها فيما بات يعرف بالربيع العربي.

٥. انتصار الوهابية

هنا لا بدّ من الإشارة إلى ملاحظة أخرى، وهي تقارب العقيدة التكفيرية مع العقيدة الوهابية بشكل متزايد منذ أواسط التسعينيات، بل أواخرها، ولأسباب كثيرة. وعلى الرغم من أنَّ العقيدة التكفيرية الوهابية متأثرة إلى حد كبير بتعاليم محمد بن عبد الوهاب، فإنَّ الوهابيين يعدّون أنفسهم من الحنابلة في الجانب الفقهي. بعبارة ثانية، فإنَّ هذه العقيدة – وبعكس عقيدة سيّد قطب– تعتمد مدرسةً فقهيةً واحدة، ومن ثمَّ فهي أشمل وأكثر قدرة على الإقناع. أمّا كلام سيد قطب، فهو في النهاية نوع من الفكر السياسي – الديني.

صحيح أنَّ العامل الأساس في ظهور القاعدة هو احتلال الكويت ودعوة السعودية للأميركيين للحضور إلى المنطقة، ولذلك، فإنَّ التهمة كانت موجهة إليها مباشرة في حينها، إلا أنَّ الأمر تغير بمرور الوقت، خاصة بعد أن قدّمت السعودية مساعدات مختلفة سياسية ومالية إلى طالبان حليفة القاعدة، ولا سيما بعد أن أبدى بعض علماء الدين الشباب السعوديين دعمهم الصريح لأفكار القاعدة. وأخيرًا، فإنَّ التنافس اللا منتهي بين السعودية وإيران جعل المساعدات تتدفق على الجماعات التكفيرية المعادية للشيعة وإيران، كل هذا ساعد على غلبة الوهابية في نهاية المطاف.

وعلى الرغم من أنَّ داعش كانت أكثر تطرفًا من القاعدة، خاصة في أوائل ظهورها، وكان يفترض منطقيًا أن تتخذ مواقف أكثر تطرفًا من السعوديين، فإنَّ هذه الجماعة اختارت المناهج الدراسية الدينية السعودية لتدريسها في الموصل بعد احتلالها. أضف إلى ذلك، فإنَّ تعاملها مع المسلمين، وخاصة من غير السنة وأتباع الأديان الأخرى، يعيد إلى الأذهان سلوك «الإخوان الوهابيين»؛ إذ قاموا بتدمير الآثار الدينية والتاريخية الثمينة، على أنّها رموز للشرك والكفر.

إنَّ تنظيم القاعدة لم يكن له ظهور تكفيري قبل سقوط صدام، لكن بدأت هذه السمة بالظهور لديه، ولأسباب متشابكة بعد سقوط صدام، وبدأت بالتنامي شيئًا فشيئًا؛ والسبب الرئيس في ذلك هو المساعدات السخية التي قدّمتها الدول الجارة للعراق، والعرب الذين كانوا لا يريدون الاستقرار لهذا البلد. هذه المساعدات الدينية والمالية والتسليحية واللوجستية والدعائية ساعدت على النمو الكميّ والكيفيّ للجماعات التكفيرية. فالكثير منهم قدموا من خارج العراق، وخاصة من السعودية، وعاثوا الفساد في العراق تفجيرًا وقتلًا وتدميرًا وتخريبًا، وكان هدفهم الأول هو الشيعة وإلى حد ما المسيحيين وأهل السنة الموالين للنظام الجديد. وتبدلت معادلة معاداة الغرب إلى معاداة الشيعة، ممّا خلق للعراق الكثير من المشاكل. ومثلما قلنا، فإنَّ السياسة لعبت دورًا أساسيًا هنا، ولكنَّها وفّرت الأجواء المناسبة لنمو الأفكار والجماعات التكفيرية.

٦. الخلافات المذهبيّة والقوميّة

في هذه الأثناء بدأت الثورات العربية، وعانت بعض البلدان من اضطرابات من مصر إلى تونس إلى ليبيا، حتى اليمن وسوريا والبحرين، فيما شهدت بلدان أخرى اضطرابات أقل. وأمّا السبب في ذلك، فهو المطالبة بالحريات، ومكافحة الفساد، والدعوة إلى التنمية المستدامة، وتشكيل نظام حكومي سليم. وكان لا بد من توجيه بوصلة الأحداث نحو أهداف أخرى؛ لدفع المخاطر التي تحدق بالأنظمة، فوجدوا أنَّ أفضل سبيل لذلك هو تأجيج الخلافات المذهبية والقومية والطائفية والدينية.

فإذا تحقق هذا الهدف فإنَّ نظامًا سياسيًا كالبحرين سوف يكتسب الحصانة، فيما تحدق المخاطر ببلد مثل سوريا، فيقال في الحالة الأولى بأنَّ هذه الاحتجاجات في البحرين - وهي الاحتجاجات السلمية الوحيدة في الربيع العربي- بأنَّها طائفية ولا بدّ من قمعها؛ لأنَّها ليست للحصول على العدالة والإتيان بنظام أفضل. أمّا في الحالة الثانية في سوريا، فيُتهم النظام بالطائفية، ولا بدّ من إسقاطه.

بلحاظ الظروف التي مرت في العالَم العربي، فإنَّ تأجيج الخلافات المذهبية والطائفية غيرت الكثير من أوضاعه، ومنها معتقدات الجماعات المتطرفة وسلوكها،

تغييرات دخلت في نسيج المجتمع العربي، الذي يتكوّن في الأساس من بنية عشائرية وقَبَلية، ولا سيما أنَّه لم يستند ولأسباب تاريخية على قاعدة «الشعب- الحكومة».

وتعدّ سوريا مركز الثقل الأكبر في هذه التطوّرات، إذ فُرِضت عليها حربٌ تحت مسمّى الحرية والعدالة، ولكن سرعان ما اتضحت أهدافها وطبيعتها الطائفية، ورفعت شعار «العلوي في التابوت والمسيحي في بيروت» في الأشهر الأولى حتى قبل أن تتحول الاحتجاجات إلى الطابع العسكري.

دخلت المعركة التي خاضها الداخل المسلّح، والخارج المتطوع سريعًا في إطار الحرب الطائفية. أمّا القاعدة التي كان لها أهداف أخرى، فقد غيرت مهمتها ورسالتها، وأصبحت الركيزة الأساسية في هذه الحرب، وكان المناخ مهيئًا للمزيد من التطرف، لتتولّد فجأةً من رحم القاعدة جماعات داعش وأمثالها، فتنتشر ليس فقط في سوريا والعراق والعالَم العربي، وإنَّما في كلّ المنطقة الإسلامية.

هذه الأفعال وردود الأفعال بمجموعها جعلت من المنطقة ثنائية القطب، في أحدها عدد كبير من أهل السنة بقيادة السعودية بشكل رئيس، وإلى حد ما تركيا ومصر وقطر، والآخر عامة الشيعة وأتباع سائر الأديان والمذاهب الإسلامية، من المسيحيين إلى الإيزديين والصابئة والعلويين والدروز. وتمثّل إيران بطبيعة الحال الداعم الرئيس لهذه المجموعات. وقد اشتدّت هذه الثنائية القطبية خاصة مع دخول داعش إلى العراق، إذ كان لإيران دور بارز في تقديم المساعدات والإمدادات للعراق، وقد كان من شأن هذه المساعدات أن تُسهم بنحو ملحوظ في إنقاذ العراق، وخاصة أقلياته الدينية والمذهبية.

٧. التعاون بين إيران والفاتيكان

في هذه النقطة تحديدًا تلتقي إيران مع الفاتيكان من أجل إطلاق تعاون أوسع؛ ذلك أنَّ إيران تطمح إلى شرق أوسط حرّ يتزعّمه قادةٌ منتخبون، تُحترم فيه حقوق جميع الأقليات، خاصة الدينية والمذهبية؛ لأنَّ حضورهم فيها يمتد إلى عمق التاريخ، وكان لهم دور مهم في تكوين تاريخ المنطقة وثقافتها وحضارتها، إضافة لكونهم من المواطنين في بلدانهم؛ لذلك فمن حقهم البقاء فيها، والحصول على حقوقهم ومكانتهم التي

تتناسب مع شأنهم التاريخي والاجتماعي وصلاحياتهم الفردية. ولا يحق لأحد أيًّا كان أن يسلب هذه الحقوق أو يتجاهلها. إضافة لذلك تجب حماية آثارهم التاريخية والدينية وتمتعهم بحق المواطنة.

هذا هو موقف إيران والمرجعية الشيعية، - سواء في إيران أو العراق- والذي لم تتخطه عمليًا في إطار إمكانياتها المتاحة.

وتقرّ الشخصيات عامة، الدينية والاجتماعية المسيحية وغير المسيحية في المنطقة بهذه الحقيقة ممّا لا يسع المجال هنا للتفصيل أكثر في هذا الموضوع. أمّا بلدان المنطقة التي دعمت - وما تزال- الجماعات الإرهابية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فهي تقف بالضد من هذا التوجه، ولا يهم في ذلك ما تقوله وما تنوي العمل به، لكنَّ النتيجة الطبيعية لهذه السياسة هي مواجهة جميع الأقليات الدينية والمذهبية وتهديدها في وجودها.

ومن الطبيعي أن تتحسس الزعامات المسيحية من الكنائس المختلفة، الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانت من المخاطر التي تحدق بالأقليات المسيحية، وحتى غير المسيحية، وترتفع وتيرة هذا التحسس إذا علمنا أنَّ هذه المنطقة تعدّ منشأ الأديان الإبراهيمية ومنها المسيحية. في مثل هذه الظروف واصلت إيران تعاونها مع جميع المسيحيين والفاتيكان، ودعمت مواقفهم المبدئية حيال قضايا الشرق الأوسط، وخاصة في سوريا والعراق.

٨. إمكانيات التعاون الواسعة

إنَّني أعرف تمامًا مدى تشابك الأوضاع الحالية - سواء الداخلية والإقليمية والدولية- وإنَّني على دراية جيدة بالحساسيات التي يبديها الفاتيكان وسياسته الخارجية، ولا شك في وجود مدى واسع للتعاون بين إيران والفاتيكان لصالح إقرار السلام والأمن في المنطقة، بل إنَّ الأرضية كانت مناسبة لمثل هذا التعاون منذ سنوات، ولو كان الجانبان استثمرا هذه الفرصة، لشهدت المنطقة وضعًا أفضل ممّا هو عليه الآن.

إنّني شخصيًا لاحظت النتائج الإيجابية للتعاون بين إيران والفاتيكان في مؤتمر السكّان في القاهرة سنة (١٩٩٤)(١)، حيث عُقِد هذا المؤتمر برعاية من الأمم المتحدة وشاركت فيه شخصيًا، إذ بدأ هذا التعاون قبل مدة طويلة من انعقاده حتى أعطى ثماره، ونُظِّمت النصوص النهائية على أساس الملاحظات المشتركة للطرفين. واستمر هذا التعاون أيضًا في المؤتمرات التالية، التي أقامتها الأمم المتحدة في كوبنهاكن وبكين وإسطنبول. وهذا يدل على وجود مشتركات كثيرة للتعاون بين إيران والفاتيكان وأرضية مناسبة لاستمراره، وعلى الطرفين اكتشاف المزيد من المجالات؛ لتعزيز هذا التعاون بإرادة جادة وثقة متبادلة.

الموروث الفلسفي في إيران المعاصرة(2)

في البداية لا بدّ من أن أعرب عن تقديري لمنظمي هذا الاجتماع المحترمين، ولا سيما الكاردينال السيّد يُوحنًّا لويس توران(٣). ففي السنوات التي عملت فيها سفيرًا للجمهورية الإسلامية الإيرانية في الفاتيكان كنت على علاقة قريبة معه، وتكلل تعاونه المؤثر بالنجاح في المشاريع التي عملنا عليها في تلك السنوات، ومنها المؤتمر الدولي للسكان والتنمية في القاهرة الذي عُقِد برعاية الأمم المتحدة؛ وكذلك في المؤتمرات التالية في كوبنهاغن وبكين وإسطنبول التي عُقِدت كلّها بإشراف الأمم المتحدة. كما أتقدّم بالشكر إلى رئيس جامعة كريكوريان(٤) المحترم والسفير السيد رباني المحترم، وأتمنى أن توفر هذه العلاقات الأرضية المناسبة للتعاون البنّاء بين الجانبين.

(1) International Conference on Popualtion and Development (ICPD) in Cairo, Egypt.

(٢) كلمةٌ أُلقيت في اجتماع بجامعة كركوريان في روما بإيطاليا؛ للتعريف بالترجمة الفارسية لكتاب "atechism of the Catholic Church" (المبادئ الاعتقادية والعملية للكنيسة الكاثوليكية) بتاريخ ١٢/ ١/ ٢٠١٤.

(3) Jean-Louis Tauran.

(4) Pontifical Gregorian University.

ترجمة كتاب مرجع الكنيسة الكاثوليكية إلى الفارسية

ربّما يعجب القارئ من ترجمة كتاب «المبادئ الاعتقادية والعملية للكنيسة الكاثوليكية»، ككتاب مرجعي مهم للكنيسة الكاثوليكية ونشره في إيران؛ لأنَّ التصور العام حول إيران يخضع للدعاية الإعلامية المعادية. والحقيقة أنَّ الرغبةَ في التعرف على الآخرين وفهمهم متجذّرة في الثقافة الإيرانية، وخير دليل على ذلك وجود الكثير من الكتب في هذا المجال تأليفًا وترجمة.

لا بدّ أنكم تعلمون بأهمية كتاب «المبادئ الاعتقادية والعملية للكنيسة الكاثوليكية» وصعوبة ترجمته ودقتها، بحيث استغرقت عملية الترجمة من النص اللاتيني إلى الإنكليزي سنوات عدّة. ولهذا، فإنَّ عملية الترجمة إلى اللغات المختلفة كانت تجري بدقة متناهية من قبل رجال الدين الكاثوليك، ولكنَّها هي المرة الأولى التي يترجم فيها الكتاب من قبل مسلم إلى اللغة الفارسية، وقد نُشِر مؤخرًا على الرغم من أنَّ ترجمته تعود إلى سنوات سابقة.

ربّما كان أحد أهم أسباب ترجمة هذا الكتاب هو رغبة الإيرانيين الجامحة، وخاصة النخب منهم، نحو القضايا الفلسفية والكلامية، والتحري عن آراء الأديان الأخرى حول مختلف القضايا التي يواجهها الإنسان. وهذه الصفة ليست حديثة عهد، وإنَّما كانت وستبقى على مر التاريخ، وهو ما أشار إليه السياح الذين زاروا إيران في القرون الماضية. وفيما يلي سأوضح باختصار مكانة الفلسفة في إيران المعاصرة.

استمرار الفلسفة في إيران

إنَّ الفلسفة في إيران المعاصرة هي استمرار لما كانت عليه في إيران القديمة، فلم تنقطع يومًا السنّة الفلسفية في إيران – سواء قبل الإسلام أو بعده– وما يقال عن ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) بأنَّه آخر فيلسوف في العالَم الإسلامي لا ينطبق على إيران بتاتًا.

والمهم هنا ليس مجرد استمرار هذه السنّة الفلسفية، وإنّما تطورها وتكاملها على مرّ الزمان، ومن هنا فإنَّ فلسفة ابن رشد وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) هي جزء من تاريخ الفكر الفلسفي، حيث ظهرت بعد هاتين الشخصيتين مدارس فلسفية مهمة في إيران، أهمها فلسفة الإشراق لشيخ الإشراق (١١٥٤ -١١٩١)، والحكمة المتعالية لصدر المتألهين الشيرازي (١٥٧١ - ١٦٤٠)؛ وهما مدرستان انتهل منهما الفلاسفة والمفكرون في القرون الأخيرة، وما زالتا حاضرتين بقوة في الأوساط الفلسفية.

والقضية المهمة هنا هي ليست استمرار الفكر الفلسفي، وإنّما بالتأثير العميق لهذه الافكار الفلسفية في المباحث الكلامية والعرفانية والفقهية والحقوقية. وتتضمن المباحث الكلامية الشيعية كما المعتزلة مباحث عقلية وفلسفية، لكنَّ المذهب العقلي للمعتزلة، ومع الأسف آلَ إلى الانطواء ضمن المذهب السني حتّى غطاه غبار النسيان منذ قرون، في حين بقيت مباحث الكلام الشيعي حيوية وخلاقة ومعطاءة ومتكاملة، إذ يمكن القول: إنَّ هذه المباحث كانت تزداد نفوذًا ومكانة في الكلام الشيعي بمرور الزمان حتى عصرنا الراهن، ولا سيما في إيران مقارنة بالمناطق الشيعية الأخرى.

وينطبق هذا الكلام أيضًا على المباحث العرفانية، وخاصة العرفان النظري. إلّا أنَّ الدور الرئيس للفلسفة تمكن مشاهدته في بلورة الكثير من مباحث «أصول الفقه». وهذه الأصول هي عمليًا منطق الفقه الذي يبحث في فهم النصوص المختلفة، ويقوم بعملية استنباط الأحكام في حالة غياب النص. إنَّ الدور الكبير للفلسفة في مباحث أصول الفقه أدى إلى توسع هذه المباحث وتعمقها. ولّما كان على طلبة العلوم الدينية دراسة هذا العلم بالضرورة، فإنَّ علم الأصول قام بدور كبير في تكوين الثقافة الدينية للإيرانيين.

فلسفة الحضارة الجديدة وثقافتها

بعد مواجهة المجتمع الإيراني مع الثقافة والحضارة الجديدة، وجدت الفلسفة وأصول الفقه أنفسها أمام أدوار جديدة. والهدف لكليهما هو الدفاع عن الإيمان والضوابط الدينية، وإلى جانب ذلك إيجاد تغييرات ذاتية في ظل الأفكار والحقائق الجديدة التي حلت في الميدان. وهذه التغييرات تجهز بطبيعة الحال الأرضية المناسبة

للحصول على أجوبة للحاجات الجديدة. ويمكن أن نسوق مصداقًا واضحًا لما نقول هو المقاومة الفكرية والثقافية التي أبدتها إيران تجاه التيارات الماركسية؛ ذلك أنَّ إيران كانت مطمعًا لهذه الاتجاهات؛ لقربها من الاتحاد السوفيتي السابق، ولخسرانها أجزاءًا مهمة من مساحتها التاريخية في منطقة القوقاز وآسيا الوسطى. فقد احتل الاتحاد السوفيتي شمال غربي إيران بحجة الحرب العالمية الثانية، ولم يكن راغبًا في الانسحاب، حتى بعد انتهاء الحرب. ولنا أن نتصور بلحاظ ما ذكرنا من حقائق كم كانت الضغوط هائلة على إيران من قبل السوفيت وأنصارهم في الداخل. وبعض هذه الضغوط هي ضغوط عقائدية كانت تستهدف الشبان والطلاب، ولولا القدرة الإقناعية الفلسفية والكلامية التي بحوزتنا لما استطعنا أن نواجه مثل هذه التهديدات.

دَور الفلسفة في إيران المعاصرة

تعدّ منطقة الشرق الأوسط ولأسباب عديدة ساحة واسعة للتطورات الاجتماعية والسياسية، وثمة فارق كبير بين منطق هذه التطورات في إيران والبلدان الأخرى ليس بوسعنا التفصيل فيها حاليًا. وما نريد أن نشير إليه هو أنَّ لإيران حصة الأسد من الإمكانيات الفلسفية والفقهية. وهذه الإمكانيات النظرية هي التي تمنح الاستقامة للاعتقادات الفردية، والقدرة والقوام للبنية الاجتماعية، ممّا يمنع ظهور الاتجاهات المتطرفة التي نشهدها مع الأسف في المنطقة.

إنَّ البيان الدقيق لمكانة الفلسفة والكلام في إيران يحتاج إلى المزيد من الوقت، وهو موضوع بوسع أساتذة جامعة غريغورين وطلابها المحترمين القيام بالمزيد من البحث فيه، بل وكتابة رسائل جامعية عنه، وهذا ما يساعد من دون شك على الفهم المتقابل، الذي نحن في أحوج ما نكون إليه، وسيكون موضع ترحيب من قبلنا.

العولمة وحوار الأديان[1]

تعود خلفيات الحوار الديني بالشكل الذي هو عليه الآن إلى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات في القرن الماضي، على الرغم من أنَّ هذا الحوار ذو تاريخ طويل،

---

(١) مقال نُشِر في مجلة "نمايه پژوهش"، العددان ٢٣ – ٢٤، خريف وشتاء ١٩٩٢.

يرجع إلى مئات السنين، بل آلافها، غير أنَّ الحوار بمفهومه المعاصر هو ظاهرة جديدة، ولا بد أن نسترجع ظروف التسعينيات، ونتعرف عليها؛ لنتوصل إلى أبعاد هذا الحوار ونتائجه ومفهومه.

وأهم عامل يمكن أن نذكره هنا هو الفراغ الحاصل من السقوط المفاجئ والسريع للكتلة الشرقية، والنتائج المختلفة التي ترتبت عنه، فقد انهار النظام السياسي والدولي المهيمن على العالم، لتتكشف من جديد الحقائق الثقافية والقومية والتاريخية التي كانت تلهم بمجملها التراث الديني.

ووقعت هذه التطورات بشكل سريع جدًا ومصيري في منطقة البلقان والاتحاد السوفيتي السابق، وبغض النظر عن العوامل التي أدت إلى ذلك، فقد سادت الفوضى في العالم، ووقعت هجرات كبرى للأيدي العاملة بسبب الاضطرابات والحروب الداخلية، فيما كانت تحدو المهاجرين الذين وصلوا إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية آمالٌ بالرجوع إلى أصولهم وقيمهم الدينية وثقافتهم الأصلية، وهي ظاهرة لم تكن متوقعة استقطبت اهتمام الرأي العام، وطرحت قضايا جديدة من الناحية السياسية والحقوقية والاجتماعية.

وأهم تلك القضايا فكرة الدفاع عن حقوق الأقليات وإرسائها في البنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية، وتوجهت الأنظار نحو تحقيق مجتمع متعدد الثقافات، حتى أصبح موضوع حقوق الأقليات والمجتمع المتعدد الثقافات هو أهم هاجس لدى المفكرين والأحزاب الموجودة.

خرج العالم من الظروف المستقلة نسبيًا في عقدي الستينيات والسبعينيات، وكذلك الثمانينيات، إلى حد ما، وأصبح كل شيء معرضًا للتغيير. وفي خضم هذه التغييرات انبثقت فكرة الحوار الديني - سواء الحوار بين الأديان، أو بين المذاهب- لتلقى ترحيبًا واسعًا، من الحوار بين الأديان الإبراهيمية إلى الحوار بين المذاهب المسيحية المختلفة.

جاء هذا الحوار مفيدًا وفعالًا في وقته على الرغم ممّا توجه له من انتقادات من قبل بعض أتباع الأديان المختلفة وشخصياتها. ولكن ممّا لا شك فيه أنَّ الظروف التي نمر بها كانت أسوأ ممّا هي عليه الآن لو لم يُطلَق ذلك الحوار، الذي من نتائجه تحسين

العلاقة المتوترة بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حتى أوائل التسعينيات أو أواسطها. وينطبق هذا الكلام أيضًا على حالات أخرى، مثل العلاقة بين الإسلام والمسيحية.

وبغض النظر عن كل ما قلناه، فإنَّ هذا الحوار جاء استجابة مناسبة ومؤثرة لما كان ينادي به الرأي العام، الذي كان يطمح لرؤية زعمائه الدينيين وهم يجلسون تحت سقف واحد مع الزعماء الدينيين للأديان الأخرى؛ ليبعث فيهم شعورًا بالمزيد من الاستقرار والاطمئنان، بل إنَّ مثل هذا الحوار يبعث على استقرار السلطات الدينية نفسها، التي كانت نادرًا ما تلتقي وتتحاور مع نظرائها في الأديان الأخرى عن قرب قبل عقد التسعينيات. فلم تعد هناك مشكلة للقيام بمثل هذه اللقاءات والحوارات والاستشارات، بل كانت تلقى دعمًا وتشجيعًا، ممّا ساعد على حلول السلام والاستقرار طوال عقد التسعينيات.

ما ذكرنا كان إجمالًا لأهمية الحوار الديني ودوره. هذا الحوار يجب أن يكون أكثر جدية وصراحة ومنهجية بلحاظ الظروف والتهديدات الحالية التي تعصف بالعالم، ويبتعد عن المجاملات إلى الحوار الهادف البنّاء.

حقيقة العولمة وضرورة الحوار

لا نريد هنا تقديم تفسير لظاهرة العولمة وأسبابها وعوامل حصولها، بل نقول إنَّ العالم تغير كليًا، وتبدلت مفاهيمه من أساسها، مثل السلطة والحدود والملكية والسيادة والأمن، لتكتسب القضايا المرتبطة بها هي الأخرى معاني جديدة، فلم يعد على سبيل المثال مستوى النفوذ يتناسب مع مستوى القدرة، وتغيرت آلية تبدل القدرة إلى النفوذ كليًا عمّا كانت عليه في السابق، ولهذا لم يعد بالإمكان إيجاد حلول للمشكلات عبر استخدام الطرق والأساليب السابقة.

في مثل هذه الأوضاع اكتسب منهج الحوار مع الآخرين لحل المشاكل أهمية استراتيجية، وأصبح الجميع: الضعيف والقوي، والفقير والثري، والنامي والمتطور، مؤثرًا في تعيين مصير القضايا الكبرى والصغرى في العالم بما لا يمكن تجاهل أيٍّ من هذه القطاعات. هنا يأتي دور الحوار ليمثل أفضل سبيل للتعاون بين الجميع.

ويأتي الحوار الديني هنا استجابةً تتناسب مع حاجة العولمة وطبيعتها في سياق مسارها الطبيعي. وعلى الرغم من أنَّ هذه الظاهرة منحت الأديان مثل هذه الفرص، فإنَّها أصبحت أهم تحدٍّ للدين طوال التاريخ المعاصر، وسيستمر هذا التحدّي بقوة أكبر وفي مساحات أوسع؛ لهذا لا بد من أخذه على محمل الجد، والتفكير والتعاون مع بعض؛ لفهم طبيعته، ودراسة أبعاده المختلفة، وكيفية التعاطي معه. وهنا يمكن للحوار الديني أن يساعد جميع الأديان لتحقيق هذا الهدف.

إنَّ أهم خاصية في العولمة التي تحتك مع الدين بشدة هي التأثر والتأثير المتبادل، وضرورة تقديم تفسير للدين يتناسب مع زمن العولمة، ويستجيب لحاجاتها ومقتضياتها.

إنَّنا نعيش في عالم يتأثر بعضنا ببعض، ومصائرنا معلقة ببعض بما لا يمكن اجتنابه. وهو كلام صحيح من الناحية النظرية والفلسفية، وقد أصبح حاليًا حقيقة قوية واقعة في الميدان العملي.

أصبحت الظروف في الوقت الحاضر بحيث لا يمكن لأي بلد أو جماعة أن تعيش بمفردها وفي معزل عن الآخرين السعادةَ والأمنَ المطلقَ، واقتربنا عمليًا من النقطة التي يجب أن نفكر فيها ببرامج تعود بالنفع على الجميع، ولم يعد مجديًا التفكير بالذات فقط ونسيان الآخرين؛ لأنَّ ذلك جهد لا يؤتي ثماره عمليًا.

للمزيد من التوضيح فيما يتعلق بالدين، نقول إنَّنا ولحفظ ديننا لا يمكن أن نفكر بمن يدين بديننا فقط، بل إنَّ نجاحنا في هذا المسعى يعتمد على إفساح المجال للمؤمنين بالأديان الأخرى على العمل بمعتقداتهم، والقيام بما تفرضه عليهم أديانهم. بعبارة ثانية، إنَّنا وللدفاع عن ديننا مضطرون للتفكير بعالم متعدد الأديان، يعمل أتباع كل دين وفقًا لما يمليه عليهم دينهم. وإنَّ العالم المثالي هو ذلك العالم الذي يستطيع أتباع كل دين الالتزام بأصوله ومبادئه التي يعتقد بها.

إنَّ الاتفاق على هذه النقطة يوفر إمكانيات هائلة للحوار والتعاون، ويهيئ الأرضية الحقيقية والمناسبة للتعامل النظري والعملي، فالحوار واستمراره لا يتحقق فقط من حسن النوايا والإرادات الإيجابية، بل لا بد من وجود مناخ مناسب وأرضية خصبة قابلة للتطور.

أمّا المسألة الثانية، فهي أنَّ المطلوب من الدين أن يقدّم تفسيرًا منسجمًا مع خصائص العولمة ومتطلباتها، وهي مهمة صعبة، وفي غاية الدقة يعاني منها الجميع، سواء الموجودون في البلدان الصناعية والثرية، أو في البلدان النامية والفقيرة. فحتى المجتمعات المتطورة كانت قبل حلول ظاهرة العولمة مجتمعات منغلقة، بمعنى أنَّها كانت ترى العالم والآخرين بمنظار مصالحها البحتة، سواء كانت هذه المجتمعات صغيرة أو كبيرة، وسواء كانت محصورة في طائفة دينية أو كتلة اجتماعية، وسواء كانت ضمن كتلة اقتصادية اجتماعية أو ضمن مجموعة دينية وثقافية وتاريخية واحدة.

حقيقة الأمر أنَّ مرحلة العولمة لا تطيق مثل هذه النظرة، ولا بد من وجود رؤية جديدة، وعلى الدين هنا أن يقدّم تفسيره الخاص، ولا شك في أنَّ فكرة وحدة مصير الأديان في العصر الجديد، والسعي للعثور على أجوبة مناسبة للمتطلبات المعاصرة يوفر أرضية مناسبة أخرى للحوار بين الأديان.

الحوار الديني والتوقعات المتبادلة

كثر الكلام في الآونة الأخيرة عن التوقعات المتبادلة بعد التطورات الأخيرة، وهو موضوع يحظى بالأهمية في أبعاده السياسية والاجتماعية والدينية والاعتقادية، ومن الضروري أن يبادر علماء الدين أولًا لدراسة هذا الموضوع وإشباعه بحثًا؛ ذلك أنَّ الغياب من هذه الدراسات يرفع من وتيرة التوترات السياسية والاجتماعية والدينية، ويعمل على تعقيد الأوضاع أكثر ممّا هي عليه.

لا نتحدّث هنا عن التفسير المعاصر الذي يجب أن يقدّمه أيّ دين مع ملاحظة مجموعة الحقائق والضرورات، وما إذا كان هذا التفسير يصبّ لصالح ذلك الدين والمؤمنين به، وكذلك الأديان الأخرى والاستقرار والسلام، إنَّما المهم هنا أنَّ أيّ دين لا يستطيع أن يتجاوز أصوله ومبانيه، ويقدّم التفسير المطلوب من دون العودة إلى منهجه المعتمد؛ ذلك أنَّ أيّ تفسير لا يأخذ بالاعتبار الملاحظات المذكورة، فليس بوسعه استقطاب المؤمنين به، ولا يمكنه الاستمرار والاستقرار. فكل إنسان مؤمن إنَّما يؤمن بدينه لإيمانه بحقانيته، وهذا ما يجعله يرفض كل شيء فاقد للحجة الشرعية، بل يجعله يبدي رد فعل إزاءه. ولذلك، فإنَّ الاعتبار الديني لأيّ منهج أو عنصر يرتبط

بالنظام الداخلي للدين نفسه، وليس أيّ عامل آخر.

إنَّ لجميع الأديان الكبرى الإمكانيات والمبادئ والأدوات اللازمة لإعادة بناء ذاتها وفقًا للظروف الجديدة، وقد استطاعت الاستمرار لاحتوائها على هذه الصفة لهذا، فإنَّ توقعاتنا يجب ألّا تتجاوز ما تقتضيه هذه الفكرة. وليس من المقبول بتاتًا أن يقوم أتباع دين معين بفرض فهمهم وتفسيرهم للدين على الآخرين، فذلك مخالف للعقل السليم والمنهج العلمي، ومناقض لمنطق الحوار.

لا شك في أنَّ هذا البحث الذي أشرنا إلى نقاطه المهمة وحسب، يعدّ أهم عنصر في الحوار الديني، ورسالة تخدم السلام والاستقرار العام، أكثر من التوصيات السياسية الفردية المغرضة.

مجالات التعاون

إنَّ العولمة - كما قلنا- هي من أهم التحدّيات التي واجهت الدين على طول التاريخ المعاصر، وهذا التحدّي لا يختصّ بدين من دون آخر، ما يوفر أفضل مناخ للتعاون بين الأديان، ومن ضرورات هذا التعاون هي الحاجة إلى الفهم المشترك لأيّ شيء يشكل تهديدًا للدين.

إنَّ سرعة وقوع ظاهرة العولمة، وانصراف أذهان الرأي العام إلى القضايا السياسية والاجتماعية المتسارعة حال دون حصول مثل هذا التعاون والتقارب.

إنَّنا نعيش في عالم تراجع فيه دورنا في تربية أبنائنا وتقرير مصائرهم أكثر من أيّ وقت مضى، وباتوا يتربّون في ظروف وهم منقطعون عن تاريخهم وثقافتهم، بل من غير المعلوم كيف سيكون عليه الإنسان المستقبلي مع التطورات الواسعة الحاصلة في علم الهندسة الوراثية.

وبغض النظر عن النتائج المختلفة المترتّبة عن التطورات السريعة في مجال هندسة الجينات، فإنَّ القضية الأهم هي تراجع دور المرجعية القانونية لمثل هذه الحالات، إذ سنواجه في المستقبل القريب فراغًا كبيرًا في هذا الجانب، في ظاهرة لم يسبق لها مثيل.

إنَّ التطورات الحاصلة وعلى طول التاريخ الجديد، لم تكن تخرج عن الأُطُر

الحقوقية والقانونية القائمة على أساس المباني والمفاهيم الأخلاقية والحقوقية، والعرف الموجود في المجتمع؛ لأنَّنا على ما يبدو متجهون بسرعة نحو ظروف جديدة لا تستطيع معها الأنظمة الحقوقية الموجودة الاستجابة لمتطلباتها الحقيقية.

والحق أنَّه لم تقع مثل هذه التطورات السريعة المصيرية في أيّ زمن، والأهم من ذلك أنَّ الأديان لم تكن يومًا وإلى هذا الحد غير مكترثة إزاء التطورات العلمية والتكنولوجية. فالدين تاريخيًا حتى في حالات ضعفه أمام العلم كان له موقف من التطورات العلمية، سواء بقبولها أو رفضها. ولكن يبدو أنَّ الجميع يمر في مرحلة من السبات والغفلة من دون أن يبدي أيّ رد فعل ممّا يجري، بينما الآذان صاغية في الحال الحاضر لسماع رأي الدين حول هذه المستجدات على الأقل، وهو الذي له القدرة والكثير ليقوله أكثر من الآخرين.

إنَّ التعاون بين الأديان في هذه الحالات يمكن أن يكون نافعًا جدًا ومؤثرًا؛ لأنَّ هذه التهديدات الجديدة هي تهديدات عالمية شاملة، وبالنتيجة، فإنَّ مثل هذا التعاون يمكن أن يعود بالنفع على الجميع، وهذا الأمر بحاجة إلى توفير الأرضية المناسبة للتعاون العلمي والعملي بما يهيئ المناخ للمعرفة والتفاهم المشترك، وبما يساعد المجتمعات على الوقوف بوجه التهديدات المذكورة، ويحفظ مكانة المرجعية القانونية والحقوقية، ويمنع وقوع الفراغ القانوني.

ومن المناسب أن نذكر هنا نماذج من التعاون الذي جرى أواسط التسعينيات، فقد استطاع الحوار والتعاون بين الإسلام والمسيحية الوقوف أمام الأفكار المتطرفة للاتجاهات الحديثة المغالية، فقد حاولوا تمرير بعض القضايا في المؤتمرات الدولية في القاهرة وبكين وكوبنهاكن وإسطنبول، التي عقدت برعاية الأمم المتحدة، والتي كانت تتعارض مع الأصول الأخلاقية والدينية والتقاليد والأعراف التاريخية السائدة. لم يكن الغرض هو التمرير والمصادقة وحسب، وإنَّما الفرض في المرحلة التالية، إلّا أنَّ هذا التعاون منع من وقوع المحذور ولا يسعنا ذكر تفاصيل ذلك الآن.

الحوار المشترك بين الشيعة والمسيحية(١)

إنَّ حضور حجة الإسلام والمسلمين الدكتور «مسجد جامعي» في الفاتيكان مركز الكنيسة الكاثوليكية وفّر الأجواء المناسبة لإجراء هذا اللقاء حول الحوار المشترك بين الشيعة والمسيحية، وفيما يلي نص هذا اللقاء الذي أجري في جلستين.

«مجلة إمامت پژوهی"

تشمل الأبحاث حول قضية «الحوار المشترك بين الشيعة والمسيحية» قسمين هما: طريقة البحث ومنهجه والمواضيع التخصصية المرتبطة. نسأل أولًا: هل لدى المسيحية والفاتيكان أبحاثٌ حول التشيع، وخاصة في مجال الإمامة؟

ثمة مؤسسة في الفاتيكان تعرف باسم (P.I.S.A.I)(٢) شبه مستقلة، ترتبط به نسبيًا وتنشط في مجال الدراسات العربية الإسلامية، وقامت منذ عقد الستينيات بسلسلة من الدراسات العربية والإسلامية بالمعنى العام للكلمة. أمّا تاريخيًا، فإنَّ الفاتيكان نفسه منذ عام (١٧٣٢) في القرن الثامن عشر أنشأ مؤسسة باسم «مؤسسة البابا للدراسات الشرقية»(٣) في مدينة نابولي الإيطالية، متخصصةً باللغات الشرقية والإسلامية. والسبب في تأسيسها تعليم القساوسة والمبلغين اللغات والآداب الإسلامية. وكانت تدرس هذه المؤسسة اللغات الأوردية والسنسكريتية والفارسية والعربية والتركية، وكانت ذات وزن ونشاط في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وواحدة من المؤسسات المعتبرة حول الدراسات الإسلامية والشرقية في أوروبا في تلك المدّة، وما زالت قائمة إلى يومنا هذا(٤)، على الرغم من أنَّها لم تعد مرتبطة بالفاتيكان، وإنَّما بالحكومة الإيطالية مباشرة. من جهة أخرى، فإنَّ الفاتيكان وإن كان منظومة دولية إلا أنَّه ذو صبغة أوروبية شديدة، خاصة في الماضي، وعليه، فإنَّه يعدّ جزءًا من

---

(١) حوارٌ أجراه الباحث في الشؤون المسيحية، السيد مصطفى رستگار، ونُشِر نصّ الحوار في مجلة "اِمامَت پَژوهی"، العدد الأول، ربيع ٢٠١١.

(2) Pontificio Instituto di Studi Arabi e d'Islamistica.

(3) Instituti Orientalis Neapolitani.

(٤) تحولت هذه المؤسسة اليوم إلى جامعة حكومية تحت اسم "جامعة نابولي للدراسات الشرقية "L`Univerdita degli studi di Napoli L`Orientale.

الغرب بصورة عامة[1]، ولا بد أن يُنظر إليه بهذا المنظار.

إنَّ الدراسات الفاتيكانية كجزء من المجموعة الغربية، ركزت بشكل رئيس في القضايا الإسلامية على مصادر أهل السنة، ولهذا كانت الدراسات الشيعية في الفاتيكان من الناحية التاريخية (التاريخ المعاصر) نادرة أو معدومة، كما هو الحال في البلدان الغربية وسائر مراكز الدراسات الإسلامية في الغرب.

وبطبيعة الحال، فقد تغيرت الأمور في العقود الأخيرة، وبرزت رغبات في الفاتيكان، وفي هذه الجامعة تحديدًا؛ لمعرفة الدراسات الشيعية ومتابعتها. ومن الشخصيات التي كان يحدوها طموح لمثل هذه الدراسات لاكونسا بالدا (١٩٤٤)[2]، وهو أستاذ إسباني عاش في تنزانيا لاثنين وعشرين عامًا، وتعلم اللغة السواحيلية، وكذلك القسيس إيتيني (١٩٣٦ - ٢٠١٣)[3]، الذي كان رئيسًا للجامعة، وأحد أعضاء مجموعة «الآباء أصحاب الزيّ الأبيض»[4]، وهو فرنسي الجنسية. وقد كان رئيسًا للجامعة حينما كنت في الفاتيكان، وكان يبدي رغبة في متابعة الدراسات الشيعية، وكذلك عدد من أساتذته.

هذا يعني أنَّ دراسات الفاتيكان - كما الغرب- حول الشيعة تعود إلى القرون الأخيرة، مثلما قال إيتان كولبرغ (١٩٤٣)[5] في مقالته حول خلفيات الأبحاث الشيعية في الغرب؟

أجل، كما قلت، فإنَّ هناك مجموعة من القضايا لا يمكن فصلها عن بعضها، فالفاتيكان هو منظومة ترتبط بمنظومة أكبر، ولا بد من النظر إليه من هذه الزاوية؛ لتتضح الأمور أكثر. فللفاتيكان وباعتباره جزءًا من أوروبا صورة عامة عن الدراسات الإسلامية والشيعية، ويهيمن عليها بالطبع الفضاء الفكري الأوروبي، ولكنَّ موضوع الشيعة طُرِح في العقود الأخيرة، ولا سيما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

إنَّ الفاتيكان بحاجة إلى الحوار مع إيران؛ لتنظيم علاقاته بالعالَم الإسلامي،

---

(١) لا بد من الإشارة هنا - وكما سيأتي في سياق المقابلة- إلى أنَّ القصد من الغرب هنا هو المجتمعات الأوروبية وحسب؛ لأنَّ المجتمع الأميركي يختلف تمامًا مع المجتمعات الأوروبية.

(2) Justo Lacunza Balda.

(3) Etienne Renaud.

(4) Padre Bianchi.

(5) Etan Kohlberg.

خاصة بعد أن قاطعتها مصر[1]. مهما يكن، فقد برزت في العقود الأخيرة ضرورات سياسية أكثر من السابق لمثل هذه الدراسات، فإذا كان هذا الموضوع لا يمثّل قبل الثورة سوى فضول علميّ، فقد أصبح الآن ضرورة سياسية ودولية. وعليه، فإنَّ الرغبة لدى الفاتيكان للتعرف على الشيعة في الوقت الحاضر أصبحت أكثر من غيرها من المؤسسات الغربية المعنية بمثل هذه الدراسات. وحقيقة الأمر أنَّ ما دفع الفاتيكان لمضاعفة دراساته المتعلقة بالشيعة هو حاجته إلى إدارة علاقاته بالعالم الإسلامي والقطاع الشيعي على الخصوص، وفهم القضايا الداخلية بين السنة والشيعة، ولا سيما في السنوات الأخيرة، وأيضًا للضرورات السياسية والدولية ولزوم تنشيط العلاقة الدينية مع المجتمع الإسلامي. وخرجت هذه الدراسات من خانة الفضول العلمي، بل أصبحت ضرورة سياسية؛ لهذا، فإنَّ الفاتيكان يرحب حاليًا بأيّة علاقة مع العالم الشيعي، وكان لهم طموح بالتعرف على شيعة لبنان حينما كنت سفيرًا في الفاتيكان، يومها كان حزب الله في بدايات تأسيسه.

على أيّ حال، فقد تضاعفت الحاجة للتعرف على الشيعة، خاصة شيعة العراق بعد سقوط النظام السابق، وكذلك مع إيران، وحاولوا استثمار التنافس بين الشيعة والسنة لما يصبّ في مصلحتهم، وهو أمر طبيعي. وقبل ذلك أوقفت مصر حوارها مع الفاتيكان بعد خطاب البابا حول الحريات الدينية والتطرّق إلى مصر كبلد لا يحترم حقوق المسيحيين، لذلك تحدوهم رغبة لتعزيز الحوار مع إيران وإيجاد نوع من التعادل مع العالم الإسلامي، فهم يحاولون إثارة حس التنافس لدى مصر؛ لإعادة علاقاتها، من طريق إقامة العلاقات مع إيران. هذه القضايا الداخلية دعتهم إلى الاهتمام أكثر فأكثر بالجانب الشيعي. وبطبيعة الحال، فإنَّ لديهم علاقات مع دول سنية أخرى مثل المغرب في شمال إفريقيا، القريب من أوروبا. وإنَّ هناك علاقات مع إندونيسيا وشرق آسيا، وكذلك كانت لهم علاقات مع مصر والأزهر كونه قطب العالم السني.

في مبحث الحوار المشترك، هل هناك اختلاف بين فضاء القساوسة والفاتيكان والفضاء الأكاديمي، أم يمكن الحوار معهما بالأدبيات نفسها؟ ذلك لأنَّ الفضاء الأكاديمي يختلف عن الفضاء الحوزوي في الأدبيات الشيعية.

---

(١) كان موضوع الشيعة مطروحًا أيّام حكم صدام حسين (١٩٣٧ – ٢٠٠٦) في العراق؛ لأنَّ الفاتيكان كان على علاقة حسنة مع صدّام والعراق لأسباب هي ليست محل بحثنا الآن.

ثمة اختلافات إجمالًا، ولكنَّ القضية ليست بهذه السهولة. وبالطبع لا يمكن أن نقارن الغير - وفي كل مجال- معنا، ولا بد من التعرف على أيّ مجتمع من طريق خصائصه، فالفاتيكان هو مركز الكنيسة الكاثوليكية بما تتضمن هذه المركزية من تعقيدات، ولديه سلسلة من الطرق[1] والمجموعات المذهبية المختلفة، مثل: الدومينيكان[2]، والفرانسيسكان[3]، واليسوعيين[4]، وغيرهم. ويبلغ عدد اليسوعيين حاليًا نحو خمسة وعشرين ألف شخص، كلهم من القساوسة، ولديهم تنظيماتهم وزعيم خاص بهم، ويمثلون في واحدة من عناوينهم عصب الكنيسة الكاثوليكية؛ لأنَّهم يشرفون تقريبًا على جميع المراكز التعليمية والمراكز الأكاديمية، من الابتدائية إلى الثانوية والجامعية، ولكن ليس كلها، فهناك أيضًا الدومينيكان وهم كثر. ولكن معظم المثقفين والعلماء الكبار في الكنيسة الكاثوليكية هم من اليسوعيين؛ لأنَّ أكثرهم من العلماء ورجال النخبة في الكنيسة، ويختلفون عن غيرهم من الطوائف بفارق كبير.

ومن المجموعات الأخرى الموجودة في الكنيسة الكاثوليكية، هم الدومينيكان ولهم اهتمام خاص بالمسائل التعليمية، وكذلك الفرنسيسكان، والكابوتشين[5]، والبنديكتيون[6]، والكاتميليتس[7]، والأوغستينيون[8]، وغيرهم. لهذا، فلا تمكن معرفة الكنيسة الكاثوليكية إلا بمعرفة هذه الطرق والفرق، وطريقة تفكيرها وأسلوب عملها وطبيعة تنظيماتها وخلفياتها. ليس الأمر إذًا وجود قيادة واحدة وحسب تقود الفاتيكان، فلكل مجموعة من هذه المجموعات إدارة خاصة بها بحيث لا يمكن تعميم الموضوع، والقول إنَّهم كلهم قساوسة وكفى، فبعضهم أساقفة أيضًا، على الرغم من أنَّ هذه المجموعات لا ترغب الارتقاء إلى مستويات أعلى من منصب القس إلا ما استثني.

(1) Orders.
(2) Dominicans.
(3)Franciscans.
(4) Jesuits.
(5) Capuchins.
(6)Benedictines .
(7) Carmelites.
(8)Augustinians.

لكنَّ البابا هو الذي يصدر الفتوى الموحدة؟

نعم، بخصوص الفتوى، فإنَّ العقيدة المسيحية، ودور الفقه بمعنى مجموعة القوانين والتعليمات التي يجب الالتزام بها، تختلف كثيرًا عن الإسلام والتشيع، ولكن إذا أذعنّا في الإجمال بوجود فقه في العقيدة المسيحية، فإنَّ الفتوى تصدر عن البابا بمعنى أنَّ جميع الفرق والمجموعات تعترف بالبابا زعيمًا أعلى لها، على الرغم من أنَّ بعض هذه الفرق مثل اليسوعيين كان لهم كلام في هذا الموضوع في بعض مراحل التاريخ. فلكل من هذه الفرق فكرها وتراثها وأهدافها ومنهجها الخاص بها.

وهل تستطيع كل هذه المجموعات غير المتناسقة أن تنضوي تحت فرقة من المسيحية وتعدّها هي القائدة في الجانب الديني؟

نعم، هو كذلك كما هو واضح.

المراكز العلمية للكنيسة

وهل هذا البعد الديني للمسيحية بفضائه العام يختلف إذًا مع الجانب الأكاديمي؟ فهناك أكاديميون مسيحيون انتشروا في الغرب أو مناطق أخرى من العالم، ونشروا موسوعات تفصيلية ومجلات عديدة في مجال الدراسات الدينية. على سبيل المثال هل التدريس في الجامعات متأثر بهذا البعد الديني للمسيحية؟

اليسوعيون هم تقريبًا من الأكاديميين. وكان السيد جوزيبي بيتاو (١٩٢٨ – ٢٠١٤)[١] – وهو أسقف إيطالي– رئيسًا لجامعة صوفيا[٢] الكاثوليكية في طوكيو، ثمّ أصبح رئيسًا لجامعة غريغورين[٣]، وهي أهم جامعة كاثوليكية من الناحية الدينية، تخرّج فيها جميع البابوات في القرون الأخيرة. وقد قال مرة في إحدى زياراته لي: إنَّ رئيس وزراء اليابان في حينه هو خريج جامعة صوفيا. وإذا كانت ذاكرتي تسعفني، فإنَّه كان يقول: إنَّ ستين بالمائة من المسؤولين السياسيين في البلدان المختلفة هم من

---

(1)Giuseppe Pittau .
(2) Sophia University.
(3) Pontificia Universita' Gregoriana.

المتخرّجين في مدارسنا. وهذا يرتبط بالخمسينيات إلى السبعينيات. وهذه الجامعة هي جامعة متكاملة، ولا يقتصر أساتذتها على اليسوعيين والمسيحيين، وإنَّما يستضيفون أساتذة أيضًا من الخارج. وتوجد مراكز علمية مهمة في مدينة روما يديرها القساوسة تقوم بأبحاث علمية مهمة، فعلى سبيل المثال يوجد في روما مركز حول علم النجوم، يديره قساوسة من المتضلّعين في هذا العلم. وعليه، فإنَّهم جميعًا من الجامعيين ويحملون فكرًا علميًا جامعيًا.

وإذا لاحظنا صحفهم كمثال، فإنَّ لديهم مجلة باسم «الحضارة الكاثوليكية»[1]، تطبع باللغة الإيطالية فقط، وهي من أوثق المجلات في المائة وخمسين عامًا الأخيرة، تجد فيها أكثر المقالات تأثيرًا في توضيح الأوضاع الاجتماعية ولكن مع حذر شديد؛ لأنَّ الأوروبيين يعارضون تدخل الدين في مثل هذه الامور. وهي مجلة من الشهرة بحيث تنشر الصحف الإيطالية المعروفة ما تتضمنه المجلة في عددها القادم قبل طباعته. وتحتوي المجلة أيضًا على الكثير من المواضيع السياسية، وإنَّها لا تكتفي بالمواضيع الدينية البحتة فقط، وإنَّما تتعدّاها إلى المواضيع الاجتماعية والسياسية.

إذًا، فإنَّني أقول في الجواب عن السؤال المذكور بأنَّ هؤلاء هم من الأكاديميين، بل من أفضل الأكاديميين في الكنيسة الكاثوليكية.

هل القصد من كونهم جامعيين، بأنَّهم يجرون أبحاثًا في إطار قسم الدراسات الدينية في الجامعات، مثل ويلفرد مادلونغ (١٩٣٠ - ٢٠٢٣)[2]، ومنتغمري واط (١٩٠٩ - ٢٠٠٦)[3]؟

يجب أن يطرح هذا السؤال بدقة أكبر، بمعنى أنَّ الدراسات الدينية في أوروبا على الأقل في الحال الحاضر، تقتصر على المؤسسات الدينية وبالكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية مثلًا. وبالطبع، فإنَّ بعض الدراسات الدينية تجري بهذه الصورة، مثال ذلك جامعة غريغورين في روما. وتوجد جامعات كاثوليكية في مناطق أخرى من أوروبا تتضمن أقسامًا مختلفة، ومنها قسم الدراسات الدينية.

والفئة الأخرى من الجامعات الأوروبية، الحكومية منها والخاصة، تتضمن

---

(1) Civitta Cattolica.
(2) Wilfred Ferdinand Madelung.
(3) William Montgomery Watt.

أقسامًا مختلفة، أحدها قسم الإلهيات والدراسات الدينية. وفي هذه الجامعات لا يمكن للكنيسة الكاثوليكية أو مجلس الأساقفة - سواء من الكاثوليك أو البروتستانت- أن يفرض رأيه عليها، ولا علاقة لهم بها. فلا تدار الدراسات الدينية في أوروبا على الأقل من قبل الشخصيات الدينية أو المؤسسات الدينية، وهناك الكثير من الحالات التي تدار فيها هذه الدراسات من قبل الآخرين وقد تكون شخصيات معادية للدين أساسًا.

وتوجد في البلدان الأوروبية، وخصوصًا الكاثوليكية منها، جامعات كاثوليكية يدرس فيه أساتذة من غير القساوسة، ومنها على سبيل المثال الجامعة الكاثوليكية في ميلانو، وهي جامعة متكاملة لاحتوائها على مختلف العلوم الإنسانية والفنية. أمّا اسمها المقتبس من ظروف تأسيسها، فهو مجرد عنوان لها؛ والسبب في ذلك أنَّ جميع الجامعات التي تحمل هذا العنوان إنَّما هو مبعث فخر لها، ففي البرازيل على سبيل المثال جامعة باسم بوك[1]، وهي جامعة كاثوليكية ومن الجامعات المعتبرة في أميركا اللاتينية، وإنَّها فخورة بأن يطلق عليها اسم الجامعة الكاثوليكية، لا لكونها كاثوليكية. ويصدق هذا الكلام على المدارس الثانوية أيضًا. فالمدرسة الكاثوليكية لا تعني أنَّها تحت رعاية الأساقفة والقسيسين مثلما كان الأمر قبل خمسين عامًا — على الرغم من وجود بعض هذه المدارس حتى يومنا الحاضر- وهي إنَّما تحمل هذا العنوان افتخارًا؛ لأنَّها معروفة من حيث العلم والأخلاق؛ ذلك أنَّ المدارس الكاثوليكية في أوروبا هي الأفضل حتى الآن من حيث مراعاة الجانب الأخلاقي.

ويدرّس في الجامعات الدينية البحتة مثل جامعة غريغورين، أيضًا أساتذة غير متدينين. وهناك بعض المدارس الحكومية تضم قسمًا خاصًا بالدراسات الدينية إلى جانب الأقسام الأخرى، ويقوم متخصصون في الإلهيات بالمعنى العلمي لها بالتدريس في هذه الأقسام، ومعظمهم - إن لم نقل كلهم- معادون للدين.

وعلى حد علمي، فإنَّ السلطات الدينية لديها مشكلة مع مثل هذه الجامعات ولا تقوم بزيارتها. على سبيل المثال، فإنَّ البابا «راتسينغر» كان استاذًا في إحدى هذه الجامعات بعد الحرب العالمية الثانية أيام شبابه، إلا أنَّنا لا نجد الآن من يدرس فيها من

---

(1) PUK (Pontificia Universita' Cattolica di Rio de Janeiro).

الأساتذة الكنسيين إلا ما ندر؛ والسبب في ذلك أنَّ عمقها العلمي تراجع قياسًا إلى الجيل السابق، ما قبل ثلاثين أو أربعين عامًا مضت، وأنَّ أعداد الأساتذة المؤمنين تراجعت أيضًا، وأصبحت أقل ممّا كانت عليه، وبلغت الأزمة لديها أنَّها تستعين بقساوسة من بلدان أخرى مثل سريلانكا والفليبين لإقامة شعائرها الدينية. كذلك الأمر بالنسبة للراهبات، فإنَّ معظمهن من بلدان أخرى؛ لتراجع أعدادهن إلى حد كبير.

والسبب في التراجع العلمي للأساقفة الحاليين قياسًا بالسابقين يعود إلى أنَّ الأساقفة في الماضي كانوا من العوائل المعروفة ومن الأشراف، فحتى خمسين عامًا مضت كان معظم الأساقفة الكبار في أوروبا وحتى الراهبات من أبناء الأشراف، إذ كانت هذه العوائل تفتخر بوجود أبنائها في السلك الديني والدراسة الدينية.

وقد قمت بزيارات عديدة إلى مدارس الطلبة المسيحيين، ولاحظت أنَّ مستوى الكثير منهم في الحد المتوسط أو العادي، ولم أجد شخصًا بارزًا بينهم. وعدم حضور أبناء الأشراف هو أحد الأسباب الطبيعية لهذا الأمر، إلا أنَّ الموضوع الآخر هو أنَّ الجيل الحالي ليس كمثل الجيل القديم في البحث والدراسة. وعليه، فإنَّ العمق العلمي تراجع وأصبح شيئًا ملموسًا لهم على الخصوص.

والسبب الرئيس الآخر هو غياب الدافع في أوروبا للتوجه نحو الدراسة الدينية والوصول إلى مرتبة القس، والكثير ممّن يسلك هذا الاتجاه يغادره منتصف الطريق، فثمة قضايا ومشاكل تواجهه في هذا الطريق، ومنها عدم زواج القساوسة لا بسبب الجنس، بل إنَّ الناس في السابق كانت تحترم القس الكبير في السن وتدير شؤونه، فتقوم بتنظيف منزله على سبيل المثال وتمشية أموره، أمّا الآن، فقد أصبح القس منسيًا لا يهتم به أحد. على سبيل المثال قمت قبل مدّة بزيارة إيطاليا وتفقدت أحوال القسّ تشيافاتشي (١٩٢٦ - ٢٠١٣)[1] في فلورنسا، فقيل لي إنَّه متعب جدًا على الرغم من ثرائه وامتلاكه العقارات، ولا توجد أيّ راهبة تقوم بخدمته وهو في الثمانينيات من عمره. وهناك الكثير من مثل هذه المشاكل.

---

(1) Enrico Chaivacci.

إنَّ القول: إنَّ معظم الأساتذة الذين يدرّسون في الأقسام الدينية هم من المعادين للدين كلام مهم. هل هذا يعني أنَّهم يقومون بدَور تخريبي، أم أنَّه مجرد عدم إيمان؟

عدم إيمان، وهذه قضية معقدة إلى حد ما لأسباب شخصية في رأيي، فأصحاب المواهب والأشخاص البارزون لا يأتون إلى هذه الأقسام للدراسة فيها، وإنَّما يدخلها من يرغب إليها أو لسوء الصدف؛ لهذا لديهم ما لديهم من مشاكل شخصية مع الموضوع.

والأمر الآخر أنَّ الأوساط المثقفة والمتعلمة في أوروبا وأميركا وأميركا اللاتينية كانت تفخر وإلى ثمانينيات القرن العشرين بكونها معادية للدين، ولكنَّ الأمور تغيرت فيما بعد. كذلك، فإنَّه لا تجد مثقفًا في أوروبا منسجمًا مع حكومته، بل لا تجده موافقًا لها في الظاهر إلا ما شذ وندر؛ لأنَّ المثقف الأوروبي يعتاش على هذه الحالة، أي: الابتعاد عن الحكومة والسلطة؛ لأنَّه سيتلاشى إن لم يفعل ذلك. وفي الظروف الحالية التي انتشرت فيها مفاهيم من قبيل ما يُطلَق عليه بالأصولية الإسلامية سمعت مرارًا من يقول: إنَّه غير ملتزم بالدين، لكنَّهم يدافعون عن هويتهم المسيحية الأوروبية، مقابل ما يعدّونه توسعًا إسلاميًا؛ وهذا بحث واسع لسنا بصدده الآن.

مثال ذلك أنَّني دعيت إلى مؤتمر في نابولي بإيطاليا عام (١٩٩٥) وقد قال أحد الأساتذة وهو رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة نابولي: ((أنا لست مسيحيًا، لكنَّني تألمت لطريقة تعاطي الكنيسة في مؤتمر القاهرة[١]، ولماذا تعاونت مع المسلمين فيه!)). وقد أطلق الأستاذ هذا التصريح في وقت لم تقع بعدُ، أحداث الحادي عشر من أيلول وغيرها من الأحداث. ولم تعد أقسام الدراسات الدينية[٢] تلاقي ترحيبًا في أوروبا، إلا أنَّ الأمور تغيرت بعض الشيء فيما بعدُ؛ لإحساسهم بالحاجة إليها لإدارة المجتمع بنحو أفضل. أمّا طبيعة هذه الحاجة، فهو بحث آخر نتطرّق إليه في حينه.

ولا بأس أن أشير أيضًا إلى أنَّ مفهوم الدين يختلف في أوروبا عنه في أميركا، فالأميركيون أكثر تدينًا من الأوروبيين، في حين لا يوجد مثل هذه الاختلاف بين المراكز الأكاديمية والناس في أميركا. فالناس في أميركا يميلون إلى الدين حقًا، ويتسم

(١) تعاونت الكنيسة في مؤتمر القاهرة مع المسلمين، وكنّا كإيرانيين على رأسهم، لتغيير أو تعديل بعض الوثائق حول الأخلاق الجنسية.

(2) Religious Stdies.

الدين هناك بالحيوية، ومعظم الأموال التي تخصّص للدين في الدول الصناعية هي في أميركا وبصورة طوعية وعلى شكل تبرعات. فالفضاء الديني يختلف في أوروبا عنه في أميركا، ومن الأفضل ألّا نقارن بين الاثنين. أمّا حول الدراسات الدينية، وخاصة الدراسات المسيحية، فهي ليست كذلك. خذ مثلًا مجلس الأساقفة الكاثوليك حينما كتبوا رسالة شديدة اللهجة إلى كلنتون – على الرغم من أنَّ الكاثوليك في أميركا هم أقلية– تتضمن عتابًا شديدًا على صناعة القنابل ضد الأفراد، وعلى أمور أخرى!. أمّا في أوروبا، وحتى في إيطاليا، فلا تجد مجلسًا للأساقفة يخاطب وزيرًا. وبطبيعة الحال، فإنَّ الدين تراجع في أوروبا على مدى العقود الماضية، وليس هناك من يرتاد الكنيسة في الحال الحاضر حسب ما تقول الإحصاءات وهو أمر سيئ للغاية.

بلحاظ هذا الرد، أستنتج وجود اختلاف بين المجال الأكاديمي والمجال الديني، هل هذا صحيح؟

تجب تجزئة هذا السؤال من داخله، فبلحاظ التصور الذي تحمله وهو تصور إيراني نسبيًا، التصور الذي يدور حول وضعنا عن الأكاديميين ورجال الدين. هذا السؤال بالمعنى الدقيق للكلمة لا ينطبق عليهم لكي نجيب عليه بدقة، ولكن من الواضح تمامًا وجود اختلاف في الكثير من الحالات حول طبيعة تناول رجل الدين للبحث عنه لدى الرجل الأكاديمي؛ لأنَّ للأكاديميين سماتهم الخاصة بهم.

وهل هو اختلاف في المنهج؟

نعم، فهم مختلفون في المنهج والكلام والاستدلال. وعلى الرغم من أنَّ الخلفية الذهنية التي تتصورها تختلف عمّا هي عليه هناك، فإنَّ هذا الاختلاف الذي تتصوره موجود أيضًا بين القساوسة أنفسهم. ومن المهم تحديد المرجعية التي يعود إليها القس، وهل هو مرتبط بالفرنسيسكان مثلًا أم الدومينيكان أم آباء الزيّ الأبيض.

الغرب والإسلام

النظرة الغربية للإسلام والتاريخ الإسلامي إنَّما هي من نافذة النظرة السنية، وهو أمر طبيعي؛ كونهم الأكثرية، ولما لهم من دعاية واسعة. ما الطريقة الأنسب لعرض الإسلام الشيعي على المسيحية؟ وهل هناك من يقوم بهذه المهمة، ويعرض

تاريخ الإسلام الشيعي مثلما قام به أستاذ الدراسات الإسلامية والأديان التطبيقية محمود مصطفى أيوب (١٩٣٥ - ٢٠٢١) في إحدى الجامعات الأميركية، من طريق إعادة النظر في التاريخ الإسلامي وتحليله؟

أجل، هنا توجد مسائل عدة ، أولًا: أنَّ المسيحية متعددة بذاتها من حيث المنتمين لها والمؤمنين بها، فالمسيحي الكاثوليكي الهولندي يختلف كثيرًا عن البرتغالي والمكسيكي والفليبيني والسريلانكي من حيث التصور والتوقع والاستنباط والتحسس. مثال ذلك أنَّ المسيحيين في سريلانكا لا يتجاوزون العشرة بالمائة من السكان، ومع ذلك، فإنَّني سمعت مرارًا من القساوسة السريلانكيين يقولون: ((من العيب في عيون الناس ظهور القس السريلانكي من دون زيّه المخصّص الكامل في المجتمع)). في حين لا نلحظ في أوروبا حاليًا أسقفًا أو قسًا بزيّه الديني سوى في الطقوس الدينية. بل حتى أنَّ سفراء الفاتيكان في طهران يحضرون اللقاءات الرسمية بزيّهم العادي على الرغم من أنَّهم أساقفة أو رؤساء أساقفة، فلا يرتدون من زيّهم الخاص سوى أطواق الرقبة الخاصة بهم. ولكنَّ الأمر يختلف في سريلانكا، إذ يجب أن يرتدي القساوسة لباسهم الخاص، كذلك، فإنَّ مستوى التزام الفليبيني بالمسيحية أكثر بكثير من المسيحي الإيطالي أو الألماني. فهم يعيشون في أجواء مختلفة، ولا يكفي مجرد انتمائهم إلى الديانة المسيحية الكاثوليكية لتصنيفهم ضمن طبقة واحدة؛ لكي نعرض المذهب الشيعي على أساس ذلك ونتحدّث عن الطريقة الفضلى للتعريف به.

من الطبيعي أن يختلف المسيحي البعيد كثيرًا عن المركز، عن ذلك القريب منه، كالمسيحية في أوروبا والمسيحية في آسيا.

كلا، ليست المسألة بهذه الصورة، فليست هي بالقرب أو البعد، ففي إيطاليا مثلًا تجد من الكاثوليك من هو بعيد جدًا عن الدين.

ليس المقصود هو التعبد بذلك الدين، ففي الإسلام مثلًا قد لا نجد اختلافًا بين ما هو موجود في الفليبين أو الصين وما هو موجود في إيران أو السعودية من ناحية الأسس والأصول، ولكن لديهم تقاليدهم الخاصة في بعض الفروع، وتختلف عمّا هو موجود هنا.

وفي الإجمال، إنَّ الاختلاف في المسيحية أكثر ممّا هو في الإسلام، بمعنى أنَّ الاختلافات الموجودة بين المسيحيين لا يمكن أن نقارنها مع الإسلام، بل هي أكثر بأضعاف ممّا هي بين المسلمين.

هل هذه الخلافات هي في العمل أم في المعتقدات؟

كلا، في كل شيء، وهناك نوعان من المسيحية، وكلاهما يقولان شيئًا واحدًا من الناحية الاعتقادية، ولكن يعيشان في فضائين مختلفين، في تصورين، في نوعين من الشعور بالذنب، في نوعين من الإحساس بالالتزام والاعتقاد الديني. فلو ابتعدنا على سبيل المثال بعض الشيء عن الكنيسة الكاثوليكية، وتابعنا الكنيسة الإنجليكانية في نيجيريا التي تعدّ إحدى أكبر الكنائس من حيث الأتباع، بل وتتفوق على الكنيسة الإنجليكانية الإنكليزية نفسها؛ ذلك أنَّ هذه الكنيسة توجد بصور مختلفة وفي بلدان متعددة، فهناك الكنيسة الإنجليكانية الإنكليزية، والكنيسة الإنجليكانية النيجيرية، والكنيسة الإنجليكانية في أوغندا، والكنيسة الإنجليكانية في أميركا وغيرها. فلو تابعنا الكنيسة الإنجليكانية النيجيرية، وأتباعها في نيجيريا من الملتزمين والمعتقدين بها؛ لرأينا أنَّ إحدى مشاكلها معارضتها لما تبيحه الكنيسة الإنجليكانية في إنكلترا في السماح للمرأة أن تصبح قسيسة وربّما أسقفًا، والقبول إلى حد ما بالمثلية الجنسية. إذًا، فهناك اختلاف في كل شيء. فالكنيسة الإنجليكانية في نيجيريا متشددة إلى حد كبير وكأنَّها تعيش في زمن الملكة فكتوريا، أمّا الإنجليكان الإنكليز، فهم يماثلون البروتستانت تقريبًا، ومنفتحون جدًا، إذ يبيحون كل شيء.

إذًا، فهناك تعدد، والمقدار الذي يراد التعريف به عن الشيعة يرتبط بالآخر، ونحن نتوقع أن يعتقد هذا الآخر بما نعرضه عليه، ولكنَّ العالم المعاصر لم يعد كذلك، بمعنى أنَّه لم يعد مقبولًا في الحال الحاضر أن يؤمن الآخر بما نعرضه عليه.

والتعريف على نوعين: الأول هو التعريف مقرونًا بالصبر على أمل أن يقبل الطرف الآخر بما نعرضه عليه، والآخر هو مجرد عرض مجموعة من المعلومات والمعارف على الآخر. إذًا، فنحن أمام مقاربتين مختلفتين.

بمعنى أنَّ الاختيار يعود للشخص نفسه؟

ليس الأمر كذلك، ولكنَّ طريقة التعريف مختلفة. وهذه القضية مطروحة أيضًا في طريقة تعريف الشيعة لأهل السنة. فثمة نوع من التعريف المقرون بالتوقع من الطرف الآخر القبول، فهذا التوقع هو الذي يبلور طبيعة العرض والتعريف وكيفية ذلك، بمعنى أنَّ النتيجة مهمة في مثل هذا التعريف. أمّا النوع الآخر، فهو مجرد عرض ما عندك من معارف وعلوم على الآخرين، وهذا يعتمد على المقاربة التي يتم تبنيها في العرض.

أليس من المستحيل تحقيق هذا الموضوع؟

كلا، ذلك كان ممكنًا وما يزال.

بالطبع لهذا وجود خارجي، ولكنَّ قصدي هو أنَّنا نتوقع من الآخر القبول والاستجابة.

هكذا هو حال الكثير من الناس، أي: إنَّهم يتوقعون اعتقاد الطرف الآخر بما يتم التعريف به، وليس مجرد التعرّف عليه.

وهل هناك مؤسسات أو شخصيات تنشط في مجال التعريف بالشيعة؟ وهل لديها إنجازات على هذا الصعيد؟

لا علم لي بهذا الأمر.

التعرّف على الشيعة

بلحاظ معرفتك بالغرب ومحيطه، هل لديهم معرفة بالشيعة وآرائها، أم أنَّهم ما زالوا في مقتبل الطريق، ولا بد من توضيح الشيعة لهم من الأساس؟ وهل لديهم تأملات حول الشيعة كطائفة إسلامية، أم لا؟

إنَّنا نعتقد بأنَّ من مصلحتنا التعريف بالإسلام وتقديمه إلى الآخرين بالنحو الأفضل. وهنا مواضيع عدة يجب أخذها بنظر الاعتبار، أولًا: ليست ثمة أعداد كبيرة ترغب في ذلك، فلو اعتبرنا أنَّ نفوس أوروبا (٥٠٠) مليون شخص، فإنَّ الراغبين والمتطلعين لا يتجاوز عددهم مئات الآلاف، وهي نسبة قليلة لعدد السكان.

وثانيًا: - وهو الموضوع الأهم- هو أنَّني شخصيًا لا أقدم على طرح الموضوع، متى ما عرفت أنَّ أمامي عدوًا؛ لأنَّ العدو اتخذ قراره، ولا فائدة من الدفاع والتوضيح

عن الدين والمذهب، فهو يريد استغلال هذا التوضيح وتوظيفه لأهدافه. إنَّ الإشكالية الموجودة هنا هي أنَّنا ننظر بحسن الظن إلى الجميع، ونعدّ الطرف الآخر يريد أن يفهم، وعلينا تقديم التوضيحات اللازمة. نعم، يريد أن يفهم من أجل أن يوجه ضربة لنا. إنَّنا نتحدّث بحسن ظن إلى الآخرين، وهم يصغون إلينا مثلما نحب، ولكن يضمرون شرًا، ويستغلون المعلومات التي نزودهم بها ضدنا. فمثلًا لا يصح أن نطرح خلافنا مع أهل السنة حول الخلفاء على دبلوماسي، إلا في ظروف خاصة كأن يطرح الموضوع في مؤتمر، وكلٌ يطرح رأيه للاستفادة المتبادلة، لا أن نعرض ما يدور في خلدنا، ليستغل الآخر هذه المعلومات؛ لضربنا بها.

الموضوع الآخر هو أنَّنا وجميع سكان العالم نقع تحت تأثير وسائل الإعلام الجماعية؛ ذلك أنَّ تصوراتنا حول القضايا المختلفة وحول الآخرين مأخوذة عن هذه الوسائل ومتأثرة بها. فبعض المواضيع التي تطرحها وسائل الإعلام لها صبغة سياسية، فما له وجه سياسي يتضمن أيضًا قاعدة غير سياسية، فيتداعى حينئذٍ ما هو سياسي بما هو غير سياسي. لذلك، فإنَّ ما هو مطروح حاليًا حولنا كمسلمين متأثر بشدة بوسائل الإعلام هذه، وتتشكل التصورات وفقًا لهذا الأساس، وهي تصورات سلبية جدًا مع الأسف.

حتى بين الباحثين والمحققين؟

سأوضح بالترتيب. ليس هناك فرق جوهري بين الخواص والعوام في هذا التصنيف؛ لأنَّنا في نهاية الأمر بشر، ومن يصبح عالمًا لا ينفصل كليًا عن مجتمعه ويتأثر بما يتأثر به المجتمع. وهذا ينطبق على الجميع، فعلى سبيل المثال أن المواضيع التي تُطرَح في وسائل الإعلام حول الصين – وهي قوة صاعدة– هي أكثر عشرات المرات ممّا كان يُطرَح سابقًا، فهل التصورات الموجودة حول هذا البلد هي تصورات صحيحة؟ التصور حول ما تمثله الصين من خطر اقتصادي وتجاري وصناعي، بل حتى أمني وعسكري هو متأثر بما تطرحه وتقدّمه لنا هذه الوسائل. إذًا، هناك عامل قوي جدًا ومصيري تحت مسمى وسائل الإعلام.

المشكلة الأخرى التي تعترضنا هي أنَّ القضايا التي تواجهنا من سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها باتت تتطلب تفسيرًا دينيًا، حتى لو لم تكن كذلك، فهناك من يحمّلها هذا التفسير، فيُقال مثلًا إنَّ وقوع هذا الحدث هو بسبب العقيدة الفلانية.

وحسب تجاربي، لم أجد فرقًا كبيرًا بين معظم المثقفين والشخصيات الجامعية عن عامة الناس، بل ما يزيد الطين بِلّة أنَّ بعضهم يحاول تقديم تفسير لما تطرحه وسائل الإعلام، ما يزيد الأمور تعقيدًا، فيحلل الأمور على طريقته، ويؤمن بما يحلله على الرغم من خطئِه، وبذلك يصبح أسوأ من عامة الناس؛ لأنَّه يبلور تصوراته بحسب تحليلاته وأفكاره. وهناك عدد قليل جدًا ممّن يشكك فيما تطرحه وسائل الإعلام ويعدّها مشكلة حقيقية، ولديه نقد لما يسمعه، ولما يشاهده أيضًا، وهذه الجماعة من الناس نادرة وقليلة.

معرفتهم بالتشيع ألا تعود إلى العقود الأخيرة؟ وذلك من طريق الظهور الشيعي على المسرح الدولي، والذي أشار إليه فرانسوا ثول (١٩٤٤)[1] في كتابه «الجغرافيا السياسية للشيعة»، أليس من مصلحتهم السياسية والاقتصادية والتجارية الاعتراف بالشيعة، كطائفة مجهولة لها حضورها الفاعل في الساحة الدولية؟

ما تقوله صحيح ودقيق، لكنَّ الموضوع الذي قلته حول الجو العام والجامعي هو أمر عام. ما تقوله أنت يرتبط بمتخصصي الجغرافيا السياسية والقضايا الأمنية والعسكرية والسياسية والدولية. إنَّ الكلام عن الجغرافيا السياسية للشيعة ودور الطائفة في التطورات التي يشهدها العالم والمنطقة يستقطب الخواص وأصحاب الاختصاصات.

ولكن، ألا يمكن أن يؤثر هذا الأمر على الآخرين، بحيث يستطيع الخواص تنظيم خططهم من طريق التركيز على ما يرسمه الأكاديميون على ضوء دراساتهم الدينية[2]، والخط الفكري الذي يستنتجونه عن هذه الطائفة واختلافها الفكري عن غيرها؟

(1) Francois Thual.
(2) Religious Studies.

هذا ممكن، لكنَّهم يقومون بذلك عن سوء نوايا. لا يفعلون ذلك للتعرف على الشيعة، بل لاكتشاف الإمكانيات المتاحة والطاقات الكامنة لإدارة الأمور.

مع سوء نواياهم؟

نعم، ولكنَّ المتخصصين على المستويات العليا في الحقول الأمنية أو العسكرية أو السياسية – ونقصد المنظّرين السياسيين وأولئك الذين يخططون لقضايا المنطقة- لا ينطلقون من حسن نية، وإنَّما يحاولون التعرف على المشاكل وكيفية التعاطي معها.

إذًا، يستحق هذا الأمر الاستثمار فيه علميًا، أو إيجاد أقسام متخصصة وأبحاث حول هذا الموضوع، مثلما قامت الجامعة العبرية في أورشليم[1] بتأسيس قسم خاص عن الشيعة.

نعم، وهذا يتعلق بمقاربتنا للموضوع؛ لأنَّ القضية حينئذٍ لن تكون قضية دينية وتبليغية، وإنَّما هي قضية وطنية، بل يمكن القول: إنَّها أبعد من ذلك. وهذا يعتمد على سياستنا فيما يتعلق بتعريف التشيع إزاء عدونا؛ عندئذ لن يكون البحث دينيًا لكي نتحدّث عنه هنا.

نعم، البحث ليس دينيًا، لكن ألا يمكن أن يشكل أرضية مناسبة للتعريف بالشيعة بغض النظر عن البعد السياسي؟ فمثلًا يقوم المتخصّص بالموضوع الشيعي في الجامعة العبرية أتان كولبرك (١٩٤٣) بأبحاث حول المذهب، ويكلف تلامذته بأطروحات في الموضوع نفسه تحت إشرافه، أليس هو نوع من التعريف بالشيعة لهؤلاء الطلبة، حتى وإن كان الهدف النهائي والغائي سياسيًا؟

تجب مناقشة هذا السؤال بصورة دقيقة جدًا؛ لتوضيح الجوانب السلبية والإيجابية. ويجب أن تتضح سياستنا العامة في هذا المجال الحساس جدًا. وعليه، لا يمكن الرد على السؤال من دون قاعدة وأساس، وعلينا أن ندرك الأسس والقواعد التي اعتقدنا بها؛ لكي تتضح مقاربتنا لهذا الموضوع من البعد الوطني والديني أيضًا.

إذًا، لا يمكن برأيك التطرّق إلى هذه المسألة من الناحية الأكاديمية المحضة من دون أيّ انحياز سياسي؟

---

(1) The Hebrew University of Jerusalem.

كلا، لا يمكن ذلك؛ لأنَّه لا يوجد أكاديمي محض، وإذا وُجِد، فإنَّ الآخرين من الاستراتيجيين يستغلون هذا التخصّص لصالحهم. فهذا التخصّص لا يعني مجرد إجراء أبحاث علمية وتاريخية في المكتبات، ومن ثم إيداعها في الأرشيف، وإنَّما هي أبحاث يستغلها الآخرون؛ لتحقيق أهدافهم.

إذًا، فهذه الأبحاث هي مزدوجة في الحقيقة ظاهرها التحقيق البحت، وباطنها الاستغلال من قبل الغير؟

هو كذلك؛ ولكن طبيعة المنهج الذي يجب اتباعه إزاء هؤلاء الأشخاص بخصوص تعريف الشيعة وبيان معارف المذهب يجب أن يتخذ على مستويات أخرى، فهذه القضية في الحقيقة ليست دينية بحتة؛ لنتحمل مسؤوليتنا تجاهها، ولا بد من التأني والتأمل حينما ترتبط القضية بأعدائنا. ربّما نصل إلى نتيجة أنَّه لا بد من التبليغ والتبيين، ولكن لا نستطيع أن نعدّهم منذ البدء بأنَّهم حياديون، بل من اللازم تحديد الأسس وتوضيحها قبل أيّ خطوة من هذا القبيل.

ولكن يبدو أنَّ بعض هؤلاء ليسوا مغرضين، وإنَّما كانوا محايدين حقًا؛ إلا أن يطلب السياسيون منهم ذلك. هل تؤيد هذه الفكرة؟

في الحقيقة أنَّ الدين يعرض على من يرغب في الإصغاء إليه، ويحتاج إلى اتخاذ عقيدة، والإيمان بها، إلا أنَّ زماننا ليس بهذه الصورة؛ لأنَّ الروح الدينية ضعيفة في أوروبا على الأقل. وقد يكون للآخرين رأي غير هذا، بيد أنَّ كلامي هو في المجمل وليس التفصيل، وإلا، فيمكن أن تجد مئات الآلاف أو حتى الملايين من المجموعة الأوروبية البالغ نفوسها خمسمائة مليون نسمة هم على العكس ممّا أقول هنا، غير أنَّني أتحدّث بلحاظ الفضاء العام السائد في أوروبا، وأعتقد أنَّه لا يمكن تعميم الحالات الموجودة على كل المجتمع. ولا شك في وجود أناس يبحثون عن الدين، وليس بالضرورة أن يكون الدين الإسلامي، بل إنَّهم يبحثون عمّا هو خارج الحياة اليومية التي يعايشونها. كذلك هناك من يبحث عن الإسلام، وبينهم من تنسجم نفسه مع ما نطلق عليه معارف أهل البيت، ولكنَّهم قلة قليلة. وعليه، لا بد من البحث عن هؤلاء، وعرض ما لدينا عليهم.

يتبادر إلى الذهن سؤال آخر: بلحاظ الافتراضات التي ذكرتها، وفي مشروع الحوار المشترك، هل استخدام أدبيات إثبات الحق أفضل، أم أدبيات إعداد أرضية الفهم الصحيح؟

ليس هناك شكل ثابت لهذه المسألة، والحق أنَّ طبيعة العمل التي يجب أن تأخذ بالاعتبار نوع البيان تختلف باختلاف أنفاس الخلائق. وليس الأمر مثلما تتصور أنَّهم سيهتدون بمجرد الكلام معهم؛ لأنَّ شغلهم البحث والتحقيق، وأنَّهم سيفقدون كل شيء إذا ما آمنوا بما يحققون حوله، خاصة إذا كان الإسلام. ويعتمد مثل هؤلاء الأفراد على هذه المهنة، أي: إنَّهم يتجاهلون الإسلام - إن لم يعادوه- حتى بعد اكتمال المعلومات الكافية حوله. ففي عصرنا هذا يفقد المتخصّص في الشأن الإسلامي مكانته إذا لم يسئ إلى الإسلام. مثال ذلك ما قاله أحد المتحدّثين من جمهورية التشيك باسم فرانتيشك ايشتش (١٩٨٠)[1] – وكان متحدّثًا جيدًا- في مؤتمر عُقِد في إيرلندا تحت عنوان «Translating God"، وشاركت فيه جماعة من المتخصصين في الديانات والمنظرين الأوروبيين، قال في فقرة الأسئلة والأجوبة، وليست الكلمات الرئيسة التي تلقى في المؤتمر: ((إنَّنا – جمهورية التشيك- أكثر الدول علمانيةً في أوروبا، وقد دعيت كمتخصّص في الشؤون الإسلامية لإلقاء كلمة في برنامج حول الإرهاب الإسلامي – على حد تعبيره- بحضور جمهور من الناس، وقلت هناك بأنَّ الإسلام دين كبير ولديه الكثير من الأتباع، وتوجد هنا أعداد كبيرة من المهاجرين المسلمين. بعد ذلك وجهت إلي انتقادات في اللقاءات التلفزيونية وفي المقالات، واتهمت بأنَّني أصبحت ممثلًا للمسلمين، وتلقيت منهم الأموال)).

من الأسئلة التي تطرح في بحث الحوار المشترك: ما المصالح المتوقعة في العلاقة مع الفاتيكان لإبعاد الشيعة عن صورة الإسلام العنيف، والكشف عن وجههم الناصع؟

حقيقة الأمر أنَّنا نعيش في عالم يتأثر جدًا بوسائل الإعلام، وأيّ إجراءات تنطوي على تداعيات إعلامية، فيقال مثلًا بأنَّ المسلمين يسيئون للأقليات الدينية، ولا سيما المسيحية بلحاظ ما يُطرَح للرأي العام، وخاصة من طريق الإعلام حول الإسلام

(1) Frantisek Stech.

والتشيع، وكذلك القضايا التي تسوّق في السنوات الأخيرة على أنَّ المسلمين يتصرفون بسوء مع الأقليات الموجودة في البلدان الإسلامية. ولن يجد من يريد استغلال هذا الموضوع صعوبة في ذلك. فلا يهم هؤلاء أن يُقتَل مئات الآلاف من المسلمين الشيعة والسنة. نحن بدورنا نأسف لمقتل المسيحيين، لكنَّ هناك من يريد استغلال هذه الحالة، على الرغم من أنَّ السلطات السياسية والدينية في العراق وإيران نددت بمقتل المسيحيين، لكنَّهم يعدّون ذلك استهدافًا لهم من قبل المسلمين، ويعملون على تهويل الموضوع على المستوى الدولي.

ويعدُّ الفاتيكان عمليًا أكبر مركز ديني في العالم لغير المسلمين، فإذا وضعنا الإسلام جانبًا، فهناك أديان أخرى، مثل البوذية والهندوس وغيرها من الأديان الأصغر حجمًا، ولكن يبقى الفاتيكان هو الأكبر، فإذا كانت لإيران - بتاريخها وحضارتها وإسلامها الذي تفتخر به وبنظامها الإسلامي- علاقات طيبة وفعّالة ومتزنة مع الفاتيكان، فذلك يترك تأثيرًا كبيرًا في إزالة الشبهات وإحباط الدعايات، التي تُوظَّف ضدنا.

بخصوص ما يتصورونه حول الشيعة، خاصة المستشرقين الذين يتصورون للوهلة الأولى بأنَّ الشيعة ومنذ بدايات الإسلام هي طائفة متمردة ومتناقضة مع الأكثرية، وتعزف دائمًا على وتر المعارضة والمواجهة، كيف يمكن تصحيح هذه الرؤية؟

كانت لنا علاقات مع أوروبا في العهد الصفوي، في بدايات هذا العهد وأواسطه وتراجعت في نهاياته، خاصة مع إسبانيا والبرتغال والجمهوريات الموجودة في إيطاليا على وجه الخصوص فينيسيا وجنوة، وكذلك مع بلاط البابا[1] في روما، كما كانت هناك علاقات مع إنكلترا وفرنسا وبولندا إلى حد ما. كل هؤلاء كانت لهم اهتمامات بالشيعة بلحاظ مصالحهم.

وهل تعني بذلك مجيء المبشرين إلى إيران؟

ليس فقط في إطار المبلغين، بل كانت هناك رسائل تفصيلية بين البابا والملوك الصفويين، وكان السفراء يقومون بمهمة تبادل هذه الرسائل بين البلاطين. وهذا

---

(١) منصب البابا حينذاك كان أعلى من منصبه حاليًا، فهو الملك والحاكم على القسم الأوسط من إيطاليا بمركزية روما.

يعود إلى التنافس مع العثمانيين من الطرفين. منطقيًا كانوا يشعرون في تلك الظروف بأهمية إيران كقوة في المنطقة- وهي كذلك-، فكانت تحدوهم رغبة للارتباط معها. أمّا ما يقال عن الشيعة وكونهم من المعارضة وأمثال ذلك، فيُطرَح ذلك ربّما في أبحاث بعض المستشرقين. أمّا المقاربة العامة مع إيران والتعامل معها، فكان على أساس المصالح المشتركة، ولم تكن في أذهانهم في هذه المقاربة مثل تلك الأفكار والتصورات. إنّا هنا ننظر إلى القضايا من البعد الإيديولوجي البحت، أي: إنَّنا نضع لكل قضية محملًا دينيًا أو كلاميًا، وهذا غير صحيح عمليًا. بمعنى أنَّ الجهات التي كانت تقيم علاقات مع إيران في العهد الصفوي، لم يكن يدور في خلدها مثل هذه الأمور، والدليل على ذلك المراسلات التي كانت تجري بين الطرفين؛ لهذا لا يصح أن نعمم فكرة معينة، طرحها أحد المعروفين أو السياح الذين كانوا يزورون إيران أحيانًا، على كل نظامهم السياسي أو مراكز اتخاذ القرار.

ما تفضلتم به حول المستشرقين الذين يزورون إيران للسياحة صحيح، لكن ماذا عن المستشرق الذي يصل إلى هذه النتيجة وهو جالس في المكتبات أو في مراكز التحقيق في الغرب، ومرجعيته في ذلك المصادر والنصوص القديمة؟

هذا الموضوع صحيح وأنا أوافق عليه. تقول السيدة الإيطالية المستشرقة ماريا سكارجيا (١٩٣٨ - ٢٠٢٠)[1]- وهي كذلك عارفة بشؤون إيران، وزوجها أكثر منها تضلعًا وشهرة في الاستشراق-: إنَّها من ولاية تريسيت[2] - ويبدو أنَّ أبويها هاجرا إلى إيطاليا. وتريسيت في الأصل ولاية إيطالية أُلحقت بيوغسلافيا في الحرب العالمية الأولى- وبالتالي فهي إيطالية في الأصل، لكنَّها في الجزء المنفصل منها تقول بالحرف الواحد: ((أشعر بأنَّني من الأقلية، وأحبّ الأقليات، وأحبّ الشيعة لأنَّهم أقلية)).

هذا هو أصل الموضوع، فلكل حالة من الحالات دليلها الخاص، فهناك الدليل العاطفي أو العمل وأمثال ذلك، فهناك مثلًا من يحبّ الأدب الفارسي — وهو في الحقيقة أحد أهم الآداب العالمية الكلاسيكية- ويصبح تبعًا لذلك ودودًا مع الشيعة؛ لهذا لا يجوز أن نعمم القضايا ونخرجها من إطارها إلى فضاءات أخرى. فإقامة

---

(1) Biancamaria Scarcia.

(2) Trieste.

العلاقات مع إيران حاضرًا وماضيًا إنَّما تخضع للقرار والمنطق السياسي والجيوبولتيكي، وليس لمثل هذه الأمور.

كيف يمكن عرض تعاليم أهل البيت -عليهم السلام- من دون الدخول في البحث الجدلي؟ وما الأسلوب الأمثل لذلك؟

حسب تجربتي، فإنَّ الأسلوب الأفضل هو الجزء الباطني، كأدعيتنا على سبيل المثال التي تعدّ أحد أفضل السبل إلى ذلك، فإذا تُرجِمت بشكل جيد، وبما تحتويه من خصوصيات من الفصاحة والبلاغة والمفاهيم إلى اللغات الأخرى، فإنَّها تستقطب كل إنسان مفكر، وعلى مستوى أعلى من مستوى عامة الناس، ممّن يجيد الفهم والتفكير، إلا أنَّ ما يُؤسف له أنَّ أجيالنا تربّت في هذا العصر على الحياة العادية البسيطة.

إنَّنا نواجه ثلاث مجموعات في الغرب، المجموعة الأولى: الشيعة، الذين ولدوا وترعرعوا هناك من دون أيّ تجربة لهم في البلدان الإسلامية، والمجموعة الثانية: المسلمون السنة في البيئة المسيحية، وهم يختلفون عن المسلمين في البلدان العربية على ما أعتقد، والمجموعة الثالثة: مسيحيو الغرب. ولا شأن لنا هنا بالمجموعات الأخرى مثل العلمانيين وأمثالهم. السؤال هو: كيف يستطيع الشيعة في الغرب الثبات على معتقداتهم في تلك الأجواء؟ وكيف يمكن تعديل نظرة المسلمين الآخرين في الغرب نحو الشيعة والأئمة - عليهم السلام-؟ وكيف نستطيع طرح موضوع الأئمة - عليهم السلام- كشخصيات بارزة إلى جانب النبي - صلى الله عليه واله-؟ وما السبل المتاحة للتعريف بالأئمة - عليهم السلام-؟

إذا أردت أن أقسم الموضوع إلى فقرات، فأقول، أولًا: أنَّ طريقة الحياة، وخاصة بالنسبة لشعوب البلدان النامية، هي طريقة رتيبة ومعروفة ومؤمّنة منذ الولادة حتى نهاية العمر، ومع كل المشكلات التي تعاني منها هذه الشعوب إلا أنَّ هذه القاعدة لم تتغير. ويمكن القول: إنَّ الأمور جرت على هذه الشاكلة في السبعينيات والثمانينيات والسنوات التي تلتها، وخاصة في الشمال الأوروبي الأكثر تطورًا، ويصدق هذا الأمر بشكل كامل على هولندا. وإنَّ الوضع حاليًا على هذه الشاكلة في جنوب أوروبا أيضًا، قوامه الحياة الآمنة المؤمّنة بشكل عام. وهذه النمطية من الحياة تجعل الفرد غير مستعد نفسيًا وأخلاقيًا وروحيًا لتلقّي القضايا الدينية. وفي الماضي وقبل الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك أمن اجتماعي (Social Security) بالمعنى العام؛ لهذا كانت ميولهم

الدينية تماثل إلى حد كبير ميولنا وتوجهنا نحو الدين.

ومثال على ذلك أنَّني ذهبت كثيرًا إلى مدينة نابولي أثناء مهمتي في الفاتيكان، ودُعيت إحدى المرات لزيارة قبر الراهب والقسيس البارز بادريبيو (١٨٨٧ - ١٩٦٨)[1]، والمعروف عنه: أنَّ تقديم النذور عند قبره مجربة بحيث يُؤتى إليه بالكثير منها، فمن يعاني من الكبد يجلب معه كبدًا ذهبيًا، ومن يعاني من مرض القلب يأتي بنذر عبارة عن قلب ذهبي، وقد أحسست هناك بأجواء دينية مماثلة للأجواء والتصورات لدى عامة الناس لدينا. ونابولي كانت مدينة متخلفة نسبيًا تقع في جنوب إيطاليا، إلا أنَّ الوضع تغير الآن، حتى في نابولي نفسها كمًا وكيفًا.

بناءً على ذلك، فإنَّ الحاجة إلى الدين والروح الدينية كما نتصورها ليست مطروحة لدى الأكثرية المطلقة للغرب. أمّا إيران، فهي معروفة بخلاف ما ذكرته، والقصد من الأجواء الدينية هي أن يسرع الفرد إلى التضرع إلى الله والتوسل إلى المقدسين والمقربين لدى مواجهته أيّ مشكلة أو حادثة، وهذا ما لا وجود له حاليًا.

المسألة الأخرى هي وجود سوء ظن كبير بالنسبة للإسلام بمعناه العام في الحال الحاضر. نستنتج من كل هذا بأنَّ من يصغي إلينا من مسلمين أو شيعة، ليست أعدادهم كبيرة في نهاية المطاف، بل إنَّهم قليلون ومن الذين يتابعون أهدافًا خاصة.

إنَّ الذي يرغب بالتعرف على الإسلام والتشيع في العصر الحالي ليس إنسانًا عاديًا، إنَّما هو عنصر ينحو هذا المنحى مع كل ما تحيط به من ظروف وردود فعل سلبية. وعليه، فإنَّ الطرف الذي نتحدّث إليه ليس من عامة الناس، وإنَّنا بدورنا بصدد التوضيح، لا التبليغ والدعوة للإيمان بالدين.

إنَّني لا أعتقد بوجود مخاطبين من العامة، فمن الممكن أن تكون هناك دوافع سياسية وليست دينية وراء الإصغاء إلى ما نقول، فيريد أن يعرف مثلًا أسباب انعدام الأمن للأقليات الدينية في البلدان الإسلامية - حسب ما يقولون- أو أسباب التطرف لدى بعض المسلمين أو ما أطلقوا عليه اسم (الأصولية)، بحيث يقوم الأصولي بتفجير نفسه وسط جموع الناس وقضايا أخرى، مثل حقوق المرأة والحريات الفردية والتخلف الصناعي والاقتصادي والاجتماعي في العالم الإسلامي، وغيرها من الأسئلة المماثلة

---

(1) Padre Pio.

التي تدور في خلده. وأعتقد أنَّه لا يوجد مخاطب عام يريد أن يتعرف على الإسلام ذاته، كدين ويفهمه، بل هناك بعض الأفراد الخاصين الذين يريدون التعرف، ولا بد من طرح القضايا على هؤلاء بما يتناسب مع الظروف على كثرتها وسعتها. وفي العموم، فإنَّ المقاربة المعنوية والباطنية، ولا سيما عند الشيعة هي من القوة بحيث يمكن أن تستقطب النخب في بعض جوانبها.

هناك عناصر اعتقادية وكلامية مشتركة بين الشيعة والمسيحية تصلح أن تكون موضوعًا للدراسات التطبيقية ونقطة للبداية، مثل الشفاعة والرجعة – مع الاختلافات الموجودة بينهما–، أو حكومة المؤمنين في آخر الزمان، والمهدوية، والعرفان وغير ذلك. هل توجد في رأيكم مواضيع أخرى تساعد على الحوار بين الشيعة والمسيحية؟

في الأساس هناك اختلاف في الإلهيات بيننا وبينهم، فلدينا سلسلة من الثوابت، مثل كتاب الوحي المحصور بين الدفتين، والكعبة وما لها من أحكام ثابتة، فالإسلام هو دين ثابت بما له من سلسلة من العناصر المحددة والثابتة، التي تتسع على مدى الزمان لاستنباط معايير فقهية واجتهادية، تتكيف مع الظروف المختلفة. وما له حجية في الإسلام هو هذه الأصول الثابتة وتطبيقها وفقًا للضوابط الفقهية والكلامية، بيد أنَّ المسيحية ليست كذلك، فلا تجد فيها أصولًا ثابتة كما نعتقد ونتصور، ولا يوجد كتاب سماوي محفوظ من الدس والتحريف. فثمة اختلاف بين الجانبين حول الوحي والكتاب السماوي والاعتقاد بهما.

وبخلاصة، فإنَّ المسيحية هي ما يعتقد به المؤمنون في كل مرحلة زمنية، بمعنى أنَّه لا يوجد ما هو ثابت وأصولي ليتسع ويتطور. ولا ريب في وجود بعض الثوابت طوال الألفي عام وفي المستقبل أيضًا، ولكن ليس بالمفهوم الإسلامي للثوابت. فالمسيحية هي ما يعتقد به إجماع المؤمنين وعلى رأسهم البابا الذي يتصف بنوع من العصمة أو عدم الانحراف[1] كما يعتقدون. فكلامه هو الحجة والاعتبار، وليس الماضي وما ورثوه منه.

أمّا هذه العناصر التي طُرِحت في السؤال، فلا وجود لها حاليًا في المسيحية، أو أنَّها ضعيفة جدًا وعلى مستوى الأبحاث النظرية المتعلقة بالماضي، بل إنَّنا نختلف أيضًا

(1)Infallibility.

في موضوع التاريخ، فإنَّنا على سبيل المثال – وإن كان مثالًا غير مناسب– نقرأ فلسفة ابن سينا أو السهروردي أو الملا صدرا باعتبارها حقائق، في حين يقرأ الغربيون أقوال كبار الفلاسفة باعتبارها جزءًا من التاريخ الفكري. وهذا يعني أنَّ نظرة الغرب تاريخية، ونظرتنا تستند على الحق والصحة، وتختلف أيضًا نظرتنا إلى القضايا الميتافيزيقية بشكل عام عن نظرتهم.

وعلى الرغم من أنَّ زعيم الكنيسة الكاثوليكية في المسيحية المعاصرة هو أحد كبار علماء اللاهوت المعاصرين، ومتبحر في هذا العلم ومن أكثر البابوات علمًا في هذا الباب على مدى التاريخ – البابا السابق لم يكن عالمًا في الإلهيات–، غير أنَّنا لا نجد في نظام المسيحية الاعتقادي المعاصر المواضيع التي طُرِحت في منطوق السؤال، على الرغم من أنَّنا لا ننكر وجودها في الماضي.

بناءً على ذلك، فإنَّ مثل هذه المواضيع قد تستهوي من له علاقة بالتاريخ أو بالدراسات القديمة، وهذا يشبه من تستهويه النسخ المخطوطة من الكتب. قد تجد من يميل إلى هذه المواضيع المطروحة في السؤال من البعد التاريخي، وكيف كانت الأمور مثلًا في القرن الرابع عشر الميلادي أو القرن السابع الميلادي.

بخلاصة أقول: إنَّ مفهوم الدين لدينا هو الاعتقاد به كأمر ثابت، ولكنَّ مفهومه لديهم هو ما يُجمع عليه المؤمنون في كل عصر، فمفهوم الدين يختلف كثيرًا عن الدين الزمني، فهناك الكنيسة التي تعني جماعة المؤمنين، ولهذا نختلف عنهم كليًا، فنحن نقرأ كتب الماضين لفهمها؛ لأنَّنا نعدّها في الإجمال حقائق، في حين أنَّهم يقرأون كتب السابقين لمجرد أنَّها تراث تاريخي.

حتى في أبحاث مثل الموعود وما يُسمّى العصر الألفي(1) مع الضجة التي أثيرت في العالم المعاصر؟

لا فرق! حتى في هذه الحالة الخاصة؛ لأنَّها ترتبط بالبروتستانت الأميركيين، ولا تتعلّق بالكاثوليك، وكلامي يدور هنا حول المذهب الكاثوليكي. فالحديث عن البروتستانت موضوع آخر، وإنَّ جميع المسيحيين ليسوا من الكاثوليك؛ لهذا فإنَّهم يطالبون في الحوار معنا كمسلمين أن تتركز مواضيع الحوار حول المسيحية الموجودة

---

(1) Millenarianism.

والحقائق الموجودة. مثال ذلك موضوع الشباب والمرأة والأقليات والأخلاق الجنسية والدين والمجتمع، والسياسة والمجتمع - في إطار يختلف عمّا نفهمه ونعتمده-، واحترام الإنسان وحقوقه، والكرامة الإنسانية، والبيئة، وأخلاق التعايش[١]، والموت الرحيم[٢]، والإجهاض، والقضايا الوراثية، والمسائل الأخلاقية المتعلقة بها، أي: العلاقة بين الأخلاق والوراثة «ليس وفقًا لمقاربة دينية ونظرية بالمعنى الخاص، بل وفقًا لمقاربة أخلاقية بالمعنى العام».

بناءً على ذلك، فإنَّ الأبحاث المطروحة في السؤال لا وجود لها في إطار المسيحية الكاثوليكية الموجودة والدائرة الاعتقادية الفعّالة. وبالطبع يجب ألّا نتصور خطأ بأنّهم ينكرون مثل هذه المباحث، ولكن لا وجود لها في الدائرة الاعتقادية الفعّالة لكي يجري الحوار حولها، وهذا بدوره يعدّ إحدى نقاط الاختلاف معهم. فهناك قضايا مختلفة في المذهب الشيعي كانت حاضرة في التاريخ الشيعي وما زالت إلى يومنا هذا، ولكن الأمر يختلف عندهم بحيث يخضع كل شيء للدائرة الاعتقادية الفعّالة.

هناك بحث في المسيحية حول عصمة البابا وآخرين مثل كتبة الكتاب المقدس، الذين كانوا يخضعون لإشراف روح القدس أثناء كتابة الأناجيل، لذلك، فإنَّ هذه النصوص مقبولة، باستثناء البروتستانت الذين لا يقولون بعصمة البابا. ما الفرق على وجه الدقة بين هذه العصمة والعصمة التي نعتقد بها لحجج الله؟

حقيقة الأمر أنَّ هذا الموضوع متشعّب، وتعتقد به المجموعات المسيحية المختلفة تاريخيًا. فتصور الأرثوذكس على سبيل المثال حول الإنجيل يشابه إلى حد ما تصورنا عن القرآن.

وما نسبة الأرثوذكس من مجموع المسيحيين؟

ليسوا بقليل؛ حيث تصل أعدادهم إلى نحو (٤٠٠) مليون شخص. ففي المؤتمر الذي عُقِد في دبلن عاصمة إيرلندا الجنوبية تحت عنوان «Translating God” - وكنت المسلم الوحيد الذي شارك فيه، إضافةً إلى أستاذ تركيّ، لكنَّه غادر المؤتمر ولم يشارك فيه إلا يومًا واحدًا-، قد تحدّثت بالتفصيل إلى أحد القساوسة الرومانيين بعد

(1) Bioethics.
(2) Euthanasia.

خطاب لشخصية أميركية لها وزنها باسم دانيل ماديغان[1] حول الكتاب المقدّس، قال فيها: ((إنّنا نعتقد بأنَّ الكتاب المقدس كلام الله))، وهو ما نعتقد به نفسه إزاء القرآن الكريم، فقال كلامًا عن عقيدتهم في الإنجيل قريبًا جدًا لما نعتقده نحن حول القرآن، إن لم يكن مماثلًا له تمامًا.

على أيّ حال، فهناك اختلاف في موضوع العصمة وشمولها بين الكنائس المختلفة والأزمنة المختلفة. فالكاثوليك يعتقدون بأنَّ الأناجيل الأربعة هي استنباط لمجموعة التعاليم التي جاء بها المسيح وأقواله وأفعاله وتراثه الذي كان موجودًا حين كتابتها، وأنَّ كتّابها دوّنوها بتعابيرهم وكانوا – كما أشرنا– معصومين عن الخطأ. وهذه النظرية في المذهب الكاثوليكي شبيهة إلى حد ما بالعصمة التي يعتقد بها أهل السنة حول الرسول – صلى الله عليه وآله– وسائر الأنبياء – عليهم السلام–، حيث يقولون بأنَّ الأنبياء معصومون فقط عند إبلاغ الرسالة والمسؤولية المناطين بها.

أمّا عن عصمة البابا التي اضطروا لإدخالها في المعتقدات في القرون الأخيرة لأسباب كلامية، فهي شبيهة أيضًا لما يعتقد به بعض السنة، أي: إنَّ البابا معصوم في كل ما يتعلق بمهمته، كزعيم للكنيسة الكاثوليكية.

وهل هي شبيهة لما يعتقدون به عن كتبة الوحي، أم أنَّ درجتها تختلف عنها؟

يبدو أنّه لا فرق بين الحالتين، والفرق الوحيد هو أنَّ مهمة كتّاب الإنجيل انتهت، في حين مهمة البابا الدينية – وهو أسقف مدينة روما– مستمرة، وبالتالي فهو معصوم في هذه المهمة وما يتعلق بها من إيمان وأخلاق؛ لأنَّ الكلمة الفصل تعود إليه، ولا يمكن أن يكون شأنه شأن الأساقفة الآخرين وفي مستواهم. ويعتقد جميع المسيحيين بأنَّ الأناجيل الأربعة وملحقاتها كُتِبت على يد كتّاب كُشِفت لهم الحقيقة – معنى Revelation هو الانكشاف–؛ لهذا فإنَّ مفهوم العصمة لدى البابا ولدى كتاب الوحي ينطلق من مقدّمات مختلفة حتى وإن كانت النتيجة واحدة.

وهل يعتقد البروتستانت الذين يعدّون الكتاب المقدس حجةً بهذه العصمة لكتّاب الوحي؟

---

(1)Daniel Madigan.

حقيقة الأمر أنَّ طائفة البروتستانت متعددة ومتشعّبة بكثرة بحيث تختلف كل مجموعة عن الأخرى، فالمنتمون إلى هذه الطائفة في أوروبا يختلفون كثيرًا عنهم في أميركا. فالمجموعة الأوروبية تعود تاريخيًا إلى مدّة الإصلاح الديني التي بدأت في عهد مارتين لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)[1]، واستمرت على هذه الشاكلة، أمّا المجموعة الأميركية، فهي تختلف عن الأوروبية حتى لدى أولئك الذي ورثوا البروتستانتية الأوروبية نفسها. فالبعض منهم كالبروتستانت الأصوليين –أُطلقت هذه الصفة على هؤلاء منذ سنة ١٩٢٠- يعتقدون حالهم حال الأرثوذكس بوحيانية الكتاب المقدس، ويؤمنون بالنص، أي: إنَّهم يأخذون بالاعتبار المعنى اللغوي واللفظي للكلمة وليس مفاهيمها، ولا يعتقدون ببعض الأبحاث التفسيرية مثل الهرمنوطيقا. فهذه المجموعة الأصولية موجودة في أميركا، هي وحدها من بين البروتستانت التي لا تعتقد بالهرمنوطيقا، ويفهمون الكتاب المقدس بألفاظه وتعابيره، في حالة شاذة عن بقية البروتستانت أو الكاثوليك. وإنَّني لا أدري على وجه الدقة بخصوص الكاثوليك مدى إيمانهم بهذا المنهج، ولكن بعض البروتستانت يعملون وفقًا لهذه الرؤية. ينقل أحد الأساتذة الإيطاليين عن كيفين فيليبس (١٩٤٠ - ٢٠٢٣)[2] مؤلِّف كتاب «الثيوقراطية الأميركية»[3] بأنَّ بوش الابن قال في إحدى مقابلاته بأنَّ خلق الإنسان - حسب الكتاب المقدس- يعود إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، فهو ينتمي أيضًا إلى البروتستانت الأصوليين، الذين يأخذون اللفظ على محمله.

من المسائل التي طُرِحت سابقًا - وما زالت- مسألة استشهاد المسيح - عليه السلام- والتضحية بنفسه، ومقارنة ذلك باستشهاد الإمام الحسين –عليه السلام-. هل من الصحيح أن نعدَّ هذا الموضوع نقطة مشتركة، على الرغم من أنَّ المسلمين لا يعتقدون أساسًا بصلب السيد المسيح؟

---

(1) Martin Luther.

(2) Kevin Phillips.

(٣) العنوان الكامل للكتاب: الثيوقراطية الأميركية: السياسة ومخاطر الدين الراديكالي، النفط والاستقراض في القرن الحادي والعشرين. وفي الانكليزية:

American Theocracy: The Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21 st Century.

إنَّ قضية تضحية المسيح من الناحية الفلسفية هي تضحية من أجل جميع البشرية للتكفير عن معاصيها.

وهل يعني هذا العفو عن معصية آدم - عليه السلام-؟

نعم، فهذه المعصية الأولى تعود إلى الفلسفة المسيحية بخصوص معرفة الإنسان، وينسبون المعصية الأولى إلى الجميع، وإنَّها بدأت من آدم وتوارثتها البشرية، ودفع عيسى – عليه السلام- كفارة هذه المعصية التي يشترك بها الجميع من طريق التضحية بنفسه.

ولا يمكن فهم الفداء في المسيحية إلا بعد اتضاح موضوع المعصية الأولى الذي يرتبط بالرؤية المسيحية للإنسان. فهذا الفداء هو للتكفير عن تلك المعصية، التي لا تخصّ المسيح وحسب، وإنَّما ما قبله وما بعده. وتشمل هذه النتيجة الجميع من آدم وحتى نهاية العالم. إنَّنا لا نقول عن الإمام الحسين - عليه السلام- هذا الشيء، وتختلف الشفاعة التي يقول بها الشيعة الخاصة بالإمام الحسين - عليه السلام- وبشهداء كربلاء كمًا وكيفًا عمّا يقوله المسيحيون عن تضحية المسيح - عليه السلام-، نعم، هناك بعض الأمور الظاهرة المتشابهة.

لدور العالمي للفاتيكان في تحوّلات المنطقة وتوجهاتها السياسية[١]

تأسس الفاتيكان كدولة وحكومة مستقلة طبق المعاهدة[٢] التي وقعت سنة (١٩٢٩) بين الدولة الإيطالية بزعامة موسيليني[٣] يومها والبابا في ذلك الوقت[٤]، ومن يومها أصبح مركزًا لكلّ الكاثوليك في العالَم، الذين تفرض عليهم إلزاماتهم الدينية إطاعة البابا. وقد تحدّث إلينا سفيرنا (السابق) في الفاتيكان حجة الإسلام «محمد مسجد جامعي» في لقاء موسع حول الدور العالمي للفاتيكان، ولا سيما في أزمات البلقان والشرق الأوسط، والعلاقات الحالية بين الفاتيكان وإيران، وأسباب إقامته للعلاقات مع إسرائيل، ومواضيع أخرى.

---

(١) لقاء أجراه الباحث في شؤون المسيحية السيد مصطفى رستگار، نُشِرت المقابلة في صحيفة كيهان بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٩٥.

(2) Lateran Treaty.

(3) Benito Amilcare Andrea Mussolini.

(4) Pope Pius XI.

تعدّ هيكلية حكومة الفاتيكان مجهولة للكثير من الناس، هل يمكن أن توضح لنا ذلك؟ وأين موقع البابا ضمن هذه المجموعة؟

الفاتيكان هو مركز الكنيسة الكاثوليكية، وعلى جميع الكاثوليك في العالم إطاعة هذه المركزية المتجسدة في البابا لأسباب دينية وكلامية، وكنتيجة لهذا الإلزام الديني، فإنَّ المجموعة الكاثوليكية في العالم مجبرة على إطاعة شخص البابا؛ إلا أنَّ هيكلية الفاتيكان كدولة وحكومة مستقلة تبلورت على أساس معاهدة عام (١٩٢٩) بين الحكومة الإيطالية آنذاك برئاسة موسيليني والبابا في حينها، ووضِعت لها حدود ضمن العاصمة روما، على أنَّها دولة مستقلة فيما يخصّ شؤونها، وتنبع أهمية الفاتيكان من أهمية البابا كما ذكرنا، وأهمية البابا من أهمية العقيدة الكاثوليكية التي تلزم إطاعة أعلى مسؤول في هذه الكنيسة باعتباره خليفة لبطرس المقدس.

كيف ترى العلاقة الحالية بين إيران والفاتيكان؟

تعدّ إيران بلدًا مهمًا جدًا بالنسبة للفاتيكان بلحاظ موقعها الجغرافي والتاريخي؛ لأنَّ المسيحية دخلت إيران منذ بداياتها، ومنها انتشر نحو الأجزاء الشرقية ومناطق الشرق الأوسط وبين النهرين وشرق إيران، أي: شبه القارة الهندية والصين، بل إنَّ الكثير من التطورات التاريخية والكلامية للمسيحية خاصة في القرون الأولى وقبل دخول الإسلام إلى إيران، تبلورت هنا في هذا البلد؛ لهذا تعدّ إيران من الناحية التاريخية والثقافية جزءًا من تاريخ المسيحية، ولا سيما في القرون الأولى. أمّا من الناحية السياسية، فقد برهنت إيران على أهميتها ودورها فيما يرتبط بالعالم المسيحي.

وفي العصر الحاضر، وخاصة بعد انتصار الثورة الإسلامية استقطبت إيران اهتمام العالم المسيحي كبلد مهم، سواء من الكاثوليك أو الأرثوذكس أو البروتستانت، وبالخصوص السلطات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية، إذ تحدوهم رغبة دائمة في إقامة أفضل العلاقات مع إيران وأنشطها. ومن الجانب الإيراني أيضًا، فإنَّ المسؤولين يطمحون دائمًا إلى علاقة بناءة ونشطة مع كل الأديان، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية، وهذه سياسة متبعة نابعة عن قناعة تامة ما يساعد على استمرار هذه العلاقة بالنحو الأفضل.

جرى الحديث عن التواصل والحوار بين الأديان، فهل الجمهورية الإسلامية مستعدة ومن طريق إطار الحوار مع الكنيسة الأرثوذكسية على مستويات عليا، أن تفتح الحوار الدولي أيضًا مع الكنيسة الكاثوليكية؟

كما أشرت، فإنَّ هذه الرغبة موجودة بتوسيع العلاقات مع أيّ جهة تدافع عن القيم الأخلاقية والدينية وتروج للحياة على هذا الأساس، وهذا يشمل جميع الأديان، وخاصة الأديان السماوية. وعلى هذا الأساس كان لنا حوار نشط ومستمر مع الكنيسة الأرثوذكسية. ويعود هذا الحوار إلى سنة (١٩٩٠) الذي عُقِد في أثينا وشاركت فيه شخصيًا، ثم عُقِد المؤتمر الثاني في اليونان أيضًا سنة (١٩٩٣)، في حين عُقِد المؤتمر الثالث في طهران سنة (١٩٩٤). وهنا أشير إلى أنَّ هذه الاتصالات والحوارات لم تكن مع الكنيسة الأرثوذكسية فقط، بل لدينا علاقات مع الكنائس في الكثير من البلدان، خاصة في ألمانيا والنمسا، إذ كانت أكثر نشاطًا من غيرها، ومع الكنيسة الإنجليكانية في إنكلترا، وكنائس أخرى في لبنان ومصر وأرمينيا وجورجيا وأوكرانيا وروسيا، إلى بلدان أميركا اللاتينية، وإلى البلدان الأوروبية مثل إسبانيا، وإلى البلدان الإسكندنافية، وبعض البلدان الآسيوية والإفريقية.

في هذا السياق أعلنّا للفاتيكان رغبتنا في تعزيز العلاقات، وعُقِد مؤتمر بين الجانبين في طهران تحت عنوان «تقييم الحداثة في الرؤية الدينية». وشارك في هذا المؤتمر سبعة من كبار المتخصصين والخبراء في الفاتيكان وعدد من العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص من إيران. وأبدى رجال الفاتيكان اهتمامًا كبيرًا بهذا المؤتمر وأعلنوا صراحة في ختامه أنَّه كان الأفضل من بين العديد من المؤتمرات التي شاركوا فيها في البلدان المختلفة وبمشاركة العديد من الأديان. وأبدوا رغبة شديدة في الاستمرار بمثل هذه الحوارات.

كيف تقيّم العلاقة الحالية بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية؟

كانت هذه العلاقات وقبل انهيار الكتلة الشرقية علاقة هادئة تتسم بالاحترام المتبادل، ولكن تغيرت بشكل سريع بعد سقوط أوروبا الشرقية وأصبحت متوترة، وبلغ التوتر ذروته عامي (١٩٩٠ - ١٩٩١)، ثم تراجع التوتر عام (١٩٩٣).

أمّا أسباب التوتر، فهي كثيرة، خلاصتها أنَّ الأرثوذكس، وخاصة في أوروبا الشرقية كانوا يعتقدون بأنَّ سقوط الأنظمة الشيوعية أدى إلى ظهور النزعة التوسعية لدى الكاثوليك، بل كما يقول الكثير منهم أدى إلى تجدد حالة الثأر والانتقام التي تعود إلى قرون مضت. فقد كان الكاثوليك يسعون إلى التوسع في مناطق الأرثوذكس، وساعد على ذلك سقوط الأنظمة هناك. وكانوا يطمحون إلى كسب الأرثوذكس إلى عقيدتهم الكاثوليكية أولًا، ومن ثم تقوية الأقلية الكاثوليكية في تلك البلدان من طريق الإرساليات التبشيرية والأموال، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تعتقد بأنَّ الكاثوليك يحاولون تشويه سمعتها زيفًا، واتهامها بالتعاون مع الأنظمة الشيوعية. وكان الأرثوذكس يتهمون الكاثوليك باستغلال تفوقهم العلمي والكلامي والحداثي للاستهانة بالمجتمع الأرثوذكسي، خاصة أنَّ هذه الظاهرة كانت تستقطب الشبان والمثقفين في أوروبا الشرقية. من جهتهم كان الكاثوليك يتهمون الأرثوذكس وكنيستهم بتحديد الحريات الفردية والدينية، ومنع حضور الأديان الأخرى ومنها الكنيسة الكاثوليكية في مناطقهم، وممارسة الضغوط على الأقلية الكاثوليكية من غير أن يتعاونوا على حل هذه المشكلة من طريق الحوار. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنَّ الكثير من القضايا التي وقعت في منطقة البلقان، وفي شرق أوروبا لا يمكن فهمها إلا من طريق معرفة تفاصيل التوتر بين الكنيستين بصورة دقيقة ودراسة أسبابها ونتائجها.

ما موقف الفاتيكان من الحركات والصحوة الإسلامية المتنامية في العالم، وخاصة في بلدان شمال إفريقيا؟

الكنيسة الكاثوليكية حاليًا هي حقيقة عالمية؛ لأنَّها حاضرة في كل مكان، لكنَّ موقف الكنيسة الكاثوليكية عمليًا والمتمثلة بالفاتيكان حول القضايا العالمية هو نفسه الموقف الأوروبي حتى في القضايا الدينية والأخلاقية، بل إنَّ تصوراتهم الدينية والتاريخية والثقافية هي على النمط الأوروبي إلى حد كبير، وهذا الموضوع يعدّ أحد المشاكل الأساسية للكنيسة؛ لهذا، فهي لا تستطيع - وهي في هذا الوضع- أن تحافظ على وحدتها وانسجامها على المدى البعيد. بناءً على ما مرّ، فإنَّ الموقف من الصحوة الإسلامية العالمية يتضح حينما يتضح الموقف الأوروبي من هذه القضية، وإنَّ قضايا العالم الإسلامي هي مهمة للفاتيكان بالقدر الذي تكون مهمة لأوروبا. وكما تعلمون، فإنَّ من أهم القضايا التي تهتم بها أوروبا أو الجنوب الأوروبي على الأقل هي منطقة

شمال إفريقيا؛ ذلك أنَّ أوروبا وبعد التحام جزأيها الشرقي والغربي توسعت جغرافيًا، وأصبحت إفريقيا جزءًا من أوروبا أو الحدود الحقيقية لأوروبا. وعليه، فإنَّ أيّ حدث يقع في هذه القارة يبعث على القلق لدى الأوروبيين. ومبعث هذا القلق ليس فقط موضوع الطاقة التي تؤمّنها هذه المنطقة لأوروبا، إنَّما هو الإسلام ودوره المستقبلي، فلا يمكن للأوروبيين أن يتجاهلوا التطورات التي تحصل في المنطقة. ولهذا السبب بالضبط تصبح هذه المسألة مهمة للفاتيكان، الذي يراقب الوضع عن كثب ويتابع هذه التطورات بدقة.

ما السياسة الحقيقية للفاتيكان إزاء الأزمات التي مرت بها يوغسلافيا، وخاصة قضية البوسنة والهرسك؟

سؤال جيد جدًا ومتمم للسؤال السابق حول علاقة الكاثوليك بالأرثوذكس، فالأزمة التي مرت بها البوسنة ويوغسلافيا السابقة والبلقان بشكل عام لقيت تقييمًا وموقفًا من الأرثوذكس مغايرًا للتقييم الأوروبي، أي: إنَّ هناك فهمين وتقييمين وتحليلين لهذه الأزمة، أحدهما التحليل الكاثوليكي، والآخر التحليل الأرثوذكسي. ويعتقد الأرثوذكس بأنَّ هذه الأزمة ناتجة عن الأطماع الألمانية والكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من أنَّ مصلحة كل طرف تختلف عن الآخر في قضية تفكيك يوغسلافيا السابقة. إذ يعتقد الفاتيكان بأنَّه ينبغي الدفاع عن استقلال القوميات في يوغسلافيا السابقة التي ترغب بالحرية والاستقلال. وقد بعث الفاتيكان سفيره إلى سارايفو[(١)] لإثبات هذا الموقف.

أقام الفاتيكان علاقات دبلوماسية رسمية مع كيان الاحتلال في ديسمبر (١٩٩٣)، وفي حينها أشار سفير الكيان في إيطاليا آفي بازنر (١٩٣٧)[(٢)] إلى أنَّ جهودًا دبلوماسية بُذِلت في إيطاليا قبل ذلك. ما السبب الرئيس لإقامة مثل هذه العلاقات؟ وهل سيُكتَب لها الاستمرار؟

نعم، ثمة خلفيات لما أشار إليه سفير الكيان الصهيوني حول كيفية إقامة مثل هذه العلاقات، ولكنَّ السبب الرئيس لهذه العلاقات هو ما أجبت عليه في أحد الأسئلة السابقة من أنَّ الموقف السياسي للفاتيكان يتبع الموقف الأوروبي، وبعبارة أخرى هو

---

(1) Sarajevo.
(2)Avi Paznew.

الدور الكبير الذي يلعبه الموقف السياسي الأوروبي في تنظيم سياسات الفاتيكان. ويصح هذا الموضوع على إسرائيل أيضا، خاصة أنَّ السلطة السياسية في الكنيسة وعلى الرغم من كونها عالمية إلا أنَّها أصبحت ترتبط بالسلطة الدينية في الغرب، ولا سيما بعد حرب الخليج الثانية، وأنَّ الرغبة في إقامة مثل هذه العلاقات مع إسرائيل هي رغبة غربية وأميركية كاثوليكية.

ومن جهة أخرى، فقد لوحظ وجود تيار في الكنيسة الكاثوليكية جرّها إلى التطرف بشدة، بعد أن أسرعت خطاها نحو اليهودية بما لا ينسجم مع سننها التاريخية والعقائدية حيال اليهود واليهودية، حتى أصبح التقرب إلى اليهود فخرًا للسلطات الدينية في الكنيسة.

وثمة أسباب أخرى لإقامة مثل هذه العلاقة، ومنها الأمل بالاعتراف بحقوق المسيحيين من قبل الكيان الصهيوني، فهذا الكيان - وكما تعلمون- غير مستعد للاعتراف بحقوق المسلمين والمسيحيين. فقد تصور الفاتيكان بأنَّ إقامة علاقات سياسية مع إسرائيل والاعتراف بها رسميًا سيؤدي بالمقابل إلى اعتراف الإسرائيليين بأوقاف الكنائس والحقوق التاريخية للمسيحيين بشكل عام. هذا في وقت صادق الكنيست على قانون يوجب وجود مرافق إسرائيلي لزائري المراكز الدينية الإسرائيلية، وهذا يعني بأنّ التعرف على هذه المراكز الدينية يحصل على أساس البعد التاريخي الذي خططوا له، وليس على الحقائق التاريخية، وهذا ما أدى إلى احتجاج الكثير من الطوائف الكاثوليكية ومنها الفرانشسكية[1] التي لها أملاك كثيرة هناك. ولا ينكر أنَّ الفاتيكان خُدِع في هذه الصفقة، إذ لم تُحلّ أيّ من هذه المشاكل بعد إقامة العلاقات، وبقيت على حالها. وقال لي الكثير من مسؤولي الفاتيكان الكبار بأنَّهم أعطوا بهذه العلاقة كل شيء من دون أن يكسبوا شيئا!. ويُشار هنا إلى أنَّ مسيحيي القدس كانوا على رأس المعارضين لإقامة هذه العلاقات، وقد أعربت صحافة بلدان المنطقة بعد إقامة العلاقات في (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) في مصر والأردن وسوريا عن معارضتها ورفضها لهذه العلاقات.

على أيّ حال، فقد كان المسيحيون العرب رافضين لهذه العلاقات، وحتى الكاثوليك من العرب هم أيضًا كانوا من المعارضين للعلاقات الدبلوماسية بين

(1) Franciscans.

الفاتيكان وإسرائيل. وهنا من المناسب أن أذكر المطران كابوتشي (١٩٢٢ - ٢٠١٧)[١] بطريارك كنيسة الروم الملكيين[٢] الكاثوليك في القدس، الذي كان من أشد المعارضين لمثل هذه العلاقات.

وقد اعتُقِل المطران كابوتشي عام (١٩٧٤) من قبل كيان الاحتلال، ثم أُطلِق سراحه بعد وساطة من البابا بولص السادس[٣] مغادرًا إلى إيطاليا.

ما أهمية منطقة الشرق الأوسط للفاتيكان؟ وما مستوى علاقته ببلدانها، خاصة العراق؟

في العموم، فإنَّ أعداد المسيحيين الكاثوليك في المنطقة، مثل مصر وسوريا والعراق هم قلة قليلة، ففي مصر مثلًا يبلغ عدد الكاثوليك من بين الأقباط مائتي شخص فقط، ولهم تقاليدهم وآدابهم. ولما كان الفاتيكان يرغب في إثبات وجوده وحضوره العالمي، فإنَّه يبدي أهمية لهذه المنطقة، ويرسل إليها البعثات على الرغم من الأقلية الصغيرة التي تقطنها، ويزداد هذا الاهتمام بلبنان على وجه الخصوص؛ لوجود أعداد أكبر من الكاثوليك فيها. أمّا السبب الآخر لاهتمام الفاتيكان بالمنطقة، فهو سبب تاريخي - ديني؛ لأنَّها تعدّ منشأ المسيحية، ومنها يبدأ التاريخ المسيحي، إذ لا يبقى لها شيء لو أُلغي تاريخها في المنطقة، ولهذا يطمح الفاتيكان بالاحتفاظ بحضوره في الشرق الأوسط. ومن الأسباب الأخرى لاهتمام الفاتيكان بالمنطقة هو لأهميتها في التطورات الدولية، وتحسس الفاتيكان لهذه التطورات؛ لهذا يرغب الفاتيكان بتسجيل حضور محترم بين شعوب المنطقة مع دور سياسي - ديني، ويبذل جهودًا وأموالًا كبيرة؛ لإقامة صلة وصل معها. وفي العراق هناك أقلية مسيحية ملحوظة، بينهم نسبة كبيرة من الكلدان الكاثوليك الذين يهتم بهم الفاتيكان كثيرًا. وقد زادت وتيرة هذا الاهتمام في مدّة الحكم البعثي إلى يومنا هذا، ويعدُّ العراق أحد البلدان الرئيسة في الشرق الأوسط، التي يمارس فيها الفاتيكان سياسة فعّالة مقرونة بالحذر.

بلحاظ التعاون بين إيران والفاتيكان في مؤتمرات مثل نيويورك والقاهرة حول كيان الأسرة المقدس، هل هناك مجالات أخرى للتعاون بين الجانبين في المستقبل؟

---

(1)Hilarion Capucci.
(2)Melkites.
(3) Pope Paul VI.

نعم، كما تعلمون، فإنَّ مؤتمر القاهرة كان مؤتمرًا دوليًا، خُطِّط له من عام (١٩٨٠)، أي: قبل أكثر من عشر سنوات من انعقاده، واحتوى على الكثير من القضايا المخالفة للمفاهيم الدينية في الإسلام والمسيحية حول الأسرة ومفهومها، والسلامة الجنسية، والتعليم الجنسي، والأخلاق الجنسية بصورة عامة. في تلك البرهة الزمنية وجه رئيس وزراء الفاتيكان ووزير الخارجية واثنان من الكرادلة المتخصصين في قضايا الأسرة دعوة إلى جميع السفراء الأجانب، وأعلنوا موقفهم من مؤتمر القاهرة والمؤتمر التحضيري له في نيويورك في أبريل/ نيسان (١٩٩٤) ودعوا إلى التعاون الجماعي في هذا الموضوع، ولكنَّ أيًّا من الدول لم يستجب عمليًا لهذه الدعوة حتى البلدان الإسلامية. واتصل بي بعد مدة وزير خارجية الفاتيكان عارضًا هذا الموضوع، وأبديت موافقة بلادي وتأييدها لموقف الفاتيكان، وأكدت على استعداد إيران لحضور المؤتمر بشكل فعّال. وكان وفدنا هو الوفد الوحيد الذي تعاون مع الفاتيكان في مؤتمر نيويورك. وكان يرأس وفد الفاتيكان حينها المونسنيور مارتين (و: ١٩٦١)[1] إذ جاءنا إلى السفارة بعد العودة من نيويورك، وأعرب عن شكره الجزيل لتعاون إيران في هذا المؤتمر، وقال مستغربًا: ((إنَّ بعض البلدان الإسلامية – ذكر اسمها ولكنِّي هنا أعزف عن ذكرها– وقفوا ضدنا، وأثار ذلك استغرابنا عن سبب هذا الموقف، وهم مسلمون ويتفقون معنا في هذه الأصول)). وبعد مؤتمر نيويورك توثقت العلاقات بين الفاتيكان والجمهورية الإسلامية الإيرانية وصولًا للمزيد من التعاون في مؤتمر القاهرة، والتقى سفير الفاتيكان في طهران روميو بانسيرولي (١٩٢٣ - ٢٠٠٦)[2] مع محمد هاشمي وكان يومها وكيل وزارة الخارجية للبحث في التعاون المشترك في المؤتمر.

وفعلًا تعاونت إيران والفاتيكان بشكل وثيق واستثنائي في مؤتمر القاهرة. ولا شك في أنَّ تعاون إيران والفاتيكان كان أهم عامل في تحقيق الأهداف المنشودة وهذا ما يعترف به الفاتيكان نفسه في المجالس الخاصة والعامة. وبعدها طلب الفاتيكان تعاون إيران في مؤتمرات التنمية الاجتماعية في الدنمارك في مارس (١٩٩٥)، وكذلك في بكين في أيلول/ سبتمبر من السنة نفسها.

---

(1)Monsignor Eamon Martin.
(2) Romeo Panciroli.

هل قامت الكنيسة الكاثوليكية بنشاط مثمر في مجال مكافحة الانحطاط الأخلاقي والعلمانية في المجتمعات الغربية؟

نعم، هذا الموضوع مطروح ولكن ليس كما نتصوره، فثمة اختلاف بين تصورنا للقضايا الأخلاقية والعلمانية عمّا يفهمه الكاثوليك الأوروبيون والسلطات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية، فهم يعرّفون العلمانية بأنّها: فصل الدين عن السياسة.

كما قلت سابقًا، فإنَّ الكنيسة الكاثوليكية تفكر وتعمل على الطريقة الغربية فكرًا وثقافة، وترى أنَّ الدين عبارة عن سلسلة من الالتزامات الاجتماعية، وليس لديها ما لدينا من إحساس خالص والتزام بالأحكام الدينية والمعايير الأخلاقية.

هل الفاتيكان قلق من ارتفاع وتيرة الفساد والانحراف الأخلاقي بين القساوسة في العالم، وخاصة في أميركا؟ وهل اتخذت تدابير محددة لمواجهة هذه الظاهرة؟

هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، وربّما لم يشهد التاريخ هذا القدر من الكلام حول الفساد الأخلاقي لدى السلطات الدينية الكنسية، ومنها الكنيسة الكاثوليكية، وهذه القضية لا تخصّ أميركا لوحدها، وإنّما تشمل أوروبا أيضًا. على أيّ حال، فإنَّ واحدة من المشكلات الكبرى التي تواجهها الكنيسة المعاصرة الاستغلال الجنسي الذي يمارسه القساوسة وبعض الأساقفة للنساء والأطفال، وهي ظاهرة مرعبة توسعت كثيرًا وأخذت أبعادًا أكبر. ولهذا يتعرض البابا الحالي باستمرار إلى الانتقادات؛ لأنّه يعارض بشدة زواج القساوسة، وهو سبب رئيس لبروز هذه المشكلة حسب المتابعين لها. ولمواجهة هذه الظاهرة اكتفت الكنيسة الكاثوليكية باعتبار أنَّ من يرتكب هذه الأفعال باستمرار هو مريض نفسي يوضع تحت العلاج في مراكز مخصصة لهذا الأمر. ويذكر هنا أنَّ الكنيسة الكاثوليكية والبابا نفسه يستنكرون هذه الأفعال من القساوسة والأساقفة من دون أيّ خطوة أخرى للحل.

أين تضع مكانة حكومة الفاتيكان في الساحة الدولية؟

يحتاج هذا السؤال إلى رد تفصيلي، ولكن يمكن القول إجمالًا: إنَّ الفاتيكان كان في الماضي مركزًا دينيًا يتمتع بخلفيات أخلاقية، يكن له الناس احترامًا ويدينون له بالطاعة؛ لما فيه من إلزامات أخلاقية، ولكنَّ الوضع تغير فيما بعد بشكل كلي بعد الحوادث التي شهدها العالم، فلم يعد الناس كما كانوا عليه سابقًا ملتزمين بالدين،

وبذلك تراجع هذا الإلزام الأخلاقي والاحترام إزاء البابا والفاتيكان، وفي المقابل تحرك الفاتيكان على الصعيد السياسي وأصبح أكثر فعالية ونشاطًا، وهو ما يقر به جميع المراقبين والكاثوليك أنفسهم. فلم ينشط أيّ بابا في المجال السياسي من قبل كما ينشط البابا الحالي، سواء في القول والعمل، وهذا يدل على أنَّ الكنيسة ترغب في أن تلعب دورًا أكبر من كونها مركزًا دينيًا، حتى يمكن القول: إنَّ الفاتيكان أصبح مركزًا سياسيًا أكثر من كونه دينيًا.

وبشكل عام يمكن القول: إنَّ الفاتيكان وبعد سقوط الماركسية وانهيار الأنظمة الشيوعية ضاعف جهوده على الدوام؛ ليثبت بأنَّه قوة مستقلة تناصر السلام والعدالة وتحظى بالاحترام والثقة، ونجحت إلى حد ما لتثبيت هذه النظرة في أذهان الآخرين.

إلى أيّ مدى استطاعت الكنيسة أن تتقدّم في نشاطاتها التنصيرية في مختلف مناطق العالم؟

لا يمكن الحديث بشكل عام عن الفعاليات التنصيرية للكنيسة الكاثوليكية، ولا بد من ذكر حالات معينة. فهي تواجه ظروفًا مختلفة في المناطق المختلفة بخصوص استقطاب أنصارها أو فقدانهم. مثال ذلك، فإنَّ الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية تشهد تراجعًا، فقد كانت المجموعات البروتستانتية المختلفة في أميركا اللاتينية والوسطى وفي العقود الماضية ناشطة إلى حد كبير، واستطاعت هذه المجموعات جذب الكثير من الكاثوليك وفي جميع بلدان أميركا اللاتينية إليها، حتى أنَّ سفراء بلدان أميركا اللاتينية في الفاتيكان كانوا يجهرون بهذا ويتحدّثون عن الوضع القلق للكنيسة الكاثوليكية. ومرة قال سفير غواتيمالا بشكل خاص بأنَّ نصف سكان بلاده أصبحوا من البروتستانت في عشرة أعوام، وهو أمر غريب. وهذه الظروف ذاتها تتكرر في تشيلي والأرجنتين وكولومبيا وفي كل أميركا اللاتينية. ويمكن القول من جهة أخرى: إنَّ لهذه الظاهرة أبعادًا سياسية لوجود أغلبية بروتستانتية في أميركا الشمالية التي تحاول زيادة أعداد البروتستانت في كل القارة وتعمل بهذا الاتجاه. أمّا في المناطق الأخرى مثل إفريقيا السوداء وأقصى آسيا، فإنَّ الكنيسة الكاثوليكية تقوم بجذب أعداد كبيرة من الناس إليها.

وللكنيسة الكاثوليكية اليوم أمل كبير باستقطاب الكثير من سكان الصين. والجدير بالذكر أنَّ الكاثوليك تصوروا بعد انهيار المنظومة الشيوعية في الاتحاد

السوفيتي وأوروبا الشرقية بأنَّهم سيفتحون هذه الأراضي ويكسبون الناس إليهم سريعًا، وفعلًا استطاعوا لمدّة قصيرة من السير بهذا الاتجاه، لكن سرعان ما سحبت الكنيسة الأرثوذكسية البساط من تحت أقدامهم، ولم يعودوا بعدها يفكرون بهذا الاتجاه.

برأيك من سيخلف البابا الحالي؟ وما توجهاته؟

هذا هو أحد أهم الاسئلة التي تطرحها الصحافة الكاثوليكية وغير الكاثوليكية، وربّما لم يجرِ الكلام عن خليفة البابا سابقًا بالقدر الذي يحصل الآن، خاصة بعد الأحداث التي وقعت له.

إنَّ السبب الرئيس لطرح مثل هذا السؤال هو، أولًا: وجود أسئلة كبرى عدة على طاولة الكنيسة الكاثوليكية التي يفترض أن تجيب عليها، فهي تمر بظروف شبه متأزمة، وإنَّ كيفية الرد على هذه الاستفهامات من قبل سلطات الكنيسة هي التي تحدد التطور والانعطافة التي يمكن أن تشهدها هذه الكنيسة. وإضافة لذلك، فإنَّ الكنيسة تواجه قضايا كثيرة أخرى من حيث بنيتها التنظيمية، ولهذا تكتسب معرفة البابا القادم وتوجهاته أهمية كبرى، وهي قضية يتحسس إزاءها الكثير من الكاثوليك.

وثانيا: لأهمية الفاتيكان باعتباره ثقلًا سياسيًا. فالفاتيكان يؤدي حاليًا دورًا واحدًا، ويهتم السياسيون لمعرفة الاتجاه السياسي للخليفة المرتقب. فضلًا عن ذلك، فإنَّ هناك توجهات مختلفة في الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة في القطاع الألماني في أوروبا، إذ يرغب الكثير بالابتعاد عن المركز، في حين تعني الكاثوليكية فيما تعنيه العودة إلى البابا كمرجعية نهائية.

وبطبيعة الحال لا يمكن التكهن بخليفة البابا؛ لأنَّه وطبقًا للمتبع دينيًا وتقليديًا، فإنَّ مجمع الكرادلة هو الذي يقوم بعملية الانتخاب. هذا على الرغم من أنَّ البابا الحالي متهم بأنَّه سعى طوال هذه المدة لانتخاب الكرادلة ممّن ينتهج نهجه ويسير على خطه. بلحاظ كل هذا يمكن القول: إنَّ الخط العام الموجود في الفاتيكان لا يمكن أن يتغير سريعًا مع انتخاب بابا جديد، ويمكن ذلك على المدى البعيد.

حكومة داخل حكومة[1]

واجهت زيارة البابا بنديكيت السادس عشر[2] إلى منطقة الشرق الأوسط ردود فعل مختلفة. وجاءت هذه الزيارة في ظروف - حسب حجة الإسلام والمسلمين «محمد مسجد جامعي»- لم تكن للفاتيكان علاقات دبلوماسية مع إسرائيل حتى أوائل عقد التسعينيات. ويؤكد «مسجد جامعي» أنَّ علاقات الكثير من البلدان شهدت في السنوات الأخيرة تطورات متسارعة كقاعدة لم تستثن منها العلاقات بين إسرائيل والفاتيكان. حجة الإسلام «مسجد جامعي» كان سفيرًا في الفاتيكان بين الأعوام (١٩٩١ - ١٩٩٧)، وله باع طويل في معرفة الأديان، إذ تحدّث لنا عن الضجة التي تثيرها إسرائيل حول البابا فضلًا عن العرب والمسلمين.

صحيفة «اعتماد مِلّي»

لماذا اختار البابا الأردن هدفًا لزيارته؟ وما ثمار جولته في الشرق الأوسط ونتائجها؟

من الأفضل أن أبدأ كلامي بخاطرة تحضرني عن إحدى لقاءاتي بوزير خارجية الفاتيكان سنة (١٩٩٢) عندما قال لي الأسقف توران[3]: بأنَّنا سنقيم علاقات مع الأردن متى ما أقمناها مع إسرائيل، وحينها لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين الفاتيكان وإسرائيل، وبدأت هذه العلاقات في نهايات سنة (١٩٩٣). وكان الأردن يرغب قبل ذلك في مثل هذه العلاقات لكنَّ الفاتيكان كان يفضل إقامتها في وقت متزامن. ولهذا، فإنَّ تقييم الفاتيكان للعلاقات مع الأردن وإسرائيل هو تقييم متكافئ بين الطرفين. فجاءت زيارة الأردن كبادرة إيجابية من الفاتيكان للعالم العربي والإسلامي، وأنَّها تعدّ البلد الأنسب والأقل مشاكل للبابا.

فلم يكن البابا قادرًا على الذهاب إلى مصر؛ لوجود الكثير من المواقف المتضاربة بين الفاتيكان والكنيسة القبطية في مصر، كما أنَّه لم يكن قادرًا على الذهاب إلى سوريا للظروف الخاصة التي تحيط بالعلاقات مع إسرائيل، وهكذا الحال مع البلدان الأخرى.

---

(١) حوار مع صحيفة "اعتماد ملّي" الإيرانية، (أجرى الحوار: إحسان أبطحي ومحمد حسين باقي)، في ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٩.

(2) Pope Benedict XVI.

(3)Jean-Louis Tauran.

فالأردن هي البلد المثالي الذي يستطيع السفر إليه إلى جانب إسرائيل. وإنَّ نظام الأردن كان يرغب هو الآخر بهذه الزيارة، إذ استقبله بحفاوة بالغة. إذًا، هذا هو سبب اختيار الأردن من قبل الفاتيكان، الذي كان يرغب أن تحصل الزيارة إلى بلد عربي في الوقت نفسه الذي يزور إسرائيل. كذلك – وكما قلت– فإنَّ الجانبين برأي وزارة خارجية الفاتيكان إلى جانب بعضهما تاريخيًا.

لمناقشة بعض التطورات لا يمكن النظر من زاوية واحدة إلى الموضوع وهي الزاوية السياسية، وإنَّما يجب وضعه في الإطار التاريخي أيضًا. وهذه القاعدة تنطبق على العلاقات بين الفاتيكان وإسرائيل. فالفاتيكان لم يكن يعترف بإسرائيل حتى عام (١٩٩٣). وقد حصلت في هذه البرهة التاريخية تطورات كثيرة حول العلاقة بين الجانبين. مثال ذلك ما قيل عن نقل البابا بيوس الثاني عشر (١٩٥٨ – ١٨٧٦)[1] هيكل سليمان إلى الفاتيكان، وكذلك عضوية البابا بنديكيت السادس عشر في حزب الشبان النازيين الألمان، الموضوع الذي أدى إلى توتر بين الطرفين. ما دلالات زيارة البابا لو وضعنا هذه التطورات في الإطار التاريخي؟ هل هي محاولة لاسترضاء إسرائيل؟ هذا في وقت نشر الجانب الإسرائيلي تقارير عن الدعوة لمحاكمة البابا في محكمة العدل الدولية. ويجب ألّا ننسى أنَّ العلاقات بين اليهود والمسيح كانت على الدوام علاقات متردية.

تغيرت العلاقات بين بعض البلدان في السنوات الأخيرة بشكل سريع جدًا. فمن الخطأ الاكتفاء بالنظر إلى العلاقات السابقة لو أردنا القيام بدراسة الوضع الموجود، وتجاهلنا التطورات السريعة التي وقعت في هذه البرهة الزمنية. فقد كان البرود، بل العداء هو الذي يحكم العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود على مدى التاريخ، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية التي تتهم اليهود في أدعيتها وعباداتها بأنَّها السبب في صلب السيد المسيح – عليه السلام–، وتردد عبارات اللعن لهم، وتعتقد بأنَّ ذلك ما لا يمكن نسيانه. فهم يعتقدون بأنَّ اليهود مدانون؛ لاشتراكهم في صلب السيد المسيح – عليه السلام–، وهذه العقيدة التاريخية راسخة في أذهانهم. ويؤيد المؤرخون من الجانبين هذا الموضوع تاريخيًا؛ ولكن عُدِّل الكثير من قضايا الكنيسة الكاثوليكية في العصر الجديد، وصُحِّح الكثير من الأدعية الكاثوليكية، وأصبحت

(1) Pope Pius XII.

العلاقة مع الكنائس الأخرى، وخاصة البروتستانتية أكثر اعتدالًا بعد أن كانت على مر التاريخ علاقة يشوبها العداء أو التنافس على الأقل. وإلى جانب هذه التطورات اتخذت العلاقة بين الكاثوليك واليهود شكلًا آخرَ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، بل إنَّ هذه العلاقات بقيت فاترة حتى بعد مرور خمسة عشر إلى عشرين عامًا على الحرب.

أنقل هنا هذه الخاطرة: كان هناك كاردينال باسم بيولاغي (١٩٢٢ - ٢٠٠٩)[١] - ليس على قيد الحياة الآن-، وكان مسؤولًا عن وزارة العلوم في الفاتيكان عندما كنت سفيرًا هناك - هم يستخدمون لفظ المجمع[٢] بدلًا من الوزارة- كما كان دبلوماسيًا بارزًا في بلدان، مثّلَ الفاتيكان في عدد من الدول منها أميركا وجنوب إفريقيا، وبعثه البابا يُوحنَّا بولص الثاني[٣] أثناء حرب أميركا على العراق موفدًا؛ لإيصال رسالة إلى الرئيس الأميركي حينها جورج بوش.

أتذكر جيدًا أنَّه كان يتحدّث كثيرًا عن اليهود؛ لأنَّه مثّلَ البابا شخصيًا في إسرائيل بين السنوات (١٩٦٥ - ١٩٧١)، وحينها لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين الجانبين، وإنَّما تمثيل شخصي عن البابا. ولكي أوضح عمق العداء بين الكاثوليك واليهود أنقل لكم هذه الخاطرة، يقول الكاردينال لاغي: إنَّ يُوحنَّا السادس (١٨٩٧ - ١٩٧٨)[٤] زار القدس في تلك المدّة واستُقبِل بحفاوة، وقد كانت عائدية المدينة في ذلك الوقت إلى الأردن، وفيها الكثير من المسيحيين، وليس كما هو الوضع حاليًا بعد أن تناقصت أعدادهم. يقول: إنَّ المسلمين والمسيحيين والحكومة استقبلوا البابا بحفاوة كبيرة، ولكنَّه لم يجد أيّ استقبال لدى زيارته إسرائيل، وواجه ردود فعل فاترة أو حتى عدائية. هذه إحدى ذكرياته المريرة عن مدّة حضوره في إسرائيل. كما نقل حادثة عندما زار كبار حاخامات إسرائيل للتوديع، أعزفُ عن ذكر تفاصيلها؛ لما تمثّله من إساءة إلى السيد المسيح - عليه السلام-!.

---

(1) Pio Laghi.
(2)Congregation.
(3) Pope John Paul II.
(4)Pope Paul VI.

على أيّ حال، فإنَّ العلاقات كانت فاترة أو عدائية، والتطورات الكبيرة التي حصلت إنّما هي في العقود الأخيرة في العلاقات بين إسرائيل والكثير من الدول ومنها الفاتيكان.

أذكر هنا مثالًا آخر: لم تكن لإسبانيا علاقات مع إسرائيل قبل التحاقها بالاتحاد الأوروبي، بل كانت هذه العلاقات سيئة لأسباب تاريخية، وبدليل طرد اليهود من إسبانيا سنة (١٤٩٢) ميلادية. واليهود السفارديم الموجودون حاليًا هم في الأساس من إسبانيا. على أيّ حال، كانت هذه العلاقات سيئة حتى في عهد الجنرال فرانكو (١٨٩٢ - ١٩٧٥)[1]، إذ كانت هذه العلاقات فاترة.

وإنَّني أتذكر السفير الإسباني في الفاتيكان السيد لوبيز[2] (و: ١٩٥٣) المولود في القدس - لأنَّ أباه كان دبلوماسيًا في القدس أثناء ولادته- كان يقول: إنَّه أول سفير يُعيَّن في إسرائيل سنة (١٩٨٦) قبل أن يمثّل بلاده في الفاتيكان، وكان على معرفة واسعة بالمنطقة.

على أيّ حال، فإنَّ القضية ليست غياب العلاقة الدبلوماسية، وإنَّما كان جزء كبير من أوروبا الحالية لا يقيم أيّ علاقة مع اليهود كقومية، ومع إسرائيل كدولة، ولم تكن هناك أيّ علاقات إيجابية بل سلبية يشوبها على الدوام سوء الظن. لهذا، فإنَّ هذا الوضع لم يكن يخصّ الفاتيكان وحسب، وإنَّما يشمل الكثير من البلدان الأوروبية.

إنَّ اعتراف الفاتيكان رسميًا بإسرائيل أدى إلى إزالة بعض التوترات بين الطرفين، ونشطت الكنيسة الكاثوليكية في إسرائيل. ولكن تقول بعض التقارير بأنَّ العلاقة الرسمية يجب أن تستحصل على تأييد الكنيست. ما مدى صحة ذلك؟

ومن قال إنَّ الكنائس المختلفة في إسرائيل هي على هذه الشاكلة بعد إقامة العلاقات؟

نقلًا عن موقع مجلس العلاقات الخارجية الأميركية؟

هذا خطأ، راجع التقرير مجددًا. ليس الأمر كما تقول؛ لأنَّني كنت في الفاتيكان حتى عام (١٩٩٦) وعلى ارتباط تقريبًا مع جميع القساوسة والأساقفة والبطاركة في

---

(1) Francisco Franco.

(2)Pedro López Quintana.

الكنائس المختلفة، ولا سيما في الشرق العربي، وعلى معرفة بقضايا الكنيسة من داخلها، فعلى سبيل المثال كان السيد ميشيل صباح أقرب البطاركة إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما وهو من القدس وفلسطيني الأصل، وقد سمعته يقول مرات ومرات في الاجتماعات الخاصة: إنَّ أعداد المسيحيين في إسرائيل تناقصت كثيرًا، وإنَّ الكثير منهم أُرغموا على مغادرتها، وإنَّ الإسرائيليين كانوا يمهدون ويوفرون الأجواء لمغادرة المسيحيين إسرائيل، وخاصة القدس.

فقبل احتلال القدس كانت نسبة المسيحيين ومن مختلف الطوائف تتراوح بين (١٥ إلى ٢٠) بالمائة من سكانها، إلا أنَّ أعدادهم تناقصت كثيرًا بعد ذلك. ويقول بعض المسيحيين بأنَّهم يريدون مغادرة الأرض المحتلة بعد انتشار الأصولية الإسلامية، ولكن مع ذلك يعتقدون بأنَّ الضغوط المنظمة التي تمارسها الحكومة الإسرائيلية هي أضعاف ضغوط الأصولية الإسلامية. وهؤلاء هم معظمهم من المهاجرين الساكنين في إسرائيل، وليسوا من المهاجرين الساكنين في المناطق الإسلامية. ومن المؤكد أنَّ مشاكل هؤلاء في تزايد مع الحكومة الإسرائيلية التي صادرت الكثير من أراضيهم الوقف التابعة لهم، والتي يرتبطون بها تاريخيًا.

هل صحيح أنَّ إسرائيل تعمل على تهويد الأرض المحتلة، بمعنى إبقاء اليهود فقط من دون أيّ وجود إسلامي أو مسيحي؟

نعم، هذا أمر صحيح، وهو هدف إسرائيلي لجميع الحكومات المتعاقبة وإن لم تصرح به.

واجهت زيارة البابا إلى إسرائيل انتقادًا شديدًا في الداخل الإسرائيلي؛ لأنَّ أحد الأساقفة في الفاتيكان نفى وقوع الهولوكوست، وطالبت إسرائيل بإخراجه من الفاتيكان إلا أنَّ سلطات الفاتيكان رفضت ذلك باعتبار أنَّ الطرد لا ينسجم مع قوانينها، كما طُرِح موضوع عضوية البابا في قسم شبان الحزب النازي. السؤال هنا: كيف تقيّم العلاقات بين المسيحية واليهودية على ضوء زيارة البابا إلى المنطقة وإسرائيل، وأحد أسبابها تراجع أعداد المسيحيين في الأرض المقدسة، وبلحاظ العلاقة الفاترة بين الطرفين على مر التاريخ، وكما يقول الناصريون: إنَّ مسيحيي أوروبا أقدموا على تأسيس إسرائيل للتخلص من شر اليهود في أوروبا؟

إنَّك طرحت هنا مواضيع كثيرة مع افتراضات واسعة، وبنيت سؤالك على هذه المعطيات وبعضها غير دقيق! لاحظ أنَّ السياسة الخارجية الإسرائيلية وعلماء النفس هناك لديهم إحساس بالفوقية، ليس فقط حيال العرب والمسلمين، وإنَّما قبال الجميع. وإنَّني سمعت مرارًا من الدبلوماسيين وسفراء البلدان الغربية وهم يطلقون لفظ (arrogant) عليهم؛ لأنَّهم أناس مغرورون ومتكبرون ومن الصعب التعامل معهم، لأنَّهم يشعرون دائمًا بأنَّ الحق معهم. فقبل سنوات رسم فنان سويدي في استوكهولم لوحة، يستنبط منها بأنَّ إسرائيل ظالمة، فبادر السفير الإسرائيلي للحضور إلى المكان على الفور، وقام بقطع الأسلاك الكهربائية، وإشاعة الفوضى في المراسم، يومها كان شارون رئيسًا للوزراء في إسرائيل، حيث أثنى على سفيره كثيرًا، وأعرب عن دعمه له، ممّا أثار ضجة صحفية يومها هناك. إنَّ ما أريد أن أقوله إنَّ إسرائيل تتعامل بحالة من الفوقية دائمًا وفي كل الظروف وحيال الجميع، ولديهم سياسة هجومية تمامًا، وهي سياسة ناجحة، بل إنَّهم يعتبرون نجاحهم يتوقف على اتباع هذه السياسة دائمًا؛ لهذا، فإنَّ الانتقاد موجود مهما فعل البابا.

ففي العهد النازي كان البابا بنديكيت السادس عشر (جوزيف راتسينغر)[1] فتى شابًا، وهذا ليس دفاعًا عنه، كما أنَّ المتحدّث باسم الفاتيكان سبق وأن أعلن بأنَّ البابا لم يكن يومًا ما عضوًا في هذه المنظمة، غير أنَّ الإسرائيليين كانوا يصرون على انتمائه لها. فقد كان فتى يعيش في ألمانيا ليست أمامه خيارات، وليست لديه تلك القدرة على التشخيص، وهذا أمر طبيعي، حتى لو كانت له هذه القدرة.

والخلاصة أنَّ الإسرائيليين يتذرعون بكل شيء من أجل الابتزاز. فالحدث المذكور حصل قبل عام (١٩٤٥) حينما كان البابا صغيرًا، وهو لم يكن في الأساس عضوًا في أيّ حزب، أو ربّما كان انضمامه عن إجبار وليس عن اختيار وإرادة. فإسرائيل تمارس أنواع الحيل والخدع من أجل الضغط الإعلامي والأخلاقي والسياسي وغيره، وهي تمارس هذه المهمة بحرفية تامة، وتعرف بماذا تتذرع، وكيف تجعل من الذريعة وسيلة كبيرة للضغط الأخلاقي، فعملهم يقوم على أساس اتخاذ الذرائع والحجج.

---

(1) Joseph Alosisius Ratzinger.

هل يستطيع البابا أن يكون مؤثرًا في مشروع حل الدولتين؟ فبعضهم يعتقد بإمكانية تطبيق أنموذج أوروبا الشرقية على القضية الفلسطينية، فقد دخل البابا من زاوية الأخلاق والدين أيام هيمنة العقيدة الشيوعية على أوروبا الشرقية وبولندا، واستطاع ترك بصماته على مسار انهيار الشيوعية في بولندا. فهل يستطيع الفاتيكان تطبيق هذه الخطة فيما يتعلق بفلسطين وإسرائيل، والعمل على موضوع حل الدولتين؟

الحقيقة أنَّ الظروف الحالية تختلف كثيرًا عن ظروف تلك المرحلة، ولا توجد أيّ نقطة مشتركة بين الموضوعين. فالانهيار الذي حصل في المنظومة الشيوعية هو نتيجة الأموال الباهظة التي أنفقها ريغان وكان قد انتُخِب للرئاسة حديثًا، وكذلك البابا يُوحنَّا بولص الثاني. ومعروف بين المسؤولين الإيطاليين وبعض الشخصيات الدينية الكاثوليكية بوجود اتفاق بين ريغان والبابا بهذا الخصوص، مدعومًا بالأموال الضخمة التي ضُخَّت، إضافة إلى الدعم الإعلامي والسياسي والدولي. ولا ننسى أنَّ يُوحنَّا بولص الثاني كان من الشخصيات الدينية المعدودة المتخصصة بالقضايا الإعلامية ممّا لا مثيل له. ولهذا كان عارفًا بدوره، وقادرًا على أداء هذا الدور من طريق تأثيره على الأعداد الكبيرة من الناس وقدرته الكارزمية على التعامل مع الشاشة. إنَّنا لا يمكننا أن نعدّ النظرة الدينية الأخلاقية العامل الأكبر فيما حدث؛ وذلك لوجود عوامل مختلفة أخرى. أمّا نجاح البابا والدور الذي لعبه، فهو لا يقتصر على التعاليم الدينية الأخلاقية البحتة، وإنَّما المساعدات الكبيرة التي قدّمتها أميركا في عهد ريغان.

إنَّ العلاقات بين الفاتيكان وأميركا بدأت في الحقيقة سنة (١٩٨٤)، وقبلها لم تكن على ما يرام؛ وذلك لأنَّ الأكثرية في أميركا هم من البروتستانت أولًا، ولأنَّ الفاتيكان ذو طبيعة تقليدية أوروبية ثانيًا؛ لهذا لم يكن الفاتيكان في الرؤية الأميركية مثاليًا، لكنَّ الأمور تغيّرت بعد ذلك، وكان كندي (١٩١٧ - ١٩٦٣)[1] الرئيس الكاثوليكي الوحيد في التاريخ الأميركي. على أيّ حال، فلم تكن هناك علاقة بين الطرفين قبل الثمانينيات. كما أنَّ البابا كان بولنديًا، ولكن يجب أن ندرك بأنَّ انهيار الشيوعية في بولندا ليس بسبب البعد الأخلاقي والديني للبابا وإنَّما لأسباب أخرى أحدها الهوية.

---

(1) John F.Kennedy

كانت بولندا وعلى طول التاريخ تقف في حصن الدفاع عن الكاثوليكية حتى أصبحت أهم عامل في إعطائها هذه الصبغة والهوية، ولهذا السبب سقطت بولندا وأوروبا الشرقية وأصبح ليخ فاونسا (١٩٤٣)[١] رئيسًا للجمهورية، وهو فرد مؤمن وكان يتمتع بقاعدة شعبية ودينية، لكنَّ الدولة البولندية لم تعطِ أيّ امتياز للفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية، ممّا دفع الكنيسة الكاثوليكية البولندية وكاردينالها السيّد جوزيف غليمب (١٩٢٩ - ٢٠١٣)[٢] إلى الاعتراض، غير أنَّ البابا يُوحنًّا بولص الثاني كان على معرفة بالظروف المحيطة، وعمل على تهدئة الأوضاع. على أيّ حال، فلم تكن القضية قضية دين وأخلاق ومعنويات كما يُشاع، بقدر ما كانت قضية هوية.

يقول الكثير من الكاثوليك الأوروبيين بأنَّ البابا بنديكيت السادس عشر متى ما تحدّث جلب معه المشاكل بعكس سلفه يُوحنًّا بولص الثاني، فقد تحدّث في إفريقيا على سبيل المثال عن وسائل منع الحمل التي يستخدمها الرجال، وقال: إنَّ هذه الوسائل لا تساعد على الوقاية من الإيدز ما أدى إلى حصول ضجة كبرى في أوروبا ومناطق أخرى. وانتقدته إحدى المجلات الطبية المعروفة في إنكلترا وأخذت عليه تدخله في موضوعات أثبت العلم صحتها، وهذا الشيء غير مسبوق في التاريخ المعاصر عندما تعاملوا معه بعيدًا عن الأدب ووجهوا له الإساءات.

الفاتيكان ووسائل الإعلام[٣]

إنَّ الحوار مع شخصية شهدت عن قرب ظروف الحياة في الغرب، وعايشت مباشرة الثقافة السائدة هناك، يساعد كثيرًا على معرفة الغرب واتخاذ الموقف الصحيح العادل تجاهه، فهناك الكثير من الحوارات والمقالات التي تنسب إليه وإلى مفكريه من دون تحقيق وتوثيق؛ وذلك لأن الكثير من معلوماتها تعتمد على المصادر المترجمة المستحصلة من شاهد من غير تلك المنطقة، حتى وإن ثبتت صحة المادة العلمية وترجمتها، وهي ليست مأخوذة مباشرة من باحث كان له حضوره المؤثر والمباشر هناك. وقد سنحت لنا فرصة للحوار مع رجل عاش لمدّة في قلب العالم المسيحي

---

(1) Lech Walcsa
(2) Jozef Glemb

(٣) نُشِر في مجلة "رواق هنر وأنديشه"، العدد ١٣ لشهر أغسطس ٢٠٠٧.

العالمي، أي: الشيخ «محمد مسجد جامعي»، إذ عاش لمدّة في الفاتيكان؛ لنطلّع أكثر حول الحضور المسيحي والكنيسة الكاثوليكية في إعلام تلك الديار، على الرغم من أنَّ الحوار يأخذ مدى أوسع، وقضايا أكثر شمولية حول الغرب.

حدّثنا أولًا عن الإعلام الديني للمسيحية الكاثوليكية وكيفية نشاطاته.

ثمة نمطان من الإعلام في العالَم الكاثوليكي، الأول يرتبط بمركزية الكنيسة الكاثوليكية، أي: الفاتيكان، والآخر ما يرتبط بالكنائس الكاثوليكية في مناطق العالم الأخرى. وفي إيطاليا نفسها، فإنَّ الفاتيكان شيء والكنيسة الكاثوليكية الإيطالية شيء آخر. وإنَّ الكنيسة الكاثوليكية الإيطالية التي تقع في روما هي غير الكنائس الكبرى الأخرى الواقعة في المدن الكبرى مثل ميلانو ونابولي. وهذا لا يقتصر على إيطاليا فقط، فلكل كنيسة كاثوليكية وسيلة إعلام خاصة بها مثل الصحافة والإذاعة، وربّما التلفزة أيضًا.

أما عن وسائل إعلام الفاتيكان الرسمية، فله صحيفة رسمية تحت اسم لوسرفاتوره رومانو[1] – بمعنى الرقيب الرومي– بدأت بالانتشار منذ أكثر من قرن ونصف، وتصدر باللغة الإيطالية ولغات أخرى، مثل الإنكليزية والفرنسية والبولندية. وتنشر خلاصة هذه الصحيفة في نشرة أسبوعية بالاسم نفسه، وتترجم إلى لغات أكثر.

وتنتشر في إيطاليا صحيفة أخرى ذات اتجاه اجتماعي وسياسي وديني تحت اسم افنيره[2]، يقولون إنَّها صحيفة ذات ميول كاثوليكية تتبع مجلس أساقفة إيطاليا؛ لكنَّها ليست صحيفة رسمية للفاتيكان، وتنشر الصحيفة أخبارًا كثيرة حول الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان وغير ذلك. وهناك صحف ونشرات أخرى متعددة في إيطاليا وبلدان أخرى، لكنَّها غير رسمية.

من وسائل الإعلام الأخرى التابعة للفاتيكان هي الإذاعة الخاصة به التي افتتحت منذ سنوات طويلة، وتبث برامج منظمة ودقيقة بلغات مختلفة، ولكن لا يمتلك الفاتيكان قناة تلفزيونية رسمية أو فضائية. وفي أوائل التسعينيات أُطلِقت قناة تلفزيوينة اسمها تيليبيس[3] – وتعني تلفزيون السلام– وتعدّ برامجها في روما فيما تقوم

(1) L'Osservatore Romamna.
(2) Avvenire.
(3) Telepace.

بتغطية نشاطات البابا وبث البرامج الدينية، وبدأ بثها الفضائي نهاية التسعينيات. وكانت هذه القناة تُبث باللغة الإيطالية أثناء مهمتي في الفاتيكان.

من الناحية الاقتصادية، هل تدعم الحكومة الإيطالية وسائل الإعلام هذه، أم أنَّها تعتمد على إعانات الكنيسة؟

الفاتيكان هو المتولي الرسمي لوسائله الإعلامية الرسمية، أمّا القنوات الأخرى، فلا أعلم مصدر تمويلها، ولكن لا شك في أنَّ الحكومة الإيطالية لا تمولها.

هل هذا يعني أنَّ الحكومة الإيطالية لا تستثمر فيما تريد أن تحققه من أهداف سياسية أو نشر الكاثوليكية في العالم؟ فالجمهوريون الأميركيون مثلًا، يبذلون الكثير للكنائس الإيوانجيليستية؛ لتحقيق أغراض سياسية، ألا تفعل الحكومة الإيطالية هذا الشيء مع الكنيسة الكاثوليكية؟

من الأفضل أن أجيب عن هذا السؤال بصورة عامة. هنالك تباين حقيقي بين النظرة إلى الدين ومكانته بالمعنى العام للكلمة في أميركا، عنه في أوروبا. فالدين في أميركا ولأسباب عديدة معظمها تاريخية قوي جدًا والميول الدينية كبيرة، وله تأثيره الاجتماعي والاقتصادي الواسع، والناس تميل إلى تقديم المساعدات للكنيسة. أمّا في أوروبا، فليس الأمر كذلك، ولكن ممّا لا شك فيه أن نشر المسيحية هو شيء مهم حتى لمن لا يؤمن بذلك؛ لأنَّ هذا الانتشار يعني انتشار الحضارة الغربية والتوجه نحوها. مهما يكن، فإنَّ كل دولة تنفق ميزانيتها حسب القوانين والضوابط الموجودة لديها.

إنَّ المسائل التي ذكرتها غير مثبتة في قوانين البلدان الأوروبية، ولكن توجد أقسام في وزارة الخارجية لبعض البلدان، مثل إيطاليا وفرنسا تحت اسم التعاون، تنشط في مجال التعاون مع بلدان العالم الثالث. إذ تستطيع الحكومات وضع ميزانيات لأقسام في وزارة الخارجية؛ لإنفاقها في مجال تعزيز الديانة المسيحية في البلدان المستهدفة، كبناء مستشفيات مسيحية كاثوليكية أو مدارس خاصة في بلدان العالم الثالث. وهذه الطريقة في الدعم لا تقتصر على أقسام التعاون الدولي في وزارة الخارجية، وإنَّما على المكونات الأخرى في الحكومة كرئاسة الوزراء ورئاسة الجمهورية ومنظمات الهجرة وغير ذلك. فهناك مثلًا مشروع أطلقته إيطاليا بالتعاون مع الفاتيكان تحت اسم «البجع» في ألبانيا لأوْرَبته ونشر المسيحية فيه، ودعم المسلمين الذين يريدون الانتقال إلى الديانة المسيحية،

ونُفِّذ المشروع أواخر التسعينيات، وانتقل عدد من المسلمين الألبان إلى الكاثوليكية، إلا أنَّ الدول المسيحية حتى المتدينة منها، مثل إيطاليا وإسبانيا وكرواتيا لا تخصّص ميزانية للنشاط التبشيري في الخارج.

هل تعدّ الكنيسة الكاثوليكية في برامجها الفضائية قنوات الإيوانجيليست منافسة لها؟ بعبارة أخرى، هل البرامج الدينية للإيوانجيليست مثل جلسات التشافي والأدعية والمؤتمرات الكبيرة لها، تتباين بطبيعتها مع مناسك وضوابط الكنيسة الكاثوليكية؟ وهل تنتقدها هذه الكنيسة، أم أنَّها تعدّها مجرد عبادة دينية خالصة؟

هذه الأسئلة التي ترتبط بالتنافس بين الفرق الدينية معقدة إلى حد كبير، ولا يمكن الجواب عليها باختصار. ولا بد لفهم هذا التنافس وتطوره إلى خصام أن نعرف مكانة الكنيسة التبشيرية – وهي أساسًا بروتستانتية أميركية–، ويجب الأخذ بنظر الاعتبار رغبة البروتستانت؛ لجذب الكاثوليك وملاحظة الميادين التي يشملها هذا التنافس. بعبارة أخرى لا بد أولًا من الإجابة على هذين السؤالين: هل يوافق الكاثوليك على توسع البروتستانت خارج نطاق وجودهم، أم أنَّهم سيمنعون ذلك حتى خارج نطاق الحضور الكاثوليكي؟

هذه الاسئلة تتوارد إلى الذهن حينما نريد الجواب على هذا السؤال المرتبط بالتنافس بين هاتين الفرقتين. ويتطلب الرد على هذه الأسئلة مساحة كبيرة، ولكن يمكن القول إجمالًا: إنَّ التعارض والتنافس بين الكنيسة الكاثوليكية والمبشرين الأميركيين البروتستانت الجدد أو ما يطلق عليهم بالإيوانجيليست ظهر بشكل رئيس في بلدان أميركا اللاتينية، وارتفعت وتيرته تدريجيًا؛ لأنَّ الكنائس البروتستانتية في أميركا اللاتينية استقطبت الكثير من الكاثوليك إلى مذهبها. أمّا في المناطق الأخرى وفي آسيا، فليس التنافس بهذه الشدة؛ لأنَّ البروتستانت ليست لديهم مثل تلك النوايا في أوروبا، ولهذا لا تبدي الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا أيّ حساسية تجاه نشاطات البروتستانت.

وهل يمكن القول: إنَّ الترويج للمسيحية البروتستانتية في أميركا اللاتينية هو جزء من الهيمنة السياسية – الدينية لأميركا، أم أنَّ ذلك يُعزى إلى اختلاف التعاليم المسيحية الكاثوليكية عن البروتستانتية؟ وكيف تقيّم دور وسائل الإعلام الأميركية القوية في الترويج للمسيحية في أميركا اللاتينية؟

الحقيقة أنَّ انتشار البروتستانتية أصبحت قضية عالمية؛ لأنَّ المسيحية التي يُبشَّر بها، وهي المسيحية البروتستانتية الأميركية باتت تنتشر وتزدهر في أنحاء العالم. وهذه الكنائس البروتستانتية تلقى دعمًا ليس فقط من السياسة الخارجية الأميركية، وإنَّما من جماعات تُعرَف بالإنقاذ داخل أميركا، وخاصة الجماعات اليمينية السياسية.

ولإعطاء جواب دقيق عن هذا السؤال تجب متابعة التطورات الدينية في أميركا، وتجاهل الزعامات الأميركية في الستينيات والسبعينيات للدين، ثم إجراء تحليل للانعطافة التي حصلت في عهد رونالد ريغان نحو الدين وخاصة اليمين الديني. وكذلك لا بد من دراسة الموقف المنبهر لليمين الديني بعد سقوط الكتلة الشرقية، وتعبئة صفوفه للتغلغل في مجموعة شرق أوروبا والكتلة الشرقية، بل والسيطرة عليها، وردود الأفعال التي توالت على هذه الأحداث.

شهدت المجموعات اليمينية تغييرات داخلية في عقد التسعينيات تستوجب التوقف عندها ودراستها. فقد كانت هذه المجموعات بعيدة عن السلطة على عهد بيل كلنتون (١٩٤٦)؛ لذلك قامت بمعالجة تنظيرية كسبت نتائجها في العام (٢٠٠٠) بمجيء جورج بوش الابن (١٩٤٦) إلى السلطة. ولمعرفة الكنيسة البروتستانتية بشكل دقيق من دون معرفة جذورها النظرية واللاهوتية الكلامية، لا بد من إجراء دراسة لتاريخ أميركا والمجتمع الأميركي والتحولات الدينية التي شهدها، وكذلك شخصية ريغان (١٩١١ - ٢٠٠٤) وطبيعة اليمين الذي ينتمي إليه، أو ما يُعرَف بالريغانية.

مهما يكن، فإنَّ البروتستانت يقومون بخدمة مصالح السياسة الخارجية الأميركية، وخاصة السياسة الخارجية لليمين الذي يقوم بدوره بتقويتهم ودعمهم. هذا الموضوع هو موضوع معقّد ولا بد من دراسة الكثير من القضايا وتحليلها؛ لفهمه ومعرفته بشكل دقيق، ولا بد من إجراء دراسة أعمق؛ لمعرفة ما إذا كان هذا الترويج يحصل لدوافع محددة سياسية واقتصادية، أم أنَّ سكان تلك البقاع هم الذين يحددون رغبتهم من عدمها في تلقّي التعاليم البروتستانتية.

شهدنا في أميركا اللاتينية ظاهرة باسم لاهوت التحرير، استطاعت أن تلعب دورًا في البلدان التي تخضع لسلطة الانقلابيين والسياسات الاستعمارية الأميركيَّة. ماذا يعني لاهوت التحرير؟ وكيف استطاع أن يتغلغل في بنية التحولات الاجتماعية

السياسية في أميركا اللاتينية؟ وما وضعه الآن؟

لاهوت التحرير هو ظاهرة كاثوليكية برزت أواسط الستينيات، حينما تجاهلت الكنيسة الرسمية الكاثوليكية في أميركا اللاتينية الوضع المعيشي والاقتصادي للناس والظلم الاجتماعي الذي كان يلحق بهم، فتبلورت عقيدة لاهوت التحرير ولم تكن ذات بعد سياسي، لعدم وجود تحسس للاستقلال في أميركا اللاتينية كما هو الحال في الشرق الأوسط. تبلور لاهوت التحرير في حضن الكنيسة الكاثوليكية والتعاليم المسيحية الأولى وتقاليد الكنيسة، وأخذ على عاتقه متابعة الحياة اليومية للناس والظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي يتعرضون له. استمرت هذه الظاهرة واكتسبت شعبية أوسع في السبعينيات فيما قويت شوكتها في الثمانينيات، حتى انتمى إليها الساندیون[1] في نيكاراغوا. لكنَّها فقدت مكانتها في التسعينيات، ومن ثم أصبحت جزءًا من التاريخ بعد سقوط الكتلة الشرقية وتراجع القيم والأفكار الاشتراكية في كل أنحاء العالم.

ماذا تغطي الكنيسة الكاثوليكية في برامجها التلفزيونية؟ وهل تبث اجتماعات العبادة الجماعية؟ وهل تسعى الكنيسة لإبداء الجوانب الفنية لمثل هذه التجمعات؟ وهل تحاول أن تخرجها من حالة الطقوس والمناسك الرائجة إلى الحالة المعنوية والباطنية المؤثرة؟

تعدّ الكنيسة الكاثوليكية تقليدية جدًا. نعم، قد نراها نحن بأنَّها كنيسة متطورة، ولكنَّ الكاثوليك، ولا سيما الغربيين يعتقدون أنَّها كنيسة تقليدية جدًا، وملتزمة بسننها وتقاليدها القديمة، على العكس من البروتستانت وخاصة الأميركيين منهم الذين لا يلتزمون بأيّة سنن أو تقاليد. فهناك تباين واضح بين مقاربة الكنيسة البروتستانتية بأنواعها الأميركية الجديدة والكاثوليك المحافظين التقليديين. هذه الحالة لدى الكاثوليك أفضت إلى تراجع البرامج العبادية وجاذبيتها إلى حد كبير. ففي إيران تستخدم جميع العناصر التي تتفق مع الذوق الاجتماعي، وتنسجم مع الضوابط الدينية في أيّ نشاط ديني يُراد تنظيمه، فالفن الديني له موضوعيته الخاصة بذاته، بل وُظِّفت بعض الفنون مثل التذهيب في الحالة الدينية. ولهذا، فإنَّنا نتوقع من الآخرين اتباع هذا المنهج والطريقة أنفسها، ولكن العالم المسيحي قلما يستخدم الفن في بيان المفاهيم

(1) Sandinistas.

الدينية، وخاصة في كنيسة تقليدية محافظة مثل الفاتيكان التي تمارس طقوسًا تكرارية مملة حتى للأوروبيين أنفسهم، فلا تجد على سبيل المثال معارضَ مشابهةً للمعارض القرآنية التي تُقام في طهران في شهر رمضان المبارك بكل ما فيها من برامج جذابة جميلة واسعة. وإذا حاول أسقف أو قسيس استخدام مثل هذه الأساليب الجذابة، فإنَّ الفاتيكان لا يوافقه في ذلك، ولا يعرض برامجه في وسائل إعلامه.

هل يمكن القول: إنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني كان أكثر تنظيمًا لسياساته التبشيرية مع وسائل الإعلام، وكانت له ارتباطات أوسع مع هذه الوسائل؟

كان البابا يُوحنَّا بولص الثاني أحد أهم الشخصيات العالمية حيث قام باستغلال وسائل الإعلام الجماعية إلى أقصى حد وخاصة التلفزة. ويعود السبب الرئيس لاكتساب البابا هذه الشهرة إلى قدرته على استغلال الإعلام بالنحو الأحسن، بل إنَّه كان رجل إعلام من الطراز الأول ويختلف عن غيره، إذ يصعب العثور على شخصية سياسية دولية في السنوات الأخيرة استطاع أن يستثمر الإعلام كما استثمره هذا البابا. أمّا البابا الذي حل بعده، فهو ليس شخصية إعلامية، وإنَّما معروف بالعلم والتنظير الفلسفي والكلامي، فقد كان على مدى عشرين عامًا مسؤول مجمع العقائد المسيحية[1] في الجانب العلمي لا التنفيذي. ولم يكن في شخصيته ما يوحي إلى رغبته في الاستخدام الواسع لوسائل الإعلام، بل لم يكن يعتقد بذلك أساسًا؛ لذلك، فإنَّ سياسته كانت تختلف كليًا عن سلفه في إدارة الكنيسة الكاثوليكية وتصوراته حول الأولويات والضرورات.

وهل هناك في العالم الكاثوليكي شيء باسم تربية المبلغين الدينيين للعمل في الإعلام؟ فمثلًا لدينا هنا ما يعرف ببيت الفن والفكر تابع لمركز الأبحاث الإسلامية يقوم بهذه المهمة، إذ يسعى هذا المركز إلى إيجاد كوادر إعلامية مسلحة بالعلم الديني؛ لتبليغ قيمه عبر وسائل الإعلام، فهل هناك مثل هذا الشيء في العالم الكاثوليكي؟

على حد علمي ثمة دروس عديدة للطلبة القسيسين حول وسائل الإعلام وكيفية التعامل معها، مع تزايد التأكيد على هذا الأمر أكثر من السابق. وقد نبّه البابا السابق أكثر من مرة على ضرورة أن يأخذ الجيل الجديد من الطلبة والقسيسين على

(1) Congregation for the Doctrine of the Faith.

عاتقه الاهتمام بالإعلام والاستفادة منه على الوجه الأحسن.

من الظواهر التي شُوهِدت في الفضائيات مؤخرًا الاتجاهات الجديدة التي انفصمت عن جسد الأديان الكبرى، وأخذت تبلغ لنفسها عبر القنوات الفضائية، فهل مجموعة بادري بيو[1] التي ظهرت عبر فضائيات العالم الكاثوليكي هي من هذا القبيل؟ وهل واجه الفاتيكان مثل هذه الظواهر الجديدة، أم أنَّه يعدّها جزءًا من الاتجاه الكاثوليكي العام؟ وما العوامل التي أدت إلى ظهور هذه النزعات في المذهب الكاثوليكي؟

بخصوص شخصية بادري بيو يمكن القول: إنَّ السيد بيو هو قسيس معروف ومقدّس وإنسان بارز من الناحية المعنوية النفسية، وتعود أصوله إلى مدينة نابولي، وقد توفي في أواسط الستينيات، وكان له أتباع كثر في حياته وبعد مماته وإلى يومنا هذا، إذ تقدّم إليه النذور. وقد أسس أنصاره مؤسسات خيرية ودينية لاقت إقبالًا واسعًا من الناس.

إنَّني لم أشاهد قناة خاصة بالسيد بيو، ولكن توجد قناة بميول دينية، ليست من النوع الرسمي المحافظ، وإنَّما تتناسب مع روح بيو. فكنيسة نابولي في جنوب إيطاليا التي تخرّج فيها بيو وباعتبارها من الفرنسيسكان[2] هي كنيسة حيوية نشطة؛ ذلك أنَّ الكنيسة في شمال إيطاليا، ومقارنة بالكنيسة الجنوبية هي كنيسة رسمية وتقليدية وجافة. فالنشاط والحيوية الذي تتمتع بها كنائس نابولي، أو كالابريا، أو صقلية، في جنوب إيطاليا هي أكثر بكثير ممّا تتمتع به كنائس الشمال، مثل تورينو، وحتى فلورنسا في الوسط. وهذا الاختلاف مشهود في الظاهر المعماري للكنيسة في الداخل والخارج، وفي الطقوس والمراسم العبادية أيضًا. وعليه، فإنَّ لهذه القناة التلفزيونية مثل هذه الخصوصيات الموجودة في الكنيسة الجنوبية. والموضوع الآخر هو أنَّ مبادرة بيو لم تنشق عن الكنيسة الكاثوليكية، وإنَّما كانت جزءًا منها.

هل صحيح أنَّ معظم وسائل الإعلام الأوروبية تحاول تشويه وجه الإسلام والمسلمين؟ وهل للكنيسة دور في ذلك، أم هو من فعل الجماعات السياسية الأوروبية؟

---

(1) Padre Pio.
(2) Franciscan.

هذا السؤال أحد أكثر الأسئلة المطروحة على طاولة البحث، فلوسائل الإعلام منطقها الخاص بها، ولعل من أهم خصوصياتها قدرتها على استقطاب مخاطبيها؛ لتستطيع أن تتنافس مع وسائل الإعلام الأخرى، لهذا يتطلب منطق الإعلام المبالغة حول كل شيء. وترى عامة وسائل الإعلام الأميركية والأوروبية في الإسلام تهديدًا باعتبارها قضية راسخة في أذهان الرأي العام، فهم يعتقدون بأنَّ الإسلام وكل ما يتعلق به هو مساوٍ للإرهاب، ولا ينظرون إليه كدين. وما يزيد الطين بِلّة، ويضاعف هذا الشعور هو حضور المسلمين كأقليات، والهجرة المتواصلة، وقضايا الشرق الأوسط وما شابهها، والتي تدخل أحيانًا في صميم التنافس الحزبي والانتخابي، فأحد أسباب فوز الرئيس الفرنسي السابق نيكولاي ساركوزي – على سبيل المثال– هو وعوده عندما كان في وزارة الداخلية بحل مشكلة الهجرة وضبطها لصالح الفرنسيين.

وهل للفاتيكان سياسة خاصة لمواجهة الإسلام، أم أنَّ جهده مركّز للترويج للمسيحية؟

إنَّنا يجب ألّا نبالغ في التحليل، فالفاتيكان وباعتباره مركزًا للكنيسة الكاثوليكية لا يستطيع أن يقدّم منهجًا للكنائس الكاثوليكية في أقصى نقاط العالم. إنَّ تصورنا للفاتيكان في الكثير من الأحيان هو أكثر ممّا يمتلكه من إمكانيات وقدرات حقيقية، فلدينا صورة تاريخية عنه ونتصور أنَّ هذه الصورة مستمرة إلى يومنا هذا، لكنَّ الأمر ليس كذلك. إنَّ الكنائس الكاثوليكية تتأثر بالفضاءات التي تعيش فيها أكثر من تأثرها بقرارات الفاتيكان المركزية، فليس هناك سياسة مركزية في كل العالم المسيحي لمواجهة الإسلام والمسلمين، أو أيّ موضوع آخر. صحيح توجد هناك سياسات مركزية لا يمكن نكرانها، فعلى سبيل المثال كان هناك تأكيد في عهد البابا السابق على الحوار الديني، والارتباط بين الكنائس، والارتقاء بالمكانة السياسية للكنيسة الكاثوليكية على مستوى العالم، لكنَّ هذه الأولويات تغيرت فيما بعد؛ لاختلاف التصورات والأفكار بين البابا الحالي والسابق.

يُلاحظ في الإحصاءات الحالية للمسلمين في أوروبا بأنَّ التوجه يميل إلى الانتساب إلى أهل السنة أكثر من الشيعة، ألا يعود هذا إلى ضعف إعلام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الذي يعكس عقائد الشيعة في أوروبا، أم أنَّ ذلك يعود إلى كثرة إعلام أهل السنة؟

ليس الإعلام لوحده هو الذي يعكس هذه الحقيقة، فهو يلعب دورًا محدودًا، لا غير. فالمراكز الإسلامية التي تأسست منذ الستينيات في أوروبا، مثل المساجد والمكتبات وأماكن الصلاة والجمعيات الإسلامية أنشأتها بلدان أخرى بشكل رئيس، وهي مراكز تحظى بإمكانيات مالية، لقيت دعمًا من السعودية، وأصبحت تحت هذه المظلة، خاصة مع ارتفاع أسعار النفط في العالم، إذ قام هذا البلد باستثمار واسع في هذه المرافق؛ لأنَّ التأسيس لوحده لا يكفي بل يتطلب التأمين المالي المستمر لقيام المركز ببرامجه ووظائفه.

كما تأسست مراكز أخرى من قبل المسلمين الباكستانيين والأتراك، وهؤلاء ليسوا كالعرب والإيرانيين فهم ينفقون الأموال الطائلة من أجل الدين، وحتى من قبل الفئات الضعيفة. أمّا إيران، فإنّها أسست مراكز محدودة جدًا، وأول تلك المراكز أنشأه آية الله البروجردي (١٨٦٥ – ١٩٦١) في هامبورغ، ومن بعده آية الله الكلبايكاني (١٨٩٩ – ١٩٩٣) في لندن. كما قام مراجع آخرون بتأسيس مراكز أخرى.

إنَّ أعداد هذه المراكز هي قليلة نسبة إلى المراكز التي أسسها الآخرون كمًا وكيفًا. فمعظم الإيرانيين الذين هاجروا إلى أوروبا لم يكونوا من الفئة المثقفة التي تنفق أموالها مثل الباكستانيين من أجل الدين، وتؤسس مراكز دينية لها هناك. وإنَّ الإيرانيين في الخارج غير مقيدين بالدين كسائر المسلمين المهاجرين. وهذه حقيقة قد لا يقبلها بعضهم، ولكن لو أحصينا الإيرانيين الملتزمين في أوروبا، لوجدناهم قلة جدًا، نسبة إلى الباكستانيين والهنود والأتراك، وحتى العرب. وفي السنوات الأخيرة أسست الجمهورية الإسلامية بشكل مباشر وغير مباشر مراكز من هذا القبيل، وهي قليلة ومحدودة كمًا وكيفًا، نسبة إلى المراكز الأخرى.

ولهذا، فإنَّ معظم المراكز الإسلامية الموجودة في أوروبا تتعلّق بأهل السنة، وإنَّ معظم الأوروبيين الذين يريدون الدخول إلى الإسلام يتعرفون عليه من هذا الطريق، ولهذا السبب، فإنَّ أكثرية المسلمين الأوروبيين الجدد هم من أهل السنة، أمّا الإعلام، فدوره محدود.

كيف تقيّم أداء وسائل إعلام الجمهورية الإسلامية في نشر الثقافة الإسلامية في الخارج، وخاصة في أوروبا؟

من الأفضل أن أجيب عن هذا السؤال في وقت آخر.

بلحاظ اختلاف الرؤى والعقيدة بين البابا بنديكيت السادس عشر مع البابا يُوحنَّا بولص الثاني، هل يمكن أن تتغير ظروف السلطة الإعلامية للعالم المسيحي وتؤول نحو الضعف، ليتجاهل البابا الجديد الاهتمام الذي كان يوليه البابا يُوحنَّا بولص الثاني للإعلام، وتطوير القساوسة إعلاميًا؟ هل يمكن أن تتراجع أهمية الإعلام لدى الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان؟

يجب ألّا نتصور بأنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني قد استثمر كثيرًا في الإعلام، أو أنَّه أوجد وسيلة إعلام جديدة. فلا توجد في الفاتيكان إلا وسيلتان إعلاميتان رسميتان، كانتا قبل مجيئه وما زالتا إلى يومنا هذا. إنَّنا نتصور بأنَّه يجب أن نوجد الشيء حتى تمكن لنا الاستفادة منه، ولا نستطيع وللأسف استغلال الظروف والإمكانيات المتاحة لتحقيق أهدافنا وطموحاتنا ومصلحة مستقبلنا. فقد بذل البابا يُوحنَّا بولص الثاني كل جهده لاستغلال الإمكانيات الإعلامية العالمية لصالحه ومصلحة أفكاره ومعتقداته، فإنَّ ذلك كان جزءًا من شخصيته، فضلًا عن قدراته الإعلامية، فلم تستطع أيّ شخصية سبقته من استغلال الإعلام إلى هذا الحد. هذا ما قام به البابا يُوحنَّا بولص الثاني، ممّا لا رغبة ولا معرفة للبابا الجديد به.

أمّا فيما يتعلق بالتأهيل والتدريب الإعلامي للطلبة المسيحيين، فلن يحصل أيّ تغيير في ذلك؛ لأنَّه أصبح أمرًا منهجيًا وجزءًا من البرامج الدراسية للفاتيكان. وهو برنامج يذعن البابا بنديكيت السادس عشر بأهميته وضرورته، فهذا الأمر ليس مزاجيًا لكي يتغير بتغير البابا. فعلى عالم الدين، ومهما كان دينه أن يتمكن من استغلال الإعلام والحوار الإعلامي، وهو ما يصدق هنا أيضًا.

هل تسعى وسائل الإعلام الأوروبية إلى إلغاء الدين من الحياة الاجتماعية لسكان أوروبا وعلمنته، أم أنَّها تسعى إلى ضبطه والسيطرة عليه بعد زيادة وتيرة الميول الدينية في العالم؟

في الحقيقة أنَّ الدين الذي نفهمه نحن لا وجود له في المجتمع الأوروبي، أي: إنَّ حالة الارتباط والتفكير في الدين الموجودة في الشرق الأوسط لا نجد مثيلها في أوروبا. وإنَّ تصور الأوروبيين للدين غير ما نتصوره نحن، فإنَّهم يعتقدون بأنَّ الحياة الاجتماعية

والتعليمية يجب ألّا تشتمل على المظاهر الدينية، فالحجاب في فرنسا مثلًا أثار ضجة كبيرة باعتباره رمزًا دينيًا - إسلاميًا، لإلغائه من الحياة الاجتماعية والأماكن العامة. وهذه الظاهرة تشمل أيضًا الرموز الأخرى للدين إلا أنَّ الحجاب أخذ بعدًا آخرَ؛ لأنَّه رمز إسلامي أدى إلى ضجة كبيرة في فرنسا؛ لأنَّ المسلمين والبلدان الإسلامية قاومت هذه المحاولة الفرنسية، ولم تُثار مثل هذه الضجة في بلدان أخرى، ولكن لا شك في أنَّ الدولة لا تفكر بأن تجعل من مجتمعها دينيًا.

بعد انهيار أوروبا الشرقية تصور الكثير من الناس، وخاصة أهالي الكنائس بأنَّ الكنيسة في هذه البلدان، ولا سيما الكاثوليكية باتت في وضع أفضل إلا أنَّها واجهت وضعًا أصعب بعد استقرار الحكومات فيها، حتى في الدول التي تدين بالكاثوليكية، فعلى سبيل المثال وقفت اسلوفينيا بعد انفصالها عن يوغسلافيا في وجه الكنيسة الكاثوليكية، وامتنعت عن سداد الأوقاف الكاثوليكية، واصطدمت مع مجلس أساقفة اسلوفينيا. في حين أنَّ اسلوفينيا لم تكن لتنالَ استقلالها بهذه السهولة، لولا الدعم الشامل الذي تلقته من الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية. وتكررت هذه الحالة بأشكال أخرى في كرواتيا والتشيك والمجر، وحتى بولندا نفسها.

ما السبب في هذا الصدام؟ هل يعود ذلك إلى رفض التعاليم المسيحية ومواجهتها؟

هناك أسباب كثيرة لهذه الظاهرة. فقد انصرف تفكير كل أولئك الذين تسلموا مقادير الأمور يومذاك إلى الكتلة الشرقية ومحاولة أورَبتها، باعتبار أنَّ أوروبا كانت هي المثل الأعلى بالنسبة إليهم في تلك البرهة الزمنية، ولم يكونوا يفكرون بالدين وأوقاف الكنيسة وما شابه، ولم تكن من أولوياتهم، فيما كانت الكنيسة في شرق أوروبا تعيش في حالة من الضعف الشديد، ولا تملك القوة اللازمة للدفاع عن نفسها، وبيان آرائها ومواقفها ومطاليبها، أمّا القوى الجديدة التي حكمت، فكانت تعدّ الكنيسة بأنَّها قديمة، ولا علم لها بأوضاع العصر.

ففي لقاء مع رئيس مجلس أساقفة أوروبا السيد ميلوسلاف فلك (١٩٣٢ - ٢٠١٧)[1] - وهو كاردينال من أهالي التشيك - قال بالحرف الواحد إنَّهم كانوا

---

(1) Milsolav Vlk.

يتصورون بأنَّ الكنيسة ستكون في حال أفضل بعد سقوط الكتلة الشرقية، ولكن لم يحصل ذلك.

ومهما يكن، فإنَّ الدول الأوروبية ليس لها أيّ التزام في الموضوع الديني، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا، وغاية ما تفعله أنَّها في بعض دعاياتها تريد أن تذكّر بوجود شيء اسمه المسيحية؛ كي لا ينسى هذا الدين. وهذا أيضًا لا يحدث إلا من قبل وسائل الإعلام الدينية، مثل الإذاعات المحلية الخاصة بالكنائس المحلية.

هل في ذهنك شيء خاص من البرامج الدينية لوسائل الإعلام الأوروبية، من حيث الشكل والمحتوى يمكن أن نستفيد منه؟

إنَّنا نرى أنفسنا أقل ممّا نحن عليه، وأحيانًا أكثر. وحسب تجربتي، فإنَّ برامجنا الدينية الجيدة في مستوى مقبول مقارنةً بالآخرين. مثال ذلك أنَّني عندما كنت المدير الثقافي العام في وزارة الخارجية كان لنا مؤتمر حضاري مع بولندا، وكان ضمن الوفد البولندي معلمة، قالت لي مرة إنَّها تستعين بفيلم «أطفال السماء» لمجيد مجيدي، عندما تقوم بتدريس الديانة لتلامذة الصف الخامس الابتدائي، من أجل إيصال المفاهيم الدينية والمعنوية بشكل ملموس. والمثال الآخر يتعلق في المدّة التي زار فيها طهران وفد للحوار الديني من فنلندا، فعرضنا له فيلم «ابن مريم» لحميد جبلّي، وقد أجمع أعضاء الوفد على أنَّهم وقعوا تحت تاثير هذا الفيلم.

بناءً على ذلك، يمكن القول: إنَّ بعض برامجنا الدينية القوية أفضل وأكثر تأثيرًا من برامج الآخرين، ولكنَّ الموضوع يختلف حول البرامج اليومية، والحديث عنها طويل ذو شجون.

ولمّا كانت الكنيسة الكاثوليكية محافظة إلى حد كبير، فإنَّها لا تستطيع خلق الإبداع في برامجها. أمّا الكنيسة البروتستانتية الأميركية، فإنَّ برامجها أكثر تأثيرًا وقبولًا في الوسط الاجتماعي.

والكلمة الأخيرة...

ليس دائمًا أن يكون أفضل العمل هو الكلام الأفضل، وإنَّما تتطلب بعض الظروف أن يكون أفضل العمل هو ألّا نقول شيئًا.

الفصل الثالث
إيران ومسيحيو المنطقة

نحن ومسيحيو الشرق الأوسط[1]

إنَّ جميع الأديان الإبراهيمية ومنها المسيحية، ظهرت في القطاع الأوسط من منطقة واسعة، يطلق عليها اليوم الشرق الأوسط، فقد وُلِد السيد المسيح – عليه السلام– في فلسطين، ودعا الناس إلى دينه هناك. وفي المنطقة ذاتها التقى به الحواريون؛ لنشر الدعوة المسيحية وتمددها إلى المناطق الأخرى.

كانت فلسطين في تلك المدّة والشام ومصر وشمال إفريقيا تابعةً للإمبراطورية الرومانية الواسعة. ومن الطبيعي أن تصبح مناطق هذه الإمبراطورية ميدانًا لنشاط الحواريين وسائر أتباع الديانة الجديدة، على الرغم من أنّ بعضهم جاء إلى إيران، ومنها إلى الهند والشرق الأقصى.

ووقعت أكثر المواجهات مع المسيحية في القرون الأولى في نطاق الإمبراطورية الرومانية، إلا أنَّ الأمور تغيرت بعد القرن الرابع، وأصبحت المسيحية الديانة الرسمية لهذه الإمبراطورية، وهذا بحد ذاته أدى إلى وقوع تغييرات في هذه الديانة، بمعنى أنَّ المسيحية وقعت بشدة تحت تأثير البنية القانونية والحقوقية وحتى المدنية المتطورة للرومان. وحقيقة الأمر أنَّ المسيحية الرومانية التي تدين لها المسيحية الأوروبية، وتعدّ امتدادًا لها، هي عبارة عن تركيب من الحقوق والقوانين والبنية المدنية للروم القديمة، وهي الرسالة الأولى للسيد المسيح وأتباعه الأوائل. وقد تبلور مفهوم هذه الكنيسة وبنيتها وتقسيماته وقوانينها، ومفهوم الأسقف وصلاحياته، على هذا الأساس.

---

(١) منشور في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٣/ تشرين الثاني/ ٢٠١٥.

ولكن لم يقع هذا الشيء ولأسباب معينة في القطاع الشرقي للإمبراطورية الرومانية، الذي يتمثل عمليًا بالشرق الأوسط بالصورة التي ذكرناها. واتضح هذا الأمر بشكل جلي بعد سقوط الروم الغربية، وطلوع إمبراطورية الروم الشرقية. فالمسيحية الشرقية تختلف عن المسيحية الغربية على الرغم من اشتراكهما في الكلام والإلهيات المسيحية. فثمة اختلاف كبير بين روح الكنيسة الكاثوليكية عن روح الكنيسة الأرثوذكسية. وقد تمثلت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية والشمالية والوسطى، في حين كانت الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية وأوروبا الشرقية وروسيا واليونان.

كنائس الشرق الأوسط

أمّا الكنائس المحلية الموجودة في منطقة الشرق الأوسط، فلها حكاية أخرى، من الكنائس القبطية والأثيوبية إلى الأرمنية والآشورية والنسطورية والإسكندرانية. هذه الكنائس بعامتها كانت في عهد البيزنطيين وقبل ظهور الإسلام ضمن إمبراطورية الروم الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية، وهي أكثر شرقية من المسيحية البيزنطية على الرغم من أوجه الشبه الكثيرة الموجودة بينهما، إذ حافظت إلى حد ما على استقلالها الديني والتنظيمي.

وتعزز هذا الاستقلال بعد تراجع البيزنطيين أمام المسلمين، وتأثرت الروح الدينية لديهم إلى حد ما بالإسلام والثقافة والحضارة الإسلامية؛ لهذا كانت لديهم حياة مستقرة وهادئة نسبيًا إلى جوار المسلمين، وقد حاربوا إلى جانب المسلمين أثناء الحروب الصليبية، وكان عداء الصليبيين تجاههم في بعض الأحيان أكثر من عدائهم للمسلمين.

وتكررت هذه الحالة بشكل آخر في العصر الحديث، إذ تدفّق المبلغون من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية المختلفة نحو الشرق الأوسط والهند وأقاصي آسيا، وذلك قبل مدّة من بدء العهد الاستعماري، وكان هدفهم هو التبشير للمسيحيين المحليين والمسلمين في الشرق الأوسط، بمعنى دعوة المسيحيين المحليين لترك كنائسهم والالتحاق بكنائس المبشرين. والجدير بالذكر هنا أنَّ رفض المسيحيين المحليين لهذه الدعوة كان أقوى من رفض المسلمين، هذا على الرغم من أنَّ بعضهم انتمى إلى

الكنائس التبشيرية المرتبطة بالاستعمار قبل مجيء هؤلاء المبشرين وبعده. ولكن على الرغم من ذلك، فإنَّ عامة الكنائس المحلية في الشرق الأوسط حافظت على استقلالها الديني والتنظيمي، بل حتى أولئك الذين التحقوا بالكنيسة الأوروبية حاولوا الاحتفاظ بهويتهم الدينية.

إنَّ الهدف من سرد هذه المقدّمة السريعة والقصيرة هو توضيح الاختلاف الذي قد يكون كبيرًا أحيانًا بين كنائس الشرق الأوسط عن الكنائس الغربية، ويجب ألّا يُنظر إليها على أنَّها جزء من الغرب. فهذه الكنائس لها جذور نابعة من أرضها وثقافتها وحضارتها، وهي متمسكة بها ومستعدة للسعي والتضحية في طريق الاستقلال والإعمار في بلدانها إلى جانب المواطنين الآخرين.

منذ أواخر بل أواسط القرن التاسع عشر واجه المسيحيون في الشرق الأوسط الكثير من التطورات، ولأسباب مختلفة تجب مناقشتها في حينها، ولكنَّ المهم أنَّ هذه الأحداث لم تكن وليدة يومها، بل كان لها حضور في كل منطقة، وكل برهة زمنية بشكل أو بآخر. ولا شك في أنَّ أحد أهم هذه الأحداث ما وقع في السنوات الأخيرة وما أُطلق عليه بالربيع العربي.

ومن بين الدول التي شملها هذا الربيع، والتي تركت بصماتها على المسيحيين ومكانتهم فيها هي مصر وسوريا والعراق؛ لأنَّ أعداد المسيحيين في بلدان أخرى مثل ليبيا وتونس واليمن قليلة جدًا. أمّا نسبتهم في البلدان التي ذكرناها، فيعتد بها، إضافة إلى مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية والثقافية.

وتعدّ سوريا الأكثر تأثيرًا من بين الدول المذكورة، في حين تمكّنت مصر من استعادة الاستقرار نسبيًا، وعلى الرغم من أهمية هذا البلد، فإنَّ التغييرات التي حصلت على مسيحييه لم تغير من واقع مسيحيي العالم العربي شيئًا وتؤثر عليه كثيرًا. غير أنَّ الوضع في سوريا يختلف تمامًا؛ وذلك للأسباب الآتية، أولًا: أنَّ الكنيسة الرئيسة في مصر هي الكنيسة القبطية، في حين أنَّ الكنائس في سوريا عبارة عن موزائيك من الكنائس القديمة والجديدة، يمتدّ نفوذها إلى الجوار في تركيا وفي إسرائيل، وخاصة في لبنان. ثانيًا: أنَّ موقع هذا البلد في جغرافية مسيحية الشرق الأوسط يفرض حصول تغيير في وضع المسيحيين فيه لدى وقوع أيّ تغيير فيه، في حين أنَّ مصر لا تتصف بهذه الخصوصية.

أضف لذلك أنَّ سوريا تحولت إلى أرض لظهور الأفكار والحركات التكفيرية وتبلورها وبلوغها لتتوسع خارج الحدود السورية، وخاصة نحو العراق ما أثر بشكل كبير على مكانة المسيحيين في هذه البلدان. وبلحاظ ما ذكرنا، فإنَّ سوريا تعدّ عمليًا أهم منطقة يمكن أن يترك أيُّ تغير فيها بصماته على وضع المسيحيين في المنطقة ككل.

القوى الكبرى ومسيحيو المنطقة

السؤال الذي يطرح الآن هو: ما مدى مراعاة مصالح الأقلية المسيحية في هذا البلد، وفي كل المنطقة، في سياسات القوى الكبرى حيال سوريا، وهل كان له تأثير إيجابي على طبيعة تعاطيها مع هذا الموضوع؟ إنَّ الغرب وعلى مدى سنوات طويلة كان ينتقد البلدان الإسلامية بصراحة؛ لعدم رعايتها لحقوق المسيحيين. وقد شهدت شخصيًا هذه الانتقادات بحكم مهمتي في الفاتيكان، وعلاقاتي مع الأوساط والشخصيات المسيحية المختلفة، بأنَّ الأنظمة الحاكمة في البلدان الإسلامية غير ملتزمة بالدفاع عن حقوق المواطنين المسيحيين.

ومن المستغرب أن تصبح سياسات القوى الكبرى إزاء سوريا مصداقًا لهذه الانتقادات التي ما فتؤوا يتحدّثون بها. فسوريا كانت من البلدان الأفضل تعاملًا مع مسيحييها، قياسًا مع البلدان الأخرى كالعراق ومصر والأردن. وهذه الملاحظة يعترف بها المسيحيون السوريون والعرب أنفسهم، وتعترف بها الشخصيات المسيحية الغربية، والمتخصصون في القضايا الدينية في الشرق الأوسط.

فمنذ بداية الاضطرابات في سوريا، ظهرت بوادر من قبل جزء كبير من المعارضة، وخاصة المعارضة المسلحة من الأخوان لمواجهة المسيحيين، بل للانتقام منهم، ورفعوا شعار: «العلويون إلى التابوت والمسيحيون إلى بيروت».

أمّا الدول الغربية، فإنَّها لم تفكر بعواقب دعمها اللا محدود للمعارضة وعدائها المطلق للنظام، على المسيحيين في هذا البلد والبلدان المجاورة له، بل الأكثر من ذلك أنَّهم لم يأخذوا هذا الأمر على محمل الجد من نبههم إلى ذلك، ووجهوا له الإساءات وسخروا منه.

وقد قال لي أحد أساقفة المنطقة - لا أذكر اسمه هنا- في لقاء مباشر معه: ((إنَّ البطريارك الماروني اللبناني السيد بشارة الراعي (١٩٤٤) زار باريس في صيف (٢٠١١)، والتقى الرئيس ساركوزي (١٩٥٥) في الإليزيه. وكانت سياسة باريس تجاه سوريا حينها عدائية إلى حد كبير، قال الراعي لساركوزي بأنَّ التغيير المفاجئ لوضع بشار الأسد (١٩٦٥) سيسبب مشاكل كثيرة للمسيحيين في لبنان والمارونيين، فأجابه ساركوزي بأنَّه إذا كان قلقًا إلى هذا الحد، فإنَّ فرنسا مستعدة لإعطاء قطعة من أرضها لنقل طائفته إليها)). يقول الأسقف الذي سمع الحكاية مباشرة من الراعي: إنَّه غادر الإليزيه غاضبًا، إلا أنَّ الصحافة الفرنسية وجهت فيما بعد انتقادات شديدة إلى الراعي؛ لكشفه هذه المعلومات بعد لقائه مع ساركوزي، وبصراحة أقل طبعًا.

إنَّني شخصيًا ذكرت هذه الملاحظة إلى الشخصيات المسيحية وفي مناسبات مختلفة. ففي سبتمبر/ أيلول سنة (٢٠١١) قام كاردينال واشنطن السيد تيودور إدغار مكاريك (١٩٣٠)[1] بزيارة رسمية إلى إيران على رأس وفد ديني، وقد ناقشت معه ضمن المباحثات التي جرت بيننا قضايا سوريا ومكانة المسيحيين في المنطقة وأشرت إلى ما ذكرته أعلاه. بعدها بمدّة زارت إيران الوزير الأسبق للإسكان والأسرة الفرنسية السيّدة جين كلود مارتينز (١٩٤٥)[2]، وهي من الشخصيات الكاثوليكية المعروفة، وبرفقتها اثنان من الأساتذة، وقد جرى الحديث معها حول الموضوع المذكور آنفًا. وطُرِحت هذه القضية مع آخرين، لكنَّ الرد كان يأتي دائمًا أنَّ من يمسك بزمام القرار لا تهمه هذه الأمور، على الرغم من أنَّ الكاردينال مكاريك قالها لي بصراحة إنَّ الحق معكم، وإنَّ أحداث سوريا جلبت مشاكل كثيرة للمسيحيين في المنطقة.

وهنا لا بد من الاعتراف بأنَّ البابا الحالي كانت له مواقف شجاعة، يثنى عليها إزاء هذه الأزمة. ولا شك في أنَّ مواقفه ضد الحرب، وموقفه الحازم من القصف الجوي لسوريا من قبل أميركا وحلفائها، ودعوته لإقامة مراسم الدعاء والصيام، هي من أهم العوامل التي أبعدت شبح القصف عن سوريا.

---

(1) Theodore Edgar McCarrick.
(2) Jean-Claude Martinez.

الثورات العربية

أُطلقت في الأيام الأولى لثورات الربيع العربي شعارات تحررية، معادية للفساد والعنصرية والديكتاتورية، إلا أنَّها انتهت إلى نوع من الثأر والحروب الأهلية لأسباب مختلفة، منها ضعف العقيدة الثورية الإصلاحية، وضعف المؤسسات التاريخية والاجتماعية المناسبة، وهيمنة الحالة العشائرية.

إنَّ التوترات التي سبّبها الربيع العربي هددت جميع أنظمة المنطقة، ومنها الدول العربية الثرية، وكانت السعودية في مقدّمة الدول المهددة، خاصة أنَّ البحرين كانت تعيش في أجواء ساخنة، إلا أنَّها وحلفاءها تشبثوا بمختلف السبل الدينية والمذهبية والإعلامية والمالية والسياسية؛ لحرف دفّة هذه الثورات والاحتجاجات وحصرها في بوتقة العداء المذهبي والطائفي.

وقد نجحت هذه الخطة بسبب وجود الأرضية المناسبة لها من التخلف العام، ولا سيما التخلف الفكري والثقافي. ونتيجة لذلك انصبّت أهداف المعارضة في بلد مثل سوريا على مواجهة النظام لأسباب طائفية ومذهبية، بدلًا من التركيز على الحرية والرفاه والتطور وسلامة النظام، ثم لم تمضِ مدّة طويلة حتى تدفقت جماعات التعصب الطائفي من الجوار ومختلف نقاط العالم، وبدعم وتحريض سعودي وبقية الدول الخليجية، ومن يسير على نهجها عقائديًا كالإخوان والسلفيين، ليتمخض عن ولادة الجماعات التكفيرية، التي استولت على مساحات شاسعة، وبدعم مالي وتسليحي من هذه الدول وحلفائها الغربيين.

بهذا دخلت المنطقة في نفق الاستقطابات بشدة، وعادت إليها ذكرياتها المريرة، وبصورة أكثر ممّا هي عليه في الواقع، ووقف في هذا الاستقطاب أهل السنة من جهة، ومن الجهة الأخرى كل ما سواهم من الشيعة الاثني عشرية أو الزيدية أو العلوية والدرزية والمسيحية والإيزيدية والصابئية. ولم يكن عامة أهل السنة ولا علماؤهم المسؤولين عن هذه القطبية الجديدة، وإنَّما السلفيون التكفيريون والمؤسسة الدينية الوهابية، لكنَّ الظروف سارت بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يعارض علنيًا ورسميًا هذه الحالة؛ لأنَّه سيفقد حياته، كما حصل مع الشخصية المعروفة محمد سعيد البوطي (١٩٢٩ - ٢٠١٣).

قطبان جديدان في المنطقة

أصبحت إيران في هذه التقسيمات الجديدة مركز ثقل لأحد القطبين في المنطقة، من دون أن يكون لها دَور في هذا التقسيم، بل كانت تعارضه بشدة؛ لأنَّها ترفع شعارًا مركزيًا، هو الدعوة للأخوة الإسلامية، ونبذ الحدود المذهبية والطائفية، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن أحيانًا، فقد تكون الحقائق الخارجية غير متطابقة مع النوايا والأفعال التي تطمح إليها.

في مثل هذا الظرف شعرت عامة الأقليات في المنطقة، وخاصة المسيحيين أنَّ مصيرها واحد مع إيران، بل إنَّ بعضهم أفصح عن ذلك بكل صراحة. وهذه حقيقة لا غبار عليها بأنَّ إيران هي القوة الإقليمية الوحيدة التي وقفت بوجه التيار التكفيري، حتى أنَّ تركيا وقفت إلى جانب بعض هذه التيارات، وقدّمت لها الدعم على الرغم من انتمائها للأتاتوركية.

ولا ننكر طبعًا أنَّ مصر هي كذلك، لكنَّها كانت غارقة في مشاكلها الداخلية، إذ فقدت القدرة على أن تصبح عاملًا مؤثرًا في المنطقة، وكان بإمكانها التعاون مع إيران في هذا المجال على الرغم من تنافسها معها بسبب تعارض الجغرافيا السياسية. هذه الحقائق كانت تتطلب علاقة أقرب بين البلدين، وهو ما كانت ترغب به مصر أيضًا، لكن من دون الإفصاح عنه في العلن لأسباب معروفة.

هنا لا بد أن نشير إلى ملاحظة أخرى وهي أنَّ وجود الأقليات الدينية الرسمية يصبّ في النهاية لصالح المنطقة واستقرارها الاجتماعي والسياسي.

إنَّ هذه الأقلية المسيحية – كما قلنا– كان لها حضور منذ ظهور ديانتها في المنطقة، ولعبت في بعض المراحل دورًا كبيرًا في تكوين العلم والحضارة والثقافة.

أمّا في العصر الحاضر، فإنَّ معظمها شارك في حركات الاستقلال، وارتبط بشدة بالأرض والثقافة والهوية. وعليه، فإنَّ من حقهم العيش بكرامة في أوطانهم كمواطنين أصلاء، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلدانهم.

إنَّ الحضور الفعّال لهذه الأقلية ممارسةٌ تمرينية لرفع مستوى التحمل الفردي والاجتماعي، وهذا بدوره يشكل أهم عامل في إيجاد الثبات الاجتماعي والسياسي

والوصول إلى التنمية المستدامة، وهو نقص يعاني منه العالم العربي بسبب فقدان المؤسسات الضامنة لذلك، فترى الحركات السياسية والاجتماعية الإصلاحية في العالم العربي تنحى مناحي أخرى يصبّ معظمها في الاتجاه التخريبي.

وهذا الكلام ينطبق علينا أيضًا، ولكن بصورة أخرى، على الرغم من أنَّ إيران تعدّ بلدًا استثنائيًا؛ لقوة مؤسساتها الاجتماعية التاريخية، والاعتماد على ثنائية الدولة- الشعب، وتختلف كثيرًا عن جميع بلدان المنطقة، فإنَّ حضور الأقليات الرسمية الدينية يصبّ في صالحها ومستقبلها وحتى إسلاميتها.

إنَّ المجتمع المثالي هو ليس ذلك المجتمع المكون من أفراد يفكرون بطريقة واحدة ويسيرون على الاتجاه نفسه، وهذا لا يمكن تصوره في بلدان كبيرة وعريقة ومتشابكة مثل إيران؛ ذلك أنَّ التنوع الحاصل من إبداعات القدرات البشرية يعدّ ثروة طبيعية ما لم يتجاوز عتبة التحمل العام. ولحسن الحظ فإنَّ إيران تتمتع بمثل هذه الثروة بدليل تنوعها الإقليمي، وإلى حد ما القومي والديني، ولا بد من إغنائها أكثر بما يضمن استقرارها وتطورها ومستقبلها الزاهر.

وهذا لا يعني تجاهل النشاطات الدعائية التي تقوم بها الفرق المسيحية الجديدة، والتي لا يعترف بها المسيحيون أنفسهم، أو أشباه الديانات والعرفان الجديد وما إلى ذلك. فهذه الفرق هي ليست من الدين أساسًا، وإنَّها تتخذ في بلد مثل إيران أبعادًا أمنية، ولا شك في أنَّ الأمن هو الأولوية لجميع بلدان العالم، حتى تلك التي تنعم بالأمن والاستقرار، وبطبيعة الحال، فإنَّ التحسس منها في إيران أكثر من أيّ منطقة أخرى؛ لما تمر به منطقتنا من ظروف خطيرة.

إذًا، كلامنا يدور حول الأديان الرسمية الموجودة على هذه الأرض منذ أمد طويل، فهم إيرانيون أوفياء لدينهم، وإنَّ استمرار حضورهم الفعّال يصبّ في مصلحتنا ومصلحتهم ومصلحة المنطقة، على أمل أن تقل موجات الهجرة، بل ويعود المهاجرون إلى أوطانهم للعيش فيه بكرامة.

أهمية إيران للأقليات

مع مواجهة المنطقة لهذه الظروف الجديدة، تغيرت نظرة الأقليات الدينية، وخاصة المسيحيين إلى إيران عمّا كانت عليه. وعلى الرغم من أنّهم كانوا ينظرون إلى إيران وحضارتها نظرة ودٍ واحترام لأسباب تاريخية وحضارية، فإنَّهم باتوا يشعرون حاليًا بأنَّ إيران وحضورها الفاعل عامل مهم في حمايتهم واستمرار وجودهم ومكانتهم، ولولا ذلك لواجهوا ظروفًا عسيرة جدًا.

أضف إلى ذلك أنَّ لديهم نظرة إيجابية إلى علماء الدين والمرجعية الشيعية، وقد صرح بذلك البطريارك العراقي السيّد رافائيل ساكو (١٩٤٨)[1] لدى زيارته لإيران، وكذلك البطريارك الفقيد السابق السيد عمانوئيل دلي (١٩٢٧ - ٢٠١٤)[2]، إذ أثنى كثيرًا وخلال لقائي به على آية الله السيستاني (١٩٣٠)، ونقل إحدى خواطره عن لقائه الأول به بعد سقوط النظام السابق، عندما قال له: إنَّنا لا نتوقع منكم أن تصبحوا مسلمين. التزموا بدينكم ولا تغادروا العراق، وإنَّنا سنساعدكم قدر الإمكان. نريدكم أن تبقوا عراقيين مسيحيين. والطريف أنَّه قال عن الحكومة العراقية، التي يديرها الشيعة حسب تعبيره: لو كانت الحكومة العراقية بأيدينا لما استطعنا أن نساعد أنفسنا أكثر ممّا ساعدتنا الحكومة الحالية.

إنَّنا وفي هذا المقال، لا يمكن أن نتكلم وبتفاصيل أكثر عن السياسة التي يجب علينا اتباعها حيال المسيحيين في الشرق الأوسط؛ لأنَّ المقام يطول بنا، ولكن اتخاذ مثل هذه السياسة يمكنه أن يفتح آفاقًا رحبة على المستويين الإقليمي والدولي، ويحصر الجهات المنافسة الحاقدة في زاوية ضيقة، ويحبط دعاياتهم الخبيثة، ويساعد ذلك على استقرار المنطقة وثباتها بشكل مؤثر وبناء، ويجعل من السياسات الغربية تجاهها أكثر اعتدالًا ووسطية.

---

(1) Louis Raphael I Sako.
(2) Emmanual III Delly.

إيران ومسيحيو المنطقة[1]

في البدء أعرب عن شكري وتقديري لمنظمي هذا الاجتماع. نحن نحتاج الآن أكثر من أيّ وقت مضى لقراءة تجربة الإمام موسى الصدر في لبنان، ومنهجه وتفكيره ومنطقه وأسباب تأثيره الكبير على الآخرين. ولا شك في أنَّ أهم عامل في نجاحه هو علاقاته الواسعة مع المجموعات المختلفة الدينية والمذهبية، حتى استطاع خطب ودهم وكسب احترامهم وثقتهم. وعلى الرغم من أنَّ هدفه النهائي كان الارتقاء بمكانة المجتمع الشيعي في لبنان، لكنَّه اختار للوصول إلى هذا الهدف المهم، التعامل مع القطاعات المختلفة في المجتمع اللبناني المتعدد الثقافات والقوميات والأديان والطوائف.

الملاحظة الأساسية هنا هي أنَّ الإمام موسى الصدر (١٩٢٨) عرف عن وعي بأنَّه يعيش في زمان ومكان لا يمكن معه الاكتفاء بالعمل في دائرة المجتمع الشيعي من دون الاهتمام بالآخرين؛ حتى يكتب له النجاح، وشعر عن حق بأنَّه لا بد من الارتباط مع القطاعات الفعّالة المختلفة في المجتمع اللبناني للدفاع عن حقوق الشيعة. وكان يتمتع بسعة الصدر بحيث لم يستثنِ الجماعات المسيحية وغير الإسلامية من برنامجه، وهذه السياسة هي التي حققت له النجاح الباهر إلى حد كبير.

يمكن القول بكل ثقة: إنَّه لم يكن ليتوصل إلى ما توصل إليه، لو كان يعيش في بلد عربي لا توجد فيه أقلية مسيحية، أو لو اقتصرت علاقاته على الجماعات الإسلامية فقط؛ لأنَّ التنوع في هذه العلاقات هو الذي أدى إلى انفتاح الجماعات الإسلامية على ابتكاراته وبرامجه.

ولا ينكر بأنَّ النضج السياسي للسيد الصدر مرهون أيضًا بهذه التعاملات، وأنَّ النضج السياسي لحزب الله في لبنان هو نتيجة طبيعية لمثل هذه الروح في التعامل والتعاون مع الجماعات المختلفة، ومنها المسيحية. ولا تجد من بين الأحزاب والتنظيمات الموجودة في العالم العربي، حتى وإن كانت تؤمن بخط المقاومة وتعتقد به، من وصل مستوى البلوغ الفكري والسلوكي الذي يتصف به حزب الله. وثمة عوامل عديدة

(١) كلمة ألقيت بتاريخ ١٩ شباط/ فبراير ٢٠١٤ في جامعة الأديان والمذاهب بمناسبة كلمة الإمام موسى الصدر في كنيسة "كبوشين" في لبنان وأول حضور له فيها؛ ونُشِرت الكلمة في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ١١/ آذار/ ٢٠١٤.

وكثيرة مؤثرة في الوصول إلى هذا النضج، من أهمها الرغبة الجادة في الحوار مع الآخرين وبضمنهم المسيحيون، من المارونيين وتفرعاتهم إلى الكنائس الأرثوذكسية المتعددة الموجودة في لبنان.

مسيحيو منطقتنا

اسمحوا لي أن أكون أكثر صراحة وأنا أتحدّث عن استثمار هذه التجربة في الظروف التي نمر بها. ففي منطقتنا الواسعة توجد مجموعة من البلدان التي تعاني من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والعصبية والعنف، سواء في دول الجوار الأوسطية من البلدان العربية أو الجوار الشرقي. ولا شك في أنَّ جزءًا من هذه المشاكل يعود إلى التدخل الخارجي، سواء من بلدان المنطقة نفسها أو من خارجها، إلا أنَّ الجزء المهم منها، تعود أسبابه إلى الفقر الفكري والثقافي، والتحجر والجمود الديني والمذهبي، وغياب التنوع الاجتماعي.

إنَّ حضور الأقلية المسيحية، وخاصة في البلدان العربية، وإمكانية قيامها بدور فعّال يصبّ في نهاية المطاف وعلى الرغم من كل المشاكل، في مصلحة التنوع والغنى الاجتماعي والثقافي، ويمكن لهذا التنوع أن يمنع هيمنة التعصبات الدينية التي تطال المسلمين وغير المسلمين. ألم تسوَ بالأرض بعد بدء الربيع العربي الآثارُ الدينية وقبور الأولياء والعرفاء في شمال إفريقيا؟ ألم تكمم أفواه الكثير من العلماء والمفكرين المسلمين بسبب سيطرة مجموعة صغيرة متعصبة على زمام الأمور؟

إنَّنا هنا لا نتحدّث عن المسيحيين المبشرين؛ لأنَّ حضورهم يعود بالضرر كاملًا على الاستقرار الاجتماعي ويثير العصبيات الطائفية، إنَّما نتحدّث عن المسيحيين من أصحاب الأرض الذين لهم جذور تاريخية فيها، وكان لهم دور في بلورة التراث القديم والجديد أيضًا في المنطقة العربية، عن المسيحيين الذين يتكئِون على تراثهم وهويتهم الوطنية والقومية ويعتزون بها، ممّن لا علاقة لهم بالإرساليات التبشيرية، وممّن يرفضون حتى محاولات الكنيسة الغربية لإلحاقهم بها. إنَّ حضور هؤلاء المسيحيين لمصلحتنا جميعًا، ولكل المسلمين الملتزمين بالدين، بعيدًا عن التعصبات السلفية. ممّا يُؤسفُ له أنَّنا شهدنا في السنوات الأخيرة هجرة أعداد من المسيحيين عن المنطقة فيما تنوي أعداد أخرى مغادرتها، وهذا لا يصبّ في صالح التعادل الاجتماعي والثقافي. ويحظى هذا

الموضوع بأهمية كبيرة بالنسبة لنا، ولأسباب كثيرة من الأفضل ألّا أتطرّق إليها؛ لما قد تسببه من سوء فهم، ولكنَّنا علينا أن نفكر مليًا بهذا الموضوع.

وبخلاصة أقول: إنَّ من مصلحتنا أن يتمتع المسيحيون في العراق ولبنان وسوريا، وحتى مصر بمكانتهم التي تتناسب وثقلهم التاريخي، بل إنَّ من مصلحة المنطقة أن يمارس مسيحيوها دورًا لائقًا بهم فيها.

استلهام من تجربة الإمام موسى الصدر

إنَّ الفكر والفقه السياسي لأهل السنة حاليًا يفتقد لآليات ضبط التوجه نحو التطرف في الجانب العملي والاعتقادي، ولا يحصل ذلك من طريق النصح والانتقاد أو المواجهة أحيانًا، بل لا بد أن يكون تركيبُ القوى الاجتماعية بشكل يمنع التطرف، أو يقلل من تأثيره. وهناك بلا شك عوامل أخرى لها دور في ذلك مثل رفع المستوى العلمي والثقافي ومكافحة الأمية والفقر الثقافي، إضافةً إلى إيلاء الأهمية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

ولكن لا بد أن نذعن في النهاية أنَّ حضورهم الفعّال اجتماعيًا وفكريًا وثقافيًا يصبّ في مصلحتنا، ولا يحصل هذا الشيء إلا من طريق التعامل الواقعي المقرون بالاحترام والثقة. وهذا هو سر نجاح السيد موسى الصدر، ولذلك لا بد من التأمل في تجربته، والاستلهام منها، والعمل وفقًا لها، في سياساتنا التعاملية وحوارنا مع الآخرين مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف المعاصرة.

إنَّ الحوار الذي يجري الحديث حوله اليوم هو ليس حوارًا فلسفيًا وكلاميًا بحتًا مع مسيحيي الغرب ممّا لا فائدة ترجى من بعضه أساسًا. فالأهم من ذلك هو بدء الحوار والتعاطي مع الجماعات الدينية المختلفة في داخل المنطقة، ولا شك في أنَّ نتائج مثل هذا الحوار لا تقل عن النتائج التي نحققها في الحوار مع الغرب. وإنَّه من الضروري الخوض فيما أشرنا إليه في الظروف الحالية التي تمر بها المنطقة، التي وقعت مع الأسف تحت تأثير الفكر السلفي والمعادي للشيعة وإيران؛ لأنَّ معظم الجماعات الاجتماعية والسياسية النشطة الحاضرة في الميدان متأثرة بهذا الفكر.

الربيع العربي ومكانة المسيحيين[1]

في البدء أعرب عن شكري وامتناني لكل القائمين بشؤون هذا المنتدى وأرحب بالضيوف الكرام. يعدّ التعاون بين المسلمين والمسيحيين أمرًا مهمًا، وتزداد هذه الأهمية في الوقت الحاضر؛ ذلك أنَّ الشرق الأوسط يمر بمخاض عسير، وباستطاعة مثل هذا التعاون أن يساعد على العبور من هذه المرحلة الحساسة والخطيرة بنجاح، ليس بلحاظ المكانة المناسبة للمسيحيين في الشرق الأوسط وحسب، وإنَّما لأنَّ مثل هذا التعاون يساعد كثيرًا على طيِّ هذه المرحلة بنجاح. إنَّ الكلام يدور حول الربيع العربي ومكانة المسيحيين، حيث سأشير إلى بعض النقاط باختصار.

إنَّنا وكيفما عرّفنا المسيحية، ومن أيّ زاوية نظرنا إليها هي ظاهرة شرق أوسطية؛ لأنَّ السيد المسيح – عليه السلام– وُلِد في هذه المنطقة، ونشر فيها دينه، لتنتقل المسيحية من ثم إلى المناطق الأخرى. لذلك، فإنَّ الحجر الأساس للإيمان والمجتمع المسيحي وُضِع في هذه النقطة.

إنَّ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق الأوسط كانت على الدوام علاقة طيبة وصميمية؛ ذلك لأنّالمسيحيين يمثلون جزءًا من تاريخ الشرق الأوسط وثقافته وهويته، وهذه حقيقة ليست تاريخية وحسب، وإنَّما لها وقع معاصر. فالمسيحيون العرب كان لهم دور كبير في تشكيل التاريخ العربي المعاصر في الشرق الأوسط، وكان لهم نشاط فعّال ومؤثر في المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية المختلفة، بل حتى النشاطات القومية المعادية للاستعمار، بل إنَّ دور بعضهم كان أكبر من نسبته العددية في المجتمع، وإنَّ استمرار هذا الوضع يصبّ في صالح حفظ التعادل الاجتماعي والتنمية والإبداع الثقافي.

وتتضح أهمية ذلك حينما نقارن مكانتهم بالظروف السيئة التي عاشها كاثوليك أميركا قبل أوائل القرن العشرين، أو حتى مع كاثوليك إيرلندا الجنوبية قبل الاستقلال. فالأميركيون كانوا كثيرًا ما يسيئون الظن بالكاثوليك ولا يعاشرونهم، لذلك لم يحتلوا المكانة المناسبة في بلادهم، ولا سيما في المؤسسات والتشكيلات الإدارية. وهذا الكلام ينطبق بشكل آخر على إيرلندا الجنوبية التي يشكل فيها الكاثوليك الأكثرية المطلقة

(١) كلمةٌ ألقيت في "منتدى التعاون الإسلامي – المسيحي في الشرق الأوسط: التحدّيات والفرص" بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١١٠٢ في طهران.

والتي أعطتها هويتها الوطنية. فهؤلاء كانوا يعيشون على هامش المجتمع الذي كان يخضع تحت سلطة الاستعمار الإنكليزي حتى العقد الثاني من القرن العشرين. على أيّ حال، فإنَّه يفترض بالجانبين معرفة هذه الحقيقة لبذل الجهد من أجل أن يتبوأ المسيحيون مكانتهم المناسبة في الشرق الأوسط بعد المدّة الانتقالية.

الربيع العربي

انطلق الربيع العربي وهو يحمل في طبيعته الرغبة بالانعتاق والحرية ومكافحة الفساد والعودة إلى الأصالة، ومثّل احتجاجًا على الأنظمة الفاسدة والمستبدة والعميلة، التي تجاهلت الحريات في بلدانها، وسحقت الحقوق والكرامة الفردية والوطنية، وانتهى بسقوط بعض الأنظمة مثل تونس ومصر وليبيا.

وبقيت ارتدادات هذه الموجة إلى يومنا هذا، فهناك بلدان مضطربة وأخرى تتابع الأوضاع بقلق كبير. والمهم في ذلك هو انتشار وتمدد موجة الإصلاح والرغبة في الحرية والدفاع عن الحقوق والكرامة الإنسانية. إنَّنا وحتى إن لم نشهد تغييرات سياسية أخرى في المنطقة، فإنَّ الأنظمة الحالية على الأقل لا تستطيع أن تواصل الأسلوب السابق، وهذا ما يصبّ في مصلحة جميع المواطنين، ومنهم المسيحيون.

المطاليب الإسلامية ومكانة المسيحيين

أدى الربيع العربي إلى تفجر الحقائق الكامنة والميول المكبوتة، ومنها العديد من المطاليب الإسلامية؛ ذلك أنَّ سياسة الضغوط القصوى وتحديد الحريات التي كانت تمارسها الأنظمة، كالنظام التونسي مثلًا أدت إلى كتمان هذه المطاليب، التي لم تأتِ من فراغ مع ظهور الربيع العربي، لكنَّها كانت مطاليب كامنة شأنها شأن الكثير من الحقائق الأخرى، التي كان من المتعذر الإفصاح عنها. هنا كيف يمكن أن نوفّق بين هذا التوجه الإسلامي ومكانة المسيحيين؟ سأسعى إلى توضيح ذلك فيما يلي باختصار.

هنالك الكثير من النقاط في هذا الموضوع، وقبل كل شيء لا بد من دراسة التطورات السياسية والاجتماعية للعالم العربي منذ بداية القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، لكنَّ ثمة نقطتين هما الأهم فيما يتعلق بالوضع الراهن، الأولى:

وجود أحزاب ومجموعات كثيرة إلى جانب الجماعات الإسلامية في الميدان، سواء في المجتمع أو في البرلمان أو في القطاعات المهمة الأخرى. فقد اتفقت هذه المكونات على العمل سوية ولا طريق لها غير ذلك؛ لأنَّ إدارة البلاد تستلزم تعاون جميع الفئات فيها، وهذا التعاون بدوره يؤدي إلى النظر بواقعية للآخر. فالجماعات الإسلامية المختلفة مضطرة للتحرك ضمن هذا الإطار وإلا فقدت قاعدتها ومكانتها. والأخرى: أنَّ من أهم السبل لتضعيف موجة المطالبة بالحريات والإصلاح هو إثارة التوتر بين المسلمين والمسيحيين، وبث الرعب والخوف في صفوفهم؛ لوجود حساسية ذاتية إزاء هذه المسألة وتحسس الرأي العام العالمي حيالها.

وللأسف، فإنَّ الأنظمة الدكتاتورية قبل الربيع العربي كانت تقوم بإجراءات ضد المسيحيين من أجل الإساءة إلى الجماعات الإسلامية. وقد فعل الإرهابيون في العراق مثل ذلك من أجل إثارة التوتر والتأثير على الأمن. وهذا أيضًا دليل على الحساسية الذاتية للمسألة.

هذه الظاهرة تعدّ خطرًا داهمًا ومستمرًا، إذ اكتُشِفت عناصر أجنبية محرضة في الاشتباكات التي جرت بين الأقباط والسلفيين إبَّان الثورة في مصر من أجل جرها إلى الصراع الداخلي وإفشالها، وقد أقرت بذلك الشخصيات الإسلامية والقبطية نفسها. ويتطلب لمواجهة مثل هذه الأخطار تعاون وثيق بين المسلمين والمسيحيين، ليس فقط لأنَّ مثل هذا التعاون قادر على إحباط المخططات والمؤامرات الكبرى، بل هي عملية تربية للذات ليعرف كل طرف حدّه ولا يتجاوزه. فلكل مسؤوليته الخاصة به، من الشرطة إلى الأجهزة الأمنية إلى وسائل الإعلام والسلطات الرسمية. ألا إنَّ هذا التعاون يمكنه أن يقدّم الحلول الناجعة، ويمنع وقوع الطرفين تحت تأثير المشاعر والأحاسيس، وعزل الجماعات المتطرفة من الجانبين، أو إقناعها بالتعاون والتخلي عن العنف. ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا من طريق التفاهم والثقة المتبادلة والحوار، وعندئذٍ تتوقف مثل هذه المواجهات، ويصل كلا الجانبين من السلفيين والأقباط المتطرفين إلى مرحلة التعادل، وتتلاشى أسباب الصدامات.

الخطر الطائفي

إنَّ المشكلة الأخرى التي عززها الربيع العربي هو التصنيف الطائفي، ولهذه القضية تاريخ طويل في العالم العربي، وتمثل جزءًا من الحقائق الاجتماعية والسياسية، بل إنَّ نمطية التفكير لدى عامة العرب أنَّهم ينظرون إلى الكثير من القضايا من هذه النافذة، بحيث إنَّ التحليلات التي تطرح وفقًا للرؤية الطائفية أكثر فهمًا وتأثيرًا، وهذه في الحقيقة إحدى المشاكل الداخلية لدى العالم العربي؛ لأنَّ الكثير من القضايا في عصرنا الراهن تتوفر على طبيعة طائفية، هذا أولًا، وثانيًا أنَّ هذا الموضوع يعدّ ذريعة مناسبة لدى الحكام لاتهام من لا يوافقهم في الرأي وإدانته. وهنا ليس مهمًا أين يكون الحق وما هي العدالة، إنَّما من هو المعترض وإلى أيّ طائفة ينتمي. فالمعيار في النهاية هو الارتباط الطائفي، سواء العنصر أو المذهب، ولا غير.

للأسف، فإنَّ هذا النمط من التفكير ازداد بشدة بعد الثورات العربية، وممّا يُؤسفُ له أكثر أنَّه تركَ بصماته عل الحياة اليومية. ففي مواجهة هذه الاحتجاجات الواسعة هناك جهات إمّا أن تكون مرتبطة بالأنظمة الحاكمة أو أنَّ مصالحها مرتبطة به. وعليه، فإنَّ هذه الجهات ترحب بأي طريقة لمواجهة الاحتجاجات، ومنها اتهام المحتجين بالتأجيج والصراع الطائفي. ولمّا كانت الأجواء ممهدة لدى الرأي العام العربي، فإنَّ الدعاية للطائفية يمكن أن تلقى رواجًا لديه وتوفر الأرضية لِما هو أسوأ من ذلك، للتقسيم الطائفي.

إنَّ مكانة المسيحيين العرب واقعة إلى حد كبير تحت هذه الأجواء والأفكار والمعايير الطائفية، وربّما كان المسيحيون أنفسهم على هذه الشاكلة؛ لذلك فإنَّ السبيل الأنجع للحل هو مكافحة هذه الأفكار، والنظر إلى الأفراد، كمواطنين بغض النظر عن طائفتهم ومذهبهم.

إنَّ نجاح الثورات العربية توقف إلى حد كبير على قدرتها لتجاوز هذه المحنة، فالنجاح في خاتمة المطاف غير مرهون بالآمال والمثاليات، وإنَّما بالظروف الإيجابية التي يتم توفيرها؛ للوصول إلى الأهداف المنشودة. هذه الظروف التي لا يمكن الوصول إليها أحيانًا إلا من طريق مكافحة الترسبات القديمة البالية.

قضية التبشير

من الواجب هنا أن أشير إلى موضوع آخر هو قضية التبشير، التي تثير سوء الظن لدى الجميع ومنهم المسلمون. وهذا التحسس ليس محصورًا بالمسلمين، بل بالبوذيين والهندوس والأرثوذكس، وحتى بعض الكاثوليك أنفسهم. وهنا لا بد من الإقرار بأنَّ هذه القضية أصبحت قضية عالمية، وترتبط بشدة مع التطور والاتصالات الإلكترونية، واختلفت بطبيعتها عن التبشير في العقود الماضية؛ فالكثير من الكنائس اليوم لا تبدي رغبة في التبشير إن لم تعارضه، ولكن على هذه الكنائس أن تعلن ذلك بكل شفافية وتبتعد عن الكنائس التبشيرية من أجل كسب ثقة الآخرين، فذلك يصبّ في مصلحة الجميع، وأحد العوامل المهمة في توفير الأرضية المناسبة الراسخة للتعاون في المستقبل.

إيران والأقليات الدينية(١)

إنَّ إيران – وقبل أن تكون دولة– هي عبارة عن ثقافة وحضارة، كما هو الحال مع الصين والهند ومصر، على الرغم من أنَّ ما يتداعى إلى الذهن للوهلة الأولى عناوين مثل «فارس»، و»پارس"، و"پرس"، و"پرشيا"، وليس عنوان "إيران". فالاسم الأول أكثر إيصالًا للمفهوم من العنوان الثاني لعامة المثقفين من غير الإيرانيين؛ ذلك أنَّ كلمة "إيران" تعني أكثر ما تعنيه البلد، كحقيقة حاضرة، أمّا كلمة «فارس»، فهي تكشف عن حقيقة تاريخية وحضارية.

والملاحظ أنَّ هذا التاريخ وهذه الحضارة تفاعلت وبعمق مع عامة الأديان والحضارات القديمة بفضل موقعها الجغرافي، وكذلك خصوصياتها الذاتية، وأهمها الأخذ والعطاء من وإلى الآخرين. ولا تجد من بين الأديان والحضارات الكبرى دينًا ليس له موطئ قدم في ثقافة هذه الأرض، سواء أثر بها أو تأثر منها. فعامة الأديان الآسيوية – وعلى رأسها الأديان الإبراهيمية– كان لها حضور في إيران منذ بدايات ظهورها، وأصبحت جزءًا من ثقافتها، وأنّها استثمرت بدورها من نخب هذه الأرض، وهذه بحد ذاتها ثروة عظيمة. ففي منطقة الشرق الأوسط الساخنة التي تعدّ مولد

(١) منشور في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٥١/ ٩/ ٣١٠٢، تحت عنوان "إيران وقابلياتها الاستثنائية".

عامة الأديان، والكثير من الحضارات الكبرى، هناك بلدان تتصف بهذه الحالة من مصر إلى سوريا إلى العراق، لكنَّها ليست بالشمولية التي عليها إيران؛ ذلك لأنَّ نفوذ الأديان والحضارات الآسيوية ضعيفة جدًا في تلك البلدان.

فمن الضروري إذًا استغلال هذه القدرات الاستثنائية على الوجه الأفضل. أضف إلى ذلك أنَّ التعاطي مع الأديان والحضارات هنا، يختلف عن التعاطي مع الآخرين؛ للأسباب التاريخية والحضارية التي ذكرنا. وكمثال على ذلك تستوعب إيران حاليًا أكبر جالية يهودية في الشرق الأوسط، عدا إسرائيل، على الرغم من مرور زمن طويل على انتصار الثورة الإسلامية التي تتبنى القضية الفلسطينية، ممّا أثار عداءً غير مسبوق ضدها من الإسرائيليين ومن يقف إلى جانبهم. وتتضح أهمية هذا الموضوع حينما نلاحظ موجات الهجرة الواسعة لليهود من الدول العربية، من تونس والمغرب وليبيا ومصر وسوريا والعراق واليمن؛ إذ إنَّ أعداد اليهود في بعض هذه البلدان – سواء في الكم أو في النسبة إلى أعداد غير اليهود- كان أكثر من إيران بمرات عدة. ووقعت هذه الهجرات في معظمها بعد حربي (١٩٤٨ و١٩٦٧) وإلى حد ما بعد أزمة قناة السويس سنة (١٩٥٦)، في حين كان الكثير من حكام تلك الدول هم حلفاء للغرب وأصدقاء لإسرائيل.

إمكانات السياسة الدينية النشطة

يمكن اتباع سياسة دينية فعّالة على الساحة الدولية وضمن الإطار الذي ذكرناه، في حين لا تستطيع الكثير من الدول الإسلامية القيام بذلك. خذ على سبيل المثال بعض الدول الإسلامية المهمة، كتركيا التي لا تستطيع المضي بهذا المشروع كثيرًا؛ لما لها من سمعة تاريخية حول مذابح الأرمن، ومصر التي لا تتمكن من المناورة كثيرًا؛ لأنها تضم أقلية قبطية تتحسس بشدة إزاء هذه الأمور، وإندونيسيا التي لا يمكنها ذلك ولا ترغب إليه أساسًا؛ لوجود أقلية مسيحية متغلغلة وبقوة في المجتمع، وإنَّ دولًا أخرى مثل باكستان وبنغلاديش ونيجيريا وماليزيا لها مشكلاتها الخاصة، وتفتقد للأرضية التاريخية والثقافية المناسبة.

أما السعودية التي استثمرت كثيرًا في هذا المجال مؤخرًا، فإنَّها وأمثالها تقوم بلعبة سياسية ساذجة ليس لها ما يدعمها. غير أنَّ إيران لا تواجه مثل هذه المشاكل والنواقص؛ لأنَّ الأقليات الدينية الموجودة هي إيرانية في الأصل، وهي حقيقة وليست مجرد مزاعم، وهم يعترفون بذلك من دون أيّ مجاملة أو خوف، بل حتى أولئك الذين هاجروا من إيران، فإنَّ أصولهم متجذرة في هذه الأرض التي ينظرون إليها على أنَّها أرضهم ووطنهم.

مرة قال لي القنصل الإيراني في ميلانو أواسط التسعينيات - عندما كنت في مهمة في الفاتيكان- بأنَّ جماعة من اليهود الإيرانيين المقيمين في شمال إيطاليا، ومعظمهم من مدينة كاشان جاؤوه في ذروة الحرب مع العراق لأخذ تأشيرة دخول إلى إيران - وكانوا قد اكتسبوا الجنسية الإيطالية- فسألهم وكان حينها قنصلًا - تولى مسؤولية القنصلية مرتين في الثمانينيات والتسعينيات- عن السبب في رغبتهم للسفر إلى إيران، فأجابوه بأنَّ عليهم نذرًا بزيارة السيدة فاطمة المعصومة - عليها السلام- في مدينة قم. وهذا مثال بسيط يتكرر باستمرار وبكثرة سواء بين المسيحيين أو اليهود أو الزرادشتية. وتبلغ ذروة هذا الانتماء في مراسم عزاء الإمام الحسين - عليه السلام- في أيام عاشوراء عبر التاريخ، حيث يعرف ذلك جيدًا سكان المدن التي تضمّ مسلمين وغير مسلمين.

ثقافة الأقليات المحلية

إنَّ الأنموذج الأفضل والأكمل لكل ما ذكرنا هو الآثار التي أبدعها فنانوهم، إذ تراها مشبعة وبشكل إبداعي وعميق بالعناصر الثقافية والفنية الإيرانية. والمثال البارز على ذلك الكنائس التي بنيت في أصفهان في العهد الصفوي، والتي استعملت في بنائها المعماري والفني طريقة العمارة والفن الإيراني، بل يمكن القول: إنَّ العمارة والفن الديني الإيراني هو خليط من الفن الأرمني والفن الغربي الذي انتقل من طريق المبلغين المسيحيين الأوروبيين إلى إيران أيام الصفويين. وبغض النظر عن جمال هذه الآثار، فإنَّ ما يستقطب الانتباه هو هذا التركيب الفني الجميل للفنون الإيرانية والغربية والأرمنية. والذي يزور هذه الآثار من الغربيين يقع تحت تأثير هذا التلفيق الفني، كما شهدت ذلك شخصيًا. وأتذكر جيدًا بأنَّ مدير إذاعة الفاتيكان الراحل السيّد «باسكوال

بورجوميو» (١٩٣٣ - ٢٠٠٩)(1) - كان قسيسا يسوعيًا وشخصًا كثير السفر والتجربة- قال مرة إنَّه زار أكثر من مائة بلد، وتفقد الكثير من الآثار المسيحية والكنائس، لكنَّ فنونها وعمارتها لا تصل إلى مستوى الفنون الإبداعية المحلية. وهذه الملاحظة تنطبق على الفن اليهودي، خاصة فيما يتعلق بكتابة التوراة، ممّا يثير إعجاب الناظر.

أهمية حضور الأقليات

من اللازم هنا أن نشير إلى أهمية استمرار حضور الأقليات الدينية في إيران، وتعزيز علاقتها بهذا البلد وتاريخه وثقافته. وما يُؤسفُ له أنَّ بعضهم اختار طريق الهجرة إلى الخارج، وهذا ما لا يصبّ في صالح البلد وصالحهم لأسباب قد يطول ذكرها هنا؛ لأنَّ هؤلاء يمثلون جزءًا من هذا الشعب ومن تاريخه وثقافته وتراثه، فهم يقرون بذلك، كما تشهد عليه المظاهر المختلفة لحياتهم الفردية والجماعية والسياق التاريخي. والغريب أنَّ البعض ممّن لا يوافقنا الرأي يدعونهم إلى الهجرة، وقد قال لي مرة سفير أحد البلدان الأوروبية في لقاء رسمي وكنت حينها مديرًا عامًا للشؤون الثقافية في وزارة الخارجية بأنَّ سفارته خصصت أيام الثلاثاء؛ لاعطاء التأشيرة إلى الأقليات الدينية، موضحًا كيفية قبولهم، والمؤسسات التي تقدّم الدعم لهم للذهاب إلى البلدان المختلفة، ومنها إسرائيل للبقاء فيها.

بغض النظر عن ذلك، فإنَّ حضور الأقليات الفعّال في المجتمع يخدم حيويته ونشاطه وإبداعاته، لأنَّ تنوع الأذواق والمصادر في بلد ذي هوية ثقافية وتاريخية قوية وعميقة مثل إيران يصبّ في مصلحة الإبداع الفني والثقافي والاجتماعي والسياسي.

فاليوم يتحدّث الجميع عن النجاحات التي حققها الإمام موسى الصدر وحزب الله في لبنان. ويعود هذا النجاح في جزء منه إلى التنوع الديني والطائفي والقومي في المجتمع اللبناني، ولولا حضور الطوائف المسيحية المختلفة في لبنان، لما تحقق هذا النجاح إلى هذا الحد. الهدف هنا إذًا هو مجرد إشارة عابرة لهذا الموضوع الذي يجب إشباعه بحثًا وتمحيصًا. فهناك حقائق يجب ألا نتجاهلها بأيّ شكل من الأشكال،

(1) Pasquale Borgomeo.

فعلى سبيل المثال يمكن للاعب رياضي من الأقليات أن يحبط الكثير من الدعايات التي توجّه ضدّنا.

أهمية حضور الأقليات في المنطقة

القضية الأخرى التي ينبغي أن نتطرّق إليها هي حضور الأقليات الدينية في المنطقة، فالمسيحية هي في الأساس دين شرق أوسطي، وُلِد ونَما في هذه المنطقة، وكان يدين به الجزء الأكبر من سكان المنطقة قبل ولادة الإسلام، وهذا يعني أنَّه جزء من تاريخ الشرق الأوسط وثقافته وحضارته. وقد واجه المسيحيون في القرون الأربعة عشر الأخيرة، وخاصة أواخر الخلافة العثمانية أحداثًا كثيرة. ولا ينكر ما لهم من دور في تكوين الجزء المهم من الأدب العربي المعاصر وثقافته، إلا أنَّهم أصبحوا في وضع لا يحسدون عليه في الظروف الجديدة للمنطقة، فعاشوا أيامًا صعبة في العراق بعد (١٩٩١ و٢٠٠٣)، وفي سوريا ومصر بعد (٢٠١١). في مثل هذه الظروف اقترب المسيحيون إلينا وإلى حلفائنا أكثر من ذي قبل، فهم الأكثر رفضًا من بين الجماعات الاجتماعية والدينية المختلفة لأي هجوم على سوريا، ووجّهوا انتقاداتهم بأشكال مختلفة لكل من تدخل بالشأن السوري في الأعوام الماضية، حتى الشخصيات والمراكز المسيحية الموجودة في الغرب، فإنَّها اتخذت مواقف أكثر من غيرها ضد الهجوم على سوريا، من البابا نفسه إلى الكنيسة الإنجليكانية ومجلس أساقفة أميركا. ولا بد ألّا نغفل أو نتجاهل هذه الحالة في منطقة تقف في العموم ضدنا وضد حلفائنا، ولا بد أيضًا من تجنب الإفراط والتفريط، بحيث لا نستعدي علينا الآخرين ونحن نستثمر هذه الإمكانيات. وعلينا أن نأخذ بالاعتبار هذا العنصر في سياستنا الإقليمية، بل وسياستنا الكلية.

المسيحية التبشيرية

لمنع أيّ سوء فهم ممكن تجب الإشارة إلى مسألة، وهي أنَّ اليهود والزرداشتية هي أديان مغلقة، ولا يعني لها التبليغ والتبشير شيئًا. أمّا المسيحية، وعلى الرغم من أنَّها دين تبليغي، فإنَّ هذا لا ينطبق على عامة الكنائس المحلية في منطقة الشرق الأوسط، ومنها إيران. فهذه الكنائس لم تكن في يوم ما بصدد التبليغ لديانتها لأسباب تاريخية بل

وكلامية. أمّا الجماعات المسيحية التبشيرية في بلادنا والمنطقة والعالم ككل في الحال الحاضر، فهي تنحصر بالمسيحية البروتستانتية من أصول أميركية؛ فلهؤلاء حضور في كل مكان، من أميركا اللاتينية إلى إفريقيا وإلى أقاصي آسيا، بل حتى في أوروبا نفسها، وهذا يجرنا إلى بحث آخر لسنا بصدده الآن. على أيّ حال، فإنَّ المسيحية الإيرانية الأصيلة من الأرمن والآشوريين والكلدان، ليست لديهم ميول تبشيرية.

والطريف في الأمر أنَّ هؤلاء وقفوا ضد المبلغين المسيحيين الذين دخلوا البلاد منذ العهد الصفوي أكثر من المسلمين أنفسهم، وهو ما ذكره المبلغون الغربيون في القرون الماضية أنفسهم عبر وثائق موجودة إلى يومنا هذا. على أمل أن تولي الحكومات المتعاقبة اهتمامًا في سياستها الخارجية لتطورات المنطقة بما يتعلق بمكانة المسيحيين وعلاقتهم بنا وبحلفائنا، وإقامة علاقات مع الأديان الأخرى، وأنَّ عليها الاهتمام في سياساتها الداخلية بقضية الأقليات على أمل أن تحقق النجاح شريطة اتباع المعرفة الدقيقة والحسابات المتوازنة واستشراف صحيح للمستقبل، وتجنب أيّ إجراء عاجل وعاطفي وغير متوازن.

إيران والكنيسة الأرمنية(١)

لا شك في أنَّ منطقة الشرق الأوسط تعدّ أخطر منطقة في العالم المعاصر وأكثرها اضطرابًا، خاصة في السنوات الأخيرة، وهذا الاضطراب ليس سياسيًا وحسب، بل حتى من الناحية الاجتماعية والثقافية والدينية. ولا بد من معرفة جذور هذه الاضطرابات إذا أردنا أن نتحدّث عن السلام وتحقيقه فيها، وفي غير ذلك لا يمكن التوصل إلى الحل المناسب. وفيما يلي سأشير باختصار إلى بعض النقاط التي تخصّ هذا الموضوع، ولكن قبل ذلك أتطرّق قليلًا إلى أهمية التعاون بين إيران والكنيسة الأرمنية. فالأصدقاء الأرمن يوافقون الرأي على أنَّ الإيرانيين هم أقرب شعب إليهم في هذه المنطقة المتوترة، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، فلكليهما أوجه شبه مع بعض من الناحية الشكلية ومن ناحية العواطف والأحاسيس، مضافًا إلى العوامل التاريخية والثقافية واللغوية.

(١) مقال قُدِّم للنسخة السادسة من الحوار بين الإسلام والمسيحية الأرمنية، بتاريخ الثالث والرابع من مارس/ اذار ٢٠١٥.

الثقافة والفن الإيراني والأرمني

للأرمن الإيرانيين حضور بقدم التاريخ، وقد ازداد هذا الحضور وتعزز منذ العهد الصفوي، فهم يشكلون جزءًا من تاريخنا وثقافتنا. إنَّني رأيت الكثير من الكنائس التاريخية في أنحاء العالم، لكنَّها ليست متداخلة مع فنون البلدان التي فيها وعمارتها، كما هو الحال في كنائس الأرمن في أصفهان الممتزجة مع الفن والعمارة الصفوية. فالفنون والعمارة الأرمنية تداخلت في الحقيقة مع الفنون والعمارة الإيرانية حتى أصبحت جزءًا منها، وكما يقال أصبحت فنًا «محليًا»[1]. إنَّ عمارة هذه الكنائس هي عبارة عن تركيب من العمارة الإيرانية والعمارة الدينية الأرمنية، وكذلك الفنون المستخدمة في داخلها، فإنَّها تركيب من الفن الإيراني والأرمني والأوروبي. وإنَّ وجود لمسات من الفن الأوروبي يعود إلى حضور الفنانين الأوروبيين إلى أصفهان في العهد الصفوي.

والملاحظ أنَّ عمارة هذه الكنائس في الماضي، وحتى في الحاضر أحيانًا تشابه عمارة المساجد في العهد الصفوي، وهي مفروشة بالسجاد، كما هو الحال في المساجد، إذ يبدو أنَّ الطقوس العبادية متأثرة إلى حد ما بالأجواء العبادية والدينية فيها. وهذه الحالة تكشف عن الود والثقة المتبادلة مع أبناء الوطن الواحد من المسلمين. فالأقليات في السابق خاصة، كانت تسعى لحماية نفسها من الأكثرية عبر الانغلاق على نفسها، وعدم الاختلاط بالأكثرية السائدة في المجتمع، إلا أنَّ الأقليات الدينية في إيران – وعلى رأسهم الأرمن– ليسوا على هذه الشاكلة. فقد عاشوا في بطن المجتمع يمارسون فيه نشاطاتهم بكل حرية، ويشاركون الآخرين في مشاعرهم الدينية. والأنموذج البارز في ذلك هو المشاركة الفعّالة والمستمرة والقلبية للمسيحيين واليهود والزرادشتيين في شعائر عزاء الإمام الحسين – عليه السلام– في العشرة الأولى من شهر محرم. وهذه حقيقة متجذرة لها تاريخ عريق ومتواصلة إلى يومنا هذا.

إنَّ ما ذكرته أعلاه يشكل ثروة كبرى لنا ولأصدقائنا الأرمن، بل يمكن القول: إنَّها ثروة لكل المنطقة، ففي استثمارها يمكن التوصل إلى حلول تعود بالنفع والاستقرار للمنطقة المشحونة بالعداء والخصام وانعدام الثقة، فالثقة المتبادلة والسعي المشترك يمكن أن يلعبا دورًا كبيرًا في الاستقرار العام.

---

(1) Inculturation.

القضية الأخرى هي أنَّ الأرمن منتشرون حاليًا في مناطق متعددة من العالم، لكنَّهم أوفياء لكنيستهم التي تعدّ عمليًا أهم ركن لوحدة الأرمن وتعاونهم وتعاضدهم مع بعض. ومن هنا، فإنَّ التعاون الفعّال بين إيران والكنيسة الأرمنية يمكن أن يكون فاعلًا، وبنّاءً في هذا المجال أكثر ممّا نتصوره.

كان الهدف فيما ذكرت توضيح بعض النقاط حول أهمية وضرورة التعاون بين إيران والكنيسة الأرمنية، ولا بد من تفعيل هذا التعاون عبر إجراء مناقشة جدية وصريحة لآفاق هذا التعاون والمشاكل التي تعترضه، لتدوين جدول أعمال قائم على هذه الحقائق، وصولًا إلى تعاون بنّاء يخدم الطرفين، بل كل المنطقة.

مشكلات الشرق الأوسط

نعود إلى البحث الأصلي حول مشكلات الشرق الأوسط الحالية، التي يعود بعضها إلى إحياء الذكريات المريرة والتجارب التاريخية والطائفية والدينية والقومية المريرة. فمثل هذه التجارب والذكريات المريرة موجودة في كل منطقة من هذا العالم، وحتى تلك التي ليس لها تاريخ طويل، لكن ما يُؤسفُ له أنَّه يجري التركيز هنا ولأسباب عديدة على إحياء هذه الأمور، بل وإعادة إنتاجها من جديد، ولأسباب سياسية هناك من يحاول أن يبالغ في هذه التجارب المريرة، في حين يتم تجاهلها في مناطق أخرى من العالم، بل والعمل على إزالتها من الأذهان؛ ليحل محلها ما هو إيجابي، والمبالغة في هذه الإيجابيات.

ولهذه الظاهرة أسبابها كما قلنا، فبعضها سياسي لحفظ المكانة الفردية أو الأنظمة التي تنفخ في نيران العداء الطائفي والمذهبي للتأثير على الرأي العام وحماية نفسها من السقوط. فبعد أن سقط بن علي في تونس حاولت إحدى الدول الخليجية الصغيرة، التي اضطربت فيها الأوضاع أن تصوّر احتجاجات شعبها المحقة والعادلة على أنَّها نزاع طائفي ليس إلا! فكان هذا هو السبيل للخروج من المأزق والقضية الأساسية، وهي الاعتراض على الظلم والفساد والعنصرية. وقد حاولت ماكنة الدعاية على تصوير القضية بأنَّها طائفية، على الرغم من أنَّ أهل السنة أيضًا كانوا من المعترضين، لتجعل من المجتمع ثنائي القطب. وهذه ظاهرة خدمت الكثير من الأنظمة الضعيفة بعد الاضطرابات التي شهدها العالَم العربي.

لكنَّ الأهم من ذلك أنَّ هذه القطبية والطائفية لم تقتصر على الشيعة والسنة، بل انتشرت في كلّ المنطقة وقسّمت مجتمع الشرق الأوسط الكبير على أساس الدين والمذهب، وجعلت أفراد المجتمع في مواجهة بعضهم الآخر، في حين أنَّ شعوب هذه المنطقة عاشت لقرون إلى جانب بعضها البعض بما فيها من أديان ومذاهب مختلفة. وعلى الرغم من وجود نقاط مظلمة على مدى التاريخ الطويل، فإنَّ الأصل هو مبدأ التعايش السلمي والاحترام المتبادل.

أهمية تعزيز الأواصر

إنَّ هناك عاملي السياسة والإعلام يلعبان الدور الأكبر في التزوير والتحريض والتحريف، خاصة إذا كان الإعلام مدعومًا بالسياسة والمال؛ ليقوم بدور تخريبي كبير ومع الأسف، خاصة في أحداث المنطقة. وقد لا تجد في العالم كله وسيلة إعلام مؤثرة تقوم بما قامت به بعض وسائل إعلام المنطقة في تعريض السلامة والاستقرار المجتمعي إلى الخطر.

ولكن علينا أن نعترف أيضًا بوجود نواقص كثيرة أهمها غياب العلاقات الاجتماعية والثقافية السليمة بين مكونات المجتمع. لذلك، فإنَّ وجود المؤسسات والجمعيات الأهلية غير السياسية التي تستطيع إيجاد علاقة سليمة بين أفراد المجتمع، وتعزيز الروابط الفكرية والعملية فيما بينهم، أصبح ضرورة ملحة في عالم اليوم، وخاصة في منطقتنا الثرية بالطاقات الشابة الفاعلة. إنَّ هذه المنطقة تفتقر لمثل هذه المؤسسات، وإذا وُجِدت، فإنَّها وللأسف تعمل على التأجيج في التطرف الديني والمذهبي والسياسي، في حين كان من المفترض بها أن تعالج مشاكل الحياة اليومية؛ لتعزيز الوحدة الاجتماعية والانسجام المجتمعي، لتساعد على التنمية العامة بعيدًا عن التفكك الاجتماعي وتقسيم المجتمع إلى أقطاب متعددة.

أمّا عن المنظمات الإقليمية والدولية، فلا بد من القول إنَّ هذه المنظمات المختلفة لديها مسؤوليات متفاوتة، من الاقتصادية والتجارية والتنموية، إلى السياسية والحقوقية والأمنية، وإلى الثقافية والفنية والسينمائية؛ ذلك أنَّ مقاربة هذه المؤسسات حيال القضايا المختلفة هي مقاربة تخصصية كلاسيكية تعود إلى عقود مضت، بمعنى أنَّها

تحاول البحث عن حلول للقضايا المعقدة المتعددة الأبعاد التي يواجهها العالم حاليًا من طريق الأساليب القديمة، في حين يعيش العالم حاليًا في ظروف مختلفة تماما، في عالم «معولم» يتصف بالتأثر والتأثير المتبادل السريع، بما لا يمكن التنبؤ به، ولا وضعه في الحسبان، ويقع تحت وابل من قصف الكثير من عوامل القلق والاضطراب التي تسلب أمنه، ولهذا، فإنَّ الأمن الفردي والنفسي والاجتماعي أصبح ضعيفًا إلى حد كبير؛ للسبب العالمي الذي أشرنا إليه آنفًا.

إنَّ من الصعب جدًا فهم هذا العالم وفهم منطقه المتغير، وللوصول إلى فهم صحيح وحقيقي نسبيًا لا بد من الأخذ بالاعتبار عوامل كثيرة، وعوامل أكثر للرد على الشبهات والاستفسارات والمتطلبات. ولا شك في أنَّ للعنصر الديني أهمية أساسية وحياتية من بين هذه العوامل، ومن الضروري حضور علماء الدين الواعين العارفين بمنطق الزمان ومنطق المتغيرات التي يشهدها هذا العصر في مراكز الدراسات ومراكز القرار. فعالم الدين يستطيع أكثر من غيره أن يوضّح ويستدلّ على أنَّ التطرف الموجود ليس مصدره الدين، بل يتعارض في الأساس مع المبادئ والمعايير الدينية. فمثل هذا الكلام يبعث برسالة اطمئنان مهمة إلى المتخصصين وإلى عامة الناس. وإنه يستطيع أفضل من غيره أن يجد الحلول الدينية المناسبة؛ لنيل السلام والأمن والعدالة. وممّا لا شك فيه أنَّ الاستشارات مع أصحاب الاختصاص الآخرين سيكون نافعًا جدًا. وربّما كان من أفضل مجالات التعاون بيننا وبين الكنيسة الأرمنية هو المشاورات المستمرة بين علماء الدين من الجانبين للعمل على حضور مثل هذه المؤسسات والجمعيات. ويمكن لهذا التعاون أن يشكل بداية للتعاون الأوسع بين العلماء الإيرانيين والمسيحيين على مستوى المنطقة وخارجها أيضًا.

الفصل الرابع
المسيحية في أميركا اللاتينية

البابا وأميركا اللاتينية «رمز لإمكانات الدين المعاصرة»[١]

تعدّ أميركا اللاتينية جزءًا من العالَم الثالث ومعظم بلدانها أعضاء في مؤتمر عدم الانحياز، لكنَّ هذه المجموعة تختلف كلية عن بلدان القارات الأخرى الثلاث وكذلك بلدان العالم الثالث. ويتجسد هذا الاختلاف في كل شيء من البنية الاجتماعية والنفسية الفردية والاجتماعية، إلى تكوين تاريخها المعاصر وحقائقها السياسية والثقافية والدينية. وتنتشر في هذه الأرض الخصبة عمليًا لغتان أساسيتان هما الإسبانية والبرتغالية؛ وفيها أقلية صغيرة جدًا في منطقة الكاريبي تتحدّث باللغة الفرنسية. وهاتان اللغتان تنتميان إلى أصول واحدة ومتشابهتان بحيث يفهم بعضهم البعض.

وقد منح الاشتراك في اللغة وتجارب التاريخ سكان تلك المنطقة تماثلًا وتقاربًا في الأخلاق والملكات الروحية. إذ إنَّنا نادرًا ما نجد منطقة في عالم اليوم وبهذه السعة والمساحة الشاسعة تتماثل إلى هذا الحد في الثقافة والأخلاق والسلوك.

وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية التي يُنتخب فيها بابا من هذه المنطقة. وعلى الرغم من أنَّه ينحدر من أبوين إيطاليين، فإنَّه وُلِد في الأرجنتين، ولا يُنظر إليه على أنَّه أرجنتيني من قبل سكان تلك المنطقة، وإنَّما هو ابن أميركا اللاتينية، وأنَّه يحمل أخلاقها وروحياتها من الانفتاح والبساطة والتوادد. وعلى الرغم من إنَّه من الطائفة اليسوعية[٢]، فإنَّه متأثر بنظام تعليمي وتربوي شديد الدقة ومعقد إلى حد كبير. ولكن يبقى في النهاية من أميركا اللاتينية ممّا يوضح الكثير من الخصائص التي يتوفر عليها.

---

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ١٤/ كانون الثاني/ ٢٠١٧.

(2) Jesuits.

إنَّ الكنيسة الكاثوليكية عبارة عن مجموعة كبيرة تضم أكثر من مليار شخص من الأتباع موزعين في مختلف أنحاء العالم، إلا أنَّ أخلاق شخصياتها الدينية وسلوكها يتأثر بثقافة المنطقة التي تنتمي إليها. فأخلاق أيّ أسقف أو كاردينال، وحتى القس الأوروبي تختلف عن الإفريقي والآسيوي والأميركي اللاتيني؛ على الرغم من أنَّ هذه الخصوصيات ليست واحدة حتى في أوروبا نفسها، ومرتبطة بالبلد الأوروبي نفسه.

إنَّ كلامنا يدور حول البابا الذي ينتمي إلى أميركا اللاتينية، والذي أصبح أكثر الشخصيات تأثيرًا في تلك المنطقة ممّا سنشير إليه فيما يأتي.

تنصير أميركا اللاتينية

تدفّق الأوروبيون على القارة الأميركية بعد اكتشافها، فذهب الإسبان والبرتغال إلى الجنوب، فيما توجه بقية الأوروبيين إلى الشمال التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة وكندا. وكان كلاهما من الكاثوليك ومن المدافعين عنها بوجه أمواج النهضة البروتستانتية في أوروبا الشمالية والوسطى، وكان من الطبيعي أن يمارسوا عملية التبشير في المنطقة الجديدة، ولا سيما أنَّهم أصبحوا في تلك الأيام من أشد المدافعين عن الطرق التبشيرية مثل الفرانسيسكان[1] واليسوعيين والدومينيكان[2] وقد نجحت هذه النشاطات في تحقيق أهدافها بعد أن اعتنق أصحاب المنطقة دين المحتل ولغته، على الرغم من أنَّ فهمهم للمسيحية كان يختلف عن فهم المبشرين ممّا أدى إلى وقوع مشكلات فيما بعد. وهذا الكلام ينطبق بشكل آخر على العبيد من الأفارقة.

وغير دولة البرازيل الواسعة التي تتعلّق بالبرتغاليين كان الإسبان هم المسيطرون على مناطق أميركا اللاتينية، وكان كلاهما يدير مستعمراته من طريق الأشراف التابعين لهم. وكان لهم ولسائر المهاجرين من البرتغال والإسبان نظام ديني خاص بهم بما يتضمنه من كنائس عامرة كبرى، عليها بصمات الفن القادم من جنوب أوروبا، والمنسجم مع ثقافة وفن الأقليات الإسبانية والبرتغالية. وعلى الرغم من أنَّهم كانوا يؤكدون على تنصير السكان المحليين والسود - وهو الذي حصل فعلًا- فإنَّ مثل هذه الكنائس الفخمة المليئة بالنقوش، التي تحكي كل صورة منها عن قصة معينة، لم تكن تنسجم مع التراث الثقافي المحلي، ولهذا كانت غامضة وغير مفهومة لهم. ثم أنَّهم لم يكن يسمح لهم بالمشاركة في مراسيم هذه الكنائس المخصصة للأوروبيين وحسب.

---

(1) Franciscans.
(2) Dominicans.

موجة مضادة للكنيسة

استمر هذ الوضع لمدّة من الزمن حتى أواخر القرن الثامن عشر وبعد استقلال الولايات المتحدة، حيث انبرى الكثير من المتعلمين في أميركا اللاتينية، وعلى الرغم من انحدارهم من إسبانيا والبرتغال؛ للعمل على الاستقلال عن هاتين الدولتين، واشتدت هذه الظاهرة، حتى أوائل القرن التاسع عشر حينما حصلت هذه البلدان على استقلالها.

وقد اتخذت الكنيسة موقفًا مشددًا حيال حركات الاستقلال؛ لارتباطها الوثيق بالنظام الملكي في هاتين الدولتين، ممّا أدى إلى ظهور ميول معادية للكنيسة، لكنَّ هذه الميول تركزت عند المتعلمين من الإسبان والبرتغال من دون أن يكون للسكان المحليين أيّ دور؛ لغياب أيّ دور لهم في هذا الكفاح، ليصبح أصحاب الأرض على هامش هذه التطورات.

استمرت هذه الموجة المعادية للكنيسة والتي كانت أسبابها وطبيعتها تختلف عن تلك الموجة الموجودة في أوروبا، وأدت إلى وقوع تطورات في داخل الكنيسة اللاتينية، ومنها ظاهرة «لاهوت التحرير» التي انتشرت في مناطق أخرى، تواجه معاناة أميركا اللاتينية نفسها مثل إفريقيا، إلا أنّها لم تستطع أن تتبدل إلى تيار مؤثر فيها.

وقد تغير الأمر تدريجيًا، وانتقل السكان المحليون والسود، وخاصة المنحدرين من أصول أوروبية، من الهامش إلى الواجهة، وارتفعت وتيرة ذلك بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد ستينيات القرن الماضي وسبعينياته؛ ويصح هذا الكلام أيضًا على النخب هناك، فقد كانوا قبل هذا التحرك يدينون بالمسيحية الكاثوليكية الممزوجة بالآداب والتقاليد المحلية مع المسيحية الأوروبية، إلا أنّهم حطموا في نهاية المطاف هذا الصمت والسكون، فمنهم من توجه نحو لاهوت التحرير، ومنهم من اعتنق البروتستانتية، ومنهم من رفع راية الاحتجاج مثل المثقفين البيض.

البابا في أميركا اللاتينية

ربّما تعود الاحتجاجات الجادة الأولى إلى عام (١٩٩٢) حينما قرر البابا يُوحنَّا بولص الثاني تخليد الذكرى السنوية الخمسمائة لتنصير أميركا اللاتينية، والذهاب

بنفسه إلى هناك. إلا أنَّ المعترضين على هذه الزيارة، وهم من المثقفين المحليين أو المنحدرين من أصول أوروبية، أعلنوا أنَّ هذه الذكرى تمثل مرور خمسمائة سنة على الاستعمار والعبودية؛ لأنَّها قضت على التاريخ والتراث والحضارة، ونهبت فيها الثروات، وقُضي على الملايين في الحروب والأمراض التي حلت من أوروبا، وليس هناك داعٍ للاحتفال بهذه المناسبة.

لم يتوقع الفاتيكان على ما يبدو رد الفعل هذا، وسعى لعدم التعليق كثيرًا عليه. وعلى الرغم من أنَّ البابا ذهب في ذلك العام إلى أميركا اللاتينية، فإنَّه لم يلقَ ترحيبًا واسعًا هناك، وقال في كلمة لم تستغرق سوى عشر دقائق أثناء وصوله إلى جمهورية الدومينيكان، التي اكتشفها كريستوفر كولومبس للمرة الأولى: ((جئت إلى هنا من دون أيّ شعور أو غرور بالنصر، ومن دون أيّ إحساس بالخجل؛ لكي أشكر الله على مناسبة تنصير هذه القارة)). وقد قال يومها السفير البوليفي في الفاتيكان، وكان من الاشخاص المنحدرين من عرقين ويميل إلى السكان المحليين، إنَّ هذه الخطوة خاطئة ولا يمكن تبريرها.. ومثل هذا الموقف صدر أيضًا عن آخرين في أوروبا.

ويعد رد فيدل كاسترو (١٩٢٦ - ٢٠١٦) على البابا من أجمل الردود وأكثرها استدلالًا، فقد قال له لدى زيارته إلى كوبا سنة (١٩٩٨) بعد كلمة قصيرة ألقاها البابا في مطار هافانا، أشار فيها إلى الذكرى الخمسمائة لتنصير أميركا اللاتينية: ((أيها الأب المقدس، إنَّك لن تجد السكان الأصليين لهذه الارض التي قبلتها الآن، فقد قُضي على السكان المحليين الطيبين التواقين إلى السلام بعد مجيء الأوروبيين، فتم تشغيل رجالهم في المهن العسيرة، وأصبحت نساؤهم أداة ووسيلة لإشباع الرغبات والعبودية المنزلية. فمات الكثير منهم تحت وطأة ذلك، فيما قتل الكثير منهم من دون أيّ رحمة، أو أنَّهم باتوا قرابين للأمراض التي جلبها معهم الفاتحون. فقد اقتلعوا مليون إفريقي من أرضهم التاريخية، وجاؤوا بهم إلى بلادنا عبيدًا، كبديل عن العبيد المحليين. وأصبح هؤلاء الآن جزءًا من شعبنا وثقافتنا... وتقدر أعداد الذين قتلوا أثناء فتح هذه البقعة واستعمارها سبعين مليونًا من السكان المحليين، وأعداد الذين أصبحوا عبيدًا من السود الأفارقة اثني عشر مليونًا... إنَّني درست في مدرسة كاثوليكية، وكنت أسأل دائمًا لماذا لا يوجد أطفال من السود في هذه المدارس المخصصة للأثرياء والمتميزين ومنهم أنا شخصيًا؟ لا أنسى بأنَّني لم أحصل على الجواب حتى اليوم)).

وكان في مراسم استقبال البابا في مطار هافانا الكاتب المعروف الكولومبي المكسيكي والحائز على جائزة نوبل للآداب غارسيا ماركيز (١٩٢٧ - ٢٠١٤)[١]، جالسًا إلى جانب كاسترو للتعبير عن تأييده لمواقفه. وهذا الكاتب الذي توفي عام (٢٠١٤) يعدّ من كبار مثقفي أميركا اللاتينية.

وتضمّنت كلمة كاسترو الكثير من النقاط المهمة التي توضح جانبًا من خصوصيات أميركا اللاتينية، لكنَّ الأهم من ذلك أنَّ هذه الكلمة مثّلت مقاربته والمثقفين في القارة حيال المسيحية، نقتصر على ما ذكرناه منها تحاشيًا للإطالة. وهذه النقاط هي التي أوقفت الكنيسة عند حدّها، والتي كانت تتوقع حدوث الشيء نفسه، والتمهيد لسقوط النظام عندما زار البابا يُوحنَّا بولص الثاني بولندا سنة (١٩٧٩). فقد كانت وسائل الإعلام الغربية تتوقع الشيء نفسه، وتتحدّث به بكل صراحة، لكنَّها خاب ظنها، للسبب الذي ذكرنا.

مشكلة الكنيسة

ما ذكرناه آنفًا لا يمثل إلا جانبًا من الظروف التي تواجهها الكنيسة الكاثوليكية هناك، وإلا، فإنَّها أمام وضع صعب ومتأزم على تلك الأرض الشاسعة. وهذا هو الوضع الذي أشار إليه بمرارة الكاردينال مارتيني[٢] في آخر لقائه. إذ كانت الكنيسة البروتستانتية تستغل هذه الظروف؛ لتوسيع نفوذها هناك، وقالها بصراحة الأسقف كاستيلو مينديز (١٩٢٢ - ٢٠٠٩)[٣] الذي تولى رئاسة مجلس أساقفة البرازيل لدورتين: إنَّنا لا نستطيع في هذه الظروف مقاومة النمو المتزايد للكنيسة البروتستانتية القادمة خصوصًا من أميركا، والمعززة من قبلها. ولا شك أنَّ الشخصيات الكاثوليكية في عموم أميركا اللاتينية قد سمعت بهذا الكلام يومها من الباراغواي ومنطقة الكاريبي إلى تشيلي إلا أنَّنا نعزف عن ذكر المزيد من التصريحات عنه تحاشيًا للإطالة.

والطريف أنَّ بعض المثقفين من أميركا اللاتينية يتحدّثون بالمنطق نفسه، على الرغم من أنَّهم ليست لهم ميول نحو الكنيسة الكاثوليكية، لكنَّهم يخشون من تمدد

(1)Gabriel Garcia Marquez .
(2) Carlo Maria Martini.
(3)Luis Fernando Castillo Méndez .

الكنيسة البروتستانتية بدعم من أميركا لتوفر عمليًا أرضية مناسبة لتغلغلها هناك. وهم يرون أنَّ الكنيسة الكاثوليكية هي كنيسة محلية تدعم الهوية الثقافية والسياسية المستقلة للبلد؛ لذا يجب عدم تضعيفها، وهو كلام صحيح في محله.

وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، يمكن أن نستعين بكلام القس البرازيلي الذي خلع زيّه الديني السيد ليوناردو بوف[1] الذي قال لي قبل سنوات: إنَّ الفاتيكان استدعاني للرد على جملة من الاستفسارات، وكان السائل هو الكاردينال راتسينغر[2]، الذي تولى المجمع العقائدي الكاثوليكي[3] في عهد يُوحنَّا بولص الثاني. وكان السؤال يدور حول العقائد اليسارية التي كانت تميل نحو لاهوت التحرير بشدة. وبعد جلسات عدة أفتى راتسينغر بعزله عن منصبه كقس، في حين كان يميل إلى المذهب الفرنسيسكاني، إذ أصبح معروفًا في البرازيل وعموم أميركا اللاتينية بسبب نشاطاته الدينية وخدماته الإنسانية. وكان يعدّ من أهم الشخصيات التي سعت لإحياء غابات الأمازون وحماية البيئة في بلاده التي تعرضت للتخريب، بل إنَّه يعدّ من أهم المثقفين المعروفين على مستوى أميركا اللاتينية.

فقد قال لراتسينغر الذي تولى فيما بعد منصب البابا: ((سيدي.. إنَّني أعيش بين فقراء ساوباولو، فقراء في كل المجالات، الفقر المالي والفقر الثقافي والفقر العائلي، بحيث لا يعرف الولد أسرته، ولا يملكون تصورًا عن الحسن والقبيح، ولا يدرون ما الجيد وما السيئ. إنَّهم يعيشون في فراغ ثقافي وأخلاقي، وأنتم تعيشون في الفاتيكان كمقرّ للعمل والسكن، وليس لكم أيّ اتصال مع المحيط الخارجي؛ لذلك لا يمكن لبعضنا أن يفهم الآخر)).

وعلى الرغم من أنَّ أميركا اللاتينية تعدّ مركزًا للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنَّها واجهت مشاكل كثيرة من الناحية الدينية. واستمر هذا الوضع حتى في عهد يُوحنَّا بولص الثاني، الذي كان يعدّ فردًا استثنائيًا في فهم خصوصيات الثقافات المختلفة، واشتد على عهد راتسينغر.

---

(1) Leonardo Boff.
(2) Joseph Aloisius Ratzinger.
(3) Congregation for the Doctrine of the Faith.

أتذكر جيدًا موقف البرازيل ودول أخرى من هذه القارة في مؤتمر السكان، الذي عقدته الأمم المتحدة في القاهرة سنة (١٩٩٥) كان أكثر تطرفًا من الدول الأوروبية في تدوين الوثيقة النهائية، ما يخصّ منها الأخلاق الجنسية. وكان لإيران والفاتيكان تعاون مثمر في هذا المؤتمر؛ لتقارب المواقف أو تماثلها، ممّا ترك أثره على الوثيقة الختامية له. وكان وفد الفاتيكان مستغربًا جدًا ومتألمًا من موقف البرازيل ومن أيدها من دول أميركا اللاتينية، التي لم تعر أيّ أهمية لآراء الفاتيكان.

فترة عصيبة

انتُخِب البابا فرانسيس في سنة (٢٠١٣) في ظروف هي الأصعب، التي تمر بها الكنيسة الكاثوليكية على مدى عقود من الزمن، وذلك بسبب قضية التحرش الجنسي بالأطفال، إذ واجهت الكنيسة ضغوطًا كبيرة وانتقادات واسعة في المجتمعات الغربية. وقد بدأت هذه القضية في أميركا في عقد التسعينيات، ثم انتقلت إلى أوروبا بعد مدّة، حتى وصلت إلى بلدان مثل إيرلندا والنمسا وبلجيكا التي كانت تعدّ على طول التاريخ قاعدة للكاثوليكية، ممّا أدى بالكثير إلى التخلي عن هذه الكنيسة. وسبب ذلك المؤاخذات على الكنيسة بأنّها لم تُبدِ أيّ رد فعل إزاء هذه التجاوزات، وأنّها اقتصرت في مواقفها كحد أقصى على نقل القس المعتدي إلى مكان آخر من دون أن يغير ربّما من سلوكه، ليعاود جريمته من جديد، هذا إذا لم تتم ترقيته - كما حصل مع بعض المتهمين- إلى منصب الأسقف أو الكاردينال.

اشتدت هذه المشاكل وتفاقمت بمرور الزمان بسبب ضعف البابا يُوحنًا بولص الثاني وعجزه في السنوات الأخيرة من عمره، ومن ثم انتخاب راتسينغر خليفة له وهو انتخاب في غير محله، فأصبح ذلك عاملًا إضافيًا لنمو الأفكار المعادية للدين.

وبعد سقوط الكتلة الشرقية وفي التسعينيات تحديدًا اعترف بعض المفكرين، ولا سيما المتخصصين في مجال التنمية بأهمية الدين في إيجاد الأرضية المناسبة للنمو والتنمية والسلامة الاجتماعية. وقد تضمنت الكثير من النصوص التي كتبت في التسعينيات مثل هذه الملاحظات، حتى تلك التي أعدت في الأقسام المختلفة للأمم المتحدة، خاصة أنّها جاءت في وقت أدرك فيه الجميع وبشكل موثّق أهمية الاعتقادات

الدينية في الحيلولة من دون انتقال مرض الإيدز الذي كان شائعًا حينذاك.

ولكنَّ هذا النمط من التفكير تراجع بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر (٢٠٠١) وما تلاها من أحداث إرهابية، ليحل محله الفكر المعادي للدين مع ازدياد هذه العمليات، ومن ثم ليصل الذروة بعد بداية الربيع العربي، حتى بات الكثير يعتقد بأنَّ الدين هو مصدر كل هذه المشاكل، ويتخذ مقاربة معادية للدين.

مقاربة البابا الجديدة

في مثل هذه الظروف انتُخِب البابا فرنسيس الذي استطاع أن يحقق نجاحات كثيرة في مدّة قصيرة نسبيًا، وربّما كان نجاحه في أميركا اللاتينية أكثر من أيّ مكان آخر. ولا يدور الكلام هنا عن شخصه بقدر ما يدور حول الظروف التي تم تحقيق هذا النجاح فيها. فعلى الرغم من تنوع التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، والنتائج التي تمخضت عنها التطورات العالمية وكرست مفهوم العلمانية، فإنَّ الشخصيات الدينية الصادقة والأصيلة والواعية قادرة على القيام بدور إيجابي أكثر من غيرها، فإذا توفرت الخصوصيات المطلوبة في مثل هذه الشخصيات فإنَّها ستكون موفّقة أكثر من غيرها في هذا المضمار.

لهذا أصبح فرنسيس الشخصية الأكثر أهمية وتأثيرًا في كل أميركا اللاتينية، سواء على مستوى عامة الناس أو على مستوى النخب أو على مستوى الدولة وأهل السياسة والحكم. ويعود هذا النجاح بطبيعة الحال في جزء منه إلى انتمائه لتلك المنطقة. ويتضح هذا الموضوع أكثر لو تعرفنا على الخصوصيات الداخلية لأميركا اللاتينية، الأمر الذي لسنا بصدد مناقشته الآن.

إنَّ الصفات المهمة التي ساعدت على ازدياد شعبيته هي بساطته وابتعاده عن التكلف وصميميته، الأمر الذي يشهد عليه سلوكه وأفعاله وأقواله ومواعظه. فقد كان سلفه راتسينغر يضع في لقاءاته يده اليسرى حائلًا، وهو يصافح الآخرين؛ لكي لا يقتربون منه كثيرًا، إلا أنَّ فرانسيس يختلط بالناس، ويحتضن الفقراء والمرضى، ويتناول الطعام معهم، حتى أولئك المرضى الذين تتغير سحنات وجوههم من شدة المرض، ممّا لا يرغب الآخرون بالاقتراب منهم.

أمّا البابا يُوحنًّا بولص الثاني وعلى الرغم من أنَّه كان أكثر شعبية من خلفه، فإنَّه كان كثيرًا ما يتحدّث من موقعه كبابا، وليس من موقع شخصيته الدينية. وكما قلنا، فإنَّه أصر على الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لتنصير أميركا اللاتينية على الرغم من معارضة الكثيرين لذلك، مع أنَّ الدلائل التي ساقها المعارضون أكثر استيعابًا وفهمًا من تلك التي ساقها المناصرون. إلا أنَّ فرانسيس أعتذر وفي مناسبات مختلفة عن الأخطاء التي ارتكبت في الماضي أثناء تنصير أميركا اللاتينية.

فهو يتحدّث بأريحية وصميمية، ولكن مع عمق وحكمة ورصانة في الكثير من الأحيان، وبلا أيّ تعقيدات، كتلك التي تتحدّث في إطارها الشخصيات الكاثوليكية.

هذه الصفات جعلت منه شخصية شعبية مقبولة في أميركا اللاتينية، والأهم من ذلك أنَّه استطاع إخراج الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية من أتون المأزق الذي كانت تعاني منه، وتضخ في جسدها المتهالك روحًا جديدة؛ لتمنحها الحياة من جديد. وكما قلنا، فإنَّ هذه الكنيسة كانت تعاني من مشكلات كثيرة تعود إلى مرحلة التبشير الأولى وإلى المواقف التالية للكنيسة، كموقفها من حركات الاستقلال، ومن حركات التحرير والعدالة في القرن العشرين. كل هذه الأسباب دعت قطاعًا واسعًا من المثقفين في تلك المنطقة للابتعاد عن الكنيسة، فيما التجأ عامة الناس إلى الكنائس البروتستانتية، أو إلى الانشقاقات المحلية عن الكنيسة الكاثوليكية.

وقد عادت هذه البقعة من الأرض بعد مدة طويلة لتتصالح مع ماضيها الديني، وتخرج كنيستها من حالة الانطواء. وهذا التطور لم يقتصر على الجانب الديني، بل هي مطالبة بدور اجتماعي وسياسي أكبر، فلعل ذلك يساعد على الخروج من الظروف الصعبة، وهو ما عمل البابا فرانسيس على تنفيذه.

ففي سنوات معدودة تحققت إجراءات مهمة على أرض الواقع، فكان لوساطة البابا فرانسيس دور مهم في إصلاح العلاقة بين كوبا وأميركا، وهو ما اعترف به الطرفان وأعربا عن شكرهما لهذا الدور، والأهم من ذلك هو إنهاء الأزمة في كولومبيا والحرب بين الحكومة وجبهة فارك[1]، التي كانت تبتلع جزءًا كبيرًا من إمكانات البلاد وثرواتها. وإنَّ الحكومة الفنزويلية والمعارضة طلبتا وساطته، وكذلك البرازيل، إذ

(1) FARC.

تعاطى الفاتيكان بحذر مع هذه المطاليب.

إنَّ ما لا يمكن إنكاره هو شخصية البابا فرانسيس المميزة، التي لا بديل لها في حل هذه الأزمات على الرغم من وجود عوامل كثيرة أخرى. وهذا يعني بأنَّ الأجواء مهيئة للقبول بشخصية دينية تتوفر فيها الصفات المطلوبة - سواء في الماضي أو الحاضر- شريطة توفر هذه الصفات.

فعندما يبرق يُوحنَّا بولص الثاني إلى دكتاتور تشيلي بينوشيه (١٩١٥ - ٢٠٠٦)[1]؛ ليهنئه بمناسبة الذكرى الخمسين لزواجه، فليس لنا أن نتوقع من أميركا اللاتينية بأن تخضع لمثل هذا البابا، والغريب أنَّ بينوشيه لم يكن وقتها رئيسًا للدولة، إضافة إلى أنَّ ذكرى الزواج ليست بالمناسبة المهمة التي تستحق أن تقدّم شخصية مثل البابا التهنئة فيها. وفي هذا دلالة على التصرف الأحادي الذي عانت منه الكنيسة الكاثوليكية لمدّة طويلة.

دَور الشخصيات الدينية

غيرت شخصية البابا هذه القارة بسبب الثقة التي منحته إيّاه مختلف الفئات. أمّا الشخصيات غير الدينية، فإنَّها غير قادرة على كسب مثل هذه الثقة الشديدة والفعّالة والواسعة. إنَّنا لا ننكر بأنَّ المعتقدات الدينية باتت تعاني من الضعف في عصرنا الراهن في الكثير من مناطق العالم، ولكن مع ذلك، فإنَّ الشخصيات الدينية الواعية قادرة أكثر من غيرها في التأثير على الآخرين.

وهذا الكلام ينطبق على أوروبا المعاصرة أيضًا، ولكن بدرجة أقل. ففي مراسم تشييع الكاردينال مارتيني التي استغرقت ثلاثة أيام قبل دفنه شارك أكثر من مائتي ألف في هذه المراسم، التي أقيمت في كنيسة ميلانو بعد وفاته في أغسطس/ آب (٢٠١٢)، ومعروف أنَّ معظم الناس في إيطاليا تستغل هذا الشهر للإجازة والسفر، لذا، فإنَّ أعداد المشيعين كانت أكبر بكثير لو جرت المراسم في غير هذا الشهر. فمن الصعب أن تجد شخصية اجتماعية وفنية وسياسية وثقافية أخرى يمكن أن تحظى بهذا القدر من الاحترام والتقدير.

---

(1) Augusto Pinochet.

على أيّ حال، فإنَّ الكلام ليس حول شخصية فرانسيس، بل حول خصوصيات عصرنا الراهن[١]. وإنَّ أميركا اللاتينية هي مجرد أنموذج ومثال، وإلا فإنَّ الكثير من البلدان في القارات الأخرى طالبته بالتدخل والوساطة من الكونغو وجنوب السودان إلى أوكرانيا. وبطبيعة الحال، فإنَّ الرجل ومؤسساته المرتبطة به أذكى من أن يقوم بخطوة غير متزنة وعجولة أو التفوه بكلام غير موزون.

فقد وقعت في النصف الأول من التسعينيات أكبر المذابح بعد الحرب العالمية الثانية في الصراع بين الهوتو[٢] والتوتسي[٣] في رواندا وبروندي، قضت على نحو مليون شخص. ويعدُّ هذان البلدان الأكثر كاثوليكية من بين البلدان الإفريقية، لكنَّهما لم يطلبا التدخل والوساطة من البابا يُوحنَّا بولص الثاني.

ووقعت أيضًا في أوكرانيا أوائل التسعينيات مشاكل ذات جذور دينية، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي واستقلال أوكرانيا توترت الأجواء بشدة بين التوحيديين[٤]، وهم من الكاثوليك المنتشرين في غرب البلاد، وبين الأرثوذكس إلى الحد الذي أثر على العلاقة بين الكنيستين على مستوى العالم، لكن من دون أن يطلب أحد من البابا المساعدة على حل هذه الإشكالية؛ وذلك لأنَّهم يعتقدون بأنَّه جزء من المشكلة وليس طريقًا للحل. فلو كانت في تلك المدّة شخصية دينية تحظى بثقة الآخرين، لما ترددوا في الرجوع إليها والاستعانة بها. وبالطبع لا يمكن إنكار أنَّ تطورات السنوات الأخيرة ضاعفت الحاجة إلى مثل هذه الوساطات؛ لأنَّ المشاكل الحالية ليس بالإمكان حلها عبر الطرق الكلاسيكية.

على أيّ حال، لا بد من القول: إنَّنا نعيش في زمن يختلف كليًا عن الأزمنة الماضية، ويجب ألّا ننظر إلى الوضع الحالي عبر نافذة الماضين، وإنَّنا يجب ألّا ننسى الماضي ولكن من غير أن نتوقف عنده، وأن نتطلّع إلى الحاضر والمستقبل؛ ذلك أنَّ نسيان الماضي بما فيه من حلاوة ومرارة هو نوع من إضلال الذات الخطير، وأنَّ

---

(١) كتبت مقالاً تفصيليًا بعد انتخاب فرنسيس تحت عنوان: "ثورة ناعمة في الكنيسة الكاثوليكية"، توقعت فيه التطورات التي ستحدث بعد تبوئه هذا المنصب، وقد تحققت كلها تقريبًا، ووضحت خصوصياته بالتفصيل في ذلك المقال.

(2) Hutu.

(3) Tutsi.

(4) Uniate.

التعصب تجاهه والتطرف في وصف عظمته يؤدي إلى الوهم ويصيب بالشلل، الأمر الذي يعاني منه الكثير من دول الجوار.

لم يكن يتصور أحد إلى قبل سنوات بأنَّ الأوضاع تتغير إلى الحد الذي يستعان فيه بشخصية دينية للتدخل والتحكيم، وقد تستمر هذه الظاهرة وتتعزز في حال نجاح التجربة الحالية.

الكنيسة في أميركا اللاتينية وتحدّيات المستقبل[1]

في حفل اليوم الوطني الياباني الذي أقيم في سفارة هذا البلد في بيرو، قامت مليشيات توباك أمارو (١٣٣٨ - ١٧٨١)[2] باحتجاز الضيوف كرهائن، ما لفت انتباه الرأي العام فجأة إلى الحقائق المجهولة في أميركا اللاتينية. وقد تصوّر الكثير أنَّ انهيار الكتلة الشرقية أدّى بدَوره إلى تلاشي التنظيمات السرية الموجودة في هذه المنطقة، والتي تتبنى سياسات معادية للأنظمة. لكنَّ وقع هذا الحدث كشف عن أنَّ هذه التنظيمات حافظت على وجودها وأهدافها وارتباطاتها، وأنَّها على قدر كبير من الانسجام والقوة والتجربة. وكشف أيضًا أنَّ هذه الجماعات هي نتاج للظروف والأوضاع الداخلية، وليست ثمرة التحريض والدعم الأجنبي، في حين كانت هذه الحركات متهمة قبل سقوط الكتلة الشرقية بأنَّها عميلة للشيوعيين.

ولمناقشة الأوضاع في أميركا اللاتينية التي هي على درجة عالية من التعقيد أكثر ممّا نتصوره، ودراسة الحالة الثقافية والدينية هناك، والتي تتوفر على أهمية خاصة؛ لأنَّ الكثير من التطورات التي تجري هناك تنبع من جذور ثقافية ودينية أو أنَّها تتأثر بها، أجرينا هذا اللقاء مع الدكتور «محمد مسجد جامعي»؛ لتسليط الضوء على هذه الأبعاد وإجراء تقييم لها.

ما الخلفيات الدينية لسكان أميركا اللاتينية وإلى أيّ زمن تعود؟ وما مكانة الديانة المسيحية في تاريخ الالتزام الديني لهذه الشعوب؟

---

(١) نُشِر نصّ هذا الحوار في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٢ و٣ و٤ فبراير ١٩٩٧.

(2) Tupace Amaru.

إنَّ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على توضيح تاريخ هذه المنطقة وبداياتها، إذ يرجع هذا التاريخ إلى آلاف السنين قبل كريستوفر كولومبس (١٤٥١ - ١٥٠٦)[1]. وتدلّ الشواهد الموجودة على أنَّ الميول الدينية لدى سكان أميركا اللاتينية قوية وتعود إلى ماضٍ سحيق، وهذه الروح الدينية القوية هي التي كرست الديانة المسيحية في نفوس السكان. فقد جاءت المسيحية إلى هذه القارة مع الأوروبيين، إلا أنَّ الروح الدينية لسكان المنطقة هي التي احتضنت هذه الديانة، وليس بفضل الأوروبيين؛ لأنَّ هؤلاء جاؤوا إليها بهدف استغلال مصادر الثروة الطبيعية وسرقة الذهب من هناك، لا غير؛ لذا لم يكن هدفهم التبليغ للديانة المسيحية وفقًا للأساليب الإنسانية والأخلاقية. ولّما كانت هذه الديانة تحقق لهم مصالحهم، فإنَّهم سعوا لفرضها بالقوة والسلاح والأساليب التعسفية. ومهما يكن، فإنَّ اعتناق هذه الديانة والبقاء عليها إنَّما حصل نتيجة الروح الدينية التي كان يحملها هؤلاء السكّان، وليس نتاجًا لجهود الأجانب الذين حلّوا هناك. وقد دخلت المسيحية بعمق في وجدان ذلك المجتمع وتاريخه، حتّى أصبح من المتعذّر فهم التطورات السياسية والاجتماعية والفكرية من دون الالتفات إلى هذا الأمر. ولكن يجب ألّا ننسى أنَّ هذه المسيحية هي مسيحية أميركا اللاتينية وليست المسيحية الأوروبية أو الأميركية أو حتى الإفريقية والآسيوية.

هل يمكن تقديم صورة مناسبة عن الأبعاد المختلفة لمكانة الكنيسة في أميركا اللاتينية من دون الحاجة إلى دراستها في كلّ بلد على حدة؟

كما أشرنا، فإنَّ أميركا اللاتينية وعلى الرغم من تنوعها، فإنَّها تشكّل وحدة واحدة إلى حد ما. ومن الطبيعي أن يكون بلد مثل الأرجنتين تشكل الغالبية فيه من المهاجرين الأوروبيين مختلفًا عن البلدان الأخرى مثل بوليفيا والبيرو وغواتيمالا التي يعدّ معظم سكانها من المحليين، ولكن مع هذا الاختلاف، فإنَّ جميع هذه البلدان ترتبط بثقافة ومجتمع واحد يطلق عليه مجتمع أميركا اللاتينية. وهذا الكلام ينطبق أيضًا على الدين، فجميع المتخصصين في الشؤون الكنسية يعتقدون بحقيقة اسمها «كنيسة أميركا اللاتينية». وتناقش قضايا هذه الكنيسة في الفاتيكان أيضًا بصورة منفصلة، وفيه مؤسسات محددة لتمشية أمور هذه الكنيسة، ومن تلك المؤسسات المهمة ثمة لجنة

(1) Christopher Columbus.

يطلق عليها «اللجنة البابوية لأميركا اللاتينية»[1] ويرأسها أحد الكرادلة، فيما لا توجد مثل هذه اللجنة في الفاتيكان، لأيّ منطقة أخرى.

وما مسؤولية هذه اللجنة وواجباتها؟

تأسست هذه اللجنة لِلمرة الأولى سنة (١٩٥٨) بهدف مناقشة قضايا الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية ومشاكلها، والتنسيق بينها وبين الفاتيكان. وفي سنة (١٩٦٩) حصلت تغييرات في مسؤولياتها بعد تفاقم هذه القضايا وازديادها، وتوسعت هذه المسؤوليات أكثر سنة (١٩٨٨)، وأضيفت عليها تعديلات جديدة، وأصبحت مسؤوليتها حاليًا ليس فقط البحث في قضايا كنيسة تلك المنطقة، وإنَّما الإشراف عليها وتوجيهها في جميع القضايا الاعتقادية والعملية والإرشادية، والتنسيق معها والإشراف الكامل على نشاطات مجلس أساقفة أميركا اللاتينية.

كيف تقيّم نجاح الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية المعروفة بأرض الكاثوليك؟

إنَّ ما يطلق عليه بأنَّ أميركا اللاتينية هي أرض الكاثوليك حقيقة واقعة، فلا تجد أيّ قارة سوى أميركا اللاتينية تضم أكثرية سكانية من الكاثوليك. ففي أوروبا مثلًا يشكّل الكاثوليك نصف السكان، وفي أميركا الشمالية، فإنَّ الأكثرية للبروتستانت، ويشكل الكاثوليك أيضًا أربعة عشر بالمائة من سكان إفريقيا وأقل من أربعة بالمائة من سكان آسيا. هذا فيما يشكل الكاثوليك أكثر من ثلثي سكان أميركا اللاتينية. ولكن من غير المعروف ما إذا كانت الكنيسة الكاثوليكية ستنجح في الاحتفاظ بهذا الوضع من عدمه، بعد أن فقدت هذه الكنيسة في العقود الأخيرة الكثير من أتباعها، وواجهت المزيد من المشاكل التي لم تستطع أن تجد حلًا لها، ومن المستبعد أنَّها ستستطيع ذلك أو تقليلها على الأقل.

لو تابعنا بلدان أميركا اللاتينية قبل الاستقلال وبعده لشهدنا حالتين مختلفتين تمامًا في النسيج السياسي- الاجتماعي لتلك المجتمعات. هل يتغير مسار الكنيسة مع تغير الوجوه السياسية؟ وهل تتغير رؤى الناس إزاء الدين والكنيسة؟ وهل تضطر الكنيسة لمماشاة الوضع الجديد، أم أنَّها تقاومه؟

(1) Pontifical Commission for Latin America.

كانت جميع هذه البلدان قبل الاستقلال مستعمرات إسبانية، ما عدا البرازيل التي كانت مستعمرة برتغالية، وكانت الكنيسة في خدمة السلطة الحاكمة تمامًا، خاصة أنَّ البابا منذ السنوات الأولى لاكتشاف أميركا وضع مزايا دينية خاصة لملوك إسبانيا، ومن ثم ملوك البرتغال، أهمها تفويضهم بتعيين الأساقفة وحدود الأبرشيات وتقسيماتها الداخلية. ولمّا كان الأسقف يتمتع بالقدرة المطلقة في نطاق أبرشيته، فإنَّ القدرة المعنوية والمادية للكنيسة كانت في الحقيقة بيد الملك، الأمر الذي يستبطن تبعات كثيرة ونتائج كان الآباء الكنسيون ينظرون إلى الكثير منها على أنَّها نتائج سلبية.

وعليه، فإنَّ كنيسة أميركا اللاتينية ولدت وترعرعت تحت السيطرة السياسية والعسكرية والدينية والروحية لملوك إسبانيا والبرتغال، وكان معظم أساقفتها قبل الاستقلال من الإسبان أو الهجينين بين الإسباني والمحلي، ومن دون أيّ حضور للأساقفة المحليين. ومثل هذه الكنيسة بطبيعة الحال تخدم مصالح إسبانيا، وكان على الثوار الذين يناضلون لنيل الاستقلال مواجهة الكنيسة، إضافة إلى السلطة الحاكمة، ممّا ترك فيما بعد أثره الكبير على تاريخ كنيسة هذه القارة.

وعلى أيّ حال، فإنَّ الكنيسة سعت بعد الاستقلال إلى التكيف تدريجيًا مع الظروف الجديدة، ولا سيما أنَّ رجال الدين الأحرار اكتسبوا الجرأة على بيان آرائهم بشكل صريح أو قريب من ذلك، بفضل ظروف مرحلة ما بعد الاستقلال. وبلغت هذه المساعي حدًا بحيث يمكن القول: إنَّ تاريخ الكنيسة في أميركا اللاتينية بعد الاستقلال، ليس سوى الجهود التي بذلتها هذه الكنيسة؛ للتخلص من براثن التراث الاستعماري الإسباني والبرتغالي، والتكيف مع المرحلة الجديدة، وهي ظاهرة مستمرة إلى يومنا هذا.

هل شارك رجال الدين المسيحيون والكنيسة مع حركات الاستقلال أثناء مدّة الكفاح لنيل الاستقلال؟

كما قلنا، فإنَّ الكنيسة ومسؤوليها الكبار كانوا في خدمة المصالح الإسبانية والبرتغالية، ومعظمهم كان من الإسبان أو البرتغال، ولا يمكنهم أن يكونوا غير ذلك. نعم، قد نواجه بعض الحالات المحدودة التي وقف فيها القساوسة مع الثوار أو على رأسهم، فأثناء الثورة التي انتهت باستقلال المكسيك - على سبيل

المثال- تولّى قسٌّ باسم «ميغيل إيدالغو» (١٧٥٣ - ١٨١١)[1] قيادة جزء من الثوار المحليين أو الهجينين؛ وقد اعتقله الإسبان مع قس آخر من زملائه يطلق عليه «موريلوس» (١٧٦٥ - ١٨١٥)[2]، وتم إعدامهما. فمثل هذه الحالات موجودة، ولكنَّها استثنائية جدًا ونادرة.

لو أجرينا تقييمًا للنشاطات التنصيرية في أميركا اللاتينية، فأيّ الكنائس كان أوفر حظًا هناك؟ وأيّها كان في وضع سيئ؟

في الحقيقة أنَّ وضع الكنيسة، وما إذا كانت في حالة جيدة أو سيئة في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية وقبل أن يكون مرهونًا بنشاطاتها التنصيرية الناجحة أو الفاشلة، هو نتيجة للظروف الاجتماعية والثقافية السائدة هناك، وخاصة وحدة العرق أو تنوعه، ففي الأرجنتين مثلًا التي يشكّل المهاجرون الأوروبيون معظم سكانها، فإنَّ وضع الكنيسة في أحد أوجهها أفضل ممّا في البرازيل والمكسيك. وهذا الكلام يصح على المستقبل أيضًا بلحاظ الظروف الحالية التي تميل لصالح القوة، وعمق النزعات العنصرية والقومية، وهذا لا يعني بأنَّ الكنائس في الأرجنتين أو الأورغواي لا تعاني من المشاكل، فلهذه البلدان مشاكلها الخاصة، لكنَّها مقارنةً بالبرازيل والمكسيك تتوفر على وحدة وانسجام وقدرة أكبر.

ما أسباب الاضطرابات التي وقعت في بلدان مثل البرازيل والمكسيك؟ وهل كان للكنيسة دور فيها؟

من الخطأ أن نتصور بأنَّ الكنيسة الكاثوليكية في بلدان مثل البرازيل والمكسيك موحدة كما هو الحال في الكنائس الأوروبية الكاثوليكية، أو حتى الأرجنتينية. فالكنيسة في هذه البلدان متنوعة من داخلها لأسباب مختلفة، أهمها الأسباب العنصرية. وعلى الرغم من أنَّ هذه الكنيسة - سواء في هذه البلدان أو في الفاتيكان- تحاول أن تتجاهل هذا التنوع والتعدد، لكنَّها حقيقة واقعة يمكن أن تتسع وتتعمق إلى مدّة لا يمكن التنبؤ بها. فإذا نظرنا إلى القضية من هذه الزاوية، فمن الممكن أن نتوقع دعم السلطات الكنسية في هذه البلدان لمثل هذه الاضطرابات وتشجيعها عليها، علمًا أنَّ الدافع إلى الكثير من هذه الاضطرابات ليس اقتصاديًا بحتًا، وإنَّما ثقافيًا يستلهم زخمه من التفرقة العنصرية.

---

(1) Miguel Hidalgo.
(2) Jose Maria Morelos Pavons.

ما العوامل المؤثرة في اتساع المذهب البروتستانتي بشكل واسع، وعزوف ثمانية آلاف كاثوليكي يوميًا – حسب الإحصاءات البروتستانتية– عن الكنيسة الكاثوليكية، واعتناقهم للمذهب البروتستانتي؟

إنَّ المذهب البروتستانتي هو ظاهرة حديثة في دائرة المستعمرات الإسبانية. فالإسبان عند وجودهم في أميركا اللاتينية كانوا يمنعون حضور أيّ مذهب سوى الكاثوليكي؛ لوجود محاكم تفتيش العقائد. غير أنَّ البرازيل كانت ضمن المستعمرات البرتغالية، ويعود حضور المذهب البروتستانتي فيها إلى المُدد الأولى لاكتشاف القارة الأميركية، بمعنى أنَّ المهاجرين الألمان والهولنديين هم الذين جاؤوا بالبروتستانتية إلى البرازيل. ولكن لم يبدأ المذهب البروتستانتي بكسب الكاثوليك إليه إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وفي عقد الستينيات وما تلاه خاصة، حتى بلغ الذروة في الثمانينيات. أمّا الآن، فإنَّ القسم البروتستانتي الذي يزحف على تلك المنطقة هو النابع من جذور أميركية، وليس أوروبية.

وما الفرق بين الاثنين؟

إنَّ ظهور البروتستانتية الأوروبية ونموها يعود إلى الظروف الدينية والفلسفية والاقتصادية والسياسية الأوروبية في القرن الخامس عشر والسادس عشر، وهو مذهب منشق احتجاجًا على الكنيسة الكاثوليكية وتشكيلاتها وفلسفتها وكلامها وقيادتها، في حين لا يصح هذا الكلام عن البروتستانتية الأميركية. فالروح الدينية في أميركا هي قوية أساسًا، وإنَّ الذهن الأميركي ليس بتعقيدات الذهن الأوروبي لأسباب تاريخية وثقافية، وخاصة في المجال الديني، فالأميركيون يبحثون عن دين واضح وصريح وخالٍ من التشريفات والتعقيدات الفلسفية والكلامية، دين عملي يتناسب مع الحياة اليومية، ولا يطمح إلى غايات اجتماعية وسياسية لا يمكن الوصول إليها. ويمكن أن تجد هذه الخصوصيات في عامة الكنائس الأميركية المتعددة، ويعود إليها الفضل فيما حققته من نجاح في أميركا اللاتينية.

فلا يمكن للكنيسة الساكنة والمشحونة بالآداب والتقاليد والطقوس الكاثوليكية والبعيدة عن الحياة اليومية العملية للناس أن تقاوم الكنيسة النشطة التي ذكرناها قبل قليل. وقد سمعت مرارًا من سفراء أميركا اللاتينية في الفاتيكان من يقول: إنَّ البروتستانت الذين يتدفقون من أميركا نحو الجنوب إنَّما يعملون ويعظون ويبشرون

وفقًا لحاجات الناس، ومن دون أيّ تكلف، وبحيوية من دونّ أيّ كلل أو ملل. فالناس في مثل هذه الحالة تتجه نحوهم بأعداد كبيرة، وتشعر بعد دخولها الكنيسة الجديدة أنَّها تدخل حياة جديدة وعالمًا جديدًا. وهذا الكلام ينطبق تمامًا على أميركا اللاتينية، التي يشعر الكثير من سكانها بالإهانة، وخاصة المحليين منهم؛ ذلك لأنَّ الدين الجديد سيمنحهم الكبرياء وعزة النفس. وبهذه الطريقة استطاع البروتستانت أن يكسبوا نصف سكان غواتيمالا إلى مذهبهم في عقد الثمانينيات فقط.

وهل هناك أسباب سياسية لهذه الظاهرة؟

يحلو هذا الكلام للكثير من السلطات الكنسية، سواء في أميركا اللاتينية أو خارجها، وهو كلام صحيح إلى حد ما؛ ذلك أنَّ الأكثرية من سكان أميركا هم من البروتستانت، وأنَّ النظام الحاكم هناك بيد البروتستانت على الرغم من قدرة الأقلية الكاثوليكية وسلطتها، ولا شك في أنَّ من صالح أميركا أن تدين أميركا اللاتينية كلها بالمذهب البروتستانتي، وتعمل بجد لتحقيق هذا الهدف. ولكن من الخطأ أن نتصور بأنَّ هذا هو السبب الوحيد لزحف البروتستانتية على أميركا اللاتينية.

وهل هناك أسباب غير سياسية فيما يتعلق بأميركا اللاتينية؟

هذا سؤال مهم، فالدين في أميركا كحقيقة اجتماعية وسياسية هو أقوى بكثير من أوروبا وأكثر حيوية ونشاطًا، وحتى في حالات التحريض التي تعدّ اليوم في ثقافة الغرب عنفًا وإرهابًا. ففي أميركا تقع الكثير من الأحداث من قبيل الهجوم على المستشفيات والمراكز الصحية التي تقوم بعمليات الإجهاض، وتهديد الأطباء والكادر التمريضي، وتفجير قنابل ضعيفة الشدة في هذه المراكز الصحية، إلا أنَّ مثل هذا الشيء لا يقع في أوروبا أبدًا.

المثال الآخر الذي يمكن أن نسوقه هنا هو أنَّ الأقلية الكاثوليكية تشكل نحو عشرين بالمائة من نسبة السكان في أميركا، ويقوم مجلس الأساقفة الكاثوليك الأميركيين[1] بين الفينة والأخرى بمكاتبة رئيس الدولة برسائل تتضمن بعض النصائح من أمر ونهي حيال بعض القضايا، ومنها ما كتبته هذه الكنيسة إلى الرئيس الأسبق كلينتون، تطلب منه استغلال نفوذه؛ لمنع استخدام الألغام الأميركية المخصصة

(1) United States Conference of Catholic Bishops (USCCB).

لقتل الأفراد في جميع أنحاء العالم، ومنع تصديرها. كما نشرت هذه الجماعة رسالة شديدة اللهجة تندد به؛ لدعمه قانون الإجهاض، وهذا لا يمكن أن نرى له مثيلًا في أوروبا، بل لا يتجرأ مجلس الأساقفة حتى في البلدان ذات الأغلبية الكاثوليكية من كتابة رسالة إلى رئيس الدولة، فضلًا عن تضمينها أوامر ونواهي وإساءات إليه. بل إنَّ المجتمع نفسه لا يتقبل مثل هذا السلوك عن الكنيسة إن أرادت أن تقوم بهذا الدور.

إذًا، في مثل هذا المجتمع تجد من يسعى من الأفراد والمنظمات إلى التبليغ لعقائده بما لهم من إمكانيات مالية وتقنية، وإنَّ توجه الناس إليهم يزيدهم حماسة وتشجيعًا وحيوية.

تعدّ أميركا اللاتينية منطلقًا للنهضة المعروفة باسم لاهوت التحرير(1). ماذا يقول أصحاب هذه الطريقة؟ وهل يمكن فهم أساس هذه النهضة المعادية للكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية؟ وهل يمكن التحري عن علاقة ذات مغزى بين هذه الأفكار ووضع الكنيسة في أميركا اللاتينية؟

هكذا هو الأمر بالضبط. فقد وُلِد هذا اللاهوت في أميركا اللاتينية وترعرع هناك، وبات لديه أنصار في قارات أخرى. يقول مؤسس ومنظّر هذه الإلهيات القسّ الجريء غوستافو غوتيرز ميرينو (و: ١٩٢٨)(2) في مقابلة بمناسبة احتجاز رهائن في السفارة اليابانية في البيرو: إنَّ هذه الجماعة تمددت إلى إفريقيا وآسيا، لكنَّها لم يكن بالإمكان ولادتها إلا هناك. لذلك ولفهم هذه الجماعة لا بد من معرفة الظروف التاريخية والدينية والاجتماعية والثقافية لأميركا اللاتينية.

إنَّنا نؤكد على هذه النقاط؛ لأنَّ السلطات الرسمية للكنيسة الكاثوليكية تعدّ الإلهيات بأنّها أفكار ماركسية مسيحية، وإنَّ مؤسسيها ينظرون إلى المسيحية عبر نظارات ماركسية. وبغض النظر عن صحة هذا الحكم من سقمه، فإنَّ هذه الظاهرة لم تخضع في عموميتها وظروف ولادتها وتطورها لمشرحة النقد والتحليل، ولهذا أصبحت - وعن لا وعي- الكاثوليكية الأوروبية معيارًا للحكم على الكاثوليكية في أميركا اللاتينية.

---

(1) Liberation Theology.
(2) Gustavo Gutierrez Merino.

وما المقصود بهذه الظروف؟ أليست الكاثوليكية مذهبًا موحدًا في جميع أنحاء العالم، وهي التي تزعم بأنَّ لها بُعدًا عالميًا وشاملًا؟

هذا سؤال في غاية الأهمية. صحيح أنَّ الفرع الكاثوليكي للمسيحية يعدّ نفسه دينًا عالميًا، إلا أنَّ الحقيقة تقول إنَّ الكثير من مقومات هذا المذهب هو أوروبي بحت، أو على الأقل متأثر بشدة بالثقافة الأوروبية وتاريخها وتكوينها الاجتماعي في القرون السبعة عشر أو الثمانية عشر الأخيرة. فجميع المظاهر المادية الكاثوليكية من الآداب والتقاليد والطقوس الدينية إلى التنظيمات الكنسية، وإلى فنها ومعمارها وحقوقها هي أوروبية تمامًا. ومن المعلوم أنَّ حضور المذهب الكاثوليكي في العصر الجديد يقتصر على أوروبا من دون غيرها من المناطق إلى حد ما، وبالطبع كانت هناك بعض المشاكل في السابق، ولكن انتقل هذا المذهب إلى نقاط أخرى، ومنها أميركا اللاتينية في التاريخ المعاصر، وخاصة أثناء المرحلة الاستعمارية.

والكلام لا يدور هنا حول كيفية انتشار المذهب الكاثوليكي بين الأقوام المحلية في أميركا اللاتينية، والطرق والأساليب القاسية والوحشية التي استعملت لأجل ذلك، إلا أنَّ المهم في ذلك هو أنَّ هذه الأقوام تلقت الدين بطبيعتها البسيطة والفطرية، وآمنت به في الكثير من الأحيان أكثر ممّا كان يؤمن به المبشرون. غير أنَّ هذه الكاثوليكية التي فتحت قلوبهم لم تستطع أن تتكيف مع ظروفهم ومتطلباتهم، كما أنَّهم لم يستطيعوا الانسجام مع هذه الخصوصيات؛ لهذا فقد انتشر هذا المذهب من دون أن يفجّر فيهم روح الإبداع، والسبب في ذلك أنَّ مكوناته المختلفة لم تتناسب مع الظروف المحلية، فلم تشيّد الكنائس الفخمة الكبيرة على الطريقة الإسبانية، ولا نحتت التماثيل والرسوم، ولا حلت التقاليد الكنسية الجافة الغامضة، ولا مؤسساتها الدينية الكثيرة، ولا القوانين والحقوق الأوروبية في حقيقتها، كل هذه كانت غريبة على السكان المحليين وما زالت إلى يومنا هذا. فالكنسية الإسبانية كانت أشد وأغبى من أن تسمح بإجراء تغييرات في المظاهر المادية للكاثوليكية، تتناسب مع الوضع الموجود، فيما كان السكان المحليون يشعرون بغربة هذه الثقافة للمشاركة في تطوير فنها وتقاليدها على الرغم من تمسكهم القلبي بالمذهب الجديد.

وهل توجد هذه المشكلة في الأديان الأخرى؟

لا توجد على الأقل مثل هذه المشاكل في الإسلام كدين تبليغي عالمي؛ لعدم وجود صبغة ثقافية محددة لمبادئه الاعتقادية وتعاليمه ومظاهره من العبادات إلى بقية الآداب والتقاليد. فجميع العناصر والمبادئ الإسلامية حددها المؤسس وأتمها، وهو ما لا ينطبق على المسيحية؛ لأنَّ الكثير من تعاليمها وقوانينها تراكمت على طول التاريخ، وخضعت بطبيعة الحال لتأثير الثقافة الحاكمة وآدابها وتقاليدها.

خذ على سبيل المثال أهم مكان عبادي للمسلمين وهو المسجد، إذ يُبنى في مختلف المناطق بما ينسجم وظروف سكانها ومقتضيات حياتهم. وبطبيعة الحال هناك نوع من الوحدة تحكم هذه المساجد، ناتجة عن الإسلام نفسه وأصوله ومقرراته، فالمساجد التي تُبنى على سبيل المثال في تومبكتو[1] أو مومباسا[2] على الطريقة الإفريقية تختلف عن تلك التي تُبنى في الأندلس وفاس والقاهرة، وهذه تختلف أيضًا عن المساجد في أصفهان ويزد وإسطنبول ونيودلهي وفي آسيا الوسطى أو الشرق الأقصى. وهذا الكلام لا يصدق فقط على المساجد الكبرى والقديمة، وإنَّما على المساجد المحلية الصغيرة التي تشيَّد حاليًا أيضًا. ولا نجد مثل هذه التعددية في الكنائس الكاثوليكية الموجودة في إفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا التي نُشرت المسيحية فيها عبر الاستعمار. وعلى الرغم من أنَّهم يسعون حاليًا إلى بناء الكنائس بما يتناسب والثقافات المحلية، إلا أنَّ الأمر لا ينحصر في المباني فقط؛ لأنَّ الأبعاد المادية الأخرى لهذا المذهب هي أوروبية، من العبادات إلى القوانين والقرارات والفن المقدس الديني.

هل تعتقد أنَّ لاهوت التحرير لا يتوفر على التزامات سياسية واجتماعية؟

إنَّ الحديث يحوم حول الظروف التي وُلِد وترعرع في ظلها هذا اللاهوت. فإذا اتضحت هذه الظروف جيدًا، اتضحت الكثير من الأمور حول الوضع الديني في أميركا اللاتينية وأسباب الانتشار السريع للكنائس البروتستانتية وكيفية ذلك. فللكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية مشاكل مزمنة وكثيرة، تعود جذورها إلى التاريخ والخصوصيات التي تتوفر عليها. السؤال هنا: لماذا ظهرت هذه المشاكل الآن بالتحديد؟ يجب أن نبحث عن السبب في الظروف السياسية والاجتماعية للمنطقة. هذه المشكلات لم يكن بالإمكان ظهورها طالما كان الاستعمار جاثمًا هناك. وعلى الرغم

(1) Timbuktu.
(2) Mombasa.

من أنَّه تمكن مشاهدة هذه المشاكل إلى حد ما بعد الاستقلال، وخاصة في المكسيك، فإنَّها لم تكن تظهر بتلك القوة؛ لأنَّها ترتبط بالسكان المحليين، خاصة أنَّ هذه البلدان وقعت بعد مدّة وجيزة بيد الديكتاتورية العسكرية. ولكن بعد اكتسابها مساحة من الحريات النسبية والنضج الذي وصل إليه السكان المحليون أطلّت وللمرة الأولى رؤوس المشكلات الكامنة والمزمنة، وتجسدت بأشكال مختلفة، عبر النفور من الكنيسة ومخالفة تعاليمها الرسمية، والسعي لاستقلالية المؤسسات الدينية. هذه المطاليب هي التي أثارت الكنيسة الرسمية، وعلى الرغم من أنَّ بعض انتقادات الكنيسة الرسمية مقبولة من الناحية الكلامية، فإنَّ السبب الرئيس لردود فعلها هو الحيلولة من دون وقوع انشقاقات فيها ومن ثمّ ضعفها.

هل يمكن القول: إنَّ لاهوت التحرير هو نتيجة نوع من الإشعار بالذات والتاريخ والثقافة المحلية؟

لا شك أنَّ هذه العناصر متأثرة بالموضوع. وبالطبع لا يمكن إجراء مقارنة بين أميركا اللاتينية وأيّ مناطق أخرى. فالمفاهيم والمعايير في أميركا اللاتينية خاصة بتاريخ تلك المنطقة وثقافتها، وهي استثنائية بكل المقاييس؛ لأنَّ الحقائق فيها حديثة ومستحدثة، ولا يزيد عمرها عن خمسة قرون. صحيح أنَّ حضارة السكان المحليين وتاريخهم يعود إلى قرون قبل ذلك، ولكن يجب أن يُنظر إلى هذه الحضارة على أنَّها جزء من الحقيقة، وأنَّ تاريخها الجديد ليس امتدادًا للتاريخ القديم. وقد تكونت أميركا اللاتينية في شكلها الجديد من المهاجرين الأوروبيين وعبيد إفريقيا، إضافة إلى السكان المحليين. ولهذا، فإنَّ تاريخ أميركا اللاتينية ليس استمرارًا لتاريخ السكان المحليين، وكذلك ليس استمرارًا لتاريخ أوروبا أو إفريقيا، بل هو عبارة عن شكل جديد لم يكتمل قوامه وانسجامه بعد.

يمكن القول - بلحاظ ما ذكرنا-: إنَّ لاهوت التحرير متأثر بالتاريخ والثقافة المحلية وبآمال الطبقات المستعبدة والمهانة والكادحة من السكان المحليين، ومن عامة السود، ومن الأفراد الهجينين، وبعض البيض. يعدّه «غوتيرز» - أهم منظّر لهذه الإلهيات- بأنَّه الظاهرة الأولى من نوعها في أميركا اللاتينية والجنوب، ويقول: ((إنَّه فكر نقدي حول الإيمان المسيحي من وجهة نظر المسيحيين الذين يناضلون من أجل التحرر والخلاص)).

يمكن القول بناءً على ذلك: إنَّ لاهوت التحرير بأوسع أشكاله لا يستطيع أن يحل إلا جزءًا من مشاكل أميركا اللاتينية. فلهذا الجزء من العالم مشاكل عميقة ومعقدة تنبع من ماضيها التاريخي، وهي مستمرة وربّما بشكل أشد.

ومن الطريف أن نذكر هنا بأنَّ اسم المليشيات التي احتجزت ضيوف السفارة اليابانية هو «توباك آمارو»، وهو في الحقيقة اسم آخر ملك لحضارة الإينكا[1]، وكان رجل دين كبيرًا. إذًا، فالقضية ليست فقط كفاحًا من أجل العدالة، وإنَّما هي نوع من الاعتراض على الثقافة الحاكمة ورغبة بالعودة إلى الأصالة التي سحقها الاستعمار وقضى عليها.

يعتقد بأنَّ إفريقيا تمر بظروف أقسى من أميركا اللاتينية، فلماذا لم تظهر مثل هذه الحركات في إفريقيا؟

أولًا: أنَّنا شهدنا في المدّة الأخيرة نمو النزعات الاستقلالية في الكنيسة الكاثوليكية في إفريقيا. ففي مؤتمر للأساقفة الأفارقة تحدّث بعض الأساقفة بكلام خارج إطار الكنيسة الرسمية، في حين عُقِد هذا المؤتمر في الفاتيكان نفسه لضبط المتحدّثين فيه. ثانيًا: في إفريقيا أنصار كثر لحركة لاهوت التحرير. ثالثًا: أنَّ الظروف في أميركا اللاتينية أكثر وخامة في إحدى أبعادها من الأوضاع في إفريقيا. فالمشكلة الإفريقية تتركز على الفقر والتخلف، في حين تضاف إلى ذلك في أميركا اللاتينية مشكلة الهوية، وهذه تعدّ أساس الكثير من المشاكل، التي لا يمكن أن نتصور حلًا لبعضها. ولّما كانت أخبار أميركا اللاتينية وحقائقها أقل انتشارًا، فإنَّ الكثير يتصور بأنَّ هذه المنطقة هادئة ومستقرة.

فذات مرة قال لي أحد سفراء أميركا اللاتينية في لقاء خاص إنَّ منطقته تواجه أسوأ عملية حصار خبري، موضحًا بأنَّ نحو عشرين قنبلة انفجرت في عدد من كنائس بلاده، كاحتجاج على زيارة البابا إلى نيكاراغوا من دون أيّ صدى للخبر، في حين تقوم وسائل الإعلام بتغطية انفجار محدود في أيّ نقطة من العالم.

ما الجماعات الدينية الأخرى من المسيحية أو غيرها التي تعدّ تحدّيًا للكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية؟

---

(1) The Inkas.

إنَّ الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية – كما قلنا– تواجه أزمة عميقة، على الرغم من أنَّها تتوفر على إمكانيات جيدة ومدعومة بشكل خاص من الفاتيكان، وقد تستطيع بذلك أنَّ تحل بعض مشاكلها، ولكن ممّا لا شك فيه أنَّها فقدت وستفقد جزءًا من أنصارها لصالح البروتستانت.

وبالطبع، فإنَّ للديانة الإسلامية فرصة كبيرة بين ذوي البشرة السوداء في أميركا اللاتينية وأميركا الشمالية أيضًا. فهناك حاليًا نزعة واسعة للعودة إلى أصالة الأجداد في جميع هذه المناطق، وإنَّ أجداد الكثير من السود في أميركا الشمالية والجنوبية كانوا من المسلمين، من أولئك الذين اختطفهم الأوروبيون واستغلوهم كعبيد، لكنَّهم احتفظوا إلى مدّة طويلة بمعتقداتهم وتقاليدهم وآدابهم، وحتى أدعيتهم وأذكارهم ممّا هو محفوظ في المتاحف حاليًا كتراث قديم. وتوجد جماعات من السود المسلمين الذين شكّلوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تنظيمات، وخاصة في البرازيل، وقاتلوا ضد الاستعمار والاستغلال.

فإذا حصل بحث وتحقيق وتمحيص في التاريخ الإسلامي للسود الأميركيين، فسيؤدي ذلك إلى وقوع موجة كبيرة من العودة إلى الإسلام في الوقت الذي يفكر الجميع بالعودة إلى الأصالة، ولا سيما أنَّ للإسلام عناصر جاذبة مستلهمة من الفطرة والحق، خاصة إذا علمنا أنَّ سكان أميركا اللاتينية وعلى عكس الأوروبيين ليست لهم أيّ نظرة سلبية تجاه الإسلام.

على الرغم من أنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني معروف عنه بأنَّه زعيم ديني – سياسي له مواقفه في الكثير من القضايا العالمية، فلماذا أصر على أن تبقى كنيسة أميركا اللاتينية بعيدة عن القضايا السياسية؟ في حين أنَّ ابتعادها عن السياسة على ما يبدو لا يأتي بنتيجة إيجابية للكنيسة.

إنَّ ما يقال من أنَّ المسيحية لا علاقة لها بالسياسة هو كلام بعيد عن الصحة في العصر الحاضر فيما يتعلق بالكنيسة الكاثوليكية، التي لها أهدافها المعروفة وأجندتها في التشجيع على هذا الشيء. ألم تلعب الكنيسة الكاثوليكية في بولندا والكثير من بلدان أوروبا الشرقية دورًا سياسيًا في الثمانينيات، وأصبحت من أهم المؤسسات السياسية؟ كما قامت هذا الكنيسة في إفريقيا وبعض دول آسيا، مثل تيمور الشرقية وهونغ كونغ وكوريا الجنوبية والصين وفيتنام بأدوار سياسية، خاصة في تلك البرهة الزمنية. وحقيقة

الأمر أنَّ الكنيسة في تلك المناطق عملت بشكل سياسي ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، بل إنَّ ذلك يعدّ مبدأ من مبادئها، وهي ليست بحاجة إلى تبرير مواقفها؛ لأنَّها تعمل في الأساس من منطلق سياسي، ويجب البحث عن الأسباب عندما لا تتدخل في السياسة بحسب الظاهر.

ولكنَّ أسباب الكنيسة وكيفية تدخلها في السياسة مرتبط بالظروف والأوضاع العامة. فحينما لا تستطيع الكنيسة أن تتدخل بالسياسة في أوروبا مثلًا؛ فلأنَّها تواجه مقاومة هناك، وفي أميركا اللاتينية؛ فلأنَّها ممنوعة من ذلك في بعض المناطق، لما تجلبه من مشاكل في المجتمع، وبنية الكنيسة نفسها ممّا لا تستطيع السلطات الدينية ضبطها والسيطرة عليها. فالفاتيكان يسمح بتسييس الكنيسة حينما لا يضر ذلك بنيتها وتكوينها؛ ذلك أنَّ الأولوية بالنسبة له هو حفظ النظام الكنسي وحمايته في مختلف الظروف، ولهذا، فإنَّها توقفت في بعض الأحيان عن تشجيع الكنيسة الإفريقية في التدخل في السياسة.

هل يمكن أن نصنف الكنائس في البلدان الأميركية بين كنائس وطنية وأخرى تابعة للفاتيكان؟

أولًا: ترتبط الكنائس الكاثوليكية بأجمعها مع الكنيسة الأم في الفاتيكان بعلاقة اعتقادية وتنظيمية وتاريخية، على الرغم من أنَّ الكثير من الكنائس في البلدان الأوروبية المتطورة باتت ترغب بالحصول على نوع من الاستقلال. ثانيًا: أنَّ بنية الكنيسة في أميركا اللاتينية تصنف على أنَّها محافظة وأكثر تقليدية من أن تطالب بالاستقلال. والحقيقة أنَّ الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية تدار بقبضة حديدية، ولا يمكن أن نتصور أنَّها تفكر بالاستقلال لمثل هذا الكنيسة الرسمية، ولا يوجد شيء اسمه الكنيسة الوطنية أساسًا. ولكن يمكن القول: إنَّ بعض الكنائس في أميركا اللاتينية أكثر ارتباطًا بالفاتيكان، وهذا ما لا ينكره أحد. وتتواجد هذه الكنائس بطبيعة الحال في البلدان التي تعاني نوعًا من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، مثل السلفادور ونيكاراغوا، والبلدان التي يشكّل المهاجرون الأوروبيون أكثرية فيها.

التقى كاسترو[1] – في حياته– بالبابا، ومن المقرر أن يقوم البابا بزيارة كوبا العام المقبل، فما أهمية كوبا للفاتيكان؟ وهل سيستجيب كاسترو لمطاليب الفاتيكان؟

ثمة بُعد رمزي لكوبا لدى الفاتيكان. وهي البلد الوحيد في أميركا اللاتينية التي لم يكن قد زارها البابا، والبلد الوحيد الذي يحكمه نظام اشتراكي قد صمد على الرغم من تهاوي حلفائه وحماته، والبلد الذي تنظر إليه باحترام عامة الحركات اليسارية في أميركا اللاتينية، ولدى بعضها نزعات معادية للكنيسة. فحينما وافق كاسترو على لقاء البابا للمرة الأولى، حقق الفاتيكان نصرًا كبيرًا على المستوى الدولي وعلى صعيد أميركا اللاتينية، وتداعت إلى الأذهان علاقات الفاتيكان مع الكنيسة البولندية ودول الكتلة الشرقية السابقة.

إن تجارب السنوات الأخيرة برهنت على أن كوبا لن تشهد تحولات كبرى مع بقاء كاسترو في السلطة، على أنَّ كاسترو ما يزال يحظى بمحبة شعبه ومودتهم واحترامهم.

إنَّ هدف الفاتيكان كان التغلغل في المجتمع الكوبي، سواء في عهد كاسترو وبعده، وهو هدف دعمته وبشكل كبير أوروبا وأميركا، فلا بدّ من التمهيد التدريجي لأيّ تحولات قد تطرأ في هذا البلد، بحيث لا تتوتر الأوضاع في منطقة الكاريبي ويتدفق جياعها على البلدان المجاورة ومنها أميركا، ويعدُّ الفاتيكان أفضل مَن يقوم بهذه المهمة، بما يملكه من منظومة واسعة وثراء كبير، وهو يستطيع أن يروّض النزعات الثورية الموجودة في أميركا اللاتينية.

يبدو أنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني لجأ إلى السلوك الازدواجي في معالجته للصراع الفكري والعلمي بين رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية. ما تحليلك حول ذلك؟

نعم توجد مثل هذه الازدواجية في السلوك. وقد قام الفاتيكان في عهد هذا البابا بمثل هذا التعاطي في الكثير من الحالات. فالكلمة النهائية تعود في الصراعات الفكرية والعقائدية إلى الكاردينال راتسينغر[2] كونه أعلى سلطة فلسفية وكلامية في

---

(1) Fidel Castro.
(2) Joseph Aloisius Ratzinger.

الفاتيكان، وهو الذي اتخذ موقفًا من لاهوت التحرير، وأحد منظّريه المعروفين الجريئين ليوناردو بوف[1]. أمّا البابا، فلا يتدخل مباشرة في مثل هذه الحالات على الرغم من أنَّ مواقفه السياسية أكثر محافظة من راتسينغر، وهو ما ينطبق على أميركا اللاتينية.

وقد استقبل البابا لدى زيارته إلى السلفادور حتى المتهمين بقتل أسقف العاصمة أوسكار روميو (١٩١٧ - ١٩٨٠)[٢]. وكان أسقفًا معروفًا وتقدّميًا ويميل إلى لاهوت التحرير، وقد قُتِل هذا الأسقف في مؤامرة خطّط لها جنرالات الحكم هناك. وقد عبر عن دعمه لبينوشيه[٣] والجنرالات التي كانت تحكم الأرجنتين والدكتاتوريات الحاكمة في تلك المنطقة، إذ قام في إحدى المرات بإرسال برقية تهنئة بمناسبة الذكرى الخمسين لزواج بينوشيه، وهي برقية تتضمن الكثير من المغزى؛ لأنَّ ذكرى الزواج ليست بتلك الأهمية بحيث يبادر البابا نفسه بهذه المهمة!

ومع ذلك، فإنَّه لا يتخذ في العادة مواقف محددة، وعدم الصراحة هذه هي السبب وراء حل الكثير من المتناقضات الاعتقادية والفردية للمؤمنين ورجال الدين الكاثوليك، إذ يقال إنَّ الكنيسة وعلى الرغم من ضعفها وأخطائها، فإنَّ زعيمها ليس على هذه الشاكلة ومواقفه إيجابية ومقبولة. وقد واجهت شخصيًا العديد من أمثال هؤلاء الأفراد، ومعظمهم من القساوسة الأفارقة ومن أميركا اللاتينية.

وكيف تقيم مستقبل الدين، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية؟

من المتوقع أن تشهد الكنيسة الكاثوليكية في كليتها تغيرات مهمة في المستقبل؛ وستبدأ هذه التغيرات في عهد البابا المقبل، بل كان يمكن أن تظهر حاليًا، لولا خصوصيات البابا الحالي. ويمكن القول: إنَّ هذه التغييرات قد بدأت بالفعل ومدّت جذورها وبانتظار الفرصة المناسبة لِلظهور والتجلي؛ ذلك لأنَّ ظروف العالم قد تغيّرت كثيرًا ، كما هو الحال في الدور الذي يمكن أن يلعبه البابا.

لقد استمرت مدّة البابا «الأسبق» أكثر من أيّ بابا آخر في القرن العشرين، وحظي بتقدير معظم البلدان الغربية وغير الغربية، وخاصة لدوره المهم في إسقاط

---

(1) Leonardo Boff.
(2) Oscar Arnulfo Romero.
(3) Augusto Pinochet.

الكتلة الشرقية واستقرار أنظمة جديدة فيها، وهو ما رحّب به الغربيون. وقد سعى الفاتيكان في السنوات الأخيرة لتنسيق مواقفه مع المقتضيات السياسية العالمية المعاصرة والتحرك بالاتجاه نفسه، من تناقضاته الصريحة مع الأنظمة الشيوعية إلى تقاربه مع اليهود وإسرائيل، الأمر الذي زاد من أهمية الفاتيكان وزعامتها.

وأدى هذا الوضع إلى تراجع الأصوات من التيارات من أصحاب الأفكار الأخرى، سواء من رجال الدين أو غيرهم، وخاصة في أوروبا؛ ذلك أنَّ أصوات المعارضين كانت لتعلو وتجد لها متسعًا من الفرص لطرح آرائهم، لولا هذا التوافق بين الفاتيكان والأنظمة الحاكمة في الغرب. والفضل يعود في ذلك - كما قلنا- إلى دور البابا ومكانته وقدراته، الأمر الذي سيترك بصماته على مستقبل التغييرات التي سيشهدها الفاتيكان.

ولكن من المعروف أنَّ البابا لا يرفع أحدًا إلى منصب الكاردينال إلا أن يفكر على شاكلته!

نعم، هذا صحيح، بيد أنَّ الظروف العامة بعد هذا البابا ستكون هي العامل الرئيس للتغيير، وليس من المهم كيف ستكون معتقدات من يتولى الرئاسة في الفاتيكان، أضف إلى ذلك، فإنَّ مكانة الكنيسة الكاثوليكية وإهمال الآراء الكاثوليكية الأخرى، إنَّما هو ناتج عن مقبولية البابا كشخصية دولية مرموقة، وليس عمّا يعتقده. أمّا البابا التالي، فهو يحتاج إلى مدّة زمنية كافية لفرض شخصيته، مهما كانت طبيعة هذه الشخصية.

وكيف سيكون عليه الوضع في أميركا اللاتينية في المستقبل؟

قلنا إنَّ الكنيسة الكاثوليكية ستشهد في العموم تغييرات في المستقبل، وبضمنها الكنيسة في أميركا اللاتينية. وبالطبع ستختلف التغييرات التي ستحدث في كنيسة أوروبا عنها في الكنيسة الإفريقية، وستكون التغييرات في أميركا اللاتينية أكثر، خاصة إذا تراجعت الأهمية الدولية للفاتيكان. إنَّ البعد الدولي للفاتيكان في أميركا اللاتينية يؤدي إلى استقرار الكنيسة ووحدتها أكثر من أيّ نقطة أخرى في العالم.

إنَّ الكنيسة الكاثوليكية في أميركا اللاتينية تفقد الكثير من أنصارها، خاصة المحليين وأصحاب العرق المزدوج، وإنَّ هذه الكنيسة مرغمة على القبول بالكثير من

العناصر التي كانت وإلى وقت قريب من الممنوعات من أجل أن تتكيف مع الواقع الجديد، كما أنَّها اضطرت لتغيير بنية الكنيسة لصالح الحضور الفعّال والمؤثر لعامة الناس، ممّا كانت تؤكد عليه حركة لاهوت التحرير. إنَّ تأثير هذه الحركة يجب ألّا يحسب على أساس الكم والكيف لأتباعها. فتأثيرها الرئيس إنَّما يحصل في التغلغل في معتقدات الكنيسة الرسمية وبنيتها، ممّا سيتعزز هذا الأمر في المستقبل.

الفصل الخامس
الكنيسة الأرثوذكسية «استعادة الدور»

نحن والكنيسة الأرثوذكسية الروسية(1)

في البدء أجد من اللازم أن أتقدّم بالشكر لمنظمي هذا الملتقى وأرحب بالمشاركين فيه من الضيوف الكرام أجمل ترحيب. إنَّنا في مثل هذه الظروف العسيرة والمأزومة جدًا في العالم وفي منطقتنا، بحاجة ماسة إلى مثل هذه الملتقيات للتعاون والتشاور الفكري بحثًا عن حل لهذه الأزمات، أو على الأقل التقليل من آثارها؛ ذلك أنَّ جزءًا من صعوبة هذه الظروف يعود إلى غياب المشاورات الجادة بين أصحاب الرؤى والمصالح المشتركة. إنَّني على أمل كبير بأن يستطيع هذا الملتقى توفير الأجواء الحقيقية لإقامة مثل هذا التعاون. وأنا بدوري سأطرح هنا وباختصار موضوع «الفرص والتحدّيات وسبل الارتقاء بالتعاون» على أساس الدراسات والعلاقات والتجارب الكثيرة التي خضتها في معترك الحياة.

حقيقة الكنيسة الأرثوذكسية

توجهت إلى الفاتيكان أواسط عام (١٩٩١) سفيرًا لبلادي هناك، بعد أشهر من انتهاء احتلال الكويت وعشية انهيار الكتلة الشرقية وتفكك الاتحاد السوفيتي السابق. وكان لهذا الحدث الأخير تداعيات كثيرة على الساحة الأوروبية، وخاصة العلاقات بين الكنائس المختلفة، ولا سيما الكنيستين الكبيرتين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

---

(١) مقال قُدِّم إلى الملتقى التاسع لمركز حوار الأديان والكنيسة الكاثوليكية الروسية بتاريخ ٢٥ و٢٦ أغسطس/ آب ٢٠١٤، ونُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ١٧/ أيلول/ ٢٠١٤.

ويطول بنا المقام إذا أردنا تقديم توضيح وإن كان مختصرًا جدًا حول التطورات التي جرت بين الكنيستين المذكورتين في تلك البرهة. وقد ركّزت يومها على استيعاب المنطق الفكري والسلوكي للكنيسة الأرثوذكسية، التي كانت تعيش في تلك المدّة حالة مأزومة وانفعالية ودفاعية، ولاكتشاف هذا المنطق لا بد أن أقرأ ما كتبوه وأسمع ما قالوه بدقة، سواء من رجال الدين أو غيرهم، وسواء ما يعود منها إلى التاريخ والثقافة والعقائد وتجاربهم الصعبة من الأنظمة الشيوعية، أو إلى مواقفهم وعتبهم على الكنيسة الكاثوليكية ووسائل إعلامهم ومطبوعاتهم.

كان هذا أول تعاطٍ جاد لي مع حقيقة الكنيسة الأرثوذكسية، هذه الكنيسة التي قلما كان يصغي إليها أحد في أوروبا في السنوات الأولى من عقد التسعينيات؛ ذلك أنَّ موجة النقد الواسع للشيوعية كانت من القوة والشمول بحيث لم تعد ترى أيّ نقطة إيجابية في دائرة الكتلة الشرقية، وكان ينظر إلى الكنيسة الأرثوذكسية على أنّها جزء من النظام الاشتراكي الحاكم، وأنّها كانت تعمل لخدمته وتحقيق مصالحه وتكريس وجوده. ومثل هذه النظرة وهذه الدعاية أثّرت بدورها على العالم الإسلامي وأجّجت حرب البلقان والبوسنة. وبالطبع، فإنَّ الحقيقة لم تكن مثلما جرى تصويرها في الأذهان، وربّما كانت إيران أسرع من غيرها من البلدان الإسلامية في استيعاب هذا الموضوع، وسعت لاتخاذ سياسة أكثر انفتاحًا حيال الكنيسة الأرثوذكسية. ففي ذروة الحرب البوسنية التقى سفيرنا في سارايفو لمرات عدّة مع البطريارك الفقيد للكنيسة الأرثوذكسية الصربية بافله (١٩١٤ - ٢٠٠٩)[1]، وإلى جانب ذلك جرت لقاءات عدّة بين المسؤولين السياسيين والدينيين الإيرانيين مع أسقف زغرب الكاردينال كوهاريتش (١٩١٩ - ٢٠٠٢)[2] وأسقف سارايفو فينكو بوليتش (١٩٤٥)[3]، الذي ارتقى منذ وقت قريب إلى منصب كاردينال.

(1) Patriarch Pavle.
(2) Cardinal Franjo Kuharic.
(3) Cardinal Vinko Pulijic.

إيران والكنائس الأرثوذكسية

المهم هنا أنَّ إيران أدركت بأنَّ حل قضية البوسنة أو التقليل من توتراتها يمر عبر استخدام الأدوات الدينية أولًا، وأنَّ الكنيسة الأرثوذكسية لها دور رئيس في ذلك ثانيًا، بحيث لا يمكن تجاهل ذلك تحت وطأة التأثير الدعائي والإعلامي. لهذا كانت إيران السباقة لإقامة علاقة مع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية، ليس من بين الدول الإسلامية وحسب، وإنَّما على المستوى العالمي. وعلى حد علمي، فإنَّ الدول الغربية الكبرى، وخاصة أميركا وإنكلترا سعت نحو إقامة هذه العلاقة مع الكنيسة الصربية بعد مدّة من الزمن.

في تلك البرهة الزمنية أيقنت إيران بأهمية الكنيسة الأرثوذكسية الروسية باعتبارها الكنيسة الأم والظهير الحقيقي لهوية الشعب الروسي وثقافته وتاريخه، كحقيقة تساعد على توسيع وتعميق العلاقات الثنائية، وعلى الصعيد الداخلي إيجاد علاقة أفضل بين الأقلية الروسية المسلمة والمجتمع هناك والدولة الروسية، خاصة مع وقوع بعض المشاكل في منطقة القوقاز والقوقاز الشمالية، والتي كانت تتفاقم يومًا بعد آخر. إنَّني قمت بزيارة إلى موسكو في خريف عام (١٩٩٣)، والتقيت بالبطريارك الروسي الفقيد أليكسي الثاني (١٩٢٩ - ٢٠٠٨)[1]، وتعرفت عن قرب على الأقسام الدينية والتعليمية لهذه الكنيسة، وفي ضوء هذه العلاقة تم تعيين ممثل للكنيسة الروسية في إيران القس زركشوف، وبدأت مذ ذاك الحوارات الثنائية الدينية واستمرت.

وعلى الرغم من أنَّ لإيران الكثير من الحوارات واللقاءات مع الكنائس المختلفة، فإنَّ الحوار مع الكنيسة الروسية أكثر تنظيمًا، ما يعني وجود إرادة من الطرفين على الاستمرار بهذه العلاقات النافعة. والسؤال الذي يُطرح هنا: هل يمكن أن تصبح هذه العلاقات أكثر فعالية؟ وما السبل إلى تحقيق ذلك؟

---

(1) Patriarch Alexy II.

حقيقة روسيا الأوروآسيوية

تعدّ روسيا حقيقة أوروآسيوية. وهذه الحقيقة كانت حاضرة دائمًا وستبقى على الرغم من التقلبات التاريخية، سواء في عهد القياصرة أو أثناء الحكم الاشتراكي وما بعده.

إنَّ هذه الحقيقة التاريخية والهوية هي السبب إلى حد ما وراء المشاكل بين الغرب وروسيا، فهم يريدون روسيا أوروبية وليس أوروآسيوية، بمعنى سياسة روسية وفق المعايير الأوروبية، إلا أنَّ روسيا تريد أن تكون كما هي وتبقى روسيا كما هي. فموقف هذا البلد يأتي في سياق مواقف جميع البلدان التي تريد استمرار حياتها على أساس ثقافتها وهويتها.

وغير ذلك، فإنَّ روسيا هي من البلدان القليلة التي تقف بوجه سلطة الغرب وتواصل نهجها الذي تسير عليه. والمثال البارز على ذلك السياسة الشرق أوسطية الروسية بعد الربيع العربي. والنقطة الأخرى هي خصوصيتها الأوروآسيوية، إذ إنَّ انتماءها إلى بعدها الآسيوي يمنح ثقلًا لهذه القارة في العلاقات الدولية. وما يعزز هذا الثقل هو التعاون الوثيق بين روسيا وبلدان آسيوية أخرى مثل الهند والصين، وهو ما يصبّ في مصلحة روسيا والقارة الآسيوية ككل.

وهنا لا تمكن الإشارة إلى جميع الجوانب المرتبطة بالحقيقة الأوروآسيوية لروسيا وإحصاء النتائج التي تترتب على ذلك. ويمكن القول إجمالًا: إنَّ ذلك يعود بالنفع علينا وعلى جميع البلدان المستقلة التي تطمح إلى مواصلة مسيرها وفقًا لثقافتها وإمكاناتها. والمهم هنا أنَّ الكنيسة الروسية تدعم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وبقوة هذه الحقيقة التي أشرنا إليها، فالكنائس الأرثوذكسية ومنها الكنيسة الروسية هي أكثر شرقية من الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية؛ لأنَّ هذه خصوصيات ذاتية لهذه الكنائس.

ويجب ألّا ننسى بأنَّ روسيا هي أكبر دول العالم وتضم قوميات وأديان وثقافات مختلفة. ولا شك في أنَّ الكنيسة الروسية لها مكانتها الخاصة، ولكن هذا يجب ألّا يؤدي إلى تهميش الأديان والثقافات الأخرى. فالإسلام والثقافة الإسلامية تمثل أيضًا جزءًا

من هذه الحقيقة، بل إنَّها جزء من الهوية الروسية، إذ إنَّ الخصوصية الأوروآسيوية الروسية تعود إلى حد ما إلى فضل الإسلام والتراث الإسلامي.

الأقلية المسلمة في روسيا

فضلًا عمّا ذكرنا، فإنَّ روسيا بحاجة إلى حلفاء ودول مسايرة لها لو أرادت اتخاذ سياسة مستقلة على الصعيد الدولي بعيدًا عن الهيمنة الغربية، وهناك الكثير من الدول الإسلامية التي ترغب في الاصطفاف معها، وهذا الأمر يتطلب أن تتبوأ الأقلية المسلمة هناك مكانتها اللائقة بها.

لهذا، فإنَّه يصبح من الضروري الاهتمام بالقوميات والأديان الأخرى، ومنها الدين الإسلامي. وعلى الرغم من أنَّ هذا الاهتمام يقع على عاتق الدولة والمسؤولين الحكوميين، فإنَّ الكنيسة الأرثوذكسية يمكنها أن تلعب دورًا بنّاءً لتحقيق هذا الهدف. ولا شك أنَّ التعاون بين إيران وهذه الكنيسة هو فرصة ثمينة لها؛ لكي تقوم بدورها المطلوب، وهو تعاون يمكّن بدوره من إيجاد حلول لتعديل الفكر التكفيري، وضبط الجماعات المتطرفة الموجودة في روسيا؛ ذلك أنَّ أحد أسباب الفكر التكفيري هو عدم التعمق في المعلومات الدينية. وتعدّ إيران من دون شك واحدة من أهم بلدان المنطقة من ناحية ثراء الفكر الديني والفلسفي والعرفاني لسد النقص الحاصل في هذه المعلومات.

ومن المشكل أن نستعرض في مقال قصير كل أوجه التعاون الممكنة، ولكن ممّا لا شك فيه أنَّ أحد أهم هذه الأوجه هو التعاون العلمي والأكاديمي، فهناك الكثير الكثير من النصوص الدينية الغربية مترجمة إلى اللغة الفارسية، سواء من قبل السلطات الدينية أو الأساتذة من غير ذوي الاتجاه الديني، ولكن من النادر أن نجد نصوصًا أرثوذكسية مترجمة من قبل الأرثوذكس أنفسهم. وهذا الكلام يصح أيضًا على الأبحاث المسيحية، فهناك الكثير من الكتب والرسائل التي كتبت عن ثقافة ومعتقدات الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية ممّا لا نجد مثيلًا له حول الكنيسة الأرثوذكسية.

مسيحيو الشرق الأوسط

المثال الآخر الذي يمكن أن يساق هنا هو الحضور المستمر لمسيحيي الشرق الأوسط، ومعظمهم من الأرثوذكس، فهم يمثلون جزءًا من تاريخ المنطقة وثقافتها، خاصة أنَّ أثرهم على الأدب وثقافة المجتمع العربي المعاصرة أكثر من نسبتهم العددية، غير أنَّ التحدّيات التي نجمت عن الربيع العربي عرّضت مكانتهم للخطر، في حين يخدم حضورهم ولأسباب عديدة التعادل الاجتماعي والثقافي، ويمنع الأحادية الفكرية والسياسية لهذه المجتمعات؛ ذلك أنَّ الفكر التكفيري لم يكن ينمو بهذا الشكل، ويصول ويجول كما يحلو له، لو كان لهذه الأقلية دور أكثر نشاطًا في الجوانب الاجتماعية والثقافية.

ولحسن الحظ، فإنَّه ليس لدى مسيحيي المنطقة، وخاصة الأرثوذكس منهم أيّ نشاطات تبشيرية، وهذه قضية مهمة؛ لأنَّ مثل هذه النزعات تمهد بحد ذاتها لانتشار الأفكار السلفية. وممّا لا شك فيه أنَّ التعاون بين إيران والكنيسة الروسية، وجميع كنائس المنطقة من شأنه أن يساعد كثيرًا على تحسين الظروف والأوضاع. فلو كان مثل هذا التعاون والمشاورات قائم منذ بداية الأزمة في سوريا؛ لما تطورت الأمور إلى ما وصلت إليه، ولكان وضع البلد ومسيحييه أفضل ممّا هو عليه الآن.

وحقيقة الأمر أنَّ مجالات التعاون هي أكثر بكثير ممّا أشرنا إليه، وإنَّ مثل هذا التعاون يمكن أن يفتح آفاقًا جديدة وفقًا لما تقتضيه ظروف البلدين والأوضاع الدولية، وإنَّ المهم في كل ذلك هو أن يتقدّم الطرفان بهذا التعاون بإرادة جادة مع ملاحظة الحقائق والمحددات الموجودة على الأرض.

الاعتراف المتبادل «على هامش لقاء البابا وكيريل»[١]

لا ريب في أنَّ لقاء البابا[٢] والبطريارك كيريل (و: ١٩٤٦)[٣] أعلى مسؤول ديني في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يعدّ أهم حدث سياسي- ديني في السنوات بل العقود الأخيرة. فقد جرى هذا اللقاء في يوم الجمعة ١٢ شباط/ فبراير عام (٢٠١٦)

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ٢٢/ شباط/ ٢٠١٦.

(2) Pope Francis I.

(3) Patriarch Kirill.

في بلد ثالث هو كوبا، ممّا بعث على الكثير من الأمل. والمهم في ذلك هو البيان الذي صدر عن هذا اللقاء، الذي استمر على مدى ساعتين من الزمن، والذي وُقِّع عليه بحضور الرئيس الكوبي والسلطات الدينية من كلتا الكنيستين. ويعدُّ هذا النص من أشمل النصوص التي وُقِّعت بين شخصيتين معروفتين عالميًا وأكثرها اعتدالًا وسياسة. ولا يعرف أهمية هذا النص وشموليته إلا من كان مطلعًا على المشاكل والتنافس والعداء بين الفاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية الروسية، خاصة بعد نهاية الحرب الباردة، إذ أبدى الجانبان وإلى حد كبير مرونة واستعدادًا لقبول الآخر.

وفي تحليل هذا الحدث أشار أكثر المحللين إلى الصراع التاريخي بين هاتين الكنيستين، والذي يناهز الألف عام تقريبًا، ولكنَّ الأهم من ذلك هو زيادة التوتر بينهما منذ بداية العقد التاسع من القرن الماضي، ممّا لا سابقة له على مر التاريخ الحديث؛ لذلك، فإنَّ التوقيع على مثل هذا التفاهم بعد نحو عقدين من الزمن، بحيث تتغير طبيعة العلاقة بين هاتين الكنيستين بما تحتويه من مشاكل وتعقيدات وارتباطات وقيود كثيرة، يعدّ أمرًا خارقًا للحقائق، ومرونة في قبول الآخر من دون أيّ نزعة للثأر من بعضهما البعض. أضف لذلك، فإنَّ البيان أشار إلى كل قضية نزاعية مهمة بينهما، وسنحاول فيما يلي الإشارة إلى أبرز هذه النقاط باختصار.

بداية التوتر بين الكنيستين

بعد انهيار الكتلة الشرقية توترت فورًا العلاقة بين الكنائس الأرثوذكسية، خاصة المتواجدة في دول الاتحاد السوفيتي السابق والكتلة الشرقية والكنيسة الكاثوليكية، وأخذت يومًا بعد آخر أبعادًا أكثر شدة. وحقيقة الأمر أنَّ السبب في هذه المشاكل إلى حد كبير الكنيسة الكاثوليكية التي لعبت دورًا كبيرًا في الإيقاع بالكتلة الشرقية، ابتداءً من دعمها سوليدارنوتش[١] في بولندا - حركة التضامن بقيادة ليخ فاونسا[٢]- إلى المواقف والإجراءات الأخرى التي لسنا بصدد بيانها الآن. وقد كانت

---

(1) Solidarnosc.
(2) Lech Walcsa.

الطرفَ المنتصرَ في المعركة، وتتحدّث مع الطرف الآخر بهذه الروح الاستعلائية. كما أنَّ جمود الكنائس الأرثوذكسية، وتعاون بعضها في الخفاء مع الأنظمة الشيوعية، جعلها ضعيفة في مقابل الخصم.

وبعد إعلان استقلال اسلوفينيا وكرواتيا من جانب واحد، قام الفاتيكان بالاعتراف بهما في أقل من أربع وعشرين ساعة وسط استغراب الجميع حتى الحلفاء التاريخيين لهما مثل ألمانيا والنمسا. هذا الاعتراف أدى إلى بلوغ التوتر بين الكنيستين إلى ذروته، وعززت الأحداث التي وقعت فيما بعد، وخاصة حرب البلقان سوء الظن لدى الأرثوذكس. ووجه بعض الأساقفة مثل أسقف الكنيسة الأرثوذكسية في اليونان سيرافيم (١٩١٣ - ١٩٩٨)[١] انتقادات صريحة إلى البابا يُوحنَّا بولص الثاني[٢] والفاتيكان، بل حتى وجهت إليهم الشتائم، فيما اكتفى البعض بالإدانة في داخله من دون أن يفصح عنها. في حين اتخذ البطريارك الروسي السابق أليكسي الثاني[٣] طريقًا وسطًا مكتفيًا بالانتقاد والعتب.

سرعان ما انتقل هذا التوتر إلى جميع الكنائس الأرثوذكسية خارج إطار الكتلة الشرقية، وأصبحت وجهًا لوجه مع الفاتيكان، وبدوره ألقى هذا الحدث بظلاله على الكنائس البروتستانتية، التي أساءت الظن هي الأخرى بالكنيسة الكاثوليكية، وأثرت على العلاقة بينهما. وعقّد هذا الوضع حرب البلقان واشتداد أوارها، التي تعود في جانب كبير منها إلى هذا العداء والتنافس الشديد بين الكاثوليك والأرثوذكس في حدود يوغسلافيا السابقة.

وفي تلك البرهة الزمنية عُقِد مؤتمر لأساقفة أوروبا في الفاتيكان، ودُعِي إليه البطريارك بارثولوموس (١٩٤٠)[٤]، كزعيم للكنيسة الأرثوذكسية المستقرة في إسطنبول، وشارك البابا شخصيًا في جميع جلسات المؤتمر. وقد بعث البطريارك ممثله في إيطاليا المطران سبيريدون (و: ١٩٤٤)[٥] الموجود في فينيسيا، والذي انتقد في خطابه وبشدة إجراءات الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة في غرب أوكرانيا، وقال إنّهم احتلوا

---

(1) Seraphim of Athens.
(2) Pope John Paul II.
(3) Patriarch Allexy II.
(4) Bartholomewe I.
(5) Metropolitan Spyridon.

قسرًا وجبرًا الكنائس الأرثوذكسية في تلك المنطقة - كاثوليك تلك المنطقة من التوحيديين(١)- ممّا استدعى الكاردينال سيلوستريني (١٩٢٣ - ٢٠١٩)(٢) للرد عليه بلهجة حادة. وقد انعكس هذا الجدال الذي لا سابقة له في أوروبا في الصحافة حينها.

في النصف الثاني من عقد التسعينيات وقعت حوادث كثيرة ترتبط بالعلاقة بين الكاثوليك والأرثوذكس، سواء في البلقان أو أوكرانيا أو سائر جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، من تبادل الاتهامات، إلى أساليب التبليغ الديني لاستقطاب الآخرين، إلى الاستيلاء على الكنائس وتوسيع الأبرشيات الكاثوليكية في بلدان الكتلة الشرقية السابقة، وخاصة روسيا، وإلى الحرب المسلحة. وبغض النظر عن اليونان التي تتمتع كنيستها بظروف خاصة، فإنَّ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية هي الكنيسة الوحيدة التي قاومت واستطاعت مواجهة هذا المد، على الرغم من أنَّ حكومة يلتسين (١٩٣١ - ٢٠٠٧)(٣) ووزير خارجيته كوزيروف (و: ١٩٥١)(٤) لم تولِ أهمية كبرى للكنيسة الروسية، ولم تقدّم لها دعمًا في مواجهة المنافسين من الخارج. وقد سمعتُ هذه الملاحظة شخصيًا ولمرات عديدة من الشخصيات الدينية الروسية، وحتى سفيرهم في الفاتيكان السيد كارلوف(٥)، وبلغة دبلوماسية طبعًا.

جهود لخفض التوتر

توصل الفاتيكان إلى تصورات جديدة بعد هذه التطورات السريعة والمقلقة، وسعى إلى العمل على خفض منسوب التوتر من طريق الوسيلة الأنجع وهي إرسال وفود حسن النية، والدعوة إلى الحوار وإبداء الرغبة الجادة في إصلاح الخلل في العلاقة والتعاون مع بعض. وقد تركت هذه الإجراءات أثرها الإيجابي، ولا سيما أنَّ دول الكتلة الشرقية السابقة، ومنها روسيا كانت ترغب بتحسين العلاقات بين كنائسها والكنيسة الكاثوليكية، حتى أنَّ السفير اليوناني قال ذات مرة: ((إنَّ حكومتنا لا توافق على آراء السيد سارافيم وكلامه الجارح، إنَّنا نرغب بعلاقة حسنة وودية مع

(1) Uniate.
(2) Achille Silvestrini.
(3) Boris Yeltsin.
(4) Andrei Kozyrev.
(5) Yuri Karlov.

الفاتيكان)). إذ إنَّ السياسة الرسمية لليونان كانت على هذا الخط.

سارت الأحداث بسرعة، وأصر البابا يُوحنَّا بولص الثاني حينها على توسيع الاتحاد الأوروبي، إذ لا تمر مناسبة إلا وتطرّق إلى هذا الموضوع، وهو ما كانت تصبو إليه البلدان الأرثوذكسية في شرق أوروبا، غير أنَّ النقطة المهمة هنا هي أنَّ الفاتيكان بدّل مقاربته حيال الكنائس الأرثوذكسية، ولم يعد يستغلها لما يصبّ في مصلحته. استمرت هذه المقاربة الجديدة حتى قامت القيادة الرمزية للكنيسة الأرثوذكسية المتمثلة بالسيد بارثولوميوس بزيارة روما، وعيّن ممثلًا خاصًا للارتباط مع الفاتيكان، وتحسنت على ضوء ذلك العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق الأوسط مع الفاتيكان بعد أن أصابها الفتور والتوتر إثر أحداث البلقان، كما قام الكثير من قياداتها بزيارة روما، حتى أنَّ زعيم الأقباط السابق في مصر البابا شنودة (١٩٢٣ - ٢٠١٢)[1] وافق على استضافة الحكومة المصرية للبابا، بعد أن كان رافضًا لها ومن المنتقدين وبشدة للبابا.

المنزلة الخاصة للكنيسة الروسية

في خضم ذلك، تميزت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بمكانة مختلفة، من حيث مساحة روسيا ووزنها وأهميتها، ومن حيث المنزلة الخاصة لهذه الكنيسة. أضف لذلك، فإنَّ هذه الكنيسة واجهت قضايا متعددة منها ما يتعلق بمنطقة البلطيق والأقلية الروسية الكبيرة فيها، ومنها ما يتعلق بأوكرانيا ومولدافيا وبيلاروسيا، وخاصة أوكرانيا ومسألة التوحيديين و»الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية المستقلة»، التي انفصلت من دون سابق إنذار، وبلا أيّ مقدّمات كنسية عن الكنيسة الأم في موسكو. وحصل لها ذلك بدعم من القوميين الأوكرانيين من ذوي الميول الغربية والتوحيديين من البولنديين.

وتعدّ موسكو نفسها من الناحية التاريخية والكنسية بأنَّها «روما الثالثة»، وهو ما أذعن إليه الآخرون بشكل أو بآخر. وكانت هذه الكنيسة طوال القرن التاسع عشر تعدّ نفسها بأنَّها مركز ثقل الجغرافيا السياسية للأرثوذكسية، وترى أنَّ من مسؤوليتها حماية الأرثوذكس في نطاق الدولة العثمانية، سواء في القسم الأوروبي أو في الشرق

---

(1) Pope Shenouda III.

الأوسط، وبالتالي كان هذا الموضوع عاملًا مهمًا في تنظيم السياسة الخارجية للقياصرة. أضف لذلك، فإنَّ هذه الكنيسة أصبحت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والحزب الشيوعي فيه، أهم عامل في إضفاء الهوية على روسيا، وباتت مرجعًا للطبقات المختلفة، وخاصة القوميين منهم، من الماركسيين وغير الماركسيين، حتى أنَّ شخصًا كيلتسين كان يزور الكنيسة في المناسبات المهمة ويتظاهر باحترامها، لخطب ود الشعب والحصول على السمعة الشعبية.

مسار التصالح بين الكنيستين

تراجع التوتر بين الكنيستين منذ أواسط التسعينيات، وأعرب البابا يُوحنَّا بولص الثاني مرارًا عن رغبته لزيارة موسكو، إذ كان من عادته أن يذكر أسماء البلدان التي يرغب بالسفر إليها تمهيدًا لزيارتها، من إسرائيل إلى مصر وإلى البوسنة وكوبا. ولكن على الرغم من ذلك، لم يعرب أليكسي عن استعداده لاستقباله، فلم تحصل الزيارة ولم يحصل اللقاء.

وبالطبع لم تذهب هذه الرغبة أدراج الرياح، فقد قام البطريارك السيد كيريل – وكان حينها مسؤول العلاقات الدولية في الكنيسة الروسية– بزيارة الفاتيكان بدعوة رسمية، وأُقيمت على شرفه مراسم خاصة حضرت فيها شخصيًا، وأجريت معه محادثات حول الحوار الديني بين إيران والكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وكان في مراحله الأولى. على أيّ حال، فإنَّ هذه الزيارة تركت أثرها وأخرجت العلاقة من حالة الجمود، على الرغم من أنَّ آمال الكنيسة كانت أكبر من ذلك.

لا شك أنَّ الخصوصيات الذاتية والفكرية للبابا فرانسيس والبطريارك كيريل لعبت دورًا كبيرًا في تحقيق هذا اللقاء، إضافة إلى الظروف الدولية والإقليمية، ورغبة روسيا الشديدة لممارسة دور أكثر نشاطًا على الساحة الدولية. مهما يكن، فقد حصل مثل هذا اللقاء على الرغم من التركة الثقيلة، وصدر عنه مثل هذا البيان الشامل والكامل. والأهمية لا تكمن هنا في مجرد اللقاء، وإنَّما في تنظيم مثل هذا النص التفصيلي، الذي يكشف عن حل المشاكل التي جعلت من العلاقة مشحونة بالعداء وسوء الظن والجمود، ممّا لا يسع المجال للتفصيل فيها الآن.

وتعود الخطوة الأولى للتقارب بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية إلى اللقاء الذي جرى بين البابا بولص السادس[1] وبطريارك الكنيسة الأرثوذكسية أثيناغوراس (١٨٨٦ - ١٩٧٢)[2] في يناير/ كانون الثاني سنة (١٩٦٤)، فقد حصل هذا اللقاء في القدس، وصدر بيان مشترك عن الكنيستين بعد نحو عامين من اللقاء في السابع من ديسمبر/ كانون الأول سنة (١٩٦٥)، إذ أُعلِن في مراسم متزامنة أُقيمت في الفاتيكان وإسطنبول.

وقد نُظِّم البيان في خمسة بنود، ويشمل النقاط التي ترتبط بالتكفير المتبادل بين روما والقسطنطينية سنة (١٠٥٤)، والدعوة التى نسيان هذه الذكريات المريرة. أمّا البيان الأخير، فقد نُظِّم في ثلاثين نقطة؛ لحل المشاكل الحقيقية العالقة بين الكنيستين، فضلًا عن الإشارة إلى المسائل الدينية والكلامية المشتركة بينهما، وتضمن أيضًا إشارة إلى الموضوعات المستجدة في عالمنا المعاصر.

إنَّ الأهمية الدينية والكنسية لبيان سنة (١٩٦٤) هي أكثر من النص الحالي من أيّ زاوية نظرنا عبرها؛ ذلك أنَّ اثيناغوراس كان زعيمًا رمزيًا لجميع الكنائس الكاثوليكية، في حين مثّل كيريل زعامة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية فقط. وإنَّ مقرّ الأول هو إسطنبول التي تعرف بـ«روما الثانية»، في حين مقرّ كيريل هو موسكو المعروفة بـ«روما الثالثة». وعلى الرغم من كل ذلك، فإنَّ الطرفين بسبب النضج الفكري والعلمي والسياسي وافقا على هذا النوع من التفاهم والتعاون، الذي مثّل البيانُ خريطةَ طريق واضحة لتحقيقه؛ ذلك أنَّ مثل هذا النضج الفكري والإنساني ضروري لحل المشاكل بين الأديان.

دروس وعبر لنا

كيف يمكن لنا أن نأخذ الدروس والعبر من هذه التجارب؟ وما مدى فائدتها لنا وانتفاعنا بها؟ إنَّ علينا مراجعة هذه النقطة الأخيرة؛ فالتأكيد على المفاهيم الدينية وحسب، لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة؛ ذلك لأنَّ مشكلة منطقتنا هي في الحقيقة

---

(1) Pope Paul VI.
(2) Athenagoras I of Constantinople.

التخلف الفكري والسلوكي. فمن يحاول أن يبرئ نفسه ويتذرع بحجة «المشيئة الإلهية» - وهو يمتلك أفضل أجهزة السيطرة والرقابة، وأرضه تستضيف الملايين من الحجاج سنويًا وعلى مر التاريخ- في الرد على من يعترض على الأحداث الكارثية التي تقع في مناسك الحج، إنَّما هو التخلف بعينه، ومن يصدق ذلك هو أكثر تخلفًا منه، ولكن ومع الأسف يضم العالم الإسلامي الكثير من هؤلاء المتخلفين.

وما يثير الاستغراب والعجب أيضًا هو ما تطلقه علينا الجهات المنافسة لنا في المنطقة سواء كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية، حينما تستخدم تعابير مثل «المجوسي» و«الرافضي» و«العجمي» إلى «الصفوي» و«الساساني» وأمثال ذلك من مصطلحات، تتداعى معها الأجواء السلبية وتنتج الأحقاد والضغينة. وما يبعث على الحيرة أكثر هو كيفية استدلالاتهم التي يسوقونها، والاستنتاجات التي يخرجون منها عبر جمع بعض المعطيات.

إنَّنا إذا سلمنا بهذه الملاحظات، فعلينا البحث عن أولئك الذين يتمتعون بنضج فكري وإنساني أكبر، إذ يمكن الحوار معهم وإيجاد حلول حتى للتباينات المذهبية. وربّ قائلٍ يقول هنا: إنَّ السلطة ليست بيد مثل هؤلاء الأشخاص، فنجيب: إنَّه يمكن بالصبر والإصرار الارتقاء بهؤلاء وإيصالهم إلى مناصب أعلى. إنَّ وصول المنطقة إلى طريق مسدود يعود إلى تسلط جماعات متعصبة ترفض الحوار على مقاليد الأمور وفي مراكز القرار، إذ لا يمكن فعل أيّ شيء ما دامت متمسكة بمواقعها.

إنَّ السبب في وصول المفاوضات النووية إلى نتيجةٍ - بغض النظر عمّا جرى بعد ذلك- هو أنَّ الطرف المفاوض ينطلق من الدليل والتحليل والحساب ويفهم منطق التفاوض، فيحسب حسابه ثم يقرر. ولكن من المستحيل أن تصل مثل هذه المفاوضات إلى نتيجةٍ، لو جرت مع بعض بلدان المنطقة؛ لأنَّها غير مؤمنة بالتفاوض أساسًا. وقد قيل قديمًا: ((إنَّك تستطيع التعاون والعمل مع عدو عالم، ولكن تعجز عن ذلك مع صديق جاهل)).

التقارب الكنسي «التقريب بين المذاهب الإسلامية»[١]

في المدّة ما بين (٢٠ إلى ٢٤ آب/ أغسطس سنة ٢٠١٧) قام الكاردينال بيترو بارولين (و: ١٩٥٥)[٢] رئيس وزراء الفاتيكان بزيارة رسمية إلى موسكو التقى فيها كلًّا من الرئيس الروسي بوتين (و: ١٩٥٢)[٣]، ووزير الخارجية لافروف (و: ١٩٥٠)[٤]، وبطريارك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية[٥]، والأساقفة الكاثوليك، وسائر الشخصيات المسيحية في هذا البلد. ومثّلت هذه الزيارة الأولى من نوعها لمسؤول رفيع في الفاتيكان إلى روسيا، فلم تكن هناك أيّ زيارة من هذا القبيل إلى مدّة قصيرة قبل انهيار النظام الشيوعي؛ لعدم وجود علاقات دبلوماسية بين الفاتيكان والاتحاد السوفيتي، كما لم تحدث بعد تلك المدّة أيّ زيارة مهمة بسبب التوترات ما بعد الانهيار.

وحققت هذه الزيارة نجاحًا كبيرًا حسب التصريحات التي صدرت عن بارولين والمسؤولين الروس من السياسيين والدينيين، ووصفت بأنَّها خطوة مهمة ومؤثرة لتعزيز التعاون وتوسيع العلاقات بين الطرفين، لحل المشاكل الموجودة خطوة فخطوة؛ لأنَّ هذه المشاكل كانت متجذرة عبر التاريخ، زادتها تعقيدًا مدّة الحكم الشيوعي هناك. وسنحاول فيما يلي أن نشير إلى أهم النقاط المتعلقة بهذا الموضوع، ولا سيما أنَّني شهدت شخصيًا عندما كنت في الفاتيكان وعن كثب المنعطفات التي شهدتها العلاقات بينهما، وعلى معرفة تامة بهذه المشاكل.

هذه المعرفة المستحصلة من الارتباط الوثيق مع الأساقفة الأرثوذكس في شرق أوروبا، والأساقفة الأرثوذكس الروس، وشخصيات الفاتيكان، والشخصيات السياسية والإعلامية، وخاصة السفير الروسي في الفاتيكان السيد يوري كارلوف[٦]، الذي كان قبل ذلك قنصلًا للاتحاد السوفيتي في إيطاليا لمدة سبعة عشر عامًا؛ ولهذا هو من أكثر الأفراد اطلاعًا على قضايا إيطاليا والفاتيكان المختلفة، وعلى معرفة جيدة

---

(١) مقال نُشِر في صحيفة "اطلاعات" بتاريخ ١٢/ أيلول/ ٢٠١٧.

(2) Pietro Parolin.

(3) Vladimir Putin.

(4) Sergey Lavrov.

(5) Patriarch Kirill of Moscow.

(6)Yuri Karlov .

باللغة والثقافة الإيطالية، وهو حسب السيد ريكاردي (١٩٥٠)[١] - رئيس جمعية سانت ايجيدو[٢]- عبارة عن أرشيف متحرك من الأحداث والمعلومات التي تخصّ قضايا البلدين.

خلفيات العلاقة بين الكنيستين

كانت العلاقة بين الفاتيكان والكتلة الشرقية في حالة من الجمود عمليًا قبل انهيار النظام الشيوعي. وليس السبب في ذلك الميول الشيوعية المعادية للدين وحسب، وإنَّما كانوا يستشعرون بأنَّ الغرب يريد التغلغل إلى مجتمعاتهم من طريق الدين، وهي مخاوف في محلها، فقد شهدنا فيما بعد أنَّ الغرب وعن طريق الكنيسة الكاثوليكية البولندية وحركة «سوليدارنوتش» - حركة تضامن اتحاد نقابة العمال البولندي-[٣] وجّه ضربة قوية إلى هذا البلد، بل وكل الكتلة الشرقية.

إنَّ هذا القلق جعل علاقة الكنائس الأرثوذكسية ذات الجذور البيزنطية، والتي تفرعت عنها الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تمر في مرحلة الجمود الكامل. فمن الناحية التاريخية كانت العلاقة بين الكنيستين الرومية والبيزنطية، بل وجميع الكنائس الأرثوذكسية المستقلة القديمة في الشرق الأوسط مشحونة بالتنافس والعداء. وتحسنت هذه العلاقة بين كنيسة إسطنبول التي تعدّ المركز التاريخي والديني للكنيسة البيزنطية والفاتيكان بعد الحرب العالمية الثانية، وجرى لقاء في القدس سنة (١٩٦٤) بين البابا بولص السادس[٤] وبطريارك القسطنطينية اثناغوراس الأول[٥]، وقّعا على أثره بيانًا مشتركًا. ومنذ ذلك الحين تحسنت العلاقة بين هاتين المجموعتين المسيحيتين الكبيرتين ووصلت إلى المستوى المقبول.

---

(1) Andrea Riccardi.
(2) Community of Sant'Egidio.
(3) Solidarnosc.
(4) Pope Paul VI.
(5) Athenagoras I of Constantinople.

سقوط الكتلة الشرقية

توترت العلاقة بشدة بين جميع الكنائس الأرثوذكسية، وخاصة في شرق أوروبا، ومنها روسيا وحتى اليونان وقبرص مع الفاتيكان إثر السقوط المفاجئ للكتلة الشرقية. وثمة عوامل كثيرة أدت إلى حصول هذا التوتر، سنكتفي هنا بالإشارة إلى أهمها، ونتطرّق إليها من طريق تقسيمها وتصنيفها.

تعود بعض هذه المشاكل إلى الفاتيكان ونَفَسه وتصوراته وتوقعاته، فيما يعود بعض منه أيضًا إلى المجتمع الأرثوذكسي في روسيا وشرق أوروبا، وبعض آخر إلى الغرب وأميركا ومخاوفه من عودة النظام الشيوعي وما يشكله من تهديد له، والقلق من إثارة أنصاره وتحريضهم في الداخل. وهناك سبب آخر ليس بتلك العمومية ولكنَّه مؤثر في النهاية، وهو وجود الأقلية الكاثوليكية المحيطة بالأرثوذكس ومنهم التوحيديون[1] القاطنون في غرب أوكرانيا، الذين يشكلون حتى الآن حجر عثرة في العلاقات بين الطرفين. فهؤلاء يطلبون دعمًا من الفاتيكان بما يتجاوز أطر السياسة العامة والسياسة الخارجية.

الفاتيكان ونزعة الهيمنة

سعى الفاتيكان ومنذ ستينيات القرن الماضي إلى إقامة علاقات غير رسمية مع الدول الشيوعية في شرق أوروبا من طريق الكاردينال المعروف كازارولي (١٩١٤ - ١٩٩٨)[2] ونجح في مسعاه هذا واستمر إلى نهاية السبعينيات. وكان لهذه المبادرة دور مهم في بلورة «حلف هلسنكي»[3] ويمكن القول: إنَّ كازارولي هو المؤسس لهذا الحلف الذي يعدّ من أهم وأشمل الأحلاف التي عقدت بين الكتلتين الشرقية والغربية.

وعلى الرغم من هذه العلاقة ووجود الكثير من القساوسة الشرقيين في الفاتيكان، وخاصة من العاملين في إذاعة الفاتيكان، فإنَّ السقوط المفاجئ للنظام الشيوعي لم يكن متوقعًا له، كما لم يكن متوقعًا لغيره، ولهذا أخذته الحماسة وقام

---

(1) Uniate.
(2) Agostino Casaroli.
(3) Helsinki Accords.

بخطوات غير متوقعة منه، وهو المعروف بالحذر والاحتياط الشديدين، ومنها الاعتراف باسلوفينيا وكرواتيا في أقل من أربع وعشرين ساعة على إعلان استقلالهما، الأمر الذي أثار استغراب الجميع. ومنها أيضًا قيامه بشكل سريع بإضافة سبع أبرشيات كاثوليكية أخرى بالأبرشية الموجودة على الأرض الروسية، وهو ما أثار الروس، إذ عدّوه بمثابة تهديد «تبشيري»، أو حسب ما يعبّرون عنه بأنَّه تهديد «بروزيليستي»[1]

وثمة أمثلة أخرى تكشف عن النزعة التوسعية المستعجلة للفاتيكان، الأمر الذي أثار الشخصيات الأرثوذكسية ليس في شرق أوروبا وحسب، وإنَّما في المناطق الأخرى أيضًا، ووصل الأمر إلى توجيه الشخصيات الأرثوذكسية في اليونان، التي تعدّ عضوًا في الاتحاد الأوروبي، انتقادات إلى الفاتيكان، وبلغ سوء الظن مبلغه، حتى قيل: إنَّ الحرب في يوغسلافيا السابقة هي نتيجة لمؤامرة مشتركة بين المسلمين والكاثوليك ضد الصرب والأرثوذكس.

إضعاف الكنيسة الأرثوذكسية

تلقى جيل الشباب أكثر من غيرهم وبحماسة سقوط النظام الشيوعي؛ لأنَّهم كانوا يطمحون إلى مستوى من المعيشة، وقيم ومعايير أوروبية، ونبذ كل ما يرتبط بالشيوعية بصلة، على الرغم من أنَّ هذه الظاهرة كانت أضعف في الدائرة الروسية؛ لوجود نوع من الارتباط الوطني والاعتزاز بالهوية أقوى ممّا لدى الآخرين، وحتى في السنوات الأولى للسقوط كان إحساسهم أنَّهم «روس» وليسوا «أوروبيين».

إنَّ نبذ الشيوعية أدى إلى نبذ كل ما يتعلق بها، ومنها شخصيات الكنيسة الأرثوذكسية، بل الكنيسة نفسها إلى حد ما، فهذه الشخصيات كانت متهمة بالتعاون مع الحكومة وأجهزة الأمن على الرغم من نشر وثائق في حينها حول هذا الموضوع، ولكن قلما ترى من كان يهتم بها وبصحتها في تلك الظروف. أمّا الكنيسة، فكان يُنظر إليها على أنَّها جزء من النظام الشيوعي، لا على أنَّها جزء من التاريخ والثقافة والهوية.

إلى جانب ذلك، فإنَّ الشبان كانوا يتطلعون إلى الكنائس الغربية الحديثة من

(1) Proselytisitic.

الكاثوليك والبروتستانت، ويرون في كنيستهم بأنَّها قديمة وجامدة ومتخلفة. أجل، كانوا يطمحون إلى مجتمع متطور في كل مكوناته، ومنها دينه.

وإنَّ هذه الظاهرة - كما قلنا- كانت أضعف بكثير في روسيا، عنها في سائر البلدان الأرثوذكسية في الكتلة الشرقية مثل رومانيا وبلغاريا وصربيا، وحتى أوكرانيا ومولدافيا، إلا أنَّ الكنيسة الروسية واجهت مشاكل الآخرين نفسها، وكان القلق يساورها وبشدة من جانب الكنيسة الغربية والفاتيكان.

إضعاف الهوية الروسية

في بدايات انهيار الكتلة الشرقية، كانت أميركا قلقة من عودة الشيوعية مجددًا، خاصة في روسيا، لهذا رأت أنَّ من أهم العوامل التي تحول من دون ذلك هو العمل على إضعاف «الهوية الروسية»، فكلما تلاشت هذه الهوية وتماهت في الغرب، كلما ضعف احتمال عودة النظام الشيوعي. وتعدّ الكنيسة الروسية إحدى أهم أركان الهوية الروسية. فعلى الرغم من العداء الشديد للدين من قبل استالين (١٨٧٨ - ١٩٥٣)[1]، فإنَّه أمر بفتح جميع الكنائس والمساجد أيضًا لدى هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتي، واستمر هذا الوضع حتى بعد نهاية الحرب لمدّة من الزمن. فالهوية الروسية هي التي أنتجت المقاومة الوطنية، وليست الأفكار الاشتراكية.

وهذا لا يعني أنَّ الأميركيين اتخذوا موقفًا صريحًا معاديًا للكنيسة الأرثوذكسية، وإنَّما عملوا على دعم أيّ نشاط يؤدي في النتيجة إلى إضعاف الهوية الروسية، وقد نُشِر في حينها وبدعم من أميركا والأوروبيين كمّ هائل من المقالات حول علاقة الكنيسة الأرثوذكسية والنظام الحاكم والحزب الشيوعي، ولم تتراجع هذه الهجمة الدعائية إلا بعد أن شعروا بأنَّ فرص وصول الحزب الشيوعي إلى سدة الحكم ثانية باتت ضعيفة.

قضية التوحيديين

على الرغم من وجود أعداد من الكاثوليك موزعين بشكل متفرق على المساحة التي يسكنها الأرثوذكس في شرق أوروبا، فإنَّ أهم هذه المجموعات وأكثرها تمركزًا

(1) Joseph Stalin.

هم الأونياتيون أو التوحيديون في غرب أوكرانيا. فقد اعتنقوا الكاثوليكية أواسط القرن الثامن عشر، ولكن من الصعب توضيح طبيعة انتمائهم إلى هذا المذهب في جمل قصار عدة. وإجمالًا، فإنَّ البابا يمثل مرجعيتهم الدينية شأنهم شأن الكاثوليك الآخرين. وعانت هذه الجماعة من الضغوط المضاعفة في عهد استالين بسبب ميولهم إلى بولندا وإلى الغرب، وصودرت الكثير من كنائسها وموقوفاتها، مثلما حصل الشيء نفسه مع الكنيسة الأرثوذكسية. غير أنَّ إحساسهم بكونهم أقلية ونزعتهم المعادية لروسيا جعلهم أكثر انسجامًا مع بعضهم، وأكثر شعورًا بالتمييز والعنصرية، لهذا كانت أنظارهم تتجه إلى خارج الحدود، خاصة أنَّ البابا كان يمثل مرجعيتهم الدينية.

وبعد سقوط الحكم الشيوعي تحمست هذه الجماعة وبتحريض من بولندا والآخرين، وقامت بالاستيلاء على بعض كنائسهم التي صودرت في عهد استالين ووضعت بتصرف الكنيسة الأرثوذكسية المحلية. هذه الأحداث جرّتِ المشاكل إلى صفوف عامة الناس، وأثارت استياء شديدًا لدى شخصيات الكنيسة الأرثوذكسية والأرثوذكس الروس، وبثت في نفوسهم سوء الظن تجاه الكاثوليك؛ فأعلنوا وبكل صراحة بعدم وجود أيّ رابطة أو أيّ حوار ديني مع الفاتيكان. وإنَّهم أيضًا كانوا يعتقدون بأنَّ الفاتيكان يدعم الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية المستقلة، إذ كانت هذه الكنيسة تتبع في السابق الكنيسة الأرثوذكسية في موسكو، لكنَّ بعض الأرثوذكس انفصلوا عن موسكو بعد الاستقلال، وأسسوا كنيستهم الخاصة بهم، الأمر الذي يتناقض مع القوانين الكنسية؛ لأنَّهم كانوا من ذوي الاتجاه القومي المعادي للروس.

مرونة الفاتيكان

بدأت الحرب في يوغسلافيا السابقة بعد مرور مدّة على انهيار الشيوعية، وكان الفتيل الأول لاشتعالها إعلان استقلال اسلوفينيا وكرواتيا، الذي انتهى إلى حرب قصيرة بين كرواتيا وصربيا، ثم جرت عملية انتقال واسعة بين المواطنين الصرب والكروات، الذين فجروا كنائس صربية عدة على أراضيهم؛ وذلك لإرغام الصرب على مغادرة كرواتيا.

وبعد مدة بدأت الحرب البوسنية الثلاثية بين المسلمين والكروات والصرب، وكان لكل منهم تفسيره الخاص لهذه الحرب وبداياتها. استمرت هذه الحرب يومًا بعد آخر وبقسوة وشدة أكبر، وتوترت العلاقات المتوترة أساسًا أكثر فأكثر بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، واتخذت شكلًا من الحرب الطائفية والمذهبية. وكان المقاتلون يفكرون بالانتصار في هذه الحرب، وليس البحث عن حلول ترضي الأطراف المعنية.

في خضم هذه الأحداث أبدى الفاتيكان نوعًا من المرونة، وسعى لفهم منافسه متخليًا عن أفكاره التوسعية. وقد شهدت شخصيًا كل هذه التطورات عن كثب، وحاول الفاتيكان التقارب مع مجموعة الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت متألمة من تصرفاته. وطُرِحت حينها العديد من المبادرات، تبنّت الجزءَ الأكبر الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية، ولا سيما كاردينال بروكسل السيّد دانيلز (١٩٣٣-٢٠١٩)[1] وبعض المؤسسات أمثال مؤسسة سانت ايجيدو. وقام دانيلز بخطوات واسعة في هذا الاتجاه يحتاج التفصيل فيها إلى فرصة مناسبة أخرى، فيما تقارب نائب جمعية سانت ايجيدو المونسنيور فينتشنزو باليا (١٩٤٥)[2] إلى الصرب، إذ أصبح - كما يقول- قادرًا على الالتقاء بالرئيس الصربي ميلوشيفيتش (١٩٤١-٢٠٠٦)[3] في أيّ وقت يشاء ومن دون الحاجة إلى موعد مسبق. وقد حصل فيما بعدُ على لقب الأسقف وأصبح رئيسًا لقسم «المجمع الأسري»[4] في الفاتيكان.

هذه المبادرات ساعدت مع تبدل لهجة البابا في التوصل إلى نتيجة مثمرة، إذ أبدى الأرثوذكس رغبتهم في تجسير العلاقة وترميمها، بل وتنشيطها مع الفاتيكان، حتى أنَّ الشخصية الرمزية الأهم لدى الأرثوذكس، أي: الأخ الأكبر بطريارك القسطنطينية السيد بارثولميوس[5] أبدى رضاه وحسن نواياه، وعادت العلاقات إلى مجراها الطبيعي. ولكن على الرغم من كل هذه الإجراءات بقيت الكنيسة اليونانية وكنيسة موسكو غير راضية ومتوجسة من الطرف الثاني.

---

(1) Godfried Maria Jules Danneels.
(2) Monsignor Paglia Vincenzo.
(3) Slobodan Milosevic.
(4) Pontifical Council for the Family.
(5) Bartholomewe I.

وكان للكنيسة اليونانية أسبابها الخاصة التي ترتبط بشخص أسقفها سيرافيم[١] وبقضية استقلال مقدونيا، التي أعلنت استقلالها في تلك البرهة الزمنية، ممّا أثار قلقًا كبيرًا في اليونان، فمقدونيا بعاصمتها سالونيك[٢] برأيهم هي تاريخيًا جزء من اليونان، وكانت تنتابهم مخاوف من إلحاقهما ببعض وتقسيم اليونان في نهاية المطاف. أمّا كنيسة موسكو، فكانت بواعث قلقها حقيقة يمكن استيعابها وفهمها، خاصة أنّها تعدّ أهم الكنائس الأرثوذكسية وأبرزها، حتى أُطلِق على موسكو من الناحية الدينية والتاريخية بأنّها «روما الثالثة».

نهاية النزاع

انتهتِ الحرب اليوغسلافية بكل ما حملته من مآسٍ، وقد أدت إيران في التخفيف من وطأة هذه الأزمة العميقة دورًا كبيرًا وبنّاءً لم يتطرّق إليه أحد؛ ذلك أنَّ إيران كانت من البلدان القلائل التي وقفت إلى جانب المسلمين في البوسنة، وفي الوقت نفسه احتفظت بتواصل مع الشخصيات الكاثوليكية والأرثوذكسية الرفيعة، فالسفير الإيراني في سارايفو السيد طاهريان كان على ارتباط مع بطريارك الصرب السيد بافلي[٣]، وكاردينال البوسنة السيد بوليج[٤]. وكنت أنا شخصيًا والخبير في سفارتنا في الفاتيكان السيد بهرام مسعود على اتصال دائم ومنتظم مع وزارة خارجية الفاتيكان، ووزير الخارجية السيد لويس توران[٥]، ومسؤول طاولة البلقان السيد جان كلود بيريست (١٩٣٩)[٦].

إنَّ انتهاء حرب البوسنة يعني عمليًا انتهاء التنافس والعداء بين الكنيستين. فقد أبدى الطرفان نوعًا من المرونة، وأيقنا بضرورة التعايش مع بعض لما فيه مصلحة الجانبين، على الرغم من أنَّ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لعبت دورًا أقل في هذا الأمر. ففي عام (١٩٩٤) قام مسؤول العلاقات الدولية في هذه الكنيسة السيد

---

(1) Seraphim (Tikas), Archbishop of Atjens and All Greece.
(2) Thessalonica.
(3) Patriarch Pavle.
(4) Vinko Puljic.
(5) Jean-Louis Tauran.
(6) Jean-Claude Perisset.

كيريل[1]، الذي أصبح بطرياركًا لها فيما بعد، بزيارة روما بدعوة من جمعية سانت ايجيدو، وأجرى لقاءات مع المسؤولين في الفاتيكان؛ إذ أُقيمت هناك مراسم على شرفه، كنت حاضرًا فيها، وتحدّثت فيها لدقائق عدة. وقال كيريل: إنَّ العلاقات مع الفاتيكان في طور التحسن، وسأل عن العلاقة بين إيران والفاتيكان والحوار الجاري بينهما، ليختم القول بأنَّ هذا الحوار والعلاقة بين الكنيسة وإيران هي من ضمن الأولويات، وهي ملاحظة سبق وأن ذكرها مرارًا السيد كارلوف. وقد كان جادًا في كلامه، إذ استمر هذا الحوار المنظم مرة كل سنتين وعلى أعلى المستويات.

لم تشهد العلاقة بين كنيسة موسكو والفاتيكان أيّ تطور في عهد البطريارك السابق أليكسي الثاني[2] قبل وفاته، فكم من مرة أعلن البابا يُوحنًّا بولص الثاني[3] في خطبه عن رغبته بزيارة موسكو، وأبلغ هذه الرغبة – حسب السيد كارلوف- بالطرق الدبلوماسية الرسمية من دون أن يجد ردًا ايجابيًا.

وفي عام (١٩٩٣) قمت بزيارة موسكو بدعوة من الكنيسة الروسية والتقيت أليكسي، إذ سمعت منه ومن سائر المسؤولين في الكنيسة ما يكشف عن سخطهم الشديد من الفاتيكان أولًا، وعدم إيلائه الأهمية المطلوبة للمخاوف التي يعبّرون عنها ثانيًا. ويعتقد الروس بأنَّ الفاتيكان يقوم باستعراض دعائي حينما يعلن عن رغبته بتحسين العلاقة مع الكنيسة الروسية، ولا يعمد إلى إزاحة المشاكل الحقيقية التي تعترض هذا التقارب، فالكنيسة الروسية كانت تفكّر على شاكلة المثقفين والقوميين الروس.

كيريل «البطريارك الدبلوماسي»

توفي أليكسي الثاني في أواخر سنة (٢٠٠٨) وحلّ كيريل[4] (و: ١٩٤٦) محله، وكان على قدر كبير من الدبلوماسية شأنه شأن البابا يُوحنًّا الثالث والعشرين (١٨٨١ – ١٩٦٣)[5] وعلى معرفة بالحقائق الدولية، فسار بكنيسته طريقًا آخر، سواء على

(1) Patriarch Kirill of Moscow.
(2) Patriarch Allexy II.
(3) Pope John Paul II.
(4) Patriarch Kirill of Moscow.
(5) Pope John XXIII.

صعيد السياسة الداخلية أو الخارجية. وما ساعده على ذلك استقرار الوضع في روسيا، وهي القوة العظمى بعد أن شهدت على عهد يلتسين[١] مرحلة مضطربة جدًا، وخاصة عندما كان كوزيروف[٢] وزيرًا للخارجية. ذلك أنَّ المؤسسة الدينية تعمل بحذر واحتياط كاملين في بلد مضطرب. لكنَّ الوضع تغير بعد مجيء بوتين وميدفيديف (١٩٦٥)[٣] إلى السلطة، خاصة أنَّ لبوتين توجهات دينية يجهر بها، فهي مؤثرة ومريحة للكنيسة حتى وإن كانت مجرد محاولة لكسب ود الرأي العام.

أدت هذه الثقة بالنفس بالكنيسة إلى تغيير كبير في سياستها الخارجية وهو ما كانت تطمح إليه أيضًا السلطة الحاكمة؛ لأنَّ روسيا الجديدة بحاجة إلى إعادة نظر كلية حول علاقاتها بالأديان الكبرى، وخاصة الإسلام والمسيحية، سواء في بعدها الداخلي أو الخارجي.

وقد بحث بارولين مع السلطات الدينية والسياسية الروسية بعض المواضيع التي لا يسعنا توضيحها الآن بسبب تعقيداتها، ولكن يمكن القول إجمالًا: إنَّ هذه كانت المرة الأولى التي يبحث فيها الطرفان قضايا عملية. كما جرى لقاء بين البابا فرانسيس[٤] وكيريل في كوبا، إذ تنبع أهميته من عقد مثل هذا اللقاء بحد ذاته والتأسيس للتعاون لاحقًا، إذ انخرط الجانبان بعدها في مناقشة التفاصيل وإيجاد الحلول المناسبة لها.

الانتفاع من التجارب الكنسية

ثمة رغبة بين الكثير من المسلمين، سواء في إيران أو خارجها للتقارب مع بعض بالاستلهام من تجربة التقريب بين الكنائس. وعلى الرغم من أنَّ المسيحية هي كالإسلام دين سماوي، ولها كتاب منزل، فإنَّهما يختلفان كليًا من حيث البنية الداخلية وطبيعة علاقاتها بالتاريخ والمجتمع والمؤسسات الاجتماعية والسياسية؛ ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه لا تمكن لنا الاستفادة من التجارب المسيحية، فذلك ممكن ومفيد ولازم، شريطة

---

(1) Boris Yeltsin.
(2) Andrei Kozyrev.
(3) Dmitry Medvedev.
(4) Pope Francis.

البحث والتحري عن كل صغيرة وكبيرة بشكل إيجابي وودي.

إنَّ من العوامل المانعة التفسير الديني المبالغ للمسلمين في فهم القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية؛ ذلك أنَّ هذا النوع من القضايا يجب أن يتدارس وفقًا للمنهج والمنطق العلمي الخاص بكل دائرة من هذه الدوائر؛ على الرغم من أنَّنا لا ننكر بأنَّ هذا المنطق يختلف حينما يتآصر الدين مع الحقائق الاجتماعية والسياسية، عنه حينما نواجه ظروفًا اجتماعية وسياسية بحتة.

والمسألة الأخرى أنَّ التأكيد على المبادئ الإسلامية المشتركة من دون الأخذ بالملاحظات الأخرى لا ينفع لوحده، وربّما يؤدي إلى نوع من سوء الظن لو ركزنا عليه من دون غيره؛ لأنَّ الطرف الآخر سيشعر بأنَّها محاولة لاستخدام هذا التبرير كأداة للوصول إلى أهداف أخرى.

وبطبيعة الحال هناك ملاحظات كثيرة يجب أن تناقش في محلها، والمهم هنا هو إزالة العقبات المختلفة بما أمكن في المرحلة الأولى، ليجري الحديث في نهاية المطاف عن أهمية التقريب والتضامن والوحدة والقيم الدينية. وهذا هو السبب الرئيس لنجاح الآخرين في هذا المسار؛ ذلك أنَّ الحديث فقط عن المبادئ والقيم المشتركة لا يستطيع سد النقائص وحل المشاكل الموجودة على الصعيد الميداني العملي، فلا يمكن في البداية استخدام الأسلوب الذي يجب اللجوء إليه في المراحل النهائية، فضلًا عن ضرورة توفر الأرضية المناسبة لذلك.

إنَّ التقارب بين الكنيسة الروسية والفاتيكان حصل نتيجة القيام بمجموعة من الإجراءات ونسيان الكثير من أحداث الماضي وتجاهله، وسار بخطوات إلى الإمام عبر التعبير عن حسن نوايا الطرفين والإرادة الإيجابية لديهما مع الأخذ بنظر الاعتبار المخاوف والهواجس المتبادلة والملاحظات المختلفة، وإدراك الآخر من دون أيّ توقعات أكثر من القدرة الاستيعابية الحقيقية لكل منهما، وكذلك من دون أيّ استعجال للوصول إلى الهدف؛ لكي لا يصبح التقارب وسيلة لتحقيق مآرب أخرى.

إنَّهم لم يبدؤوا من النقاط المشتركة اللاهوتية والدينية للكنيستين، بل بذلوا جهدًا لإيجاد حل تدريجي للمشاكل الموجودة والمضي قدمًا خطوة فخطوة نحو الهدف. فالفاتيكان أثار حفيظة الجميع وفاجأ حتى الكاثوليك أنفسهم في اسلوفينيا وكرواتيا

عندما اعترف سريعًا باستقلال هاتين الدولتين، لكنَّ دعمه اليوم للتوحيديين الكاثوليك أقل بكثير ممّا توقعوه؛ ولم يعد البابا يدعم النظام الأوكراني كما يدعمه الغرب، كما أنَّه لا ينتقد روسيا، ولهذا أصبحت العلاقة بين الكنيستين جيدة ونشطة وتتقدّم باستمرار نحو التطور، فقد عرف كيف يعمل ويتقدّم، وسعى البابا فرانسيس في لقاء له مع الأساقفة التوحيديين إلى تهدئة خواطرهم، بعد أن طلبوا منه إثر تقديم تقرير تفصيلي، اتخاذ موقف صريح حول قضاياهم وقضايا أوكرانيا.

حلول لِلعالَم الإسلامي

يوجد حاليًا كم هائل من الأدبيات التي تكشف عن التراث المشترك، وتبادل التأثير بين المذاهب الفقهية والكلامية المشتركة، ولكن لم يُتطرّق أبدًا إلى الأسباب الحقيقية لسوء الظن، وواقع التنافس والعداء الموجود، والتطورات التي حصلت طوال السنوات الأخيرة، وإلى طبيعة فهم كل طرف للطرف الآخر، والبحث عمليًا عن توفير البيئة والظروف المناسبة، والأساليب التي توصل إلى إدراك الآخر والوقوف على هواجسه ومخاوفه وبواعث قلقه.

فمن دون إزالة الموانع الحقيقية التي يعود بعضها إلى أسباب سياسية واجتماعية، وبعضها إلى جذور تاريخية وقومية عميقة، لا يمكن التوصل إلى علاقة قائمة على الاحترام والثقة المتبادلة. وكما قلنا، فإنَّ التوصيات الدينية لوحدها والتأكيد على المشتركات الدينية لا يمكن أن يسد الفراغ الموجود، لعدم وجود من يسمع إليك في جو مشحون وملوث، بل يمكن أن يعطي نتائج معكوسة في الكثير من الأحيان، وربّما يفضل بعض العارفين بهذه الحقائق التزام الصمت خشية من توجيه الاتهامات المختلفة له.

على أيّ حال، فإنَّ الفضاء الذهني والاعتقادي للطوائف الإسلامية في الحال الحاضر ليس مستعدًا لتلقّي هذه الأدبيات، التي لن يكون لها أيّ تأثير إيجابي في التقارب والتفاهم، ومن المهم هنا ألّا نقع تحت تأثير المجاملات والتشريفات التي اعتاد عليها المسلمون وخاصة علماءهم.

فبعد نجاح المفاوضات بين بارولين والسلطات الروسية، أعلنت وسائل الإعلام عن زيارة مرتقبة للبابا فرانسيس إلى موسكو، لكنَّ مسؤول العلاقات العامة للكنيسة السيد هيلاريون (و: ١٩٦٦)[١] صرح على الفور بأنَّ مثل هذا الموضوع لم يُطرَح أساسًا في هذه الزيارة، ولم يُحدَّد أيّ موعد لها. ولا نشك في أنَّ المستضيف لم يطرح هذا الموضوع عن سوء نية، كما أنَّ الضيف لم يَسْتَأْ أو ينزعج لهذا الإعلان.

والملاحظة الأخرى هنا أنَّ بارولين أقام طقوسًا دينية في الكنيسة الكاثوليكية في موسكو لم يحضرها إلا الكاثوليك أنفسهم سوى أحد القساوسة الأرثوذكس من دون غيره من السلطات الدينية، ومن غير المعروف إن كان حضوره حصل بصورة رسمية أم لأسباب شخصية.

فقد توافق الطرفان على الجدية في التعامل ومن دون أيّ توقع أكثر ممّا هو مفترض في مراحل التقارب المختلفة. وبالطبع، فإنَّ هذا النمط من التفكير يعود بشكل أساس إلى وعي الطرفين ونضجهم من النواحي الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية. وعلى هذا الأساس يمكن القول: إنَّ أحد أهم المشاكل بين المسلمين في موضوع التقارب هو غياب الوعي والنضج، على الرغم من أنَّ بعضهم لا يعجبه مثل هذا الكلام.

الكنيسة الأرثوذكسية وأزمة البلقان[٢]

مستقبل العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسية والجمهورية الإسلامية في إيران، والتعاون بين إيران وهذه الكنيسة في حل أزمة البوسنة، ومكانة روسيا الحالية وطبيعة العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مع المثقفين والطبقة الحاكمة، وغير ذلك من الملفات التي فتحناها مع حجة الإسلام السيد «محمد مسجد جامعي» السفير الإيراني الأسبق في الفاتيكان.

«صحيفة كيهان»

وضّح لنا رجاءً الوضع الحالي للكنيسة الأرثوذكسية؟

---

(1) Hilarion Alfeyev.

(٢) حوار أجراه مراسل صحيفة كيهان في إيطاليا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٥.

توجد في الوقت الحاضر نحو خمس عشرة كنيسة أرثوذكسية في أنحاء العالم المختلفة، لكل منها زعيمها الخاص على المستوى الوطني، فتوجد على سبيل المثال كنائس أرثوذكسية في روسيا واليونان وبلغاريا ورومانيا وغيرها من البلدان، وكان بعض هذه الكنائس قبل التطورات التي وقعت في أوروبا الشرقية مرتبطًا بالكنيسة الأم، لكنَّها تميل إلى الاستقلال مثل الكنيسة الأوكرانية، أو قل المقدونية. وبطبيعة الحال، فإنَّ هذه الكنائس تماثل بعضها من ناحية الانتماء الأرثوذكسي، لكنَّها تختلف من ناحية ارتباطها الجغرافي بالبلدان التي تتواجد فيها. على سبيل المثال، فإنَّ ظروف الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تختلف عن ظروف الكنيسة الأرثوذكسية البلغارية، ويمكن القول في المحصلة: إنَّ الكنيسة الأرثوذكسية بعد الحرب الباردة وسقوط الكتلة الشرقية دخلت مرحلة جديدة، متخلية عن حالة الانعزال التي عاشتها فرضًا وتاريخًا. لهذا يجب القول: إنَّه يمكن فهم خصوصيات هذه الكنيسة في العموم وتبيينها بلحاظ ظروفها التاريخية والاعتقادية، وتطورات ما بعد الحرب الباردة.

وضح لنا رجاءً خلاصة عن نشاط الكنيسة الأرثوذكسية في الاتحاد السوفيتي السابق.

انتمى الروس إلى الديانة المسيحية منذ نحو ألف عام عبر المبشرين البيزنطيين الذين تقاطروا على روسيا؛ لذلك اعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية والبيزنطية منذ البداية، وخضعت كل أدبيات الروس وثقافتهم للتأثير البيزنطي. لهذا، فإنَّ الأرثوذكسية في روسيا ذات جذور ممتدة في عمق التاريخ، ولعبت كنيستها دورًا واسعًا طوال تاريخ هذا البلد، وتعزز هذا الدور في عهد القياصرة.

وقد جرى تهميش هذه الكنيسة أثناء الحكم الشيوعي في روسيا، وقتل الكثير من رجالها أو تم نفيهم في عهد استالين[1] وقبل الحرب العالمية الثانية، وصودر الكثير من أموالها. وكان لهجوم الألمان على الاتحاد السوفيتي، ودعم هذه الكنيسة لوحدة الأراضي الروسية والبيانات التي أصدرتها ضد المعتدين، دور في تشجيع وتحريض الروس للدفاع عن الوطن؛ لهذا تغيرت طبيعة هذه العلاقة وشعرت السلطات بحاجتها إلى الدعم المعنوي والأخلاقي للكنيسة، فمنحتها مساحة من الحرية، الأمر

(1) Joserh Stalin.

الذي أعادها للحياة من جديد.

عادت ظاهرة محاربة الدين وبشدة في عهد خروشوف (١٨٩٤ - ١٩٧١)[1] ممّا أدى إلى إضعاف الكنيسة الأرثوذكسية مرة أخرى، حتى وصل بريجنيف (١٩٠٦ - ١٩٨٢)[2] إلى السلطة، إذ لم تكن ثمة ضغوط على الكنيسة أثناء مدّة حكمه الطويلة، إلا أنَّ سلطاته لم تولِها أيّ أهمية في الوقت نفسه. استمر الوضع على هذا المنوال إلى ما بعد عهد غورباتشوف (١٩٣١ - ٢٠٢٢)[3]، إذ سعت الكنيسة للعودة مجددًا إلى الميدان، حتى سقط النظام الشيوعي وتفككت الإمبراطورية السوفيتية، إذ عادت الكنيسة وبشكل مفاجئ وبقوة، وأصبحت اليوم عنصرًا مهمًا في الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع الروسي.

ما تأثير سنوات الحكم الشيوعي التي استمرت لأكثر من سبعين عامًا على هذه الكنيسة؟

يعدُّ الشعب الروسي شعبًا طيبًا ومتدينًا بشدة. ففي تقييم عامٍّ، حاولت الشيوعية عزل الكنيسة عن المجتمع، ومنعها كقوة معارضة من الوقوف بوجهها، ولا سيما في السنوات الأولى للنظام الشيوعي، إذ كان للكنيسة مواقف إيجابية من القياصرة، وسلبية من الشيوعيين؛ لهذا حاولوا إضعاف دورها أو إلغاءه نهائيًا باعتبارها حقيقة تاريخية واجتماعية من دون أن ينجحوا في ذلك.

ولم يكن النظام الشيوعي يعارض الحضور الكنسي فيما يرتبط بعقائد الناس. فعلى الرغم من الضغوط التي حصلت في بعض المراحل التاريخية، فإنَّه في المحصلة كان يتحمّل الكنيسة ودورها في الحياة الخاصة للأفراد؛ فلم تعارض الدولة على سبيل المثال ووفقًا للقرائن الموجودة غسل التعميد حتى للشيوعيين أنفسهم، فالكثير من الروس ومن طريق معرفتي بهم مارسوا طقس غسل التعميد هم وآباؤهم، على الرغم من أنَّ الآباء عاشوا في عهد استالين، وكان بعضهم من مسؤولي الحزب الشيوعي.

وكيف تقيّم العلاقة حاليًا بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأخرى، وخاصة مع الفاتيكان؟

---

(1) Nikita Sergeyevich Khrushchev.
(2) Leonid Brezgnev.
(3) Mikhail S.Gorbachev.

كانت هذه العلاقة قبل سقوط أوروبا الشرقية تمر بحالة من الهدوء ونوع من التفاهم الممزوج بالتوجس. كان هذا هو الجو الحاكم على علاقات الكنيسة الأرثوذكسية، وسائر الكنائس المسيحية في العالم، وكانت هناك محاولات للتقريب بين هذه الكنائس، مثال ذلك أنَّ البابا بولص السادس[1] وبطريارك إسطنبول[2] الذي كان يتصدر الكنيسة الأرثوذكسية عمليًا التقيا في روما مرة، وفي القدس مرة ثانية، وأعربا عن الرغبة في التقارب ونسيان حالة العداء التي استمرت ألف عام.

استمرت الأمور على هذا الحال حتى انتهاء الحكم الشيوعي في أوروبا الشرقية، إلا أنَّ علاقة الكنيسة الأرثوذكسية مع الكنائس الأخرى، وخاصة الكاثوليكية بعد الحرب الباردة شهدت تحولًا كبيرًا جدًا إلى حالة من العداء والخصام. ففي العامين (١٩٩١ - ١٩٩٢)، وبعد سقوط الأنظمة الشيوعية في المنطقة، اتخذت العلاقة شكلًا عدائيًا جدًا، لكنَّها تغيرت فيما بعد نحو الأفضل.

وما السبب في برود هذه العلاقات؟

هناك أسباب كثيرة، منها أنَّ الكنيستين (الأرثوذكسية والكاثوليكية) عاشَتَا في ظرفين تاريخيين مختلفين، بمعنى أنَّ التجربة التاريخية والدينية والاجتماعية للكنيسة الكاثوليكية تختلف عنها لدى الأرثوذكسية، لتضع كلًّا منهما في مكانة مغايرة تمامًا عن الأخرى، وتبعًا لذلك اختلفَتَا في فهم المسائل والمشاكل التي عَانَتَا منها. والأهم من ذلك أنَّ لدى الأرثوذكس في روسيا وشرق أوروبا إحساسًا بأنَّهم أصبحوا هدفًا للتوسعية الكاثوليكية التي تحاول وبسرعة استقطاب ما تستطيع من الأرثوذكس إلى مذهبها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ الكاثوليك ووسائل إعلامهم وجّهت بوصلتها لاتهام زعماء الأرثوذكس بالتعاون مع النظام الشيوعي، والترويج بذلك للمذهب الكاثوليكي؛ لاجتذاب الأرثوذكس إليهم. هذه أهم الأسباب التي دعت الكنيسة الأرثوذكسية للاستياء من الكنيسة الكاثوليكية وبرودة العلاقة بينهما.

وكيف هي العلاقة بين هذه الكنيسة والعالم الإسلامي؟

(1) Pope Paul VI.
(2) Ecumenical Patriarch Athenagoras I of Constantinople.

كانت العلاقة عمليًا في العقود الأخيرة مجمدة تقريبًا. لكنَّ علاقة الأرثوذكس بالمسلمين الذين كانوا يعيشون في المنطقة نفسها، اتخذت طابعًا سلميًا في الأعم الأغلب، ولكن - كما قلنا-، فإنَّ هذه العلاقة مع العالم الإسلامي كانت في حالة من الركود وليس العداء، ولا سيما مع غياب مسألة التبشير التي يتحسس منها المسلمون وتوتر العلاقة بين الجانبين؛ ذلك أنَّ الأرثوذكس لا يتبعون الطريقة التبشيرية، وهذا يشكّل عاملًا مهمًا في التعايش والعلاقة الجيدة وغير العدائية مع المسلمين. غير أنَّ هذه العلاقة في السنوات التي تلت انهيار الشيوعية، وخاصة بعد حرب البلقان خضعت لتأثير هذه التطورات.

وما موقف الكنيسة الأرثوذكسية من أزمة البوسنة والهرسك؟[1]

للأرثوذكس بشكل عام ميول إيجابية نحو الصرب تختلف من حيث الشدة والضعف والأسباب، من مكان لآخر. وهذه الميول ناتجة عن الانتماء إلى المذهب نفسه، وعن فهمهم الخاص لهذه الأزمة. فالأرثوذكس يعتقدون في العموم أنَّ افتعال الأزمة في يوغسلافيا السابقة واستمرارها واشتدادها، إنَّما جاء بهدف الإساءة إليهم وإضعاف مذهبهم، أي: بهدف الإساءة إلى الصرب وإهانتهم؛ لأنَّهم على المذهب الأرثوذكسي. إنَّهم يؤمنون إيمانًا كاملًا بهذا الشيء، وقد صرحوا مرارًا بأنَّ تفكيك يوغسلافيا السابقة هو مؤامرة ألمانية- فاتيكانية، سعى الغرب من طريقها إلى تقسيم هذا المجتمع وإيجاد موطئ قدم له في القطاع الكاثوليكي من يوغسلافيا السابقة في اسلوفينيا[2] وكرواتيا[3]، من طريق الإساءة إلى الأرثوذكس وفصلهم عن بعض. هذا هو المحور الرئيس في الفهم الأرثوذكسي لأزمة البوسنة والهرسك.

وقد أدان بعض الأرثوذكس جرائم الصرب، والتزم آخرون الصمت حيالها من دون اتخاذ أيّ موقف صريح، وذلك يعود في بعض أسبابه إلى الضغوط الداخلية؛ لأنَّ شعوبهم كانت تميل إلى الصرب، فلم يستطيعوا إبداء مواقفهم بهذا الخصوص.

وكيف هي العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية مع الجمهورية الإسلامية في إيران؟

---

(1) Bosnia and Herzegovina.
(2) Slovenia .
(3) Croatia.

إنَّ للأرثوذكس في الأعم الأغلب علاقة ود مع إيران، وذلك لأسباب سياسية وثقافية وتاريخية أيضًا. فإيران بلد كبير كان للمسيحية حضور فيها منذ القدم، وهم على طول التاريخ من المذهب الأرثوذكسي في العموم، وهذا ما نتج عنه نوع من الشعور الإيجابي للأرثوذكس تجاهها.

والقضية الثانية هي أنَّ إيران بلد مستقل بعيد عن النفوذ الغربي، وهو ما ينسجم مع توجهات الكنيسة الأرثوذكسية المعادية للغرب، أو أنَّها لا تميل إليه على الأقل؛ لأنَّ تاريخها وثقافتها غير مرتبطين بالغرب، ويناصبان العداء له في بعض الأحيان. وترفع الجمهورية الإسلامية في إيران حاليًا لواء الاستقلال عن الغرب فكرًا وعملًا وحياة؛ لهذا تشعر الكنيسة بأنَّها قريبة جدًا من إيران وتجاهر به أحيانًا. وقد أقامت الجمهورية الإسلامية في إيران حتى الآن ثلاثة ملتقيات دولية مع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، وخاصة أنَّ السيد بارثولوموس الأول[1] بطريارك إسطنبول الذي يعدّ المنصب الأعلى في الكنيسة الأرثوذكسية، والسيد سيرافيم[2] رئيس أساقفة أثينا، أرسلا للملتقى الثالث الذي عُقِد في طهران في سبتمبر/ أيلول (١٩٩٤) رسائل في غاية الود والتقدير، وهناك مفاوضات مستمرة لعقد المزيد من هذه المؤتمرات مع سائر الكنائس الأرثوذكسية.

وما مستقبل العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسية مع الجمهورية الإسلامية في إيران، كيف تراها؟

يمكن القول: إنَّ هذه العلاقات ستكون أقوى ممّا هي عليه الآن، وأكثر حيوية بلحاظ دور الكنيسة الأرثوذكسية في التطورات الجارية ونزعتها الاستقلالية والمعادية للغرب أحيانًا بما يتلائم وخصوصيات مجتمعنا ونظامنا. وقد صرح العديد من مسؤولي الكنيسة الأرثوذكسية للمسؤولين الإيرانيين بأنَّهم راغبون في التعاون من أجل حل القضايا التي تضر بسلامة العلاقة الجيدة والودية بين المسلمين والأرثوذكس من أزمة البوسنة وحتى قضايا الشيشان، وهو ما ترحب به الجمهورية الإسلامية في إيران دائمًا.

هل تمكن إقامة تعاون بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية والكنيسة الأرثوذكسية فيما يتعلق بأزمة البوسنة والهرسك؟

---

(1) Ecumenical Patriarch Bartholomew I of Constantinople.
(2) Seraphim (Tikas), Archbishop of Athens and All Greece.

هكذا هو التصوّر القائم، فهناك مجالات كثيرة لمثل هذا التعاون، وأعلن الكثير من الزعماء الأرثوذكس بصراحة عن استعدادهم للتعاون في هذا المجال، مؤكدين أنَّ التوتر بين المسلمين والأرثوذكس لا يصبّ في مصلحة أيّ من الطرفين، وإنَّما ينفع الخصوم.

في الوضع الحالي لروسيا، ما طبيعة العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية والمثقفين والطبقة الحاكمة في هذا البلد؟

تعدّ الكنيسة الأرثوذكسية هي العامل المشترك الوحيد القادر على جمع الأفكار والمجموعات المتعددة في هذا البلد؛ وذلك لدورها التاريخي والبارز في بلورة الهوية الروسية. ولا يوجد أيّ عامل مهم وشامل وحيوي آخر تمكن مقارنته بالكنيسة لحماية الهوية الروسية والحفاظ على الأصالة هناك. لهذا، فإنَّ هذه الكنيسة موضع ترحيب من قبل الجميع، وخاصة أنَّ المجتمع الروسي يواجه أزمات مختلفة، وهو يشعر بأنَّه يتعرض لهجوم وأطماع من قبل القوى الأجنبية للتدخل بشأنه. وإنَّ روسيا كانت تواجه من جهة أخرى تشتتًا داخليًا؛ لما كانت تمر به من مرحلة انتقالية على مدى سنوات. ولهذا فهي مضطرة للاهتمام بهذا العامل المشترك المتمثل بالكنيسة الأرثوذكسية لمواجهة المؤامرات الخارجية وحماية الوحدة الداخلية. وعليه، فإنَّ التوجه لهذه الكنيسة ليس لأسباب دينية محضة. ويمكن القول: إنَّها أصبحت موضع ترحيب من الجميع وأكثر ممّا تستوعبه وتتوقعه، وممّا تملكه من إمكانات، من اليسار والتيارات الوطنية إلى المثقفين واليمين ومن السلطة الحاكمة أيضًا.

وعلى الرغم من وجود اتجاهات مختلفة داخل السلطة، فإنَّها تشترك في الاعتماد على الكنيسة الأرثوذكسية ممّا يجعلها تلعب دورًا مؤثرًا في المجتمع الروسي مستقبلًا.

أي نوع من الانتقادات يمكن أن يوجه إلى الكنيسة الأرثوذكسية؟ ومن قبل أيّ جهة؟

يمكن تصنيف ثلاثة مراحل للكنيسة بعد انهيار الكتلة الشرقية: المرحلة الأولى، إذ كان الكثير من الناس بعد عام أو عامين من الانهيار في حيرة من أمرهم مع توقعات بارتفاع مستوى المعيشة بمدّة قياسية والعيش على غرار الغرب، خاصة أنَّهم شعروا من الناحية النفسية بالتعب من أنظمتهم، وخُدِعوا من جانب الوعود الغربية. فقد كان

الطموح هو العيش على الطريقة الغربية من البنية الاقتصادية والصناعية إلى الاجتماعية والثقافية والفكرية والدينية أيضًا. في مثل هذه الأجواء كان الكثير ممّن ينتمي إلى جيل الشباب والمثقفين الشبان في أوروبا الشرقية يوجه انتقادات لاذعة إلى كنائسهم البالية والتقليدية من وجهة نظرهم.

وبعد عامين من الحدث شعروا بأنَّهم لم يبلغوا مبلغ الغرب من حيث الرفاهية، وأصبحوا في وضع لا يحسدون عليه من الناحية الاقتصادية، وأصيبت كرامتهم التاريخية والوطنية، وشعروا بأنَّهم خُدِعوا من الغرب، فتراجع إلى حد ما هذا التوجه، وتراجع معه الانتقاد للكنيسة الأرثوذكسية، وأخذ الشبان والمثقفون ينظرون إليها من زاوية جديدة.

أمّا في المرحلة الأخيرة، فإنَّ عامة البلدان الأرثوذكسية قررت العمل وفقًا لهويتها الوطنية المستقلة والتأكيد عليها. فحظيت الكنيسة الأرثوذكسية بالترحاب، وانهال عليها الجميع تقريبًا، وأصبحت تيارًا يتفاوت من بلد لآخر، إذ كان واضحًا وبشدة في بلدان مثل روسيا وأوكرانيا، وباهتًا في بلدان أخرى مثل رومانيا، وهو أمر ليس ثابتًا، وربّما يتعزز في المستقبل.

وكيف تقيّم مستقبل الكنيسة الروسية؟

للرد بصورة دقيقة على هذا السؤال لا بد من متابعة مستقبل روسيا. فمن مصلحة روسيا وتاريخها وهويتها وثقافتها أن تبقى روسيا، ولا تصبح جزءًا من الغرب، وهذا ما لا يمكن وقوعه أساسًا. فروسيا ليست كالتشيك والمجر؛ لتصبح جزءًا من الغرب، وهذه حقيقة بصرف النظر عن إرادة السياسيين في هذا البلد. ومن أهم الداعمين لروسيا المستقلة هي الكنيسة الأرثوذكسية فيها، ولهذا اعتمد عليها الوطنيون الروس أكثر من غيرهم، وليس من المهم المكانة الحالية لهذه الكنيسة، وإنَّما الدور الكبير الذي ستلعبه في مستقبل البلد في إطار التحولات التي ستشهدها روسيا.

الفصل السادس
الهجرة المتوسطية والتداعيات

ظاهرة الهجرة في المتوسط[1]

أجرت صحيفة «اطلاعات» هذه المقابلة مع السفير السابق للجمهورية الإسلامية الإيرانية في المغرب الدكتور «محمد مسجد جامعي» عند انتهاء مهمته هناك. وقد أوضح فيها ظاهرة الهجرة المتوسطية ودَورها المصيري في التطورات الاجتماعية والسياسية لضفتي المتوسط باعتباره منطقة حضارية مهمة على طول التاريخ.

بلحاظ مهمتك حينما كنت سفيرًا للجمهورية الإسلامية في المغرب، وضّح لنا بشكل عام مكانة هذه الدولة في منطقة المتوسط.

يعدُّ المتوسط طريقًا استراتيجيًا مهمًا عبر التاريخ، والتاريخ المدون على الأقل، منذ أن جاء الفينيقيون إلى لبنان وانتشروا في كل الشمال الإفريقي تقريبًا وإلى عهد اليونانيين والرومان؛ ومن ثم المسلمين الذين بسطوا نفوذهم عليها. فالمتوسط كان ممرًا مائيًا استراتيجيًا على طول التاريخ، وكذلك منطقة حضارية ودينية في غاية الأهمية، إذ تضاعفت هذه الأهمية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

كان المتوسط على الدوام ساحة للتنافس بين القوى الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولا سيما أنَّ القوى الكبرى حينها كانت حساسة تجاه جزيرة جبل طارق الصغيرة المشرفة على المضيق، وقد أقدم الإنكليز ومنذ القرن الثامن عشر وإلى يومنا هذا على احتلال هذه الجزيرة ومضيقها، التي كانت موضع تنافس دائمًا بين الإسبان والفرنسيين والألمان والدنماركيين ومن ثم الإيطاليين. مهما يكن، فإنَّ هذه

---

(١) صدر نصّ هذا الحوار في صحيفة "اطلاعات" ضمن عددين، وبتاريخ ١٢ و١٣ آذار/ مارس ٢٠٠٧، تحت عنوان "ظاهرة الهجرة إلى شمال المتوسط وجنوبه"، و"دَور الدين في تعامل المجتمعات المتوسطية".

المنطقة وعلى مر التاريخ المعاصر، وحتى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت ميدانًا للتنافس بين القوى المختلفة، وخاصة الأوروبية. وفي القرن العشرين استمر هذا الصراع على الجزيرة، حتى اتخذ أشكالًا أخرى بعد انهيار الكتلة الشرقية، واستمر إلى يومنا هذا.

أمّا المغرب، فلها ساحلان، أحدهما في الشمال مع المتوسط، والآخر في الغرب مع المحيط الأطلسي، وتعدّ مدينة طنجة وجبل طارق نقطة الالتقاء بين هذين الساحلين. والمغرب في الحال الحاضر عبارة عن دولة مستقلة، لكنَّها تعدّ تاريخيًا إحدى أقدم الحضارات وأكثرها نشاطًا، فالمغرب ليس مجرد دولة بأبعادها السياسية، إنَّما هو وحدة حضارية، فعن طريقه انتقل الإسلام إلى الأندلس، وكان صلة الوصل بين العالم الإسلامي وجنوب أوروبا. فالمغرب وفقًا لهذه الرؤية هو امتداد للأندلس والأندلس امتداد له. كما انتقل الإسلام عبر المغرب إلى غرب إفريقيا وترك بصماته هناك.

أشرت إلى الهجرة في الزمن القديم، الأمر الذي أدى إلى تغلغل الإسلام في جنوب أوروبا. هل هذه الهجرة مستمرة من جنوب المتوسط إلى شماله في أوروبا؟

قبل أن أتحدّث عن هجرة المسلمين من الأفضل أن أشير هنا إلى أنَّ السبب الرئيس للهجرة في سالف الأيام هو الدافع الاقتصادي والزراعي، والبحث عن أراضٍ صالحة للزراعة؛ ذلك أنَّ السواحل الشمالية والجنوبية لهذه المنطقة هي أراضٍ خصبة تتمتع بأجواء مناسبة، فضلًا عن تمركز السكان فيها، لتشكّل سوقًا طبيعية لتصريف البضاعة، ممّا اجتذبت إليها القوميات والجماعات المختلفة، ومنها الفينيقيون واليونانيون الذين هاجروا إلى هذه المناطق، وانتشروا في المناطق الأخرى في المتوسط، فقد جاءها اليونانيون، ومن بعدهم أخلافهم من البيزنطيين (حضارة روما الشرقية)، فيما استولى الروم الغربيون على مناطق أخرى من المتوسط. على أيّ حال، جاء هؤلاء إلى هذه المناطق بدوافع اقتصادية وزراعية، حتى حل المسلمون فيها.

في أواسط القرن الهجري الأول دخل المسلمون في مناطق من مصر وليبيا، حتى وصلوا إلى مناطق في نهايات الشمال الإفريقي في أوائل النصف الثاني من القرن الأول، وتغلغلوا إلى أقاصي المغرب وسواحل الأطلسي. ولم ينتهِ القرن الأول حتى سيطر المسلمون على كل الشمال الإفريقي؛ ليدخلوا الأندلس بعد مدة من الزمن. ومن هذه النقطة تحديدًا دخل الإسلام إلى أوروبا وبقي هناك لثمانية قرون. وعلى أيّ حال، فإنَّ

هجرة المسلمين من الأراضي الإسلامية كانت تحصل عن طريق المغرب، وبشكل خاص عن طريق مضيق جبل طارق، ثم سلكوا بعد ذلك طرقًا أخرى للهجرة.

أي نوع من الهجرة تحصل حاليًا من تلك المنطقة؟ وما المحفزات التي تدفع للهجرة من جنوب المتوسط إلى شماله؟ وهل هي لأسباب اقتصادية بحتة؟

إنَّ الهجرة من جنوب المتوسط إلى شماله هي ظاهرة مر عليها أكثر من قرن. فقد شهدنا منذ بداية القرن العشرين نوعًا من الهجرة القسرية من الجنوب إلى الشمال بسبب ضغوط الفرنسيين الذين استولوا على شمال إفريقيا. فقد كانوا بحاجة إلى أيدي عاملة رخيصة، ما دفع الكثير من المغاربة والتونسيين والجزائريين للهجرة إلى فرنسا، ودخل بعضهم في السلك العسكري، فكانت القوات المسلحة الفرنسية تضم في الحرب العالمية الثانية أعدادًا من المغاربة الذين يقاتلون إلى جانب الفرنسيين ضد الألمان، وقد قُتِل الكثير منهم طوال هذه الحرب.

والسبب الآخر هو رغبة الجنرال فرانكو[1] (١٨٩٢ - ١٩٧٥) باستعمال الجنود المغاربة لحمايته شخصيًا. وكانت تطوان والصحراء هما المستعمرتين الوحيدتين لإسبانيا في شمال إفريقيا، وقد استعمل الإسبان الجنود المغاربة طوال الحرب الأهلية الإسبانية بين فرانكو والجمهوريين في (١٩٣٦ إلى ١٩٣٩)، وخاصة من جانب فرانكو، فقاتلت أعداد من هؤلاء الجنود إلى جانب فرانكو ضد الجمهوريين. وبعد انتهاء الحرب كان فرانكو يرغب ولأسباب مختلفة في تشكيل حمايته الشخصية من الجنود المغاربة. ويمكن القول: إنَّ هذه الأسباب شجعت الهجرة من الجنوب إلى الشمال، إلى بلدان مثل فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. وفي تلك المدّة الزمنية هاجرت أعداد كبيرة من يهود ليبيا إلى إيطاليا، واكتسبوا صفة المواطنة هناك.

وحصلت أيضًا هجرات من الجزائر وتونس والمغرب إلى فرنسا، ولكن بأعداد قليلة؛ وذلك لحاجة الفرنسيين إليهم. على سبيل المثال، فإنَّ المسجد الكبير الموجود في باريس حاليًا أُنشِئ في ثلاثينات القرن الماضي، وهذا يعني أنَّ أعداد المسلمين القادمين من شمال إفريقيا يومذاك كانت كبيرة، لذلك احتيج إلى بناء مسجد هناك.

---

(1) Francisco Franco.

واتخذتِ الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية طابعًا اقتصاديًا، فالفرنسيون على سبيل المثال كانوا بحاجة إلى أيدي عاملة رخيصة. وتزايدت هذه الهجرة بعد عام (١٩٦٠) بسبب الرفاه الاقتصادي الموجود في دول الشمال، وكان المهاجرون القادمون من الجنوب يشدون الرحال بشكل خاص إلى فرنسا وبلجيكا والنمسا وألمانيا إلى حد ما.

استمرت هذه الهجرة في تسعينيات القرن الماضي وما بعدها، فهل تغير شكل الهجرة ودوافعها؟

إنَّ قضية الهجرة التي هي عليه الآن تعدّ مهمة جدًا ومصيرية لدول جنوب المتوسط وشماله على السواء، إذ نسمع يوميًا أخبارًا عن اعتقال مهاجرين غير شرعيين، وأصبحت الهجرة غير الشرعية قضية اجتماعية وسياسية واقتصادية ومؤثرة حتى في الانتخابات البرلمانية والرئاسية والتنافس الحزبي، ومن أهم القضايا التي تعطي للأحزاب مكانتها، سواء في دول جنوب المتوسط أو شماله، وخاصة في الشمال. ويحتاج التفصيل في أسباب ذلك والتداعيات التي تخلفها هذه القضية إلى بحث لسنا بصدده الآن.

والملاحظ هنا أنَّ المهاجرين الجنوبيين في الستينيات والسبعينيات كانوا يرتبطون عاطفيًا بأوطانهم، مع وجود عوامل كثيرة في هذا التعلق الشديد ببلدانهم، فيما لم تكن على الجانب الآخر أيّ عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي لجذبهم إلى هناك، ولهذا تراجعت أعداد المهاجرين، كما أنَّ الاقتصاد في دول الشمال بدوره لم يكن بتلك الحالة المزدهرة، ليتحفز المهاجرون على القيام بهذه الرحلة والانتقال للعمل هناك. وثمة عوامل أخرى بطبيعة الحال منها نفسية وثقافية تجعل من الفرد وفيًا لموطنه ومسقط رأسه.

أمّا اليوم، فقد اقترنت الهجرة مع مجموعة من المشاكل، وأصبح شمال المتوسط يتوجس من المهاجرين. وإلى جانب هذه العوامل حصل في أوائل التسعينيات نوع من الركود الاقتصادي النسبي في غرب أوروبا؛ لأنَّه تعهّد بسلسلة من الوعود مقابل الشرق الأوروبي، الذي كان يطمح إلى مستوى معيشي مساوٍ لما هو في الغرب، ممّا أدى تدريجيًا إلى انتشار نوع من القلق وسوء الظن بالنسبة للمستقبل، في حالة لم يسبق لها مثيل في الثمانينيات وما قبلها، ولكنَّ هذه الظاهرة تفاقمت في منتصف التسعينيات

واشتدت بعد عام (٢٠٠٠). هذه العوامل أفضت إلى نوع من رد الفعل السلبي تجاه الهجرة، ومن جهة أخرى، فإنَّ المهاجرين الذين ترعرعوا في شمال المتوسط لم يعودوا كآبائهم متعلقين بالأرض والوطن.

المسألة الأخرى أنَّ المهاجرين اكتسبوا المزيد من المعلومات حول الرفاه والإمكانات التي كانت متاحة في شمال المتوسط عبر محطات التلفزة الموجودة هناك من دون الحاجة للأطباق اللاقطة، وحينما انتشرت هذه الأطباق أصبح تلقّي هذه المعلومات أكثر سهولة، ممّا جعل هذه المجتمعات أكثر شوقًا للانتقال إلى الشمال.

إذًا، لم يعد العامل الاقتصادي هو الذي يجذب شبان الجنوب إلى الشمال، وإنَّما الأسباب النفسية والنزعة للحياة الغربية هي التي رفعت من وتيرة الهجرة، فيما تراجعت إمكانية استقبال هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين، وزادت العقبات النفسية والاجتماعية والثقافية، ممّا أدى إلى توقف الانتقال الحر من الجنوب إلى الشمال، واكتنفت العملية الكثير من التعقيدات والعقبات، التي ترتبط بالحقائق الاجتماعية في الشمال.

حينما تزداد أعداد المهاجرين من الجنوب إلى الشمال تزداد تبعًا لذلك قوة المهاجرين هناك، ويتحولون من أقلية مضغوطة إلى أقلية منسجمة، يمكنها أن تطرح مطاليبها عبر الطرق القانونية. هل ثمة علاقة بين هذا الموضوع والاضطرابات والمواجهات التي وقعت في شوارع أوروبا، وخاصة في فرنسا؟

هذه ليست قضية اليوم وحسب، وإنَّما هي قضية المستقبل أيضًا، ولا يتعلق الأمر بالهجرة وفقًا لمفهوم التسعينيات أو ما بعدها وحسب. فكما قلنا، فإنَّ الكثير هاجروا منذ أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية من الجنوب إلى الشمال وسكنوا هناك، وازدادت أعداد المهاجرين بعد الحرب العالمية الثانية، فمن كان يشدّ الرحال إلى هناك بحثًا عن العمل كان يمهد في الحقيقة لهجرة أقاربه ومن يرتبط به أيضًا.

أمّا المهاجرون من الجيل الثاني والثالث، فإنَّهم تلقوا تعليمهم في المدارس في الدول الأوروبية وترعرعوا هناك، وتعلموا لغتهم على حساب اللغة الأم التي طواها النسيان، وحصل الكثير منهم على جنسيات البلدان الأوروبية.

على أيّ حال، فإنَّ المهاجرين من الجيل الثاني والثالث كانوا يعانون نوعًا من أزمة الهوية. وتختلف النسبة بطبيعة الحال من بلد لآخر تبعًا لسياسات الدول إزاء المهاجرين، ففي ألمانيا مثلًا كانت الدولة تعدّ نفسها مسؤولة عن مساعدتهم؛ للتعرف على المجتمع الجديد، سواء على صعيد اللغة والثقافة أو القضايا الحقوقية والقانونية، فيما لم تكن فرنسا على هذا الشكل. ولهذا، فإنَّ المشاكل في ألمانيا كانت أقل منها في فرنسا.

وبغض النظر عن هذا الموضوع، فإنَّ الجميع ما عدا الجيل الأول كان يعاني من مشاكل كثيرة تمنع من جذبهم بشكل طبيعي من قبل الدول المستضيفة. ويعود بعض هذه المشاكل إلى الدول المستضيفة نفسها، وبعضها إلى خصوصيات المهاجر نفسه، الذي لا يريد أو لا يستطيع أن يندمج مع الظروف الجديدة. وهذه مشكلة لا شك أنّها ستتفاقم يومًا بعد آخر.

إنَّ المهاجر من الجيل الثاني يعيش في فضاء آخر، وهو ليس كالمهاجر القادم توًا أو قبل سنوات في الشعور بالمواطنة، فهو يشعر في ظل التعليمات التي تلقاها، والظروف التي يعيشها بأنَّه مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة، ولا تسمح له الظروف في الوقت نفسه بالعودة إلى موطنه الرئيس، فلا هو ينتمي إلى المجتمع الجديد ولا إلى المجتمع الذي قدم منه أبواه، فقد أصبحت القضية معقدة جدًا. إنَّ بلدان شمال المتوسط تحاول إلقاء اللوم على المهاجرين أنفسهم من الجيل الثاني والثالث، والقول بأنَّهم لم يندمجوا مع المجتمع الذي يعيشون فيه والثقافة الجديدة، في حين لم يمانع معظم المهاجرين من الانخراط في تلك الثقافة، وإنَّما كانت المشكلة في عدم تقبل هذه البلدان لشريحة المهاجرين. وكانت هذه المشكلة صغيرة في بداياتها، لكنَّها أخذت أبعادًا أكبر تدريجيًا، وأوجدت ظروفًا صعبة، إذ أدت إلى وقوع حوادث في باريس، يطول المقام بنا لو أردنا الخوض فيها، وشاهدنا أنَّ ساركوزي[1] الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية الفرنسية كيف استغلها كدعاية لكسب الأصوات إليه، وأنَّه مارس الشدة في مواجهة من أسماهم بالغوغاء والمشاغبين لكسب ود الرأي العام. ولكنَّ ما حصل في باريس لم يكن مرتبطًا بمهاجري التسعينيات فقط، وإنَّما هي مشكلة بالأجيال التي وُلِدت في المهاجر، وتطالب بظروف عمل أفضل، ومكانة اجتماعية أنسب، والمساواة مع

(1) Nicolas Sarkozy.

المواطنين الآخرين، أي: إنَّ القضية لا ترتبط بالهجرة نفسها بقدر ما ترتبط بالجيل الثاني والثالث الذي يعيش في تلك البلدان.

قلتَ: إنَّ البلدان المستضيفة لا دور لها في الهجرة، فبماذا تفسّر المشاكل الموجودة في بلدان شمال المتوسط؟ هل لهذه المشكلات جذور دينية؟

حقيقة الأمر أنَّ القضايا الدينية في الحال الحاضر باتت تلفت الانتباه كثيرًا وتلعب دورًا مصيريًا، فلم تكن هذه القضية بتلك الشدة فيما مضى. إنَّ عدم استيعاب المهاجرين يعود إلى الماضي وليس أمرًا مستحدثًا؛ لذلك من الصعب القول بأنَّ الأسباب الدينية لوحدها هي التي تمنع الاستيعاب الاجتماعي، فبلدان المهجر لم تكن راغبة أساسًا بذلك. فالعامل الديني لم يكن فيما مضى مصيريًا في استقبال واستيعاب المهاجرين بعكس ما هو عليه الآن، إذ أصبح سببًا مهمًا في ذلك.

فالمجتمع الأوروبي قبل نصف قرن أو أكثر لم يكن كما هو عليه الآن، فقد كان يهاجر إلى البلدان الأوروبية المتطورة مثل إنكلترا وسويسرا وألمانيا مواطنون من البرتغال والإسبان للعمل هناك، وكانت لهم تجمعاتهم الخاصة من دون الانخراط والاندماج في تلك المجتمعات.

إذا أردنا أن نكون واقعيين في الحكم، فإنَّ أيّ مجتمع لا يتقبل كثيرًا بدمج الآخرين في صفوفه.

بخصوص المهاجرين من شمال إفريقيا، وخاصة في فرنسا، فإنَّ هناك رغبة حقيقية في عدم استيعابهم وضمهم إلى المجتمع هناك. وهذا أمر طبيعي؛ لأنَّ هذه الدول كانت ضمن مستعمراتها، ولا يمكن أن تساوي بين مجتمعاتها ومجتمعات الدول المستعمرة، هذا بغض النظر عن الطباع والعنصرية والحالات النفسية التي تنتج عنها.

هنا لا علاقة للدين بالأمر، فمن الطبيعي أن يشعر المستعمر بأنَّه أعلى شأنًا ممّن كان يعيش ضمن مستعمراته، أمّا ما يقال عن الاستيعاب الثقافي وإنَّ المسلمين لا يمكن دمجهم في ثقافة دول المهجر، فنقول: إنَّ هذه الدول لا ترغب أساسًا في ذلك أولًا، وهل حصل ذلك مع المهاجرين من جنسيات أخرى ثانيًا؟ فعلى سبيل المثال هاجر الكثير من الصينيين إلى فلورنسا بإيطاليا في الستينيات، ومكثوا هناك عشرات السنين، ولكن من دون وقوع حالات زواج مع الإيطاليين إلا في حالات محدودة وقليلة.

أي: إنَّ المجتمع الإيطالي لم يستطع استيعاب المجتمع الصيني المنحدر من نظام شيوعي لا علاقة له بالدين، في حين تغيرت الظروف في إيطاليا، ولم يعد هناك شيء اسمه الحرب الباردة، وارتفعت تقريبًا جميع الموانع السياسية والموانع الدولية، ولكن بقي المجتمع الصيني هناك صينيًا، والمجتمع الفلورنسي مجتمعًا فلورنسيًا. إنَّني سقت هذا المثال؛ لوجود أقلية صينية كبيرة وقديمة هناك. لهذا، فإنَّ ما يقال من أنَّ مسلمي الشمال الإفريقي لا يندمجون مع المجتمع الجديد هو كلام لا صحة له، والحقيقة هي غياب الأرضية المناسبة لهذا الاندماج.

ماذا عن العقود الأخيرة؟ قلت: إنَّ الظروف قد تغيرت وإنَّ الدين أصبح عاملًا لعدم الاستيعاب في الغرب. ما العوامل الأخرى التي أدت إلى حصول هذا التغيير؟

أجل، هناك عوامل كثيرة، لكنَّ العامل الرئيس والمؤثر والممهد لتأثير العوامل الأخرى هو العامل الإعلامي والدعائي، فالإعلام، ولا سيما التلفزة أصبح أهم عامل في الوقت الحاضر في بلورة الكثير من العقبات أمام استقطاب المهاجرين وجذبهم تحت عنوان «رهاب الإسلام».

ومنذ متى أصبح «رهاب الإسلام» فاعلًا ومؤثرًا هناك؟

إنَّ منطقة المتوسط ليست بمعزل عن العالم ككل، وإنَّ تحليل الكثير من القضايا لا يكون دقيقًا إلا حينما يقيّم وينظر إليه في إطاره العام والعالمي. فمنذ بداية تسعينيات القرن الماضي نشأ تيار يدعو إلى تخويف غير المسلمين من المسلمين، وتطور هذا التيار على مدى السنوات الماضية، وأسبابه عديدة ومعقدة، وعمل بالخصوص على تخويف الغربيين من الإسلام وكل ما يمتّ إلى الإسلام بصلة. وهذه حقيقة واقعة تركت بصماتها حتى على البلدان غير الاستعمارية مثل الدول الإسكندنافية التي تأثرت بهذه الموجة التي اكتسحت العالم.

ولكن لا بد من وجود شيء في عالم الواقع لتقوم وسائل الإعلام بتهويله وتكريسه؟

لا شك في وقوع بعض الحوادث في هذا الاتجاه، ولكن جرى وضعها في إطار معين للعمل على إخافة المخاطب. فعلى سبيل المثال وقعت في أواسط التسعينيات حرب أهلية بين رواندا وبروندي في منطقة البحيرات الكبرى في إفريقيا، وكانت

عملية إبادة بمعنى الكلمة، إذ قُتِل نحو مليون شخص في أقل من عامين من مجموع سكان رواندا البالغ ثمانية ملايين نسمة. نعم، قُتِل هذا العدد من الروانديين وبأبشع صورة، وهو ما يفترض أن يشكّل كارثة كبرى، أن يقتل مليون شخص وفي مدّة قصيرة؛ إذ لم يحدث ذلك جراء المجاعة، بل بالرصاص، ومن ثم التمثيل بهم وقطع رؤوسهم؛ في حين تعدّ رواندا أكثر البلدان كاثوليكية في إفريقيا، ومعظم سكانها من الكاثوليك. وقد قُتِل في الحرب الرواندية عددٌ كبيرٌ من الأساقفة، وهو أمر يثير الاستغراب؛ لأنَّ مقتل أسقف واحد يعادل في القاموس المسيحي مقتل جنرالات عدة في الجيش، كما قُتِل عددٌ كبيرٌ من القساوسة والراهبات من الروانديين والأوروبيين، ولكن من دون أن ينبس أحد ببنت شفة، ويقول مثلًا إنَّ الكنيسة الكاثوليكية تميل إلى الهوتو أو التوتسي، وإنَّ لها دورًا مؤثرًا فيما حصل، ولم يتحدّث أحد عن دور الآباء الكنسيين في وقوع هذه المذابح؛ لكن يجري تهويل دور المسلمين في بعض الأحداث البسيطة جدًا، وإيجاد جو من الرعب من الإسلام والمسلمين. ومن الممكن أن تقع الصحافة تحت هذا التأثير وتقوم بالتهويل عن عمد.

أين هي نقطة البداية في هذا الموضوع؟ هل يمكن أن نعدَّ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ذروةَ هذا التوجه؟

لا يمكن ذلك؛ لأنَّنا لا نستطيع أن نتجاهل الخلفيات التاريخية، هذه الخلفيات بمعناها التاريخي، التي يطلق عليها بعضهم بالحروب الصليبية، فلا يمكن نسيان ذلك. وأبدت البلدان الإسلامية في التاريخ المعاصر - والتي وقعت أسيرة بيد الاستعمار- مقاومةً قويةً وباسلةً قياسًا إلى بلدان العالم الثالث الأخرى. وهذا بذاته يشكّل عاملًا آخرَ لا يمكن تجاهله أيضًا، كما ليس بوسعنا تجاهل الجدال الكلامي بين المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ. ولكن كانت الكتلة الشرقية وإلى نهايات الثمانينيات هي الخطر الأول عمليًا بالنسبة لأميركا وحلفائها الأوروبيين، في حين كان المسلمون متعاونين، أو يمكن القول حلفاء مع الغرب في مواجهة الكتلة الشرقية، مع وجود استثناءات بطبيعة الحال. ويمكن القول: إنَّ هذه الظاهرة في أبعادها وظروفها الحالية بدأت بشكل أساس بعد سقوط الكتلة الشرقية، إذ يقول الأمين العام للناتو في حينها ويلي كلايس (١٩٣٨)[1]، - وكان قبل ذلك وزيرًا لخارجية بلجيكا- بصراحة تامة:

(1) Willy Claes.

((إنَّ الإسلام هو العدو المستقبلي)). وقد أثار كلامه في حينها الاستغراب في الأوساط الأوروبية، لكنَّها ظاهرة بدأت في التسعينيات، وتطورت طبقًا للأحداث التي وقعت فيما بعد، والدور الذي لعبه الإعلام في ذلك، واستمرت إلى يومنا هذا.

هنا تثار الملاحظة الآتية: بأنَّ الجبهة المقابلة للغرب يجب أن تتوفر على بعض الخصائص، وأن تكون على الأقل بمستوى الكتلة الشرقية التي كانت تمتلك القدرة الاقتصادية والإعلامية، في حين لا يمتلك الإسلام مثل هذه القدرات. فكيف قدّموا الإسلام؟ وأيّ إسلام عرضوه؟ فلم يكن الإسلام بمستوى تلك الكتلة ليستطيع استقطاب الحلفاء حوله.

أجل، فمثل هذا الكلام تحدّثَ به يومها أمين عام الناتو، واستغله منتقدوه في توجيه النقد له. إنَّهم كانوا يقولون: إنَّ الإسلام هو دين ولا يمكنه أن يعمل كما تعمل الإمبراطوريات الكبرى في الاقتصاد والتسلح والسياسة، ولهذا ليس هناك وجه مقارنة بين الاثنين. وهو انتقاد - إذا لم تخُني الذاكرة- طرحه مرة كاردينال ميلانو المعروف مارتيني[1]، والذي تقاعد فيما بعد. أمّا عن الأسباب التي دعتهم لذلك، فهناك آراء مختلفة، ولكن يرى بعضهم بأنَّ من بين السياسيين والمفكرين والمنظرين الغربيين من يعتقدون بنظرية العدو الافتراضي، وأنَّ الغرب لا يستطيع الاستمرار في حياته من دون وجود مثل هذا العدو.

ويبدو أنَّ معظمهم اقتنع بهذه الفكرة وأخذ يتحرك وفقًا لها. وقد تسارعت الأحداث في السنوات الماضية، إذ أصبحت في كمّها تعادل ما وقع منذ الحرب العالمية الثانية وحتى تسعينيات القرن الماضي، وتدحرجت الأمور إلى ما هي عليه الآن.

أشرت إلى موضوع الهجرة من الجنوب إلى الشمال، فهل وقعت هجرة معاكسة من الشمال إلى الجنوب؟ فإذا حصلت مثل هذه الهجرة، فما أسبابها ودوافعها؟

سؤال جيد جدًا؛ لأنَّ هذا الموضوع لم يُطرَح إلا ما ندر. فمثل هذه الهجرة موجودة وستستمر أقوى ممّا هي عليه الآن على ما يُعتقد. ولكن كيف حصل ذلك؟ قبل انهيار الكتلة الشرقية، أي: منذ عام (١٩٨٥) فما بعد، أو بالحقيقة بعد عام (١٩٨٠) كان الكثير من سكان النمسا يسافرون إلى المجر؛ لشراء السلع على سبيل المثال، بعد

(1) Cario Maria Martini.

حل مشكلة التأشيرة، فكان بوسع أيّ نمساوي أن يذهب صباحًا إلى المجر، ثم يعود مساء إلى بلاده. كما كانوا يسافرون إلى المجر لتلقّي العلاج الطبي وعلاج الأسنان؛ لأنَّ التعرفة العلاجية كانت أرخص بكثير من النمسا ووفقًا لمواصفات عالية. مثل هذه الظاهرة ولكن بمستوى أقل تكررت بين شمال المتوسط وجنوبه. فعندما كنت في المغرب واجهت الكثير من الأوروبيين الذين كانوا يذهبون إلى تونس لطبابة الأسنان، ثم يعودون إلى المغرب بعد تلقّي العلاج اللازم.

وثمة عوامل أخرى ساعدت على تعزيز هذه الظاهرة؛ ذلك أنَّ القارة الأوروبية تعدّ قارة عجوزًا، والكثير من سكانها من كبار السن الذين يواجهون مشاكل عديدة في بلدانهم، ففي فرنسا مثلًا توفي الآلاف من هؤلاء المسنين في دور العجزة والمستشفيات؛ بسبب شدة الحر في فصل الصيف في السنوات الماضية. ويعود ارتفاع نسبة الوفيات إلى عدم إيصال المسنين في الوقت المناسب إلى مراكز العلاج، وعطلة شهر آب/ أغسطس، ونقص الكوادر الطبية. وهذه ظاهرة جديدة على الرغم من أنَّها كانت موجودة سابقًا، ولكن ليس بالشدة نفسها، وكان بالإمكان استيعابها وهضمها؛ لأنَّ أعداد كبار السن لم تكن بهذه الكثرة، ولم تكن الأعمار ترتفع كثيرًا كما هو عليه الحال الآن، كما أنَّ الإمكانات كانت قادرة على تلبية الحاجات يومها، لهذا لم تكن تمثل حينها مشكلة كبرى. أمّا الآن، فقد ازدادت أعداد كبار السن، وازدادت معها تكاليف العناية بهم إلى حد كبير.

أمّا الموضوع الجديد الذي طرأ هنا، فهو أنَّ الأفراد أو المؤسسات المسؤولة عن رعاية المسنين باتوا يرجحون نقلهم إلى المغرب أو تونس أو بلدان أخرى في شمال إفريقيا بصورة فردية أو جماعية؛ لما تتمتع به هذه البلدان من مياه عذبة وأجواء طيبة وشمس ساطعة. كما أنَّهم يستهويهم التنوع الإقليمي والتراث القديم من الأبنية والعمارة وما إلى ذلك.

وقد خصصت الشركات القادمة من بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا وإسبانيا وهولندا استثمارات كبرى في الجنوب بإيجاد وحدات سكنية لإقامة كبار السن الراغبين في المجيء إلى المغرب والبقاء فيه. وتوزعت هذه الاستثمارات في مناطق مختلفة، سواء في الساحل أو في داخل الصحراء وخارجها. حتى أنَّ أحد سفراء الاتحاد الأوروبي السابقين في المغرب قال: إنَّ من أكبر الاستثمارات الأوروبية في المغرب هو

تأسيس هذه المنتجعات التي يستوعب كلُّ واحد منها الآلاف من الأشخاص.

ويسكن في المغرب حاليًا نحو أربعين ألف فرنسي، إذ يطلق نواب البرلمان ووسائل الإعلام ومن يهمه الأمر تحذيرات من قيام هؤلاء الأشخاص بشراء العقارات الجميلة في المدينة القديمة بأسعار خيالية، ويعملون على تغيير نسيجها الاجتماعي، ما يسبب مشكلات كثيرة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية. هذا الوضع مستمر حاليًا، بل ويزداد يومًا بعد آخر، فعلى سبيل المثال اختار رئيس الوزراء الاشتراكي الإيطالي الأسبق كراكسي (١٩٣٤ - ٢٠٠٠)[1] الذهاب إلى تونس أواسط التسعينيات، والإقامة فيها حتى توفي هناك، وكانت له مشاكل مع القضاء الإيطالي. وهذه الظاهرة تعدّ بحد ذاتها نوعًا من الهجرة المعكوسة.

هل توافق على أنَّ هذه الهجرة المتبادلة ليست من النمط نفسه، هجرة الجنوب إلى الشمال للاستمرار بالحياة والحصول على المتطلبات الأولية لها، وهجرة الشمال للجنوب من أجل الراحة والاستجمام والاستقرار؟

إنّ هذه الظاهرة - كما قلت- لم تكن قديمًا وهي مستحدثة، وستتوسع في المستقبل؛ لأنَّ البلدان التي تحسب لكل شيء حسابه في صغائر الأمور وكبائرها، مثل البلدان الأوروبية التي تستثمر مئات الملايين من اليوروهات في هذا المجال، وستواصل استثماراتها مستقبلًا إلى المليارات، فحينما تستثمر هذا البلدان في موضوع معين فهذا يعني أنَّها تستثمر في قضية جادة بالنسبة لها؛ فالهجرة حتى وإن استبدلت اسمها بمصطلح آخر، فهو موضوع موجود بقوة وسينتشر في المستقبل أكثر فأكثر.

فقد تغير عالمنا إلى عالم لا يمكن معه تحديد من هو المحتاج، فإلى سنوات مضت كانت هذه المصطلحات والمفاهيم واضحة، لها دلالاتها الخاصة. أمّا الآن، فقد تغيرت الظروف وأصبح الجميع محتاجًا كحقيقة واقعة، ليس على الصعيد الاقتصادي وحسب، وإنَّما من الناحية النفسية والعاطفية أيضًا، وأصبحت الظروف بشكل لا يمكن معها الساكن في أقصى الشمال على الكرة الأرضية أن يقف موقف اللا مبالاة إزاء الساكن في خط الاستواء، وذلك الذي يقطن في أثرى دول العالم حيال من يعيش في أفقرها.

(1) Bettino Craxi.

هل يمكن لهذه الهجرات إلى إفريقيا أن تبشر بتأسيس اتحاد على غرار الاتحاد الأوروبي؟

هذا التصور كان قائمًا حتى أواسط التسعينيات، ويمكن القول: إنَّ مبادرة طُرِحت في هذا الإطار في برشلونة ابتداء، وقيل حينها: إنَّنا لا نستطيع أن نعيش باستقرار وراحة بال إلا حينما يكون جارنا على الشاكلة نفسها من الاستقرار والتنمية، ولهذا أصبحت هذه التنمية ضرورة أيضًا للجوار، وأنَّ الصداقة معه أصبحت حاجة ملحة. وعلى أساس هذه النظرية تدفقت رؤوس الأموال للاستثمار المالي والصناعي وحتى السياسي والثقافي والاجتماعي؛ لتقريب أوروبا الشرقية منها بهدف تحسين أوضاع الجوار والعيش برفاه وسلامة.

بقي مفعول هذه النظرية ساريًا وحاول البعض حينها بالتمدد جنوبًا بعد الشرق لتنميته، ولقيت أنصارًا كثرًا من بين حكام الجنوب. وكان الحلم هو تشكيل أوروبا الكبرى التي تضم الشرق الأوروبي والشمال الإفريقي أيضًا، إلا أنَّ الجزء المتعلق بالشمال الإفريقي واجه تحدّيات كثيرة؛ حتى تراجع الكثير من داعمي هذه النظرية وعدلوا عن أفكارهم؛ لأنَّهم توصلوا إلى نتيجة مفادها أنَّه لا يمكن تنفيذ التنمية التي جرت في شرق أوروبا على الجنوب وبمدّة قصيرة. غير أنَّهم راغبين أو مضطرين في نهاية المطاف لتنمية الجنوب؛ لأنَّه جزء من أمنهم الاقتصادي والاجتماعي والفكري.

هذه الفكرة كانت تراود أيضًا وبشدة الجنوبيين، أي: شمال إفريقيا، وينبهون الشمال على ضرورة مد يد العون لهم. وقد طُرِح هذا الموضوع لمرات عديدة في ندوات في المغرب حينما كنت هناك، وقال أحد الفرنسيين مرة وفي نبرة متعالية: ((لا تنتظروا منا أكثر ممّا نقوم به. ليس بوسعكم أن تكونوا جزءًا من مجموعتنا الواسعة)). على أيّ حال، فقد توصلوا إلى نتيجة باستحالة الوحدة المتكاملة مع هذه البلدان، ولكن من الضروري القيام بتنمية واسعة في مدن جنوب المتوسط؛ لكي تحول على الأقل من الهجرة إلى الشمال، لأنَّ المهاجرين يعانون من الفقر التنموي والاقتصادي والمالي.

والمسألة الثانية أنّ تطوير هذه البلدان سيساعد على تشكيل حزام أمني يمنع الهجرة إلى الشمال، وتستقطب أسواقها من يرغب الهجرة من القارة السوداء إلى الشمال في أوروبا؛ لتصبح هذه البلدان بعد تنميتها هدفًا للمهاجرين الأفارقة، فتصان بذلك البلدان الأوروبية.

أمّا المسألة الثالثة، فهي أنَّهم يعدّون ما يسمونه الإرهاب مُنطلِقًا من المناطق الفقيرة والهامشية في شمال إفريقيا، وخاصة من المغرب، وعليه، فإنَّ إزالة هذه المناطق الفقيرة بتقديرهم، وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية سيقضي على هذه الظاهرة، ويحقق لهم الأمن في الشمال، ولهذا، فإنَّ أحد أهدافهم الاستراتيجية مساعدة دول الجوار الجنوبي للوصول إلى التنمية المطلوبة.

ويزور المغرب سنويًا نحو ستة ملايين سائح معظمهم من الأوروبيين، فمن المهم للأوروبيين أنفسهم أن تدخل هذه الأعداد الكبيرة من السياح إلى منطقة تنعم بالاستقرار والهدوء، ومن المهم لهم أيضًا أن يجاورهم بلد يزوره السائح ويقيم فيه وهو يشعر بالأمن وراحة البال، لهذا، فهم يرغبون بتنمية بلدان الجوار، حتى ذهب طموح بعض منهم بعيدًا في تنمية الشمال الإفريقي على غرار أوروبا الشرقية، وذلك في التسعينيات من القرن الماضي، لكنَّ طموحاتهم ذهبت أدراج الرياح.

الهجرة واستعادة الهوية[1]

يرى حجة الإسلام والمسلمين الشيخ «محمد مسجد جامعي» أنَّ القضايا والمشاكل المتعلقة بالهجرة تنطوي على دَور مهم في التحرك الغربي ضدّ الإسلام، وأنَّ أساس الجهود الغربية المعادية للإسلام إنَّما هي منبثقة عن المنطق الجزمي والحق المطلق الذي يراه الغرب لنفسه ولمنهجه الذي يتبعه، ويعتقد على أساس هذه الرؤية أنَّ الغرب لا يطيق أيّ منهج للحياة يختلف عن منهجه. هذا في وقت يتبوأ الحوار مكانة بارزة بين المسلمين. ويعتقد سماحته أيضًا أنَّ ما يقال عن إقبال الغرب على الإسلام والمعنويات كلام غير دقيق، والصحيح هو عودة المسلمين - في كل بقعة من بقاع العالم- إلى إسلامهم.

إنَّ علاقة الإسلام والغرب في المرحلة المعاصرة كانت على الدوام إحدى القضايا التي يدور حولها بحث كثير، فيُنظر إليها تارة من الزاوية السياسية والحضارية، وتارة أخرى من نافذة الحوار بين الأديان. هذه العلاقة واجهت جدلًا واسعًا على

---

(١) نص مقابلة أجرتها صحيفة خراسان "محمد علي ندائي" بتاريخ ٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠، في موضوع حول "تحليل لإساءات الغرب للمسلمين"، وتحت عنوان "الغرب يعدُّ نفسه حقًا مطلقًا".

طول الخط من بُعدها الاستراتيجي والسياسي، كما هو الحال في الأبعاد الأخرى، حتى وإن دار الكلام حول الحوار والمباحثات المشتركة.

ويُعدُّ حجة الإسلام والمسلمين «محمد مسجد جامعي» من الشخصيات التي لمست هذا الأمر عن قرب في الميدان السياسي، كما أنَّه شارك في مجال الحوار الديني؛ لهذا أجرينا معه هذه المقابلة حول مسار الحوار بين الأديان بعد قيام أحد القساوسة الأميركيين بالإساءة إلى القرآن الكريم؛ ليطرح آرائه وتحليلاته من زاوية مختلفة للإساءات التي توجهها الشخصيات الغربية المختلفة.

كان لك حضور سابق في الفاتيكان باعتبارك سفيرًا لإيران هناك. السؤال هو: هل للفاتيكان ممثل في إيران أم لا؟ وهل ممثل إيران هناك له وجهة دينية أم سياسية؟

للفاتيكان وجهان: الوجه الأول: - وهو الأساس- يتكون من مقرّ الزعامة والمقرّ الديني والتاريخي للكنيسة الكاثوليكية. والوجه الآخر: هو منصب البابا وزعيم الفاتيكان باعتباره رئيسًا للدولة. إنَّ الطبيعة المزدوجة في الزعامة الدينية والسياسية للفاتيكان أدت إلى تباين علاقته مع الدول عن العلاقات السائدة بين البلدان المختلفة في العالم. أمّا عن كيفية الجمع بين هذين المنصبين، والفرق بين الفاتيكان والدول الأخرى، فيتطلب بحثًا مستقلًا، ولكن يمكن القول إجمالًا: إنَّ الفاتيكان في القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية أصبح دولة له سفراؤه في الدول الأخرى، كما أنَّ للدول ممثليات لديه. وقد يكون هؤلاء السفراء من المقيمين أو المعتمدين[1] غير المقيمين هناك. مثال ذلك أنَّ السفير الهندي في الفاتيكان هو نفسه سفيره في باريس. وهذا الأمر يرتبط بأهمية الفاتيكان لتلك الدولة أو العكس.

إذًا، فالسفارات في الفاتيكان لها وجه سياسي أكثر ممّا هو ديني؟

نعم، هكذا. أمّا إيران، فقد بدأت علاقتها الرسمية مع الفاتيكان على مستوى السفير سنة (١٩٥٣) واستمرت إلى اليوم. وكان لِكلّ منهما طوال هذه المدة سفير دائم لدى الآخر. ويشغل السيّد جان بول جوبل (و: ١٩٤٣)[2]، وهو أسقف فرنسيّ، منصب السفير في طهران حاليًا[٣].

(1) Accredite.
(2) Jean-Paul Gobel.

(٣) أي: في سنة إجراء هذا الحوار.

منذ متى بدأ الحوار بين الأديان، وخاصة بين الإسلام والمسيحية؟

للحوار بين الأديان في الشرق «الشرق الأوسط الإسلامي»، والغرب «أوروبا» تاريخ مختلف. ففي الشرق الإسلامي كان هناك وعلى طول التاريخ ارتباط بين الأديان وتعاطٍ متبادل، ولا سيما عند الشيعة. فمنذ عهد الإمام الباقر - عليه السلام- (٦٧٦ - ٧٣٢)، إذ كانت الظروف مناسبة للتعامل مع علماء المذاهب، وحتى الزنادقة، كان الأئمة - عليهم السلام- يجرون مناظرات مع أصحاب الأديان والمذاهب، وحتى الملحدين. وكذلك الحال بين أهل السنة، وخاصة أولئك الخلفاء من ذوي النزعة الفكرية والفلسفية والعلمية كالمأمون العباسي (٧٨٦ - ٨٣٣)، ممّن كانوا يهتمون بالحوار بين الأديان.

وقد قال لي أحد الأساقفة الذين شاركوا في مؤتمر للحوار بين الأديان عُقِد في طهران بحضور زعيم الكنيسة الشرقية الآشورية بوجود نص بين النصوص الآشورية يتضمن حوارًا بين زعيمهم الديني (الجاثليق) والمأمون. ونقلت كتبنا بحصول حوارات ومباحثات بين الإمام الرضا - عليه السلام- (٧٦٦ - ٨١٨)، وكذلك المأمون مع علماء الأديان الأخرى. وقد أوردت الكتب التاريخية هذه الحوارات التي كانت تحصل بين الأديان. قال لي هذا الأسقف: ((إنَّ زعيم الآشوريين حينذاك - وكانت كنيستهم تسمى كنيسة فارس- عقد حوارًا مع المأمون، قام بترجمته من العربية إلى الإنكليزية الأستاذ سمير خليل سمير (١٩٣٨)، ويُدرّس حاليًا في جامعة غرغورين[1])).

إذًا، فالحوار كان موجودًا دائمًا بين علماء المذاهب الإسلامية، وخاصة لدى الشيعة، إذ لم ينقطع هذا الحوار يومًا، وقد وصلتنا نصوص كثيرة من العهدين الصفوي والقاجاري بين ما هو مطبوع ومخطوط، تكشف عن وجود مباحثات بين علماء الشيعة مع العلماء المسيحيين واليهود. لكن لا وجود لمثل هذا الشيء في الغرب، أي: في أوروبا، فقلما نعثر على نصوص تكشف عن وجود مثل هذه الحوارات قبل الحرب العالمية الثانية. وما هو موجود هو مجرد ردود، وليس حوارًا أو مباحثات مشتركة، خاصة بين المذاهب المسيحية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

---

(1) Pontifical Gregorian University.

بل لا تمكن ملاحظة مثل هذه الحوارات، حتى بين اليهود والمسيحيين، إلا أنَّ الأمر تغير في العصر الجديد وبعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد تشكيل مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٣ - ١٩٦٥).

ما الظروف والأسباب التي جعلت الحوار بين الأديان في العصر الجديد أكثر انتظامًا، مبتعدًا عن الحالة الفردية والشخصانية؟

أصبح كل شيء في العصر الجديد نظاميًا، فبعد الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال وفي فترة الحرب الباردة كان هنالك تنافس شديد بين القوتين الشرقية والغربية، ولكنَّ الضرورات كانت تقتضي البحث الجاد في سلسلة من القضايا المهمة، للتوقيع على معاهدات مثل معاهدة «سالت»[1]؛ لضبط التسلح النووي. لهذا حصلت الكثير من المفاوضات المنتظمة بين القوى الكبرى، وهو ما كانت تقتضيه الظروف التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية.

يقال: إنَّ إقبال العالم الغربي وسائر الدول الأخرى على الدين والمعنويات ازداد في العقود الأخيرة. هل هذا الإقبال على الدين سيؤثر على تطوير الحوار بين الأديان؟

أعتقد أنَّ الإقبال على الدين هو في إطار المسلمين أنفسهم، أمَّا غير المسلمين، فليس الأمر كذلك، وما نتصوره في إيران عن الإقبال على الدين هو في الحقيقة ليس توجهًا للدين باعتباره مجموعة يرى المرء بأنَّه ملزم بتعاليمها ومستسلم لقوانينها، فمن الممكن أن يقول الصربي المسيحي: إنَّه فخور بكونه أرثوذكسيًا، أو أن يقول الكرواتي المسيحي: إنَّه فخور بكونه كاثوليكيًا ومستعد للتضحية من أجل ذلك. وهذه الحالة ليست كمن يضع نفسه تحت أوامر الدين، ويعتقد بما يمليه عليه ويلتزم بأحكامه وتكاليفه. إذًا، فإنَّ ما يقال عن الإقبال على الدين، إنَّما يخصّ المسلمين الذين عادوا إلى دينهم في العقود الأخيرة كما هو مشهود.

وأحد الشواهد الحية على ذلك هو ما نلمسه في شهر رمضان المبارك، فحينما يحل هذا الشهر الكريم، تشعر وكأنَّ تغييرًا حصل في المجتمعات الإسلامية والأقليات الإسلامية في كل مكان. فيمسكون عن الطعام والشراب لساعات طويلة من أذان الصبح وحتى أذان المغرب، وهو ما لا يمكن تصوره لغير المسلمين. كما أنَّ إقبال

(1) Strategic Arms Limitation Talks (SALT).

المسلمين على الحجاب هو مثال آخر على انتشار الالتزام بالتعاليم الإسلامية والتقيد بها. وهذه كلها دليل على قوة الإسلام وجاذبيته بالنسبة للمسلمين.

لكنَّنا لا نشهد مثل هذا الإقبال بين أتباع المذاهب والشعوب الأخرى. هناك من يقول: إنَّ الغرب وبعد مرحلة الحكم العلماني وتنحية الدين عن الحياة الاجتماعية، عادت إليه ظاهرة العودة إلى الدين والإقبال على المعنويات، والدليل على ذلك ازدياد مبيعات بعض الكتب، مثل كتاب (المثنوي) لجلال الدين الرومي في أميركا، والرواج المتزايد للعرفان الشرقي أو الجديد. فهم يقولون بأنَّ توجه الشعوب الغربية للإسلام سبّب كل هذه المخاوف لدى الحكام هناك، الذين انبروا لمواجهته متشبثين بالإسلاموفوبيا للحيلولة دون إقبال الناس على الإسلام. هل توافق هذا الرأي؟

طرحت مواضيع كثيرة في هذا السؤال لا بد من مناقشة كل موضوع على حدة. بشكل عام - وكما قلنا-، فإنَّ الجميع يشهد على إقبال المسلمين على دينهم في العالم الإسلامي والمناطق التي يوجد بها المسلمون، ولكن لا يمكن تعميم هذه الحالة على المناطق الأخرى من الأمم والشعوب غير الإسلامية، وإذا أردنا أن نناقش الإقبال على الدين في الغرب فقط، فلا بدّ من أن نعرف القصد من هذه المعنويات أولًا، فهل هذه المعنوية الدينية تعني المعنوية الحقيقية للأديان الإبراهيمية، أم معنوية مختلقة ومزيفة لمجرد وجود أوجه شبه بينها وبين الدين أو المعنوية الدينية. وبالطبع لا يمكن أن ننكر كليًا، ونقول إنَّه لا يوجد أيّ عرق ديني في النزعة الدينية الحالية، إلا أنَّ ما نشهده من نزعة نحو المعنوية الدينية في الغرب لا يعني معناه الاصطلاحي في الطاعة والالتزام والتسليم للغيب. فعلى سبيل المثال كانت البوذية في تسعينيات القرن الماضي تستقطب الكثير في أوروبا، وأنتجت الكثير من الأفلام السينمائية بهذا الخصوص.

في تلك البرهة الزمنية آمن أحد نجوم كرة القدم الإيطاليين المعروفين، ويسمى روبرتو باجيو (١٩٦٧)[1] بالديانة البوذية، وأثار ضجّة كبرى، وكنت حينها في روما، فسألت عن هذا الموضوع بعضَ المختصّين بشؤون المجتمعات الدينية من الشخصيات الدينية وغير الدينية، فعرفت أنَّ البوذية الأوروبية تختلف كليًا عن البوذية الصينية والتبتية الأصيلة، وهي مجرد مسحة سطحية من الديانة البوذية بمذاق أوروبي، ولا

---

(1) Roberto Baggio.

تحمل ثقافتها وطبيعتها الأصيلة.

هذه البوذية في الحقيقة لم تكن إلا موجة عابرة وموضة تتلاشى بمرور الأيام، وليست بوذية حقيقية بالمعنى الحقيقي للكلمة. إنَّك ترفض في ردك موضوع إقبال الغربيين على الدين والإسلام، السؤال هنا: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتحسس الغرب من المظاهر الإسلامية مثل الحجاب، ويسيئ إلى المقدسات الإسلامية؟ ألا يعدّ هذا السلوك نوعًا من رد الفعل تجاه إقبال الناس على الدين؟

كلا، ليس الأمر كذلك. والجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شيء من التفصيل، ولا يمكن النظر إليه بهذه البساطة. هنا يجب أن نلتفت إلى موضوع الهجرة واستقبال المهاجر للثقافة السائدة، ونناقش القضايا المتعلقة بهوية المهاجرين، قبل أن نرد على هذا السؤال، وخاصة أنَّ قضية الهجرة موضوع واسع يرتبط بجميع البلدان الأوروبية، وليس البلدان الاستعمارية فقط.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ التطورات العالمية من السرعة بحيث لا يمكن الأخذ بنظر الاعتبار الظروف التي كانت سائدة قبل عشرين عامًا لتحليل الوضع الحاضر، خاصة في السنوات الأخيرة، إذ ارتبطت الهجرة بالكثير من الأمور. فعلى سبيل المثال أنتج أحد المخرجين الهولنديين الوقحين فيلمًا مسيئًا للإسلام والنبي - صلى الله عليه وآله-، فقُتِل على يد شاب مغربي مولود في هولندا نفسها. وقد أثارت هذه الحادثة ضجة كبيرة في الأوساط هناك. فبعض القضايا تتعلّق بموضوع الهجرة وبعضها بالغربيين أنفسهم. فالشعور بالحق المطلق وأنّ المنهج الغربي في الحياة هو المنهج الصحيح فقط يؤدي إلى مثل ردود الفعل التي أشرت إليها حيال المسلمين. فلا يمكن تبرير سلوك الغرب تجاه المسلمين بمجرد القول بأنَّ ذلك يعود إلى إقبال البعض هناك على المعنويات والدين واعتناق الإسلام.

هل هذا يعني أنَّك تعدّ الهجرة السبب في التحركات الغربية المعادية للإسلام؟

كلا، ليست الهجرة وحدها. فهذه القضية معقدة تتدخل فيها مجموعة من العوامل، ولا يمكن توضيح جميع أبعادها إلا من طريق جلسات عدّة من البحث، وليست بالأمر البسيط الذي يمكن التوصل إليه بسهولة ويسر، ولكن ممّا لا شك فيه أنَّها قضية جادة ولا بد من الالتفات إليها من جميع زواياها مع بعض. فالغرب ينظر إلى

اعتناق بعض أفراده للإسلام وانتمائه إلى القاعدة بأنَّه ليس مجرد عنصر خارج عن دينه، بل إنَّه أصبح يمثل تهديدًا له، فيسعى إلى التهويل الإعلامي والدعائي؛ لتخويف الناس من هذه الظاهرة، غير أنَّ حقيقة الأمر هي أنَّ الغرب لا يطيق أيّ جهة تختار منهجًا حياتيًا متباينًا لمنهجه الذي رسمه؛ لأنَّه يعتقد بأنَّ منهجه هو الحق المطلق.

بلحاظ هذه الخصوصية لدى الغرب الذي يرى بأنَّه هو الحق المطلق، هل يمكن أن نتحدّث عن إيمانه وبشكل جاد في موضوع الحوار بين الأديان؟

إنَّنا نعيش في عالم يختلف كليًا عن السابق. ففي الماضي كانت هناك قوى عدة تدير العالم تتكون من أقلية من العسكريين والسياسيين والاستراتيجيين، ثم أضيفُ إليها وسائل الإعلام الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، ولكنَّ الأمر تغير الآن. ففي الماضي لم يكن لعامة الشعب دور في إيجاد الأحداث، بعكس الآن، إذ أصبح لهم دور كبير فيها. والمهم هنا هو أن نفهم بأنَّ هذه الأقلية التي تمسك بزمام الأمور تسعى في مواجهة المسلمين إلى جذب الرأي العام والمشاعر والأحاسيس نحوها؛ لتبدو وكأنَّها على حق في هذه المواجهة. أمّا الآن، فإنَّ الآخرين يستطيعون التأثير أيضًا على الرأي العام عبر استخدام الأساليب الصحيحة، خاصة إذا كان المنطق منسجمًا مع الفطرة التي أودعها الله في الناس. وعليه يمكن القيام بالكثير من الأمور والإجراءات في إطار محاكاة الفطرة الإنسانية لو كانت الفطرة سليمة، غير أنَّ الحوار يفتقد لمعناه وهدفه إذا كان مع من حدد موقفه سلفًا، وكان جادًا في الالتزام بأفكاره ودينه ومذهبه الذي هو عليه.

هل يُستنبط من كلامك بأنَّ عامة الناس في الظروف الحالية أصبح لهم دور إبداعي في التطورات التي نشهدها، وهذه فرصة مناسبة لمن يريد أن يستقطب الرأي العام لمصلحته؟

نعم، - كما تقول-؛ لأنَّ معظم الزعماء لم يكونوا بحاجة إلى الرأي العام والأمور التي تُطرَح الآن، ولكن لا يمكن في الوقت الحاضر اتخاذ الأسلوب السابق. لهذا، فإنَّه لا بد لزعماء السياسة في العالم من إقناع الرأي العام وعامة الناس للمضي قدمًا بمشاريعهم على أنَّها هي الحق مقابل خصومهم. وهذه الظروف تضع في متناولنا فرصة ثمينة لا بد من اغتنامها والاستفادة منها بالنحو الأحسن. وبطبيعة الحال، فإنَّ الوضع حول الأديان يختلف عن ميدان السياسة. ففي هذا المجال ثمة تعددية في

الآراء، فالأساقفة والقساوسة والشخصيات الدينية الأخرى لا يفكرون كما يفكر الجيوستراتيجيين في بلدانهم. فالسياسيون يتخذون قراراتهم مسبقًا، وهذا لا يعني أنَّ جميع الشخصيات الدينية هي الأخرى قد اتخذت قرارها سلفًا ممّا لا يصبح للحوار وتبادل الآراء معها أيّ معنى. ببيان آخر، فإنَّ لميدان الرأي بالنسبة للعمل وضعًا مختلفًا، إذ يجب ألّا نقارن بين الخصومات السياسية والاستراتيجية الشديدة مع الحوار الديني. مضافًا لذلك، فإنَّ الحوار الديني لا يختصّ وحسب بحقانية الأديان التي تتحاور مع بعض، وإنَّما حول الكثير من القضايا التي يمكن أن تواجه أيّ بلد، حول الأسرة وقداستها مثلًا، أو حول الشباب والأخلاق والعلمانية والكرامة الإنسانية والإعلام ومراعاة حقوق الأقليات والتنمية والبيئة وأمثال ذلك.

ألم يجعل هذا الفضاء الجديد الذي أشرت إليه الاحترام والتضامن السلمي بين الأديان أكثر ضرورة من السابق؟ وما هي أساسًا إلزامات الفضاء الجديد في موضوع الأديان؟

إنَّ عالم اليوم بات يختلف كليًا عمّا كان عليه قبل عشرة أعوام. ومهما كانت أسباب الاختلاف، سواء انتشار ظاهرة العولمة، أو العوامل الأخرى من اتصالات وأقمار صناعية وإنترنت، أو تدخل عوامل مثل البيئة والتنمية الاجتماعية والهجرة وأمثال ذلك، فإنَّ المصائر في عالم اليوم أصبحت مرتبطة ببعض. فإلى وقت قريب لم يكن الثري يجد ضرورة في التفكير بجاره الفقير، فعندما انهارت الكتلة الشرقية التي كانت تعيش في وضع اقتصادي سيئ، لم تكن دول الاتحاد الأوروبي على استعداد لقبولها في صفوفها، بل لم يُسمح لوزراء خارجية هذه الدول المشاركة في بداية الأمر في اجتماعات الاتحاد، ولكن بمرور الوقت توصل زعماء الاتحاد إلى نتيجة مفادها بأنَّهم ولكي يحصلوا على ظروف عيش مناسبة لا بد من احتواء دول تلك الكتلة؛ لأنَّ وضع البلد والمجتمع لا يمكن أن يكون جيدًا في حين يغرق الجار في مشاكل اقتصادية لا حصر لها، ومن دون أن تعود بأي نفع عليه.

على ضوء هذا الاستدلال الذي أشرنا إليه وافق الاتحاد الأوروبي على انضمام دول أوروبا الشرقية إليه، وأنفق على هذه الخطوة الكثير. وهذا مثال في غاية الوضوح على ما ذكرنا من أنَّ العالم بات مترابطًا مع بعض تمامًا، ولا يمكن لأي بلد أو مجتمع أن يعزل نفسه عن الآخرين بشكل كامل. في مثل هذا العالم لا تمكن لأيّ كان فردًا أو

جماعة الإساءة إلى دين معين أو مقدسات ذلك الدين الذي يؤمن به مئات الملايين حول العالم، وبصورة وقحة. فما أراد أن يفعله ذلك القس الأميركي بالقرآن الكريم والانتقام من المسلمين حسب تصوره، هو تصرف في غاية السخف والحقارة والقبح، فلم يعد عالمنا يتحمل مثل هذا السلوك، وأصبح احترام الأديان ضرورة اجتماعية في هذا العصر، وعلى الجميع أن يدرك بأنَّه لا تمكن الإساءة إلى الرموز والمقدسات الدينية حتى وإن لم يُعتقد بها. وهذا الشيء نفسه ينطبق على البيئة وحمايتها، فلا يجوز لأحد أن يلوث البيئة وإن كان في نطاق أرضه وممتلكاته.

ألا تُوجب هذه التحركات المسيئة للمقدسات وجود ميثاق أو معاهدة قانونية لاحترام الأديان؟

أجل، فإنَّ الأسس القانونية الموجودة حاليًا لا تتناسب مع ظروف الحياة المعاصرة، ونحن بحاجة في هذا العالم الجديد إلى مبانٍ حقوقية جديدة، سواء ما يتعلق منها بالبيئة والفضاء، أو الأديان؛ لأنَّ التنمية التكنولوجية وقدرتها على التأثير ومحدودية المصادر أوجدت مسائل جديدة تستلزم تدوين أسس حقوقية جديدة. كما أنَّ ترابط مصير المجتمعات المختلفة يوجب تدوين مبانٍ حقوقية جديدة. كذلك الأمر بالنسبة للحريات الفردية التي أثر عليها بشكل كبير التطورُ التكنولوجي الحاصل، إذ أصبحت كل زوايا الحياة تحت عدسات العيون الإلكترونية. فمن الطبيعي في مثل هذه الظروف تدوين قوانين مناسبة لحماية الحريات الفردية.

الهجرة بين التكيف والتنافر[1]

تعدّ بلدان الخليج هي الأقرب إلى سوريا، ولديها الإمكانات المالية اللازمة لاستقبال المهاجرين السوريين، لكنَّهم فضلوا الانتقال إلى البلدان الأوروبية. وقد انتشر فيديو في حينها يتضمن مشهدًا لِطالب لجوء قد أخذ إذنًا بالدخول من المجر إلى النمسا، وقد سأل أحد الأشخاص قائلًا: ((ما الذي حصل لكي ننهزم من المكان الذي يعيش فيه إخواننا المسلمين، في الوقت الذي يجب أن يشعروا بالمسؤولية أكثر بالمقارنة مع البلدان التي يعدّونها كافرة؟))، مثل هذا السؤال طُرِح مرات كثيرة: لماذا

(١) حوار مع مجلة "مِهرنامه"، العدد ٤٥، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٦ "القسم الاجتماعي".

أصبحت أوروبا المسيحية الخيار الأول للمهاجرين المسلمين الذين يشدون الرحال إلى ألمانيا بدلًا من السعودية وقطر؟

خصصت المجلة الإيطالية «ليمس»[١] أحد أعدادها لموضوع تحت عنوان «الشرق الأوسط قريب منّا»، وضحت فيه في سلسلة من المقالات أنَّ أوروبا ليست بعيدة عن التطورات الحاصلة في الشرق الأوسط. ومن الطبيعي أن يختار اللاجئون القادمون من الشرق الأوسط أوروبا وجهةً لهم؛ ذلك أنَّ أوروبا هي أقرب منطقة إلى الشرق الأوسط والأكثر ثراء، إذ انتقل إليها عدد كبير من الشرق الأوسط في العقود الأخيرة، وهذا الحضور يسّر عملية اندماج المهاجرين في المجتمع هناك.

أمّا بلدان الخليج الثرية، من السعودية إلى عمان، فإنّها تقف وبشدة أمام موجات الهجرة القانونية وغير القانونية لأسباب عديدة، منها طبيعة هيكليتها السياسية، وهي ترفض حتى المهاجرين العرب، بل تتشدد معهم أكثر من غيرهم. فقد طردت الكويت بعد انتهاء احتلالها من قبل العراق في التسعينيات نحو أربعمائة ألف فلسطيني من أراضيها، كما طردت في مراحل مختلفة المهاجرين إليها من بلدان الشرق الأوسط. فمن الصعب جدًا دخول المهاجرين إلى هذه البلدان، بل قد يستحيل ذلك، ومن يستطيع الهجرة إليها يعامل كما يعامل الرقيق، ولا يتمتع بأيّة حقوق قانونية، فيما الأمر في أوروبا ليس كذلك، فقد نُقِل عن المستشارة الألمانية السابقة أنغيلا ميركل (١٩٥٤)[٢] كلامًا انتقدته في حينها صحيفة القدس العربي، فحواه: ((إنَّنا سنوصل إلى أبنائنا في المستقبل رسالة مفادها بأنَّ السوريين والعراقيين والأفغان التجؤوا إلينا في حين كانت مكة أقرب إليهم منا!))، ولكن جرى نفي نسبة هذا الكلام إلى المستشارة فيما بعدُ.

هل سيذوب المهاجرون في الهوية الأوروبية على الرغم ممّا يتميزون به من الناحية الدينية، أم أنَّهم سيقاومون ذلك عبر تشكيل تكتلات خاصة بهم؟ وما مصير المهاجرين الذين أمضوا عقودًا عدّة في المهجر، هل ذابوا في تلك المجتمعات؟ وما مدى استيعابهم من قبل الدول المضيفة؟

بعد التحاق أعداد كبيرة من المهاجرين الأوروبيين أو أبنائهم بالجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط، أصبح هذا الموضوع يشكل تحدّيًا أمنيًا جادًا. وليست

(1) Limes.
(2) Angela Merkel.

ثمة مشكلة في تكوين تكتلات لِلمهاجرين في المجتمعات المستضيفة، فهناك التكتلات الصينية على سبيل المثال في الكثير من دول أميركا وأوروبا وأميركا اللاتينية أكثر قدمًا من التكتلات الإسلامية، وما زالت العلاقات داخل هذه التكتلات قوية جدًا، ومع ذلك فلديها تعامل اقتصادي نشط مع المجتمع. كما أنَّ المهاجرين من إيطاليا وإيرلندا لم يكن لهم أيّ تعامل مع المجتمع الأميركي لمدّة طويلة لعدم رغبتهم في ذلك. كما أنَّ المجتمع المستضيف لم يكن يسمح بذلك؛ لأنَّ الكاثوليك حتّى أوائل القرن العشرين كانوا تحت الضغط، وفي معرض الاتهام في المجتمع الأميركي. لهذا، فإنَّ تشكيل التكتلات على أساس علاقات داخلية خاصة وآداب وتقاليد معينة لا يمثل في حد ذاته أيّ مشكلة. فبعد الحرب العالمية الثانية هاجر الكثير من الإيطاليين إلى سويسرا وبلجيكا للعمل هناك، وأسسوا تكتلاتهم الخاصة بهم، وكانت بعض المطاعم الألمانية والبلجيكية والهولندية حتى أوائل الستينيات تكتب على أبوابها: «ممنوع دخول الإيطاليين والكلاب!»، فالمجتمع الأوروبي كان مجتمعًا قطبيًا لا يستقبل المهاجرين إليه بسهولة.

وتبدأ المشكلة حينما تحصل تناقضات بين هذه التكتلات ولأسباب مختلفة أو توقعات متزايدة مع المجتمع المستضيف، أو أنَّ هذا المجتمع يعاكس المجتمع المهاجر. أمّا التكتلات الإيرانية في أوروبا، فليست لديها أيّ مشكلة مع المجتمع المستضيف، والسبب الرئيس في ذلك هو الأخلاق والثقافة الإيرانية أو الفئات التي هاجرت من إيران، وباستثناء الإيرانيين الذين ذهبوا إلى اليابان للعمل هناك، فليست ثمة أيّ مشكلة لغيرهم من المهاجرين إلى البلدان المتطورة، إذ سمعت مرارًا من الدبلوماسيين في هذه البلدان من كندا وإلى ألمانيا وفرنسا أنَّ الإيرانيين هم من أنضج المهاجرين وأكثرهم تكيفًا مع المجتمعات هناك. وينطبق هذا الكلام إلى حد ما على الأتراك أيضًا، وذلك بخلاف التكتلات العربية، وحتّى أنَّ التكتلات الأندونيسية والباكستانية أفضل حالًا من العربية، وعلى الرغم من أنَّ الديانة الإسلامية هي التي تجمعهم، فإنَّ السلوك يختلف من قومية لأخرى. فهناك نوع من الترابط بين الدين والقومية للعرب الساكنين في أوروبا ممّا لا تجده مثلًا لدى الأندونيسيين.

وبطبيعة الحال، فإنَّ تكتلات القوميات المختلفة تلعب دورًا كبيرًا في الوضع الاجتماعي للمهاجرين. ومثل هذه الارتباطات ضرورية للمهاجرين الباحثين عن العمل أو القادمين للدراسة؛ فالمهاجر الذي يخفق في الحصول على العمل المناسب

يتجه ربّما إلى الجريمة أو العصابات المنحرفة. فحينما يجد المهاجر من يساعده من هذه التكتلات، فإنَّه يشعر بوجود من يعضده لتتسهل بذلك عملية الانتقال الاجتماعي وفقًا للمتطلبات الجديدة. وهناك بعض التكتلات في أميركا اللاتينية وأوروبا الشرقية هي عبارة عن عصابات منحرفة تجذب المهاجرين نحو الجريمة. بناءً على ذلك، فإنَّ هذه التكتلات لا تمارس دائمًا دورًا إيجابيًا، وتعمل خلافًا لما يجب أن تقوم به. وبالطبع، فإنَّ المهاجرين في الكثير من الأحيان لا يندمجون بالكامل في المجتمعات المستضيفة ويحافظون على خصوصياتهم، لكنَّ هذه الحالة لا تدفع إلى التقابل والمواجهة مع بعض. إنَّ مواقف التكتلات الاجتماعية الإسلامية تختلف تمامًا عن المجتمع المستضيف، فقد لاحظت أنَّ المجتمعات التركية في أوروبا تقوم بجلب السلع التي تحتاجها من تركيا، وتصر على اقتناء المنتجات التركية، ولديها تكتلات منسجمة كما للجالية الصينية، ومع ذلك لا تتصادم مع المجتمع المستضيف.

قال رئيس وزراء المجر مرة: ((إنَّنا يجب ألّا ننسى بأنَّ اللاجئين القادمين إلى هنا إنَّما نشؤوا في ظل ديانة أخرى، ولديهم اختلافات كبيرة معنا من الناحية الثقافية؛ لأنَّ معظمهم ليسوا من المسيحيين، وإنَّما من المسلمين، وهذه قضية مهمة؛ لأنَّ أوروبا وثقافتها لها جذور مسيحية)). ألا ترى بأنَّ الثقافة المسيحية الأوروبية لم تعد قادرة على حفظ قيمها المسيحية؟ حتى أنَّ أحد الأسباب المهمة في رفض انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي هو الحيلولة دون وقوع خلل في الانسجام الديني في هذه القارة المسيحية، باعتبار أنَّ تركيا بلد مسلم، فكيف نقيّم أوروبا وفقًا للقيم الدينية وعلى أنَّها قاعدة للمسيحية وحصن لها؟ وهل يمكن اعتبار هجرة اللاجئين، ومعظمهم من السوريين، إليها بأنَّها بداية لظهور نوع من التناقض والصدام الاجتماعي والثقافي بينهم وبين المجتمع المستضيف، باعتبار أنَّ ذلك سيغير من تركيب المجتمع المسيحي والإسلامي في أوروبا؟

بعد القرن الرابع حيث اتخذت المسيحية صفة رسمية في حدود الإمبراطورية الرومانية، تكرست الهوية والتحولات الاجتماعية والسياسية في قالب مسيحي. وقد تركت الهوية المسيحية بصماتها على جميع الأركان الاجتماعية والسياسية الأوروبية، وحتى لدى الحركات المعادية للدين، لكنَّ هذا لا يعني بأنَّ أوروبا الحالية بقيت وفيّة لهويتها المسيحية، فهنالك من يرغب بأن تحافظ القارة على هويتها المسيحية، لكنَّ

الأغلبية تعارض هذا الرأي. ففي المجتمعات الأوروبية جدل حول استخدام المظاهر والرموز الدينية، وهل توضع على سبيل المثال علامة الصليب في الصفوف الدراسية أم لا؟ أو ما مدى تقيّد البلد في القوانين المدنية بقوانين الكنيسة ومراعاتها؟ أو مدى الالتزام بالمبادئ الدينية في موضوع الإجهاض والأخلاق الجنسية؟ كما أنَّ هناك جدلًا حول تخصيص الإمكانات الحكومية للمؤسسات التعليمية المرتبطة بالكنيسة. ونلاحظ حاليًا تراجعًا في الالتزام بالآداب الدينية والمشاركة في المراسم الكنسية على مستوى البلدان الأوروبية، وأصبح تناقص المتطوعين للدخول في السلك الكنسي والدين هناك مسألة جادة.

إذًا، فإنَّ من يدعون إلى حفظ الهوية المسيحية والعمل بها باتوا من الأقلية في أوروبا، ويتعرضون باستمرار للانتقادات من خصومهم، ولكنَّهم وجدوا أرضًا خصبة للعمل والنشاط بعدما طُرِح ما يسمّي بـ«التهديد الإسلامي». إنَّ ما موجود حاليًا هو الهوية الأوروبية التي تتشكل منها البلدان المنتمية إلى تلك القارة، ولكن ليس بالدور والمستوى أنفسهما، فالدور الفرنسي في تشكيل هذه الهوية ليس على السواء مع الدور الاسلوفيني أو الكرواتي؛ كما أنَّ دور البلدان في المؤسسات الحقوقية المتكفلة بحفظ هذه الهوية هو ليس متساويًا. فالهوية الوطنية لبلدان مثل إيرلندا وبولندا وكرواتيا هي هوية كاثوليكية، فقد كانت إنكلترا تعارض الكنيسة الكاثوليكية على مدى قرون عديدة، وكانت إيرلندا تحت الاستعمار الإنكليزي إلى أوائل القرن العشرين، إذ جرت موجات من الهجرة إلى أميركا بسبب الضغوط وبسبب القحط والمجاعة بعد مصادرة الإنكليز لمنتجاتهم الزراعية وخاصة البطاطا، وأغلقت معظم الكنائس الكاثوليكية بحيث كانوا يذهبون إليها سرًا. لكل هذه الأسباب أصبح للكاثوليكية أهمية خاصة في الثقافة الوطنية الإيرلندية. ولكن في إيرلندا نفسها حينما جرى استفتاء على الزواج المثلي وافق عليه (٦٢) بالمائة، خلافًا لتوقعات الكنيسة الكاثوليكية، إذ وصف رئيس أساقفة دبلن السيد ديارمويد مارتين[١] نتائج الاستفتاء بأنَّها «ثورة ثقافية واجتماعية». لكل هذا لا يمكن القول بوجود هوية مسيحية متساوية في جميع البلدان الأوروبية.

---

(1) Diarmuid Martin.

إنَّ مخالفة انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي لها أسباب كثيرة، منها ما هو اقتصادي وما هو عسكري، إلا أنَّ الأوروبيين يطرحون مبررات مقبولة، ويتذرعون بالموضوع الديني. في حين يرى بعضهم أنَّ أسبابًا استراتيجية وراء هذا الموقف، إذ يساورهم القلق من إلحاق تركيا بأنَّ أوروبا ستجاور حينئذٍ شرق أوسط خطير. ويعتبر بعض الغربيين أنَّ الإسلام هو تعبيرٌ عن هويةٍ قبل أن يكون دينًا؛ لذلك يشكّل خطرًا داهمًا عليهم. فليست لديهم أيّ مشكلة مع الدين، لكنَّ الإسلام أبعد من كونه دينًا وحسب، وإنَّما هو هوية تمثل خطرًا عليهم. لهذه الأسباب يعارضون انضمام تركيا إلى تكتلهم الأوروبي. بل طُرِح في وقت ما موضوع التقارب بين المغرب والاتحاد الأوروبي، ولكن لم يُؤخذ على محمل الجد على الرغم من وجود أنصار لهذه الفكرة في أوروبا نفسها. إذًا، فإنَّ حضور المسلمين في أوروبا أو اعتناق هذه الديانة ليس بالأمر المهم، لكنَّ المسألة الأساسية هي أنَّ الأوروبيين لا يستوعبون ولا يتقبلون المناهج الأخرى في صفوفهم. أمّا ما يُعبَّر عنه بالتهديد الإسلامي، فهو ليس بسبب الدليل الذاتي للإسلام، أو الخوف من تزلزل المعتقدات المسيحية، بل هو بسبب الهوية والمنهج المغاير في طريقة المعيشة، بحيث يعدّ البعض أنفسهم بأنَّهم أوروبيون لكنَّهم يعيشون وفقًا لمنهج غير أوروبي. في هذه النقطة بالذات، أي: في منطقة التضاد في الهوية وليس الدين، تبدأ المتناقضات بالظهور، وتنعكس نتائجها الاجتماعية والسياسية.

تقول أحدث الإحصائيات التي نشرتها مؤسسة بيو[1] بوجود النسبة الأكبر من المسلمين في ألمانيا وفرنسا من بين دول الاتحاد الأوروبي، إذ يعيش في ألمانيا وحسب إحصائيات سنة (٢٠١٠) نحو ثمانية ملايين وأربعمائة ألف مسلم بما يعادل ثمانية ونصف بالمائة من سكان البلاد. ويبلغ عدد المسلمين في فرنسا نحو سبعة ملايين وأربعمائة ألف نسمة، أي: ما يعادل خمسة فاصل سبعة بالعشرة من مجموع سكان البلاد. وبلغ عدد المسلمين في سنة (٢٠١٠) في أوروبا نحو أربعة بالمائة، ومن المتوقع أن يصل إلى ثمانية بالمائة سنة (٢٠٣٠). ويبلغ معدل السن للمسلمين في أوروبا (٣٢) عامًا ومعدل السن الأوروبي (٤٠) عامًا. كما أنَّ نسبة الولادات في صفوف المسلمين أكثر من المسيحيين. ألا يمكن أن يتغير الوجه الأوروبي مع استمرار هذا الوضع، وإذا ما وضعنا في الحسبان أيضًا أعداد المهاجرين المليونية التي ستدخل القارة في السنوات

(1) Pew Researh Center.

المقبلة، وهل يمكن أن تتبدل إلى قارة متعددة الهويات والثقافات؟

إنَّ زيادة أعداد المسلمين لا يخصّ أوروبا وحسب؛ فهناك نحو (١٥) مليونًا من المسلمين في روسيا، إذ سترتفع أعداد المسلمين في العقود القادمة وبشكل كبير. فمعدل النمو لدى الروس حاليًا في الجانب السلبي، في حين يتخذ شكلًا معكوسًا لدى المسلمين، وهذا ما سيغير التركيبة السكانية في المستقبل. وهذا الموضوع مطروح بصورة جادة في أوروبا التي تعاني من الهرم السني ومعدل النمو السلبي للسكان ممّا يسبب لها أزمة حقيقية. وقد خصصت بعض الدول الأوروبية مزايا للإنجاب ممّا أدى إلى تحسين معدلات النمو فيها. ولكنَّ أوروبا بحاجة إلى قوى عاملة جديدة وشابة من أجل الحفاظ على معدل نموها الاقتصادي الحالي، وتحتاج إيطاليا لوحدها نحو مائتي ألف عامل جديد سنويًا، فيما أعلنت السلطات الألمانية مرات عديدة بأنَّ بإمكان المهاجرين السوريين تأمين القوى العاملة اللازمة هناك. وهنا يطرح السؤال الآتي: هل هذه القوى العاملة يجب أن تؤمّن من البلدان غير الإسلامية، وخاصة المسيحية في أميركا اللاتينية، أم بلدان الشرق الأوسط الإسلامية؟ وهذا الموضوع بطبيعة الحال كان مطروحًا على الدوام، فعندما كنت في الفاتيكان قالها بصراحة أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية، وهو كاردينال مدينة بولونيا[1] الإيطالية السيد جياكومو بيفي (١٩٢٨ – ٢٠١٥)[2]: لماذا لا نستخدم العمال من أميركا اللاتينية وهم من المسيح إذا كنا بحاجة إلى أيدي عاملة؟ ولهذه النظرة أنصار كثر في أوروبا ممّا ازدادت أعداد العمال من أميركا اللاتينية في أوروبا بشكل ملحوظ.

وبعد إلحاق شرق أوروبا بغربها، هاجر الكثير من القوى العاملة من بولندا ورومانيا وبلغاريا وصربيا إلى الدول الغربية، ومع ذلك، فإنَّ أعدادًا كبيرة من القوى العاملة ما زالت تهاجر من البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط إلى أوروبا للعمل فيها، وآخرها كانت موجات الهجرة السورية إلى هناك. ومن المتوقع أن تشدد تلك الدول ضوابط الهجرة إليها، خاصة بعد التشديد الأمني إثر العمليات الإرهابية التي وقعت في باريس. وهذه القيود تشمل المهاجرين من المناطق الحربية أو غير الحربية، لا فرق. كما أنَّ هذه القيود على المهاجرين المسلمين القادمين من الشرق الأوسط ستؤدي

(1) Bologna.
(2) Giacomo Biffi.

إلى نمو أعداد العمال القادمين من أميركا اللاتينية إلى أوروبا.

مع اتساع موجة الهجرة إلى أوروبا ازداد نشاط الأحزاب والجمعيات المعارضة للهجرة، بحيث عادت الحياة لحركة بكيدا[1] – وهم المواطنون الأوروبيون ضد أسلمة الغرب–، التي تأسست في ألمانيا بعد ازدياد أعداد المهاجرين السوريين إلى هناك، ونُظِّمت تظاهرات ضمت الآلاف من أنصار هذه الحركة ضد المهاجرين. ما توقعاتك لمستقبل هذه الحركات وغيرها من النزعات العنصرية هناك؟

يمكن أن نتوقع بأنَّ سياسات الهجرة من الشرق الأوسط ستتصدر اهتمامات الأحزاب في الانتخابات في البلدان الأوروبية. ومن الممكن جدًا أن تكون من أولويات هذه الأحزاب أو الأفراد، وللحصول على المكاسب الانتخابية هو رفع شعار وضع القيود أمام هذه الهجرة. وبالطبع مع تغير الظروف تراجعت القدرة المطلقة للحكومات في تنفيذ آرائها، أضف لذلك، فإنَّ الكثير من المهاجرين حصلوا على جوازات سفر البلدان المضيفة، واحتلوا مواقع في المؤسسات المختلفة، وهذا ما يمكن أن يعدل من سياسة القيود التي تفرض على دخول المهاجرين.

العودة إلى الدين في العالَم المعاصر[2]

نسمع كثيرًا في السنوات الأخيرة وعلى لسان العديد من الشخصيات أو وسائل الإعلام أنَّ الناس أخذوا يعودون إلى الدين، فيما ربط بعضهم هذه الظاهرة بانتصار الثورة الإسلامية في إيران. ما رأيك في هذا الموضوع؟

طرحت أسئلة عدّة هنا، وجوابًا عن السؤال الأول حول ما إذا كان الناس في مختلف أنحاء العالم أصبحوا أكثر التزامًا بتعاليم الديانات المختلفة، فنقول: إنَّ هذا صحيح فيما يتعلّق بالعالَم الإسلامي، وهذا لا يرتبط بالبلدان الإسلامية وحسب، وإنَّما في جميع المناطق التي يوجد فيها المسلمون حتّى وإن كانوا أقلية قليلة، سواء من المهاجرين أو السكان المحليين. ويمكن القول وبشكل عام: إنَّ التوجه إلى الإسلام بات واضحًا وجليًا بين الشعوب المسلمة.

---

(1) Pegida (Patriotische Europaer gegen die Islamisierung des Abendlandew).

(٢) مقابلة مع "محمد مسجد جامعي" نشرت في موقع "دين آنلاين" بتاريخ ٢١ شباط/ فبراير ٢٠١٥.

ففي بلدان في جنوب شرق آسيا مثلًا توجد أقليات محلية إسلامية متفرقة منذ القدم، ولكنَّ الأقليات الإسلامية الموجودة في الكثير من البلدان الأوروبية وأميركا وأميركا اللاتينية هي من المهاجرين، سواء كانوا من المهاجرين القدامى الذين مضى على هجرتهم أكثر من قرن، كما هو الحال في أميركا اللاتينية، أو المهاجرين الجدد الذي هاجروا في الخمسين عامًا الأخيرة، كما هو الحال في الكثير من البلدان الأوروبية، إذ تبدو وبوضوح ميولهم نحو الالتزام بالتعاليم الإسلامية.

هنا أسوق لكم مثالًا بسيطًا: فتركيا عام (٢٠١٤) تختلف كثيرًا عمّا كانت عليه قبل عشرة أعوام من هذا التاريخ أو قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، إذ تمكن ملاحظة هذا التغيير في جميع قطاعات المجتمع التركي. ولا يختلف الأمر في مناطق أبعد مثل أندونيسيا، أو بين الأقليات الإسلامية المهاجرة في سائر البلدان، إذ يمكن لمس هذه الظاهرة لدى الجالية الإسلامية في النمسا أو في إنكلترا، أو في عامة البلدان الأوروبية، فالمجتمع الإسلامي في النمسا على سبيل المثال يختلف عمّا كان عليه قبل عقد أو عقدين أو ثلاثة من حيث التزامه بالضوابط الدينية، ويصدق هذا الكلام على المهاجرين المسلمين في باقي البلدان الأوروبية، ومهما يكن، فإنَّ هذه الحقيقة مشهودة في العالم الإسلامي.

وثمة مسألة قد لا تبدو مهمة حاليًا لكنَّها ستتفاقم في المستقبل، وهي أنَّ المسلمين وخاصة المهاجرين منهم سيواجهون بعض المشاكل بلحاظ ظهور الجماعات المتطرفة التي تنسب نفسها إلى الإسلام وتمارس سلوكًا وحشيًا؛ وسنرى أنَّ بعضهم سيتبرأ من الإسلام أو يعتنق دينًا آخر بسبب هذه الجماعات. حتى أنَّ مثل هذه المشكلات أطلت برأسها حاليًا في بعض البلدان مثل تونس ومصر حينما تبرأ بعضهم من الدين، وهي مشكلة ستتضاعف - كما قلنا- في المستقبل. ولكنَّ الأصل هو التوجه الشديد نحو الدين - كما ذكرنا- وذلك فيما يخصّ العالم الإسلامي.

أما العالم الآخر غير الإسلامي فهو يتضمن ميادين واسعة سنوضحها كالآتي: الساحة المسيحية التي تضم أعدادًا كبيرة من الناس، وهي متنوعة بتنوع جغرافيتها وشعوبها المختلفة. ولنبدأ من الكنيسة الكاثوليكية، فإنَّها كنيسة أوروبية عمليًا، وعلى الرغم من أنَّ منشأ المسيحية هو الشرق الأوسط وفلسطين، فإنَّها انتقلت في القرون التالية إلى الإمبراطورية الرومانية، وامتزجت بشدة بثقافة المجتمع الأوروبي وتاريخه.

وفي أوروبا آلت الكنيسة الكاثوليكية تدريجيًا إلى الضعف، وسأتحدّث فيما بعد عن البابا فرانسيس[1] الذي أجرى تغييرات كثيرة فيها، ولكن بشكل عام تراجعت عمّا كانت عليه، كما تراجعت أعداد الذين يذهبون إليها، ويؤدون طقوسهم العبادية فيها.

وهنا من المناسب أن أذكر لكم هذه الخاطرة: حينما سقطت الكتلة الشرقية خرجت إلى الواجهة تحليلات مفادها أنَّ المسيحية، وخاصة المسيحية الكاثوليكية ستتعزز في أوروبا. فقد أصر البابا الأسبق يُوحنَّا بولص الثاني[2] على ضم بلدان أوروبا الشرقية إلى الاتحاد الأوروبي، مصرحًا بذلك لمرات عديدة، ما ترك تأثيره عمليًا على أرض الواقع. ففي عام (١٩٩٣) التقيت الكاردينال فلك (١٩٣٢ - ٢٠١٧) [3]، وكان حينها أسقف براغ ورئيس مجلس أساقفة أوروبا، إذ كان يشغل هذا المنصب قبله الكاردينال مارتيني[4]، وكان شخصية معروفة جدًا، وكاردينالًا لميلانو، إذ كنت على معرفة تامة به. فبعد مارتيني عُيِّنَ فلك كأول كاردينال من شرق أوروبا لهذا المنصب، وكان صديقًا حميمًا لسفير التشيك في الفاتيكان. يقول السفير التشيكي: إنَّ هذا الرجل اعتُقِل عندما كان قسيسًا، وبقي في السجن لمدّة من الزمن قبل أن يرغم على خلع زيّه الديني وتنظيف زجاج واجهات المحلات كعقوبة له، على الرغم من أنَّه متخصّص في التاريخ. وعلى أيّ حال، فإنَّه كان يقول: إنَّ بلدان أوروبا الشرقية أكثر التزامًا في المقارنة مع أوروبا الغربية، وإنَّنا سوف نكمل أحدنا الآخر؛ لنهدي الإيمان إلى الغربية ويهدوننا الحداثة الكنسية!

وكان هذا الأمل باستقواء المسيحية في أوائل التسعينيات منتشرًا حتى بين بعض زعماء الكنائس، ولكنَّه بقي مجرد أمل لم يتحقق حتى في بلد مثل بولندا التي تعدّ مهدًا للكاثوليكية في شرق أوروبا، إذ ابتعد مجتمعها عن الكاثوليكية. كما أصبحت بلدان مثل اسلوفينيا وألمانيا الشرقية والتشيك من أكثر البلدان الأوروبية علمانية.

أمَّا بخصوص المسيحية في أميركا اللاتينية، فيجب القول: إنَّ وضع الكنيسة الكاثوليكية لم يصبح أفضل ممّا كان عليه سابقًا، فيما تراجع الإيمان الديني الكاثوليكي

---

(1) Pope Francis.
(2) Pope John Paul II.
(3) Miloslav VIK Cardinal.
(4) Cardinal Cario Maria Martini.

لأسباب مختلفة. نعم، تراجعت المسيحية في أميركا اللاتينية، ولكن ليس بالقدر الذي تراجعت في أوروبا.

وحول المسيحية في إفريقيا لا يمكن القول: إنَّ الإيمان الكاثوليكي أصابه الضعف في تلك المنطقة، والسبب في ذلك هو وجود النشاط الإسلامي هناك؛ لأنَّ الحياة الدينية في العالم الثالث وفي الكثير من الأحيان تنتج عن التنافس مع الجماعات الأخرى، وليس رجوعًا طبيعيًا من الأمة إلى الدين.

وتعدّ الفيليبين البلد الوحيد الذي لم يضعف فيه الإيمان المسيحي إن لم يكن قد استقوى هناك، وربّما كانت كوريا الجنوبية كذلك، إذ تضم جالية مسيحية يعتدّ بها. ويمكن القول بشكل عام: إنَّ المسيحية في شرق آسيا لم تضعف بل ربّما تعززت أكثر ممّا كانت عليه، وكذلك في بلدان مثل سريلانكا والهند.

أمّا عن الكنيسة الأرثوذكسية، فيمكن القول: إنَّ المسيحية واجهت ضعفًا أيضًا على الرغم من الآصرة القوية التي تربط بينها وبين الهوية الوطنية لبدان مثل اليونان وصربيا وروسيا وبلغاريا وحتى رومانيا. وحقيقة الأمر أنَّ الكنيسة ضعفت حتى في روسيا نفسها، وعلى الرغم من أهمية المؤسسة الكنسية في هذا البلد، فإنَّه ومن البعد الإيماني تراجعت زيارات الناس إلى الكنائس، وتراجع معها الإيمان بالمسيحية، حتى يمكن القول: إنَّ الإيمان الديني واجه ضعفًا في عموم الكنائس الأرثوذكسية.

وينطبق هذا الضعف على الكنيسة البروتستانتية في أوروبا، إذ تراجعت كنائس معروفة، مثل الكنيسة اللوثرية[١]، والكنيسة الكالفينية[٢]، والكنيسة المثودية[٣]، والكنيسة البريزبترية[٤]، والكنيسة الإنجليكانية[٥]، مقارنةً عمّا كانت عليه في السابق. وفي أميركا وحدها يمكن القول: إنَّ بعض فروع الكنيسة البروتستانتية لم تتراجع، بل إنَّ بعضها عزز مكانته مثل الكنائس التبشيرية[٦] البروتستانتية التي رفدها المحافظون

---

(1) Lutheran.
(2) Calvinist.
(3) Methodist.
(4) Presbyterian.
(5) Anglican.
(6) Evangelical.

الجدد[1] بالقوة، وما زالت تتمتع بالكثير من الحيوية. فالدين في أميركا أكثر حيوية، مقارنةً بالبلدان المتطورة الأخرى، بل يمكن القول: إنَّ للدين دورًا أكبر في أميركا ممّا هو عليه في أوروبا.

أمّا عن اليهودية، فإنّها في الحقيقة مترابطة في الحال الحاضر مع القضايا السياسية المعاصرة، وخاصة ما يتعلق منها بإسرائيل؛ لهذا تفترض مناقشة أيّ تحول فيها، وبشكل رئيس التحولات التي تقع في إسرائيل. ولا شك في أنَّ اليهودية كدين أشبه الأديان بالإسلام من حيث قوانينها الفقهية المنسجمة. لكنَّ هذه الديانة متلازمة وبشكل كبير مع قضايا إسرائيل سواء رضي اليهود بذلك أم لا، فهناك من بين اليهود من يعترض على هذه الصلة، ويريد أن يعرّف على أنَّه يهودي وليس تحت العنوان الإسرائيلي.

كذلك، فإنَّ الديانة الهندوسية هي من الأديان المهمة، ولها طقوسها الخاصة التي يتمسك بها الهنود، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالروح والثقافة والتاريخ والهوية الهندية. وقد يكون هناك من يعتنق هذه الديانة من غير الهنود، خاصة أنَّها أصبحت ضمن الموضة الأوروبية إلى حد ما، وهناك من الأوروبيين من يعتنقها أو يعتنق البوذية، لكنَّها هندوسية وبوذية خاصة بهم، وتختلف عن الهندوسة أو البوذية الحقيقية، ولا يعترف بهم الهندوس والبوذيون الحقيقيون.

ويجب القول إجمالًا حول الهندوسية: إنَّها متداخلة إلى حد كبير مع نسيج المجتمع الهندي، الذي شهد في السنوات الأخيرة تنمية واسعة حتى أصبح قوة اقتصادية يعتد بها، ومع ذلك، فإنَّ من الصعب القول بأنَّ الهندوسية شهدت ضعفًا أو تراجعًا. إنَّنا لا نستطيع أن نفهم الهندوسية وتحولاتها إلا في إطار معرفة الهند والمجتمع الهندي والتطورات الصناعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية هناك، وهذا يجعل من المشكل الحكم في موضوع مكانة الديانة الهندوسية، وما إذا كانت قد قويت شوكتها أم ضعفت؛ لأنَّ المعيار في ذلك يجب أن يعتمد على الرؤية المحلية البحتة. أمّا المعايير التي يجب أن تُعتمد لفهم هذا الموضوع، فهي تحتاج إلى بحث تفصيلي وواسع ممّا لا يمكن الخوض فيه الآن.

---

(1) Neocons.

أمّا عن البوذية وتفرعاتها المختلفة من الشنتوية والكونفوشية وغيرها التي تعدّ أديانًا آسيوية، فلا بد من القول: إنَّ ما نحمله من تصور عن الدين يجعل من الصعب تطبيق مباني هذه الجماعات مع الدين؛ لأنَّنا كأتباع للديانات الإبراهيمية نتوفر على أمور محددة، مثل مفهوم الله وموضوع الوحي والكتاب السماوي، أو يلزم بنا إطاعة سلسلة من التعاليم واجتناب بعض المحرمات، وكذلك لدينا مفهوم النبوة والمنقذ، فهذه المفاهيم التي تقوّم معنى الدين إنَّما هي كثيرة ومشتركة بين الأديان الإبراهيمية على الرغم من الاختلافات الكثيرة الموجودة فيما بينها. ولكنَّ الأمر ليس كذلك في الديانة البوذية أو سائر الأديان الآسيوية الأخرى، إذ من الصعب أن نطلق عليها بأنَّها أديان وفقًا للتصور الذي نحمله، والمفاهيم التي تحدد معنى الدين، كما لا يمكن أن نقول إنَّها ليست دينًا.

على أيّ حال، يجب أن يتضح أولًا معنى الدين بخصوص هذه الشرائع. ولكن بالمعنى العام للكلمة نقول: إنَّ هذه المذاهب أيضًا تراجعت مع تحول المجتمع البوذي نحو الصناعة، بل يمكن القول: إنَّها ضعفت بشدة، خاصة إذا أجرينا مقارنة على سبيل المثال بين اليابان حاليًا مع ما كانت عليه قبل خمسين عامًا، من طريق التزامها الشديد بالبوذية والشنتوية في ثقافتها وتربيتها الأسرية. وللصين بطبيعة الحال حكاية أخرى؛ لأنَّ هذا البلد ومنذ عهد ماو تسي تونغ (١٨٩٣ - ١٩٧٦)[1] والثورة الثقافية والإعراض عن الكونفوشية، أصبح عمليًا تحت سيطرة الحكم الشيوعي. أمّا في مناطق أخرى مثل فيتنام - إذ لعب الرهبان البوذيون ومن طريق حرق أنفسهم دورًا كبيرًا في هزيمة أميركا-، فقد تراجع الالتزام الديني كثيرًا، وكذلك الحال في كمبوديا وعامة البلدان البوذية، سوى تايلند وسريلانكا، إذ يختلف الوضع في هذين البلدين.

وحول السؤال التالي عن التأثير الديني للثورة الإسلامية الإيرانية، فأقول باختصار: إنَّ الرأي العام العالمي، وخاصة من النخبة انتبه - وفي ذروة هذه الثورة- إلى قدرة الدين على قيادة ثورة بهذا الحجم، وخاصة بعد وصول الإمام الخميني - قدس سره- إلى باريس. وهنا أكتفي بنقل خاطرتين عن تلك المدّة الزمنية، إذ قال وزير الأوقاف المغربي مرة في المدّة التي كنت فيها سفيرًا في المغرب: كنت أدرس طالبًا في جامعة باريس أثناء الثورة الإسلامية، وكانت الجامعة يومها تحت السيطرة الكاملة

(1) Mao Zedong.

لليسار من دون أن يكون للدين ذكر فيها، لكنَّ الثورة الإسلامية الإيرانية جاءت وأعطتهم ولبقية الطلبة العرب الملتزمين زخمًا وأملًا، ورفعت رأسهم في أوساط الجامعة.

الخاطرة الأخرى تتعلّق بالسيد البرتو ميلوني[1] أستاذ التاريخ المسيحي ورئيس قسم يُوحنَّا الثالث والعشرين[2] للعلوم الدينية في جامعة بولونيا[3] الإيطالية، فقد أقرَّ بأنَّ للثورة الإسلامية الإيرانية دورًا في إيجاد تحول كبير في فهم أساتذة اللاهوت المسيحيين للدين، والدور الإيجابي الذي يمكن أن يؤديه الدين في الميدان الاجتماعي. وأمور أخرى تطرّق إليها لا يسعنا المجال لذكرها الآن.

تحدّثت عن تراجع الدين وضعفه، ولكن أين تضعه إذا نظرنا إليه من زاوية الهوية؟ مثال ذلك: يمكن لأتباع دين معين ألّا يعيروا أهمية لتعاليمه، ولكن حينما يتعلق الأمر بالهوية، فإنَّهم يعدّون أنفسهم من أتباع ذلك الدين، فعلى سبيل المثال: ألا يتمسك المسيحيون بهويتهم الدينية في بعض البلدان الأوروبية حينما ينشط فيها المسلمون المهاجرون للحيلولة دون انتشار الأفكار والعقائد الجديدة؟

ما تقوله صحيح، لكن لهذه الهوية بين الأديان المختلفة مظاهر مختلفة، فهذا الارتباط بين الدين والهوية لدى المسلمين يتخذ شكلًا خاصًا، وهذه الخصوصية بدورها متنوعة بين الجماعات الإسلامية المختلفة، مثال ذلك أنَّ ارتباط الهوية العربية بالإسلام لها وجه خاص يختلف عنها لدى المسلم النيجيري. بمعنى أنَّ هذا الارتباط ليس على شاكلة واحدة داخل الدين الواحد بين أتباعه على اختلاف مشاربهم، فلكل مشرب خصوصيته، وهذا يستلزم إجراء دراسة لكل حالة في الوقت المناسب.

سؤالي هو: ألا يشعر المسيحي الأوروبي بأنَّ هويته تؤول إلى الضعف حينما يرى المسلم يستخدم رموزه الإسلامية في حياته الاجتماعية؟

تريد أن تقول بأنَّ تمسك الآخر ليس بسبب التزامه بتعاليم ذلك الدين، وإنَّما يدفعه إلى ذلك موضوع الهوية. نعم، هذا الشيء موجود، ولا سيما أنَّه تعزز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقد سمعت يومها حينما كنت في الفاتيكان بأنَّ النساء

---

(1) Alberto Melloni.
(2) Fondazione per le Scienze Religiose Giovanni XXIII.
(3) Bologna.

المسلمات المحجبات يثرن المشاعر الدينية لدى النساء المسيحيات؛ بمعنى أنَّ حجاب المرأة المسلمة يدفع المرأة المسيحية للتفكير بالعودة إلى أصولها الدينية. أجل هذه حقيقة ولكن يجب عدم التركيز عليها؛ لأنَّ الدين أصبح ضعيفًا من الداخل في المجتمع الأوروبي على الأقل.

وتتخذ عملية الدفاع عن الهوية في أوروبا حاليًا في مقابل المسلمين شكلًا آخر يتجسد في الحريات - حسب تعبيرهم- وحرية البيان وأمثالها، أي: إنَّها لا تتخذ صبغة دينية، والسبب في ذلك أنَّ الدين أصبح ضعيفًا لدى الفرد والمجتمع الأوروبي على السواء. نعم، لو حصل ذلك قبل الحرب العالمية الثانية، أو بالأخصّ الأولى، لاتخذ رد الفعل الأوروبي الطابع الديني، وليس الدفاع عمّا يسمّونه بحرية البيان. لهذا، فإنَّ الهوية التي تتحدّث عنها ليس لها وجه ديني، وإنَّما تتخذ أشكالًا أخرى.

ولكنَّ الأمر يختلف في إفريقيا مثلًا، إذ تصدر ردود فعل دينية من قبل المسيحيين تجاه مجموعات من أمثال بوكو حرام أو ما شابهها. فالتمسك بالمسيحية اليوم لدى مسيحيي نيجيريا، والبلدان المجاورة لها والمتماثلة في ظروفها، أكثر ممّا كانوا عليه سابقًا، فقد أثارت الموجة الإسلاميّة وظهور بعض التيارات مثل بوكو حرام وأشباهها، رد فعل ديني لدى المسيحيين في تلك المناطق.

أشرت إلى أنَّ النزعة نحو الإسلام تعززت في العالم الإسلامي، فما هي اتجاهات هذه النزعة وقراءتها للإسلام؟ وهل تعتقد أنَّ لهذه القراءة للإسلام الصاعد - الذي يزعم أنَّه قادر على إدارة المجتمع- برنامجًا للمجتمعات الإسلامية؟

كلا، لا يمكن القول: إنَّ الأمور هي في كل الأحوال على هذه الشاكلة. ويصح هذا الكلام عندما تتقارب السياسة مع الإسلام، فالرجوعُ للإسلام في مثل هذه المناطق يعني الرجوعَ لنظامه الاجتماعي - السياسي. ولكنَّ الأمر ليس كذلك في الكثير من الأماكن؛ إذ يعني الرجوعُ للإسلام الرجوعَ إلى الفطرة الباطنية، والبناء الذاتي للشخصية المتسقة مع الاعتقادات والتعاليم الإسلامية، وهذا يعني أنَّ الفرد وقبل رجوعه يواجه حالة عرضية غير مستقرة بسبب الضغط الداخلي الذي يضطره للظهور بمظهر آخر، وليس كما هو عليه من الالتزام بالدين.

حقيقة الأمر أنَّ المجتمع الإسلامي، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية أخذ يظهر بمظهر الحداثي المختلف مع المعايير الإسلامية، على الرغم من ميوله الباطنية. وقد سمعت ذلك مرارًا من أتراك تركيا، وحتى من المغاربة والتونسيين بأنَّ السيدة الفلانية أو السيد الفلاني على سبيل المثال لم يكن يعبّر سلوكه في السابق عن استقرار نفسي باطني، ففي داخله نداء خفيّ ينبّهه بين الفينة والأخرى بأنَّك في الحقيقة لست ما تظهره. لهذا، فإنَّ حالته السابقة كانت حالة عرضية، والآن وصل إلى حالة الاستقرار، وهذا يعني زوال هذه المحذورات التي كان المجتمع يفرضها على هذه السيدة أو هذا السيد، ويحثه على الظهور بمظهر غير الملتزم بتعاليم الدين أو أقل التزامًا ممّا هو عليه، فقد زالت هذه المحذورات، وأصبح يظهر بما هو عليه ومن دون تكلّف، إذ تجد هذه الظاهرة غالبًا في ماليزيا وإندونيسيا، وخاصة تركيا.

يبدو أنَّ هذا النوع من العودة للإسلام ينتشر في البلدان التي استطاعت أن تتجاوز العقدة، وتشعر بعدم وجود أيّ تعارض مع هويتها الإسلامية؛ فمثلًا يشعر الفرد في تركيا أو ماليزيا بأنَّه مسلم متطور، ويستطيع الاعتزاز بدينه. ولكن يبدو أنَّ هناك نوعًا آخر من العودة على أساس الراديكالية والأصولية، خاصة في المناطق المتخلفة. ويبدو أنَّ هذا الشعور بالتخلف يلعب دورًا في ظهور جماعات، مثل داعش في المناطق المتخلفة، وهذا يختلف عمّا هو عليه الوضع في تركيا وماليزيا. أليس كذلك؟

ليس الأمر كذلك، ذلك أنَّ آلية ظهور الجماعات الراديكالية التي تمارس وللأسف سلوكًا عنيفًا ومرفوضًا تختلف عن سواها، ولا علاقة لها بالنزعة نحو الإسلام بالمعنى الذي ذكرته ووضّحته. إنَّ ما تقوله يجب أن يدرس حالة بحالة، والبحث على سبيل المثال عن سبب تشكيل «القاعدة»، وطبيعة أيديولوجيتها، وكيف انبثقت جبهة «النصرة» من داخل القاعدة، وكيف أفرزت النصرة جماعة داعش، وكيف أفرزت القاعدة جماعة بوكو حرام... وهكذا، فلكل من هذه آليتها الخاصة التي لا تمت بصلة بالعودة إلى الإسلام في العالم الإسلامي التي تحدّثنا عنها قبل قليل. ذلك أنَّ البحث عن هذه الجماعات وكيفية ظهورها يحتاج إلى تفصيل في محله، وبالطبع، فإنَّ هذه مشكلة كبرى؛ لأنَّ التوجهات المعادية للإسلام تسعى إلى ربط هذه الأمور مع بعضها، في حين أنَّ كلًّا منهما لا يرتبط بالآخر.

ولكن يبدو أنَّ للبلدان الإسلامية المتطورة وضعًا جيدًا، ونشعر بأنَّها منسجمة مع الإسلام، فلا تجد فيها أيَّ تطرف. أمّا في المناطق المتخلفة، فنشهد الراديكالية وما يتعلق بها وما يمكن أن تؤدي إليه.

إنَّني لا أوافق على هذا الرأي، وربّما ينطبق إلى حد ما على حالة واحدة أو حالتين، أمّا في الأغلب الأعم، فليس كذلك. وكمثال على ذلك، فإنَّ معظم مفكّري القاعدة ومنظّريها وشخصياتها كأسامة بن لادن هم من السعودية، وهو بلد ثري ويشهد تنمية على الظاهر، ومن مصر، مثل أيمن الظواهري، فهذا التنظيم ارتبط بالبلدان الإسلامية التي تشهد نموًا أكبر من سواها، ولا بد من إجراء دراسة مستقلة لهذا الموضوع؛ لأنَّه ليس في إطار التوجه والعودة إلى الإسلام، ومن يقول بذلك، فإنَّما يهدف إلى توجيه النقد لهذه الديانة، فحقيقة الأمر أنَّ ظهور الجماعات المتطرفة والتكفيرية لا علاقة له بالتوجه الإسلامي في معناه العام، بل له أسبابه وآلياته الخاصة.

هل تشعر كبار الشخصيات في الأديان الأخرى بالقلق من عودة المسلمين إلى الإسلام، وخاصة إذا اقترن ذلك بالتبليغ له في البلدان غير الإسلامية؟

لا تجد من يعرب، ومن أيّ دين كان، وخاصة من بين رجال الدين، عن استيائه من نمو الإيمان الديني بين المسلمين، فلا يتطرّق أحد إلى مثل هذا الموضوع، خاصة في هذا العصر الذي يستلزم مراعاة جملة من الآداب، ولهذا لا يمكن لأحد أن يصرح علانية بمثل هذا الشيء.

ولكن من زاوية تجاربي الشخصية، فأقول: إنَّ مثل هذا القلق والاستياء موجود في بعض مناطق العالم من هذه النزعة الإسلامية والعودة إلى الإسلام، وهذا القلق ينتاب في جزء منه رجال الدين، وفي جزء آخر القطاعات السياسية والعسكرية والأمنية.

وبطبيعة الحال، فإنَّ هذا لا يختصّ بالإسلام وحسب، ففي الهند على سبيل المثال نلاحظ في رصدنا للعلاقات بين المسيحية والهندوس في السنوات الأخيرة توجيه انتقادات كثيرة وعتب شديد غير مباشر من جانب المسيحيين، وخاصة الكاثوليك لما يعدّونه تهديدًا لهم من جانب الهندوس، ونمو الأصولية الهندوسية، التي يرون أنَّها تهدد المكانة الاجتماعية والطبيعية للمسيحية والكاثوليك على وجه الخصوص. وتجد

في سريلانكا أيضًا عتبًا على البوذيين، ونمو الأصولية البوذية التي يعدّونها تهديدًا للمسيحيين.

وما أريد قوله بشكل عام هو وجود نوع من الهواجس لدى الأديان المختلفة إزاء صعود أيّ دين آخر، وخاصة حينما يمسّ هذا الإيمان الديني بالأديان الأخرى. وينطبق هذا الأمر على الإسلام أيضًا، وقد يكون التحسس منه أكثر من غيره، لكنَّ هذه المخاوف لا يُعبَّر عنها بشكل علني وصريح.

في هذا الصدد كانت لي صداقة مع رجل مسيحي تُوفِّي منذ مدّة اسمه إيتين[1]، وكان مديرًا لسنوات لمؤسسة معروفة اسمها «بيزا» متخصصة بالدراسات العربية والإسلامية ومرتبطة بالفاتيكان، وكان السيد ايتين أحد أعضاء الآباء الروحانيين «بادره بينكي»[2]، بمعنى «الآباء ذوي الزيّ الأبيض»، وقد قال لي يومًا عندما كنت في الفاتيكان وكان رجلًا صريحًا: ((إنَّني أخشى دائمًا صلاة الجماعة التي يُقيمها المسلمون))، فسألته: ولماذا؟ فأجاب: ((لا أدري.. ولكنَّني أخافها)).

في سياق الكلام أشرت إلى العودة إلى الإسلام، وأعداد المسلمين كما هو معروف كبيرة جدًا، فهل تستطيع هذه العودة، وخاصة إذا كانت مقترنة بقدرة سياسية واجتماعية من تشكيل قوة أمام القوة الغربية، أو حضارة مقابل الحضارة المسيحية؟ وهل يمكن أن نحلل هذا الموضوع على أنَّه جزء من الصراع بين الحضارات؟

هذا موضوع يحتاج إلى الكثير من التفصيل. وإنَّني شخصيًا أعتقد في الإجمال بالصراع بين الحضارات، فحينما ذهبت إلى الفاتيكان سنة (١٩٩١) كانت الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية في ذروة الصراع، وكان تصوري حينذاك بأنَّ هذا التناقض بين الاثنين أكثر من مجرد تضارب بين كنيستين، وكان في تصوري أنَّ التعاون مع الصرب أكثر أهمية من التعاون مع الكروات، لحماية مصالح المسلمين في الحرب البوسنية؛ وذلك للتشابه الموجود بين الكنيسة الأرثوذكسية والإسلام، وبلحاظ مسائل أخرى أيضًا، على الرغم من أنَّ الرأي العام والسياسة العامة كانت تفضل وقوف المسلمين إلى جانب الكروات ضد الصرب. ولهذا الموضوع بطبيعة الحال بحث نظري طويل.

---

(1) Etienne Renaud.
(2) Pardre Bianche.

بغض النظر عن كل هذا، فإنَّه يمكن اجتناب مثل هذا التعارض والتناقض، وإنَّ التوجه للإسلام واكتساب المسلمين للقوة والمنعة لا يعني لزومًا المواجهة مع الآخر. ولكن ثمة حقيقة موجودة تجب الإشارة إليها، وهي أنَّ الآخر أو الطرف الغربي لا ينظر إلى الأمور بواقعية، ويتمحور حول نفسه، وأسوق لكلامي هذا بعض الأمثلة: إنَّ الأوروبيين يتحدّثون دائمًا عن تكيف[1] المهاجرين مع الظروف الاجتماعية في الغرب، وضرورة اندماجهم[2] مع المجتمع وذوبانهم فيه... يتحدّثون عن هذا الأمر، لكنَّهم يلتزمون الصمت إزاء ضرورة تكيف الغرب مع العالم الجديد والعولمة التي نعايشها، إذ إنَّ عليهم الانصياع إلى هذه الظروف قبل غيرهم من حيث السلوك والفكر والتعامل مع الآخرين، والانسجام مع متطلبات هذه العولمة التي يشارك فيها الجميع وتربطهم ببعض، لكنَّهم يرفضون ذلك ولا ينصاعون إليه.

وأفضل دليل على ذلك ما حصل مع مجلة شارلي إبدو[3] في باريس، إذ إنَّهم لا يدركون بأنَّ فرنسا الحالية أو أوروبا الحالية هي ليست كما كانت عليه قبل عقود، ولا يدركون بأنَّهم يعيشون في ظروف العولمة التي تتطلب تغيير السلوك أو تعديله على الأقل بما يتناسب مع هذه الحقيقة. وفي غير ذلك، فإنَّ التعارض والتناقض واقع لا محالة، وتتحمل مسؤوليته الجهة التي لم تبادر إلى تغيير سلوكها وتعديله. وعليهم أن يفهموا بأنَّه لا تمكن الإساءة إلى أكبر رمز مقدس لدى أكثر من سدس سكان العالم من باب العناد والثأر الفردي أو الجماعي والثقافي؛ وعليهم أن يدركوا بأنَّ ذلك ليس من حقهم بأي وجه من الوجوه.

ما فعلته الصحيفة الفرنسية لم يكن المرة الأولى. هل هذا السلوك ناجم عن القلق من مخاطر تهديد الحريات، أم القلق من انتشار الإسلام؟

كلا، ليس في سياق الحريات، فلا يوجد من يهدد هذه الحريات، إنَّما هو نوع من الغرور والتكبر؛ إنَّهم يريدون الإيحاء للآخرين بأنَّ الكلمة الأخيرة لهم وليس هناك من يتجاوزهم، إنَّه عناد أطفال ليس إلا، ناتج عن الغرور، وإذا صحّ مثل هذا السلوك

---

(1) Inculturation.
(2) integer.
(3) Charlie Hebdo.

في يوم ما، فإنَّه لا يصح في عصر العولمة[1]، ولا يصبّ في مصلحة أيّ أحد؛ وحتى أنَّه لا يصبّ في مصلحتهم أيضًا. وهذا النمط من السلوك غير مفهوم البتّة، ويجب توجيه السؤال لهم عن الجهة التي يقفون ضدها؛ لأنَّ هذا الفعل غير مفهوم بأيّ شكل من الأشكال.

إنَّنا نعيش في عالم يختلف كثيرًا عمّا كان عليه سابقًا وفي جميع أبعاد الحياة اليومية، إذ بات أيّ خبر ومهما كان صغيرًا ينتشر على الفور ولا يوجد ما يمكن إخفاؤه. وأيّ حدث يقع في أيّ مكان من العالم ينتقل صداه سريعًا إلى الآفاق، سواء أكان اقتصاديًا أو نفسيًا أو اجتماعيًا أو أيّ شيء آخر. ولكن قبل ذلك لم يكن هذا الأمر ممكنًا، وما أكثر الجرائم التي كانت تقع من دون أن يعلم بها أحد. إذًا، إنَّنا نعيش الآن في عالم مختلف تمامًا ولا بد من الانطباق والتكيف مع ظروفه. وعلى الآخر أن يعي بأنَّ الإساءة إلى رمز مقدس لسدس سكان العالم هي ذروة العناد، هذا ما لا يمكن فهمه والقبول به.

تأملات حول التفاهم المتبادل بين الإسلام والغرب[2]

طلب منّي المستضيف المكرم في الدعوة التي وجهها «مجمع هلسنكي» أن ألقي كلمةً حول «الحياة الطيّبة»، وما يعنيه هذا المفهوم في المجتمعات والحضارات والأديان المختلفة، وما إذا كان المعنيون قادرين على التبادل الفكري واكتساب المعلومات من بعضهم الآخر. وهذا الموضوع جيّد ومثير، ولكن فضلتُ الخوض في موضوع العنوان العريض لِلمؤتمر حول الحوار بين الإسلام والغرب.

يجري الحديث كثيرًا اليوم عن الحوار وضرورته وأهميته، ولا سيما في حل القضايا المعقدة والشائكة والخطيرة المعاصرة، ولهذا يرى البعض أنَّ الحوار يعدّ من أهم الحلول وأكثرها تأثيرًا في العالَم.

معرفة المسألة

قبل أن أخوض في موضوعة الحلول، أتحدّث أولًا عن القضية بذاتها. فمن

---

(1) globalized.

(٢) نصّ الكلمة التي أُلقيت في مؤتمر "قضايا وإمكانات الحوار بين العالَم الإسلامي والغرب: الحوار العالمي" الذي عُقد بتاريخ ٥ إلى ٧ سبتمبر ٢٠٠٢، في العاصمة الفنلندية هلسنكي.

اللازم قبل كلّ شيء أن نفكّر في أصل القضية ومفهومها وخصوصياتها. فما المشكلة الموجودة؟ وما أبعادها؟ وكيف وصلنا إلى النقطة التي وصلنا إليها؟ وما مدى تناسق تصوراتنا مع الحقائق الموجودة؟ وما مدى تأثرها بالظروف الحالية والظروف التي حلّت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟

يُقال إنَّ معرفة المسألة أو القضية يتضمّن نصف الحل وهو كلام صحيح. فقد أصبح من الضرورة الإدراك المحايد والعِلمي للمشاكل، وخاصة في الحال الحاضر، بل يمكن القول: إنَّنا بحاجة إلى الحوار لمعرفة المشكلات بصورة صحيحة والبحث عن الحلول المناسبة لها. وهذا الكلام يكتسب دقةً أكبر في الوقت الحاضر، إذ تختفي الحقائق تحت ركام هائل من الطموحات السياسية والدعايات الإعلامية، ولهذا، فإنَّ مقالتي هذه ستحمل عنوان: «ما المسألة؟»

وبخلاصة فإنَّني أريد أن أقول: إنَّ معرفتنا عن بعضنا والعالَم وحقائقه متأثرة وبشدة بالأحكام المسبقة المفروضة علينا. إنَّنا لا نختلف بالقدر الذي نعتقده ونتصوره، فالمشكلة الأكبر هي أنَّ الاعتقاد بالاختلاف هو أعمق وأوسع ممّا تكشفه وسائل الإعلام أو السلطات الرسمية، بمعنى أنَّنا - مراعاةً للاحترام المتبادَل أو لمصالح أخرى- لا نكشف في الغالب عن مكنوناتنا الفكرية التي تبلورت تحت تأثير الظروف الفكرية والذهنية المهيمنة على العالَم.

وليس الهدف بطبيعة الحال تجاهل هذه الاختلافات؛ لأنَّها موجودة وستبقى، وتصبّ في مصلحة الجميع من أجل إثارة الإبداع في الحياة الإنسانية، لكنَّ المهم هنا هو أن تُفهم هذه الاختلافات والتباينات، ويُنظر إليها بحجمها الحقيقي وموقعها التي هي فيه.

إنَّ ما سيأتي هو عبارة عن دراسات وتأملات وتجارب يومية شخصية عبر التعاطي مع ممثلي الثقافات الأخرى ونخبها، ولهذا فهي تمثل آراء شخصية. إنَّني إذ أودّ أن أطرح هذه الأمور بكل صدق وصراحة؛ لما تتمتع به ثقافة البلد المستضيف من هذه الصراحة، وكلّي شوق للإصغاء إلى المشاركين المحترمين والانتفاع من آرائهم. وسأتحدّث بطبيعة الحال عن المسألة التي ترتبط بالفهم المتبادل بين الإسلام والغرب.

انهيار الكتلة الشرقية

على الرغم من أنَّ الفهم الرائج عن الإسلام والغرب بإزاء بعضهم الآخر متأثر إلى حد كبير بحادثة الحادي عشر من سبتمبر، فإنَّ البدايةَ تعود إلى نهايات الحرب الباردة. والحديث هنا تحديدًا عن الفهم الراهن والمعاصر، وليس الفهم التاريخي الذي يمتدّ على طول التاريخ الإسلامي، وإن كان يلعب دورًا مهمًا في هذا المجال. ولكن وتحريًا لِلدقة سأتطرّق إلى التحولات التي بلورت هذه التصورات منذ بداية التسعينيات إلى يومنا هذا.

الملاحظة المهمة هنا هي أنَّ السقوط المفاجئ للكتلة الشرقية والفراغ الذي خلّفه هذا السقوط في مختلف المجالات، وفّر الأجواء المناسبة النفسية والاجتماعية والسياسية لاستعداء الإسلام كمنافس رئيس، إذ كان مطلوبًا أن يمتلأ الفراغ الكبير الناجم عن انهيار المنافس؛ لأنَّ وجود مثل هذا المنافس كان ضرورةً أملتها مجموعة الظروف المحيطة، وكانت الحاجة قائمة للبحث عن عدو بديل للكتلة الشرقية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ خصوصيات الإسلام ومسار علاقاته بالغرب في التسعينيات جعلته المرشّح الأفضل للقيام بهذا الدور.

لنعد إلى السنة الأولى من التسعينيات، وقتئذٍ كان الاتحاد السوفيتي ما زال موجودًا، في حين كانت الكتلة الشرقية قد تهاوت عَمَليًا، ففي تلك السنة قام العراق باحتلال الكويت، وأدّى ذلك إلى وقوع حرب الخليج الثانية التي لم تترك أثرًا كبيرًا في العلاقة التقليدية بين الإسلام والغرب، على الرغم من وقوع الحرب بين أميركا وحلفائها مع العراق الذي كان له الكثير من الأنصار؛ لأنَّ البحث عن عدو جديد لم يكن ضمن الأولويات حينها، فالغرب كان ينظر إلى هذه الحرب من الزاوية العسكرية وحسب، وليس عبر النافذة الثقافية والحضارية.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتي سنة (١٩٩١) تنفس الغرب الصعداء؛ لتخلّي منافسه القوي والشديد عن هذا الميدان وإلى الأبد، بعد أن قضّ مضاجعه لنصف قرن من الزمان، وبنى كل أفكاره وتصوراته ومؤسساته العسكرية والسياسية، وحتى الثقافية والاجتماعية على أساس وجوده كقوة عظمى.

لم تمضِ مدّة طويلة حتى تبدّلت حالة الارتياح إلى نوع من القلق والخوف والشك من المستقبل، وخاصة بين الطبقات المتوسطة، بما لا يمكن وصفه. ولكن يمكن التوصل إلى مفهومه بإجراء مقارنة بين الظروف الروحية والنفسية التي عاشها هؤلاء بالظروف التي سبقتها بعشرين أو ثلاثين عامًا، وكأنّما تلاشت أيّ ثقة بالمستقبل، وانعدم أيّ حُسن ظن به.

وقد طرأت حينها بواعث قلق جديدة مثل: ما مصير الوحدة الألمانية؟ وما مستقبل هذه البلاد؟ وهل ستتكرر تجارب النصف الأول من القرن العشرين فيما يتعلق بالعنصر الألماني؟ وما مصير روسيا المفككة والمهانة؟ ومن سيتقلد الأمور في هذا البلد المترامي الأطراف وإمكانياته العسكرية والنووية التي ورثها عن القوة العظمى السابقة، والفقير في الوقت نفسه؟ وكيف سيكون تعاطيه مع جيرانه ومع الغرب بشكل عام؟

في مثل هذه الظروف تفجّر الوضع فجأة في منطقة البلقان، في حرب مواجهة طاحنة تجاوزت معنى الحرب إلى التطهير العِرقي، ممّا كانت التلفزة تعكسه يوميًا من أفلام وصور مأساوية ومرعبة عن الوضع هناك. استمرت الأمور على هذا المنوال لسنوات، رافقته موجات من المهاجرين واللاجئين الذين تدفقوا على البلدان المجاورة. والغريب في ذلك غياب أيّ إرادة، وأيّ مشروع، وأيّ قوة، لوضع حدّ لهذا التطهير العِرقي الذي وقع في قلب أوروبا، فقد ترك الناس العزّل الأبرياء من النساء والأطفال أمام الجلاوزة ليقترفوا معهم كل جريمة من دون وازع أو رحمة أو شفقة.

في تلك الأثناء وقعت أحداث مهمة على الساحة الدولية، وبرزت قوى اقتصادية وعسكرية جديدة، وطرأت تطورات إلكترونية متسارعة، وبرزت ظاهرة العولمة التي أخذت تتطور بسرعة، وتغيّرَ في ضوء ذلك مفهوم القوة وأدواتها، وانهارت الأسس التي تستقر عليها القوة السياسية والثبات الاجتماعي والسلامة الأخلاقية على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية، وبات يبدو أنَّ كل شيء قد ألقي في الفراغ. كل هذه الأسباب ضاعفت من حالة التشكيك وانعدام الثقة التي انتشرت بشكل أوسع.

حدثان مهمان

إلى جانب هذه الأحداث، وقع حدثان مهمان آخران هما: الأول تأسيس فكرة «النظم العالمي الجديد» بهدف أداء دور «الرقيب الكبير» من قبل المؤسس لهذه الفكرة، والتعامل القسري مع أيّ دولة ترفضها، والثاني، الفهم والتفسير الجديد للإسلام والمسلمين لدى الأوروبيين، الأمر الذي يحتاج إلى المزيد من التوضيح.

ففي التسعينيات من القرن الماضي ربّما شعر الأوروبيون للمرة الأولى بأنَّهم في جوار شمال إفريقيا والشرق الأوسط، هذا الشعور أخذ يتعمق يومًا بعد آخر، وأخذوا يتابعون الأحداث هنا بقلق متزايد، وكأنَّ ما يحدث في هذه المناطق سيؤثر بصورة مباشرة وسريعة على مصيرهم ومستقبلهم.

في هذه الأثناء وقعت أحداث الجزائر التي حملت معها مغزى كبيرًا، وكانت مريرة ومؤلمة تركت أثرها على المشاعر والعواطف الإنسانية ورفعت من وتيرة القلق، وقد نسبت هذه الأحداث إلى «الإرهابيين الإسلاميين»، وكان الإسلام هو المتهم الأول لدى الرأي العام، متناسين أنَّ المسلمين والجزائريين بشكل رئيس هم من كانوا ضحايا هذه الجرائم.

المسألة الأخرى التي حصلت هي ازدياد أعداد المهاجرين المسلمين، وخاصة من شمال إفريقيا إلى أوروبا، إذ خرجت هذه الظاهرة عن شكلها التقليدي في التسعينيات واتخذت مفهومًا وطابعًا جديدًا. فقد كان هناك حضور للمهاجرين الآسيويين ومن إفريقيا وشمالها إلى بعض البلدان الأوروبية منذ أوائل القرن العشرين، وتزايدت وتيرة هذه الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية حتى الستينيات، لتبلغ ذروتها في السبعينيات والثمانينيات. وكانت قضية المهاجرين حينذاك واستيعاب المجتمع المستضيف والمشاكل الموجودة تسير على وتيرة واحدة إلى حدّ ما، وفقًا لسياقها الخاص المتكون من مجموعة من الأوضاع الاقتصادية، والبطالة، والحاجة إلى قوى العمل الرخيصة، أي: إنَّها كانت ظاهرة اقتصادية أكثر من كونها اجتماعية وثقافية ودينية.

لكنَّ ظروف التسعينيات تغيّرت على حين غرة، واتخذت أبعادًا اجتماعية وحقوقية وأمنية وثقافية على أنَّها قضايا أساسية وليست هامشية، ولسنا هنا بصدد مناقشة أسباب هذه الظاهرة وتحليل دوافعها، إنَّما نريد أن نؤكد أنَّ مجموعة هذه

العوامل أثارت نوعًا من القلق العام حول حضور هؤلاء المهاجرين مع ما يحملونه من آداب وتقاليد وثقافة ودين. وقد لا تجد في أوروبا التسعينيات قضيةً أثارت هذا القدر من الهواجس المشتركة بين القطاعات المختلفة الاجتماعية والثقافية وحتى الدينية، لتقدّم في نهاية المطاف خدمةً لفكرة شيطنة الإسلام وعدّه عنصرًا «منافسًا» بل و«معاديًا».

استعداء الإسلام

في غضون ذلك انتشر وبشكل واسع مصطلح «الإرهاب الإسلامي»، وأصبح أكثر المصطلحات استخدامًا في وسائل الإعلام في فترة التسعينيات، على الرغم من أنّ نشاط معظم من أُطلق عليه هذا المصطلح كان في داخل البلدان الإسلامية نفسها، بمعنى أنَّ هذه العمليات الإرهابية كانت تجري ضدّ المسلمين أنفسهم، وليس خارج هذا النطاق، فإنَّ الغرب تداعى في شعوره الباطني بأنَّ هذه الأعمال موجّهة ضدّه وضدّ دينه وثقافته، حتى استقرّ في أذهان الغربيين أنَّ الإسلام يستهدفهم بالذات.

ولا شك في أنَّ هذه الظاهرة ساعدت أولئك الذين كانوا يخططون للنظم العالمي الجديد، فلم يقف هؤلاء مكتوفي الأيدي إزاء هذه الظاهرة التي كانت تتفاقم يومًا بعد آخر، خاصة أنَّ بعض معارضيهم الحقيقيين كانوا في دائرة العالَم الإسلامي، كما استغل هذه الظاهرة أولئك الذين كانوا ينحازون إلى إسرائيل على حساب العرب في هذا الصراع؛ ولذلك اكتملت الأجواء لكي يصبح الإسلام «عدوًا»؛ لتحقيق مآرب الكثير من الأفراد والجماعات.

في تلك الأثناء وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول التي سببت نوعًا من الدوران والصدمة المفاجئة لأميركا والعالَم، وخاصة الدول الكبرى، وكان الرأي العام غاضبًا يطالب بالثأر والانتقام حتّى يهدأ غليله، فرأت السلطات الحاكمة في خضمّ هذه الأزمة أنَّها الفرصة المناسبة للردّ والانتقام والأخذ بالثأر، واستغلّت هذا الظرف لتحقيق مطامحها السياسية والعسكرية.

كانت الظروف الداخلية والدولية جاهزة لتحقيق هذه المطامح، فسعت تلك السلطات لتصوير قدرات العدوّ وإمكاناته على أنَّها مطلقة، ما يبرر لها هي الأخرى

تعزيز قدراتها؛ ليس من أجل الدفاع عن البلاد وحسب أو الدفاع عن الحلفاء، وإنَّما جرى تصوير الأمر على أنَّه دفاع عن الحضارة والثقافة والأخلاق والإنسانية، وأنَّ هذا العدو هو عدو لِكل هذه المفاهيم.

ولكن من هو هذا العدو؟ إنَّهم «الإرهابيون المسلمون!» الذين يمثلون الإسلام وهم رموزه. وبالطبع، فإنَّ استنتاجاتهم لم تكن بهذه السرعة في العموم، على الرغم من وجود الكثير من بين أصحاب السلطة والإعلام كانوا يقولون بهذا الشيء ويؤكدونه بتعصّب، ومن الواضح أنَّ الرأي العام في التسعينيات كان جاهزًا لتقبل هذا الاستنتاج لِكل من له معرفة بالأرضية الذهنية والاجتماعية حينذاك، ومساعي السياسيين والعسكريين الماسكين بزمام الأمور بهذا الاتجاه، خاصة أولئك الذين لم يوفروا تهمة وتهديدًا إلا ووجهوه، وتحت «يافطة الإرهاب»، لكلّ من كان يواجههم أو يحاول إزالتهم، وعلى رأسهم المسلمين.

بهذا طُرِح الإسلام على أنَّه المنافس والعدو الأصلي، وعلى هذا الأساس تمت تعبئة الرأي العام. ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف الصعب أن يعتبر الطرف الآخر أنَّه أمام عدو، فيحقد عليه؛ لأنَّه لا يستطيع إبداء أيّ رد فعل تجاهه، خاصة أنَّه يرى في نفسه أنَّه ينتمي إلى دين كبير هو خاتم الأديان، ووريث حضارة وثقافة كبرى تبعث على الزهو والفخر، ولا يمكن أن يطيق أيّ إساءة أو إهانة.

والآن علينا أن نرى هل المسألة بهذه الصورة؟ وهل المسلمون والغربيون أعداء إلى هذا الحد الذي يصوره الإعلام؟ وهل يختلفان عن بعضهما إلى هذا الحد؟ ألسنا ضحايا أوهامنا ودعايات أصحاب نظرية النظم الجديد؟ ألم يكن الجوار التاريخي هو الذي يجمع هذين الاثنين بما يتضمنه من تبادل ثقافي وعلمي وفني وفلسفي، وحتّى ديني وإنساني؟ أليست ديانة الطرفين تصنف ضمن مجموعة واحدة يطلق عليها الأديان التوحيدية؟

لا أحد ينكر وجود أقلية متطرفة تمثّل مشكلة لِلمسلمين أنفسهم قبل غيرهم، ولكن هل يوجد مجتمع يخلو من مثل هذه الأقليات المتطرفة؟ ألا يعاني الغرب نفسه ممّن يطلق عليهم «اليمين المتطرف»؟ وهل من العدالة والعلمية النظر إلى مجتمع أو ثقافة أو دين من زاويةِ سلوكِ مجموعةٍ مرفوضٍ أساسًا من المجتمع أو الثقافة أو الدين أنفسهم؟ ولصالح من تصبّ مثل هذه الرؤية؟ ألا تنتهي مثل هذه النظرة العدائية

بالترويج للأفكار المتطرفة وتكريسها؟ وهل يطيق عالمنا وبيئتنا وظروفنا الدولية، ويصمد أمام كل هذا التعصب والتهم والتهديد والعنف؟ وإذا افترضنا أنَّ عالمنا أصبح منزلًا واحدًا وسكّانه هم أعضاء هذه الأسرة الكبيرة، فمن يستفيد من زرع بذور النفاق وسوء الظن بين أفراد هذه الأسرة؟ فإذا كان الأساس هو حماية هذا المنزل لكي يتعايش سكّانه مع بعض، فيجب البحث عن الطرق المناسبة لتحقيق هذا التعايش وليس التحريض على العصبية.

الحجب الإعلامية الضخمة

أقول باختصار وبشكلٍ محدد: إنَّ علينا أن نعرف بدايةً وفي الظروف الحالية «المسألة»، فليس من الممكن عرض حلول عملية مقبولة من دون المعرفة الدقيقة والمحايدة لهذه المسألة، ولهذا، فإنَّ الاقتراح الأول وكما قلت سابقًا هو فتح حوار لمعرفة المسألة، ومن ثمّ حوار للبحث عن طريقة الحلّ المناسبة بما يخدم الجميع ويصبّ في مصلحتهم.

إنَّنا نعيش في عالَم مشحون بالإعلام الذي تتدخل فيه عوامل كثيرة ومعقّدة لتعطيه الشكل والمحتوى. وهذه العوامل لا تبحث في العموم عن الحقيقة والمصلحة، إذا لم تقف ضدّها في الكثير من الحالات. لهذا يفترض بكل من يحرص وبحسن نية على إيجاد الحل، وخاصة من العلماء والمثقفين، على إزاحة هذه الحجب الإعلامية السميكة، وكشف الحقائق أمام الملأ وصولًا إلى حلول أنجع لهذه المسألة.

ولا يقتصر الأمر طبعًا بين الإسلام والغرب، فهناك آخرون أيضًا لهم مبادئهم وقيمهم، ولهم حقوقهم وخصوصياتهم التي يجب أن تحترم، وقد منعت حدّة المواجهة بين الإسلام والغرب من إجراء تقييم كلّي وشامل للمسألة.

وهذا يعني ضرورة إجراء حوارات معهم من جانب المسلمين ومن جانب الغرب على حد سواء، ولكن - كما قلنا-، فإنَّ الحوار الأول يخصّص لفهم المسألة، وبعده لإيجاد حل للمشكلة. وهذا هو المنهج والأسلوب الأصوب للوصول إلى عالم أفضل وأكثر عدالة وإنسانية.

قضية البوركيني[١]

إشارة

البوركيني[٢] هو نوع من ملابس السباحة التي صممتها الأسترالية ذات الأصل اللبناني عاهدة زناتي سنة (٢٠٠٤) وسجلته رسميًا سنة (٢٠٠٦)، وهو عبارة عن بِذْلة سباحة تغطي كامل الجسم ما عدا الوجه واليدين والقدمين، واشتهر عام (٢٠١٦) إثر تعميم لبعض البلديات الفرنسية بمنعه في السواحل، ممّا ضاعف مبيعاته مرات عدّة. وكانت السبّاقة لهذا المنع بلدية كان[٣] في جنوب فرنسا بتاريخ (٢٨ حزيران ٢٠١٦) وبلدية فلينوفه لوبه[٤] في (٥ آب/ أغسطس)، وبلدية سيسكو[٥] في جزيرة كورس[٦] بتاريخ (١٦ آب/ أغسطس). ثم أصدرت (٣٢) بلدية فرنسية أخرى تعميمات مماثلة. وقد انتقل الموضوع إلى المحاكم بعد شكاوى قدّمها بعض المعترضين على هذه التعميمات، فعدّتها بعض المحاكم قانونية فيما ألغتها محاكم أخرى. وأخيرًا تدخلت المحكمة الإدارية العليا في فرنسا وعلقت قانون منع استخدام البوركيني في بعض المدن التي عملت بهذا التعميم.

ملخّص ما جاء في كلمة حجّة الإسلام والمسلمين الدكتور «محمد مسجد جامعي»

تعود جذور منع ارتداء هذا النوع من اللباس في فرنسا إلى غياب الأرضية المناسبة في هذا البلد لقبول الرموز التي تتعلّق بالآخرين، وكان للمجتمع الفرنسي تجربة مماثلة سابقة مع الكنيسة الكاثوليكية. وإنَّ أحد الأسباب في غياب هذه الأرضية في فرنسا هو أنَّ المجتمع الفرنسي متجانس[٧] جدًا من الناحية الوطنية والقومية والثقافية واللغوية، ومن نمطية واحدة، وإنَّ هذه الحالة - بالإضافة إلى التطورات التاريخية الفرنسية وريادة هذا البلد في مجالات الفن والأدب والعمارة، وحتى العلم

(١) من الندوات التي تقام في أيام السبت في مؤسسة الدراسات الاستراتيجية للإسلام المعاصر "مرام" في مدينة قم، بتاريخ ٢٧/ آب/ ٢٠١٦.

(2) Burkini.
(3) Cannes.
(4) Villeneuve-Loubet.
(5) Sisco.
(6) Corse.
(7) homogeneous.

والتكنولوجيا- تركت فيه إحساسًا شديدًا بالغرور والزهو الوطني، ممّا أدّى به إلى نوع من التكبّر والديكتاتورية الحقوقية والسياسية، وحتّى الاجتماعية والشعور بفوقية القيم والمعايير الفرنسية. وما زاد الطين بِلّة أنَّ الأوروبيين والفرنسيين على وجه الخصوص يتخذون حالة من التطرف حينما يريدون مواجهة الدين.

وترتبط المشكلة الأخرى بالمجتمعات الإسلامية الأوروبية نفسها، إذ لا تعرف الحكومات الأوروبية مع من تتحدّث، والجهة التي يجب أن تتحدّث إليها عند حصول مشكلة مع الجاليات الإسلامية هناك، لحلّ هذه المشكلة؛ ويعود ذلك إلى تشتت الجالية هناك وتفرقها، وغياب المرجعية والنظم لديها، خلافًا للأقليات الأخرى مثل اليهودية والبوذية والهندوسية والبروتستانتية في البلدان الكاثوليكية.

وأخيرًا فإنَّ معيار القوة في الظروف العالمية الجديدة هو القدرة على التكيّف مع التطورات، هذه التطورات التي ستخدم مَن يستطيع الانطباق معها، بيد أنَّ المجتمعات الإسلامية في الوقت الراهن ولأسباب عديدة لا تتوفر فيها مثل هذه الصفة، سوى الإيرانيين الذين يمتلكون قدرات كثيرة في هذا المضمار.

نصّ كلمة حجة الإسلام والمسلمين الدكتور «محمد مسجد جامعي»

يجب القول بخصوص قضية البوركيني بأنَّ المسألة الأساسية هنا لا ترتبط بالمحكمة الفرنسية أو الأوروبية أو أيّ شيء من هذا القبيل، بل تتعلّق بالأرضية الاجتماعية والثقافية لتقبّل الرموز المرتبطة بالآخر. فإنَّ وجود أو غياب مثل هذه الأرضية إنّما هو مؤثر حتّى في جانبه الحقوقي، وبشكل عام يمكن الزعم بأنَّ التعارض بين الذات والآخرين هو المعيار النهائي للحكم حول صحة أيّ ممارسة أو عدم صحتها، وهل هي قابلة للمنع أم لا؟ وحتى ما إذا كانت قابلة للمنع الاجتماعي - وليس الحقوقي- أم لا.

حقيقة الأمر أنَّ المجتمع الفرنسي الحالي ينطوي على سلسلة من النمطيات الخاصة أو القيم الخاصة التي تمنع ظهور هذه الأرضية. وبناءً على ذلك، فإنَّ القضية الأساسية في قبول رموز الآخرين أو رفضها يجب أن نتلمسها في المجتمع نفسه، وهو ما لا نجده في المجتمع الفرنسي الحالي.

لذلك، فإنَّ هذه القضية هي التي تعدّ الجذر النظري لمسألة البوركيني، التي تشتدّ يومًا بعد آخر، فإذا كان البوركيني هو المشكلة اليوم، فإنَّ قضايا أخرى ستضاف إليها في السنوات القادمة، فقد كان للفرنسيين، ولا سيما في عقد التسعينيات، مشكلة مماثلة مع الكنيسة الكاثوليكية نفسها، إذ طُرِح حينها في فرنسا، وفي أوروبا إلى حدّ ما، موضوع استخدام الرموز الكاثوليكية في المؤسسات العامة، وجواز ذلك من عدمه، فعلى سبيل المثال هل يُسمح باستخدام علامة الصليب في المدارس الحكومية أو الخصوصية – لم تكن المدارس الخصوصية مشمولة بذلك بحسب ما أتذكر–، وهل يسمح باستخدام الرموز التي تكشف عن هوية خاصة لمجتمع مرّت عليه قبل عشرات السنين على سبيل المثال؟

كان الفضاء الفكري الفرنسي يومها يمنع استخدام أيّ مظهر من المظاهر الدينية. وقد كانت هذه القضايا مطروحة حينذاك حول وضع الصليب في المدارس والصفوف الدراسية، أو وضع هذا الرمز في غرفة موظف ملتزم بتعاليم دينه، أو حتى وضعه في المستشفى أو أيّ مكان عام آخر.

وكانت هذه القضية موجودة في فرنسا حصرًا، أو على الأقل أنَّها كانت تتفاعل هناك بشدة، ولكن شوهدت امتداداتها في بقية البلدان الأوروبية. مثال ذلك أنَّه جرت مناقشات تفصيلية حول الأوقاف الكنسية بعد انهيار الكتلة الشرقية، وخاصة في اسلوفينيا التي تعدّ واحدة من أهم بلدان هذه الكتلة. وما إذا كانت هذه الموقوفات ستصادر للمصلحة العام أم تعاد إلى الكنيسة؟ وهل ستبقى هذه الموقوفات بيد الكنيسة، أم أنَّ لِلدولة الحقّ في وضع اليد عليها؟ ذلك أنَّ جميع هذه الموقوفات تمت مصادرتها في اسلوفينيا في عهد حكم تيتو (١٨٩٢ – ١٩٨٠)[1] الشيوعي، في حين كانت الكنيسة تطالب بها على أنَّها أموال الكنيسة، إلا أنَّ الحكومة الاسلوفينية كانت ترفض إعادة هذه الأموال.

وبعد انهيار الشيوعية وافقت بعض البلدان الأوروبية إلى حدّ ما على إعادة هذه الأموال، في حين امتنعت بلدان أخرى مثل كرواتيا التي تذرعت في حينها بأنَّها منهمكة في حرب البلقان، على الرغم من أنَّ الكروات أكثر تدينًا من الاسلوفينيين. كذلك في

---

(1) Josip Broz Tito.

المجرّ، إذ جرى نقاش طويل حول هذا الموضوع، خاصة مع وجود أعداد كبيرة من البروتستانت في هذا البلد. كما تكرر الأمر نفسه في التشيك التي تضمّ أعدادًا كبيرة من البروتستانت أيضًا، إذ قال الكاردينال فلك[١] - وكان أسقفًا لمدينة براغ ورئيسًا لمجلس أساقفة أوروبا-: إنَّهم يخوضون مفاوضات صعبة وطويلة مع الحكومة حول الموقوفات الكنسية.

وعلى أيّ حال، فإنَّ المثال الأفضل هو ما قلناه حول استخدام الرموز الدينية الكاثوليكية في فرنسا في التسعينيات، وما إذا كان مسموحًا بها أم لا؟ وبحسب ما أتذكر، فإنَّ النقاش حول هذا الموضوع لم يصل إلى نتيجة في نهاية المطاف، والسبب في ذلك أنَّ الكنيسة الكاثوليكية، وبعكس الكنيسة البروتستانتية الأميركية، ليست على قدر كبير من الالتزام بالأصولية التي تدفعها للوقوف بصلابة لحماية قيمها، فالكنيسة الكاثوليكية ليست كذلك، وهي لا تتعاطى بشدّة في مثل هذه الموضوعات، وإنَّما تكتفي بالكلام والموعظة والنصيحة وأمثال ذلك.

وفي نهاية المطاف تراجع النقاش عن هذا الموضوع وتداخل مع نقاشات أخرى حول الإيدز واستخدام وسائل منع الحمل وغير ذلك.

الملاحظة الأخرى هنا أنَّ الأوروبيين يتعاطون بنوع من التطرف والابتذال[٢] حينما يتخذون موقفًا معاديًا للدين، ولا بأس أن نذكر هنا مثالًا على ذلك، إذ التقيتُ السيّد توران[٣] وزير خارجية الفاتيكان عندما كنت هناك، وارتقى إلى منصب الكاردينال وأصبح مسؤولًا لمجمع الحوار الديني في الفاتيكان[٤]. ففي سنة (١٩٩٤) - لو أسعفتني الذاكرة- قصد البابا يُوحنَّا بولص الثاني[٥] زيارة فرنسا، وكانت زيارة حساسة ومهمة؛ لأنَّ البابا كان طالبًا في الجامعة البلجيكية، وعاش هناك مدّة من الزمن، وكانت لديه ذكريات شخصية مع اللغة والثقافة والفن الفرنسي، حتى أنَّ الرئيس الأسبق جاك شيراك (١٩٣٢ - ٢٠١٩)[٦] زار الفاتيكان وليس إيطاليا في أول

(1) Miloslav Vlk.
(2) vulgar.
(3) Jean-Louis Tauran.
(4) Pontifical Council for Interreligious Dialogue.
(5) Pope John Paul II.
(6) Jacques Chirac.

زيارة خارجية له بعد تسلمه المنصب، أي: إنَّه ذهب إلى الفاتيكان فقط وعاد إلى فرنسا. كما أنَّ البابا أعلن دعمه لشيراك حينما أجرى تجربة نووية في جزيرة مورورروا[1]. ومهما يكن، فإنَّ البابا يُوحنَّا بولص الثاني كان متعلقًا بفرنسا لذكرياته هناك.

ومن أجل أن تتم زيارة البابا على النحو الأفضل إلى فرنسا، قام بإرسال شخصيتين من الفاتيكان من أصول فرنسية إلى باريس، وهما الكاردينال روجيه اتشيغاراي (١٩٢٢ - ٢٠١٩)[2] ووزير خارجية الفاتيكان يومها السيّد توران. ولدى لقائي به أبدى توران وقبل أن نتحدّث عن أيّ شيء عتبًا شديدًا وقال: ((كمقدّمة للزيارة ذهبت وايشغاري إلى باريس وأُجريت معنا مقابلة تلفزيونية لدى وصولنا إلى هناك، وبدلًا من السؤال في هذه المقابلة أولًا عن صحة البابا، وموعد زيارته إلى فرنسا، والمواضيع التي ستطرح على الطاولة في هذه الزيارة، وبدلًا من طرح الأسئلة عن القضايا الجادة، كان سؤالهم الأول عن رأينا في وسائل منع الحمل[3] كالواقيات وغير ذلك)). يتابع السيد توران ويقول بأنَّه صُدم لهذا السؤال! وهذا مثال بسيط على الوضع في أوروبا. ولم تتخذ الكنيسة، وخاصة الكاثوليكية بدورها موقفًا حاسمًا من هذا السلوك، فالكنيسة ليست هكذا خلافًا لما يتصورون في إيران، والكنيسة الكاثوليكية في أميركا ليست بهذا الشكل، وإنَّما تتحدّث بلهجة حازمة وحاسمة مقرونة بالعتب الشديد، مثال ذلك خطابها الشديد الذي وجهته للرئيس الأسبق كلنتون أثناء رئاسته، لمنع القنابل التي تستخدم ضد الأفراد، في حين الكنيسة الأوروبية ليست كذلك.

وفي الإجمال، فإنَّ لهذا الموضوع خلفياته وسوابقه في أوروبا على المستويين الاجتماعي والحقوقي، ولكن بأشكال أخرى، إلا أنَّه عاد مجددًا وبجدية أكبر؛ لأنَّ المسلمين هم المعنيّون هذه المرة، والمسلم ليس كالكاثوليكي، بل إنَّه صعب المراس ومقاوم ومدافع عن مواقفه، سواء أكان الموضوع مرتبطًا بالبوركيني أو بأي شي آخر.

إذًا، يدور هذا البحث حول كيفية إطلاق الحكم على ظاهرة باسم البوركيني في إطار القوانين الأوروبية أو الفرنسية، وكيف يتسنى مواجهة هذه الظاهرة في إطار تلك الكتلة الاجتماعية التي تتوفر على قيمها الاجتماعية والحقوقية الخاصة بها؟ يحتاج هذا

(1) Moruroa.
(2) Roger Marie Elie Etchegaray.
(3) Preservathf.

الأمر إلى مقدّمة تحليلية عن البوركيني؛ لأنَّه لا يعدّ مجرّد زيّ ساحلي يتمّ ارتداءه للسباحة وحسب، بل زيّ يعيد إلى الأذهان الكثير من الأمور الأخرى.

إنَّ من يعارض هذا الزيّ ينطلق من سببين: الأول أنَّ استخدام هذا الزيّ هو تعبير رمزي، ويمثل كسرًا للنسق الاجتماعي الموجود، ونعني هنا بالرمز بمفهومه الاجتماعي وليس السياسي. والثاني أنَّ هذه الظاهرة يمكنها أن تمثل رمزًا لسلسلة من القضايا الأخرى، بمعنى إمكانية ممارسة قضايا أخرى في ظلّ هذا الرمز أو الشعار مثل الإرهاب والأصولية وأمثالها، وهذا بدوره يعدّ بحثًا حقوقيًا، أو حقوقيًا - سياسيًا، أو حقوقيًا - اجتماعيًا، ممّا نحتاج إلى تفكيك هذه المواضيع عن بعضها الآخر.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنَّ القضيةَ لا تنتهي عند البوركيني، فهناكَ على سبيل المثال المساجد وأعدادها ومواصفاتها ومساحاتها والمناطق التي يسمح ببنائها فيها، والضوابط والنشاطات التي يجب أن تلتزم بها، والسماح ببناء منائرها من عدمه، وارتفاعها إن تم السماح بها، وكذلك موضوع المقابر أو موضوع المسالخ. وبهذا الخصوص بالذات فإنَّهم يتذرعون بقضايا مثل حماية البيئة وحماية الحيوان، إذ إنَّ لهم معاييرهم الخاصة بذلك. وإذا أردنا أن نسرد أمورًا أخرى فهناك حجاب الطالبات، والأعياد وعطلها، أو على سبيل المثال أيضًا أداء العبادات الواجبة في ساعات العمل، أو القضايا المختلفة التي تتعلّق بالمستشفيات، وغير ذلك من الأمور وهي كثيرة.

إذا كان الأمر كذلك، فعلى المجتمع المستضيف أن يغيّر كلّ تفاصيل حياته!

كلا، يستطيع أن يواصل أسلوبه كما كان عليه ولا يغيّر شيئًا، وهذا مرتبط بكيفية التعاطي مع الموضوع. والكلام هنا يستلزم التفصيل الواسع، إلا أنَّني سأكتفي بالعناوين.

أمّا المسألة الأخرى، فهي وجود أقليات دينية متنوعة في أوروبا، سواء من الأقليات القديمة المتجذرة مثل اليهود، أو الأقليات التي حلّت حديثًا هناك تقريبًا مثل الكنائس المختلفة البروتستانتية في جنوب أوروبا، أو الأقليات الحديثة جدًا مثل الهندوس والبوذية بأنواعها. ومن هذه الأقليات الحديثة تقريبًا على سبيل المثال المعمدانيون[1]؛ فعندما كنت في إيطاليا كان هناك نحو عشرة آلاف شخص ينتمون إلى

---

(1) Baptists.

هذه الجماعة، ولهم كنيستهم الخاصة بهم، ويعود حضورهم هناك إلى سنة (١٨٧٣)، وكان يقودهم قسّ[1] أميركي يدعى لوسون، وقد زرت مرة كنيستهم بدعوة رسمية، كما أنَّني دعوت السيد لوسون وزوجته إلى المنزل لتناول العشاء. وقد تبرّع حينها بعشرة ملايين ليرة إيطالية، أي: ما كان يعادل سبعة آلاف دولار إلى ضحايا زلزال رودبار في شمال إيران، وكان الزلزال قد وقع في تلك الفترة، فأرسلت المبلغ إلى إيران ليُصرف في محله.

إنَّ ما أريد أن أقوله هنا: إنَّ الحكومة أو الحكومات الإيطالية المتعاقبة استطاعت إقامة علاقة منطقية مع هذه الجماعة والحوار معها؛ لأنَّها تمتلك تنظيمًا خاصًا بها، كما أنَّ المجتمعات اليهودية في البلدان الأوروبية هي مجتمعات منسجمة ومتجانسة، لا فرق في ذلك من أيّ منطقة جاؤوا إلى أوروبا، فهناك على سبيل المثال اليهود الروس، وهم كُثر، خاصة أنَّهم هاجروا إلى أوروبا في بداية التسعينيات، فيما ذهب بعضهم إلى إسرائيل وإلى أميركا وكندا وغيرها من المناطق.

فهؤلاء اليهود الروس من نمط خاصّ، ولهم سمات تميّزهم عن بقية اليهود الأوروبيين، منها اتصافهم بالتطرف الشديد، ومع ذلك، فإنَّهم يشكّلون مجموعة منسجمة مع المجتمع اليهودي بأجمعه في سويسرا مثلًا أو في ألمانيا، على الرغم من أنَّ هذا المجتمع مؤلّف من يهود قادمين من مناطق مختلفة، مثل روسيا أو القدس أو الشرق الأوسط أو إسبانيا، فهم متجانسون مع بعضهم سواء أكانوا من الأشكناز[2] أو السفارديم[3] الشرقيين، لا فرق في ذلك. وهكذا الأمر بالنسبة للهندوس والبوذيين.

ولكنَّ المجتمع الإسلامي الساكن في أوروبا ليس على هذه الشاكلة؛ ومن غير المعروف مع من تتكلم، ومن يمثّل من، فهناك نوع من التفرق والتشتت، وكلٌّ لا يقبل الآخر. في حين لا تجد هذه الظاهرة لدى بقية الأقليات، فالمجتمع اليهودي على سبيل المثال يضمّ الروسي أو السفاردي أو الإسرائيلي وسواهم، ويشكّلون بأجمعهم نوعًا من الانسجام الداخلي والعقائدي ووحدة في الموقف، ممّا لا تجد هذه الظاهرة لدى المسلمين هناك.

---

(1) pastor.
(2) Ashkenazi.
(3) Sephardi.

وعلى الرغم من أنَّ هذه مشكلة نظرية، فإنَّ لها انعكاسات سلبية، فالدول على سبيل المثال لا تدري مع من تتحدّث حول السماح بالبوركيني أم لا، وحول السماح بالنقاب أو منعه، وهذا يعني أنَّ الأجواء غير مهيئة للتفاوض بخصوص هذه الحالات، وإذا لم نجزم باستحالة التفاوض، فنقول: إنَّ هناك حيزًا صغيرًا جدًا لذلك. ومثال ذلك أيضًا قانون الـ«تسعة بالألف» في نظام الضرائب، إذ يستطيع المواطنون الأوروبيون تخصيص تسعة بالألف من ضرائبهم إلى المؤسسات الخيرية والدينية، فالهندوسي السويديّ يمكنه أن يسدد هذه النسبة من ضرائبه إلى معبده، ولكن لأيّ مسجد يدفع المجتمع الإسلامي هناك هذه النسبة وفي أيّ ظروف؟ وهناك أمور أخرى يختلف فيها المسلمون كثيرًا عن الآخرين.

هذه النسبة من الضرائب أين يمكن أن تدفع تحديدًا؟

إلى المؤسسات غير الربحية والخيرية الدينية وغير الدينية، فمثلًا تُعطى إلى منظّمة أطباء بلا حدود، أو المؤسسات الصغيرة التي تقدّم خدمات إنسانية في داخل البلاد وخارجها، في الداخل مثل رعاية المعاقين، وكذلك النشاطات والخدمات التي تقدّم في الخارج.

إنَّ هذا الظاهرة التي طرأت تحت اسم منع البوركيني هي ليست حديثة عهد، إنّما مستمرة، ولن تتوقف عند موضوع البوركيني، وكما قلت، فإنّها تنقسم إلى جزئين: أحدهما حقوقي، إذ يجب أن يتضح الجانب الحقوقي له أولًا، فالأهمية الحقوقية تختلف على سبيل المثال بين أقلية تريد ممارسة تقاليدها وطقوسها الفولوكلورية التي ترتبط مثلًا بقبيلة الهوتو[1] أو أيّ قبيلة إفريقية أو من أميركا اللاتينية التي ترغب في ممارسة مهرجانها السنوي في الشوارع، وبين تقاليد وآداب منبثقة عن العقائد الباطنية التي يراد التعبير عنها في الخارج.

وتعدّ عملية التعاطي مع مثل هذه القضايا من الجانب الحقوقي أمرًا مستحدثًا إلى حدّ ما، فلم يواجهوا، كما أنّنا لم نواجه ربّما مثل هذا الشيء سابقًا. ذلك أنَّ مجتمعنا لم يسبق أن شهد مثل هذه القضايا، ولكنَّ عالمنا اليوم معرّض لمواجهة هذه المستجدات، وربّما أنّنا سنواجه أمثالها مستقبلًا.

(1) Hutu.

لماذا بدأت هذه القضية برأيك في فرنسا؟ وما السبب في الاختلاف المحسوس بين العلمانية الفرنسية مع سائر البلدان الأوروبية؟

هذا موضوع آخر، ويختلف عن سابقه. فالتباين بين فرنسا والآخرين يعود إلى كيفية التكوين الفرنسي كشعب، وإلى تاريخ التطورات التي شهدتها فرنسا، والخصوصيات التي يتوفر عليها الشعب الفرنسي. ويمكن أن أشير باختصار إلى أن الفرنسيين هم أكثر شعب منسجم ومتجانس داخل أوروبا باستثناء ألمانيا التي تتصف بهذه الصفة نفسها. أمّا الإنكليز على سبيل المثال الذين حكموا أكبر إمبراطورية استعمارية، فهم ليسوا على هذه الشاكلة، فلديهم التعدد والتنوع الذي ساعد على غناهم الثقافي. غير أنَّ الشعب الفرنسي شعب موحّد ليس فيه تلك الفجوات القومية والاجتماعية، كما هو الحال لدى الشعوب الكبرى مثل البريطاني أو الإسباني أو الإيطالي. ومثل هذه الوحدة موجودة في بولندا أيضًا، ولكن من بين البريطانيين ثمة مَن يقول: إنَّه إسكتلندي، ومنهم من يقول: إنَّه إنكليزي، ومنهم الويلزي ومنهم الإيرلندي أيضًا، أو في إسبانيا مثلًا، ففيهم الكاتالوني[1] والإسباني.

ولكن لا تجد مثل هذه الحالة في فرنسا التي يتسم شعبها بنوع من الانسجام الداخلي الذي يسوق إلى الدكتاتورية حينما يتجاوز هذا الانسجام حدًا معينًا؛ وهذه الديكتاتورية تظهر تارة على هيئة عسكرية، وتارة بأشكال وصور أخرى كما هو الحال في فرنسا، إذ تتضح هذه الأنا لدى هذا الشعب حينما يرى نفسه بأنَّه هو المعيار لكل شيء، ويتحدّث عن فرنسا الكبرى، فيقول ثقافتي وقيمي ومعاييري وعلمانيتي وغير ذلك. بناءً على هذا، فإنَّ التجانس الموجود في المجتمع يصبح مقدّمة لنوع من الدكتاتورية الحقوقية والديكتاتورية السياسية وحتى الديكتاتورية الاجتماعية.

وبطبيعة الحال لا يمكن حصر ذلك في التجانس وحسب، وإنَّما لفرنسا نوع من التغلغل الثقافي القوي خارج الحدود بسبب أدبياتها ونظامها الحقوقي إلى حد ما، وبسبب ريادتها في مجال الفن والعمارة وحتّى العلم والتكنولوجيا.

ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الثقافة الفرنسية أكثر نفوذًا من الإنكليزية، وتأثرت أجزاء كبيرة من أوروبا بفنها وعمارتها، وعلى الرغم من أنَّ إيطاليا

---

(1)Catalan .

لا تقل مهارة في الفن عن فرنسا - إنْ لم تكن أقوى منها بلحاظ تاريخها الطويل في هذا المضمار-، فإنَّ التأثير الفرنسي كان أقوى من الإيطالي في الرسوم والعمارة والتصاميم وبناء المدن. فالعمارة الفرنسية على سبيل المثال مشهورة في بخارست، حتى سمعت من الكثير هناك حينما زرتها بأنَّ تصاميم الكثير من مدنهم هي على الطراز الفرنسي، بل إنَّ هذا الطراز انتشر حتى في مدن معروفة أخرى مثل مدينة بتروغراد[1] في الإمبراطورية الروسية «سان بطرسبورغ الحالية» وأجزاء مهمة من روسيا وبولندا وشرق أوروبا، وحتى تركيا العثمانية وإيران إلى حد ما. ذلك أنَّ فرنسا تعدّ إمبراطورية ثقافية في داخل أوروبا في الطراز المعماري وفي خصوصيات فنها وأدبها.

وللفرنسيين أساسًا خصوصيات مختلفة تسري في عروقهم كما يسري الدم، ولا يدخرون جهدًا من أجل تعزيزها وتطويرها، بحيث يقول السيّد نيكولو (١٩٤٠ - ٢٠٢١)[2] المدير العام الثقافي في وزارة الخارجية الفرنسية قبل أن يصبح سفيرًا لبلاده في إيران: ((إنَّ قسمًا كبيرًا جدًا من ميزانية وزارة الخارجية الفرنسية مخصّص لإدارتي))؛ لذلك فهم يتلذذون بانتشار ثقافتهم، وخاصة لغتهم، من أجل تمدد نفوذهم وإشباع غرورهم الوطني.

فمن المهم للفرنسيين أن يتحدّث الآخرون بلغتهم، فترى في وسائل إعلامهم المختلفة أقسامًا خاصة للإفريقية الفرانكفونية؛ لتتنوع لهجات لغتهم، حتى أنَّهم يستخدمون اللهجة الفرنسية في جزر غوادلوب[3] ومارتينيك[4] الصغيرة في أميركا الوسطى.

ولكن لا ترى في المقابل إصرارًا إيرانيًا على أن يتحدّث مذيعو الأخبار باللهجات المختلفة على الرغم من انتشار اللغة الفارسية في مناطق مختلفة مثل طاجيكستان أو أفغانستان أو قرقيزيا. أمّا الإنكليز، فهم يسيرون على خُطى الفرنسيين، ولكن ليس بتلك الاندفاعة والشدة التي عليها الفرنسيون.

إنَّني أعرف في كندا جامعات بأكملها تتكلّم الفرنسية كلغة رسمية.

---

(1)Petrograd .
(2) Francois Nicoullaud.
(3) Guadeloupe.
(4) Martinique.

نعم، ففي مقاطعة كبك يتحدّث الناس باللغة الفرنسية، ويصرّون على أنَّهم فرنسيون، ولا بدّ من التحدّث بهذه اللغة والبقاء عليها. ويتحسس الفرنسيون بدورهم من هذا الموضوع ويرغبون في بقاء تلك المقاطعة على اللغة الفرنسية.

وعلى أيّ حال، فإنَّ الاعتزاز بالهوية الفرنسية للفرنسيين يبث لديهم إحساسًا بالغرور، ويعتبرون بلادهم أنَّها «فرنسا الكبرى»، وهذا تصور سائد بين الدبلوماسيين الفرنسيين، ولهذا الموضوع بحث تفصيلي تتدخل فيه عوامل كثيرة يعود بعضها إلى الملاحظات التي أشرنا إليها، وبعضها إلى تجربتهم التاريخية المعاصرة، خاصة تلك التي تتعلّق بما بعد الثورة الفرنسية.

فالثورة الفرنسية وقبل أن تكون ثورة ضد البرجوازية كانت ثورة ضد الكنيسة، حيث أعدم الثوار سبعمائة أسقفًا، وصادروا جميع أموال الكنيسة. واستمرت هذه الحالة المعادية للكنيسة حتى توقفت عند نقطة معينة، بما لا يمكن القول: إنَّها وصلت إلى طريق مسدود، وفي هذا الصدد يقول سفير الفاتيكان في طهران وهو فرنسي في الأصل: إنَّ وزير الداخلية الفرنسي قال في البرلمان سنة (١٩٠٥): إنَّ كلامي المعادي للكنيسة ليس للتصدير إلى الخارج، وإنَّما موجّه إلى الداخل؛ لأنَّنا في الخارج كاثوليكيون تمامًا. وهذا يعني أنَّ الدفاع عن العلمانية هي قضية داخلية بحتة؛ لأنَّهم كانوا من أهم المدافعين في الخارج عن المسيحية الكاثوليكية. كما كان الروس يدافعون في القرن التاسع عشر عن الأرثوذكسية؛ لأنَّ روسيا كانت تمثّل حينذاك مركز ثقل المسيحية الأرثوذكسية وجغرافيتها السياسية، وكان الروس يعدّون أنفسهم أنّهم حماة الأرثوذكسية، كما أنَّه لم يكن أيّ بلد يدعم الكنيسة الكاثوليكية سوى فرنسا. أمّا الكنيسة الإنجليكانية، فإنَّها ظاهرة إنكليزية تحظى بدعم الإنكليز بشكل طبيعي. في حين كان الألمان يدعمون وبشكل محدود اللوثريين، على الرغم من أنَّ سياستهم الخارجية لم تكن ذات فعالية، حتّى في القرن العشرين وقبل الحرب العالمية الأولى.

على أيّ حال، يجب أن أضيف بخصوص الفرنسيين بأنَّهم وقعوا تحت تأثير ظروف مرحلة ما بعد القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ نمت لديهم في تلك الأجواء حالة التجانس والخصوصيات المرتبطة بها، والروح الفرنسية متأثرة إلى حدّ كبير بالتطورات التاريخية التي شهدتها فرنسا، ولا سيما في العصر الحديث وما بعد الثورة الكبرى، التي حدثت كما قلت ضد الكنيسة قبل أيّ شيء آخر.

وللفرنسيين أيضًا شيء من الطباع الشرقية؛ لأنَّهم يفتخرون بتاريخهم، وهي حالة قلّما نجدها لدى الشعوب الأوروبية كما هي لدى الشعب الفرنسي الذي يعتز بماضيه. مثال ذلك أنَّهم صنعوا من نابليون شخصية عظيمة من طريق مدحه والثناء عليه كثيرًا، في حين كان يعمل بضرر الفرنسيين، ولم يحقق لهم إنجازًا معينًا، فهو لم يمنح فرنسا العز، إلا أنَّ الفرنسيين جعلوه رمزًا لعزّهم وعظمتهم.

لكنَّ نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) احتلّ نصف أوروبا، وكان مقدسًا لدى المثقفين في أوروبا على الرغم من كونه رمزًا عسكريًا.

لكنّه تلقى هزيمة منكرة من الإنكليز في معركة واترلو(1). ونقول من باب المقارنة بأنَّ الإنكليز لم يعملوا على تهويل هذا الانتصار أبدًا، في حين عظّم الفرنسيون من شأن نابليون. فالإنكليز لم يدخلوا حربًا إلا وخرجوا منها منتصرين، فليس بالأمر الهين الدخول في حروب على مدى خمسة قرون وفي ظروف مختلفة وتحقيق الانتصارات فيها كلها. أمّا الفرنسيون، فإنَّهم لم يخوضوا حربًا إلا وخرجوا منها مهزومين تقريبًا، والكلام هنا طبعًا يدور حول الحروب الأوروبية. فالوضع الفرنسي في الحرب العالمية الثانية كان يُرثى له؛ فقد استطاع هتلر أن يستولي على فرنسا بسهولة، ودخل باريس فاتحًا، ووضع مكانه الجنرال بيتين (١٨٥٦ - ١٩٥١)(2). وقبل ذلك كان الموقف الفرنسي ضعيفًا في الحرب العالمية الأولى، فيما انهزم الفرنسيون في معظم الحروب التي جرت في الولايات المتاخمة لألمانيا، ما عدا بعضها. فهو شعب يرى في هزائمه انتصارات، وهذا أيضًا هو ديدن الصرب.

يعتقد البعض بأنَّ نابليون هو من بادر إلى إجراء دراسات حول الإسلام، التي بدأها بعد دخوله مصر. فمساعي نابليون إذًا هي التي أوجدت الدراسات الإسلامية، أليس كذلك؟

كلا، هذا الكلام غير صحيح.

ولكنَّ هناك الكثير في إيران ممّن يعتقد بأنَّ نابليون هو من أسس الدراسات الاستشراقية والإسلامية، إذ ظهرت هذه الدراسات بعد حضوره في شمال إفريقيا

---

(1) Waterloo .
(2) Philippe/ Marshal Petain.

والدراسات الحديثة التي أجريت والمواجهات التي جرت هناك.

إنَّهم على خطأ! لأنَّ كثيرًا من الإيرانيين - الذين تكوّن لديهم هذا التصوّر- يرجعون إلى مصادر عربية، فهذه التصوّرات عربية بحتة، والدليل على ذلك قلّة معلوماتهم في هذا المجال. كمثال على ذلك لاحظوا أنَّ الترجمة الأولى للقرآن الكريم باللاتينية هي التي طبعت في بادُفا[1] وذلك قبل مائتي عام أو مائتين وخمسين عامًا من دخول نابليون إلى شمال إفريقيا، أو أنَّ اهتمام جامعة نابولي[2] بالاستشراق في إيطاليا يعود إلى حدود سنة (١٧٠٠) للميلاد، أي: قبل مجيء نابليون بخمسين عامًا. إنَّ المشكلة في إيران هي أنَّ مصادرها المتعلقة بالدين عربية، ومناهجها متأثرة بالمصادر العربية، وللعرب بطبيعة الحال رؤيتهم الخاصة إلى العالَم.

بعد هذا نعود إلى المبحث الرئيس، ونقول بأنَّ ظروف العالَم تغيّرت اليوم، كما تغيّر الزمان الذي نعايشه، وطالما كان الأمر كذلك، فإنَّك لا تستطيع المقاومة بإزاء هذا التغيير، ولا بدّ من وضع أطر ومبان جديدة للاستناد عليها، ولا بدّ من إجراء حوارات حول المنطق الفكريّ والمنطق التعامليّ والمنطق الاستدلاليّ والمنطق الحقوقيّ. فالبحث مثلًا في تطابق الموضوع الفلاني مع الحق الفلاني في القوانين الأوروبية أو الفرنسية أو الرومانية أصبح غير مجد ولا معنى له؛ لأنَّ كلّ شيء قد تغيّر ولا بدّ من إعادة النظر في كل شيء. فهذه الظروف حلّت وبشكل سريع جدًا محلّ الظروف السابقة، وأخذت العالَم على حين غرة، بحيث لم ينتبه إلى الاختلاف الكيفي الكبير بين ما نحن عليه الآن، وبين ما كنّا عليه في عام (٢٠٠٠). حقًا أنَّها تحولات ثقيلة جدًا، ألقت بظلالها على العالَم وغيّرت الموضوعات والمسائل كثيرًا.

إلى أيّ مدى تصبّ هذه الظروف الجديدة لصالح المسلمين والأديان بشكل عام؟ وكيف يستطيع المؤمنون الاستفادة من هذا الفضاء الجديد؟

لا معنى للمصلحة أو الضرر في هذه الظروف الجديدة. وقد قلنا مرارًا فيما سبق بأنَّ التنمية في الوقت الراهن تعني قدرة التكيّف والانطباق، بمعنى أنَّ المهم هو مدى القدرة على التكيّف. على سبيل المثال، فإنَّ لِليهود قدرة تكيّف عالية وسريعة وعميقة، بحيث تميل الكفة لمصلحتهم في أيّ ظروف يمرّون بها. وهذه الحالة لا تقتصر على

---

(1) Padua.
(2) Universita degli Studi di Napoli (L>Orientale).

اليهود وحسب، فهناك مجموعة تعرف بالأبوسديين[1] ضمن الكنيسة الكاثوليكية التي نمت وتطورت سريعًا، وهم ليسوا مثل اليسوعيين[2] المقيدين بالتزام علميّ محدد، بل إنَّها تعدّ أيضًا – وفي أحد وجوهها- مافيا اقتصادية وتعليمية كبيرة، فهذه الجماعة صغيرة، لكنَّها متحركة تستطيع أن تسبق الأحداث دائمًا، فلا تتضرر مهما كان الحدث الذي تواجهه، بل تكسب المزيد من النفع لما يصبّ في مصلحتها؛ وذلك لقدرتها الفائقة على التكيف والانطباق، فإذا كانت تحصد على سبيل المثال في الظروف السابقة أرباحًا بنسبة عشرة بالمائة، فإنَّها باتت تحصد خمسة عشر بالمائة في هذه الظروف السريعة التحول. وثمة مجموعات أخرى عارفة حقّ المعرفة بالظروف على الرغم من صغر حجمها، ولديها القدرة على التكيف مع محيطها. ومن بين المسلمين يمكن الاستشهاد بمجموعة الأغاخانية البُهرة، والشيعة الخوجة إلى حدّ ما، إذ لديهم القدرة على التشخيص والتكيّف والتخطيط الذي يتناسب والظروف المحيطة.

---

(1) Opus Die.
(2) Jesuits.

فهرس الأعلام

آدم–عليه السلام–: ١٤١
آغا خان: ٣٢٤
ابن رشد: ١٠٥، ١٠٦
ابن سينا: ١٠٦، ١٣٧
اتشيغاراي، روجيه: ٣١٥
أثيناغوراس: ٢٤٠
استالين: ٨٨، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٥٦
الأسد، بشار: ١٧٧
اسكالفاري: ٤٩
اسكولا، أنجيلو: ٤٨
أليكسي الثاني: ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٠
إليو سيجريسكا، مونسينيور: ٧٢
أمارو، توباك: ٢١٠، ٢٢١
بابالاردو، باولو: ٨٩، ٩٠
باجيو، روبرتو: ٢٨٠
باسكوال بورجوميو: ١٩١
بادري بيو: ١٣٥، ١٦٦
بارولين، بيترو: ٢٤٢، ٢٥١، ٢٥٤
بازنر، آفي: ١٤٥
بانسيرولي، روميو: ١٤٨
بافلي [بطريرك صربي]: ٢٣٠، ٢٤٩
البروجردي، السيد محمد حسين: ١٦٨
بنديكيت السادس عشر: ١٩، ٢٥، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٤٧، ٥٧، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٧، ٨٨، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٩
بن لادن، أسامة: ٩٧ – ٩٩، ٣٠٠
بوش، جورج [الابن]: ١٤٠، ١٥٤، ١٦٣
البوطي، محمد سعيد: ١٧٨
بولص السادس: ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٦٠، ١٤٧، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٥٧
بوتين، فلاديمير: ٢٤٢، ٢٥١
بوليتش، فينكو: ٢٣٠
بهرام مسعود: ٢٤٩
بيفي، جياكومو: ٢٩٠
بينكي، بادره: ٣٠١
بيريز، شيمون: ٨٠
بيريست، جان كلود: ٢٤٩
بيتاو، جوزيبي: ١١٨
بيرجوليو، خورخي ماريو: ٤٨
بينوشيه، أوغستو: ٢٠٨، ٢٢٥
بيو لاغي: ٦٣
تشيافاتشي، دون إنريكو: ١٢١
تيتامانزي، ديونيغي: ٦٧
توران، لوييس: ٩٢، ١٠٤، ١٥٢، ٢٤٩، ٣١٤، ٣١٥
جيوفاني، باتيستا ريم: ٩٠
جبلي، حميد: ١٧١
جوبل، جان بول: ٢٧٧
الحسين بن علي – عليه السلام–: ١٤٠، ١٤١، ١٩١، ١٩٥
خروتشوف: ٢٥٦
دانيلز، غودفريد: ٢٤٨
راتسينغر، جوزيف: ٣٨، ٤٦، ٤٩، ٦٢، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠–٨٢، ٨٧، ١٢٠، ١٥٧، ٢٠٤–٢٠٦، ٢٢٤، ٢٢٥
الراعي، بشارة: ١٧٧
راهنر، كارل: ٦٣
ربّاني [سفير إيراني]: ١٠٤
الرومي، جلال الدين: ٢٨٠

روميو، أسكار: ٢٢٥
ريكاردي، أندريا: ٢٤٣
ريغان، رونالد: ٤٥، ١٥٨، ١٦٣
زناتي، عاهدة: ٣١١
زركشوف: ٢٣١
ساركوزي، نيكولا: ١٦٧، ١٧٧، ٢٦٨
ساكو، رافاييل: ١٨١
سيرافيم: ٢٣٦، ٢٤٩، ٢٥٩
سبيريدون: ٢٣٦
سمير، خليل سمير: ٢٧٨
سودانو، أنجيلو رافايلي: ٩٠
سوليدارنوتش [حركة تضامن نقابة العمال في بولندا]: ٢٣٥، ٢٤٣
السهروردي، [شيخ الإشراق]: ١٣٧
السيستاني، السيد علي: ١٨١
الشاه عبّاس الصفوي: ٨٩
شنودة [البابا]: ٢٣٨
شيراك، جاك: ٣١٤، ٣١٥
صدّام: ٩٩، ١٠١، ١١٦
صدر المتألهين الشيرازي: ١٠٦
طاهريان [سفير إيراني]: ٢٤٩
الظواهري، أيمن: ٩٨، ٣٠٠
عبد العزيز، الملك: ٩٧
العتيبي، جهيمان: ٩٧
عزام، عبد الله: ٩٩
عليّ بن موسى الرضا – عليه السلام–: ٢٧٨
عمانوئيل دلي: ١٨١
عيساوي، يُوحنَّا: ٨٩
فابيوس، لوران: ٩٥
فاطمة المعصومة – عليها السلام–: ١٩١
فرانتشسكو: ٣٧، ١٤٦
فرانسيس: ٢٦، ٣٧، ٣٨، ٩٣، ٢٠٥-٢٠٩، ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٩٣
فرانكو (الجنرال): ١٥٥، ٢٦٥
فرانتيشك ايشتش: ١٣١
فلْك، ميلوسلاف: ١٧٠، ٢٩٣، ٣١٤
فيليبس، كيفين: ١٤٠
فينتشنزو باليا: ٢٤٨
كابوتشي، هيلاريون: ١٤٧
كارلوف، يوري: ٢٤٢
كولبرغ، إيتان: ١١٥، ١٢٩
كاسترو، فيدل: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٢٤
الكاشاني، السيد أبو القاسم: ٨٩
كافور، كامليو باولو فيلبو: ٤٢
كراكسي، بتينو: ٢٧٤
كيريل: ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٥١
كلايس، ويلي: ٢٧١
كولمبوس، كريستوفر: ٢٠٢، ٢١١
كلنتون، بيل: ١٢٣، ١٦٣، ٣١٥
كندي، جون إف: ١٥٨
كوزيروف، أندري فلاديميروفيتش: ٢٣٧، ٢٥١
كونج، هانس: ٦٣، ٧٩
كوهاريتش، فرانجو: ٢٣٠
الكلبايكاني (السيد محمد رضا): ١٦٨
غاريبالدي، جوزيبي: ٤٢
غليمب، جوزيف: ١٥٩
غوتيريز مرينو، غوستافو: ٢١٧
لافروف، سيرجي: ٢٤٢
ليخ فاونسا: ١٥٩، ٢٣٥

لوبيز، بيدرو: ١٥٥
لوثر، مارتين: ١٤٠
لوسون: ٣١٧
لومباردي، فيديريكو: ٧٧
ليوناردو بوف: ٣٥، ٧٩، ٨٧، ٢٠٤، ٢٢٥
لوكونسا بالدا: ١١٥
لوييس الرابع عشر: ٣٠
ماديغان، دانيل: ١٣٩
مارتينز، جين كلود: ١٧٧
مارتين، ديارمويد: ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٥-٥٧، ٢٨٨
مارتين، إيمون مونسينيور: ١٤٨
مارتيني، كارلو ماريا: ١٩، ٢٧، ٣٤، ٤٧، ٥٧-٧٠، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٧٢، ٢٩٣
ماركيز، غابريل غارسيا: ٢٠٣
ماريا سكارجيا: ١٣٣
مانديلا: ٣٨
ماو تسي تونغ: ٢٩٦
مجيدي، مجيد: ١٧١
محمد بن عبد الوهاب: ٩٧، ٩٨، ١٠٠
محمد بن علي الباقر – عليه السلام-: ٢٧٨
محمود مصطفى أيوب: ١٢٤
مكاريك، ثيودور إدغار: ١٧٧
ميغيل إيدالغو إي كوستيا: ٢١٤
ميدفيديف، دميتري: ٢٥١
ميركل، أنغيلا: ٢٨٥
المسيح – عليه السلام-: ٤١، ٦٤، ٦٦، ٧٤، ١٤٠، ١٤١، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٣، ١٨٥
موسى الصدر: ١٨٢، ١٨٤، ١٩٢
ميلوني، ألبرتو: ٤٧، ٨١، ٢٩٧
ميلوني، كارلو: ٦٧
مينديز، لويس فرناندو كاستيلو: ٢٠٣
موريلوس، خوسيه ماريا: ٢١٤
مورو، ألدو: ٦٦
موسوليني: ٤٣، ٤٤، ١٤١، ١٤٢
ميلوشوفيتش، سلوبودان: ٢٤٨
نابليون: ٣٢٢، ٣٢٣
نيكولو، فرانسوا: ٣٢٠
هاشمي، محمد: ١٤٨
هتلر، أدولف: ٤٣، ٨٠، ٣٢٢
هيلاريون، ألفيف: ٢٥٤
يلتسين: ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٥١
يُوحنَّا بولص الأول: ٣٢، ٣٩، ٤٥، ٤٩
يُوحنَّا بولص الثاني: ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٧٨، ٨٣-٨٨، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٩، ٢٠١، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٠٧-٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٩٣، ٣١٤، ٣١٥
يُوحنَّا الثالث والعشرون: ٣٢، ٤٠، ٦٠، ٦٧، ٢٥٠، ٢٩٧

أسماء الأماكن

الاتحاد السوفيتي: ٢٢، ٧٤، ٨٨، ٩٦، ١٠٧، ١٠٨، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٥٥، ٣٠٥

أثينا: ١٤٣، ٢٥٩

أثيوبيا: ٤٣

أذربايجان: ٢٢

أربيل: ٢١، ٩١

الأرجنتين: ٣٦، ٨٢، ١٥٠، ١٩٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٢٥

الأردن: ٩١، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٦

أرمينيا: ١٤٣

إريتره: ٤٣

إفريقيا: ٤٣، ٩٦، ١١٦، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٩، ١٧٣، ١٨٣، ١٩٤، ٢٠١، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠-٢٢٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩-٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣٢٢، ٣٢٣

ألبانيا: ١٦١

ألمانيا: ٣٩، ٤٣، ٦٥، ٧٠، ٨٠، ١٤٣، ١٥٧، ٢٣٦، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٢

أميركا: ٢٢، ٤٥، ٤٦، ٥٤، ٥٥، ٦٥، ٧٤، ٩٦، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٨، ١٦١-١٦٣، ١٧٧، ١٨٥، ٢٩٣، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٧١، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٤-٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٧

أميركا اللاتينية: ٣٠، ٣٦، ٥١، ٦١، ٨٥، ٨٦، ١٢٠، ١٢٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٦٢-١٦٤، ١٩٤، ١٩٩-٢٢٦، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠-٢٩٤، ٢١٨

أميركا الوسطى: ٣٢٠

إندونيسيا: ٩٠، ١١٦، ١٩٠، ٢٩٢، ٢٩٩

الأندلس: ٢١٩، ٢٦٤

إسبانيا: ٣٠، ٣٩، ١٣٢، ١٤٣، ١٥٥، ١٦١، ٢٠١، ٢١٣، ٢٦٥، ٢٧٣، ٣١٧، ٣١٩

إسطنبول: ٢٠، ١٠٤، ١١٣، ٢١٩، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٥٧، ٢٥٩

أستراليا: ٥٥، ٧٤

إسرائيل: ٨٠، ٨٤، ٩١، ١٤١، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢-١٥٨، ١٧٥، ١٩٠، ١٩٢، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٩٥، ٣٠٨، ٣١٧

إسلوفونيا: ١٧٠، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣١٣

أصفهان: ١٩١، ١٩٥، ٢١٩

أفغانستان: ١٣، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ٣٢٠

أوروبا: ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٥٥، ٥٨-٦١، ٦٣-٦٥، ٦٨، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٦، ٩٠، ٩٢، ٩٩، ١٠٨، ١١٤-١١٦، ١١٩-١٢٤، ١٢٦، ١٣٠-١٣٢، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٣-١٤٥، ١٤٩، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١-١٦٣، ١٦٧-١٧٠، ١٧٤، ١٩٤، ٢٠٠-٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٥-٢٩١، ٢٩٣-٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٦-٣٠٨، ٣١٣-٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢

الجزائر: ٩٧، ٩٨، ٢٦٥، ٣٠٧

جنوب إفريقيا: ١٥٤
الدول الإسكندنافية: ١٤٣، ٢٧٠
إلسافادور: ٢٢٣، ٢٢٥
أوكرانيا: ١٤٣، ٢٠٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦١
أوغاندا: ١٢٥
إيران: ١٣، ٢٠-٢٢، ٣٨، ٥٣، ٧٠، ٧٢، ٧٧، ٧٩، ٨٥، ٨٩، ٩٠-٩٤، ١٠٠، ١٠٢-١٠٧، ١١٥، ١١٦، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٢-١٣٥، ١٤١-١٤٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠-١٨٢، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٠-١٩٦، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣١١، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣
إيرلندا: ٤٥، ٥٢-٥٥، ٥٧، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ١٣١، ١٣٨، ١٨٥، ٢٠٥، ٢٨٦، ٢٨٨
إيطاليا: ٣٢، ٤١-٤٤، ٥٨-٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧٧، ٨٢، ٩٣، ١٠٤، ١٢١-١٢٤، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٥، ١٤٧، ١٦٠-١٦٢، ١٦٦، ١٩١، ٢٠٨، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٦، ٢٩٠، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٣
البلقان: ١٠٨، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ٢٣٠، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٨، ٣٠٦، ٣١٣
البحرين: ١٠١، ١٧٨
البرازيل: ٨٧، ١٢٠، ٢٠٠، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٣-٢١٥، ٢٢٢
بريطانيا [إنكلترا]: ٣٧، ٣٩، ٥٤، ٥٥، ٨٥، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٣، ١٥٩، ٢٣١، ٢٦٩، ٢٨٨، ٢٩٢
بروكسل: ٢٤٨
بروندي: ٢٠٩، ٢٧٠
بغداد: ٢١، ٩١
بلجيكا: ٣٩، ٤٥، ٤٧، ٧٦، ٨٠، ٢٠٥، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٨٦، ٣١٤
بلغاريا: ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٩٠، ٢٩٤
بنغلادش: ١٩٠
البوسنة: ٩٩، ١٤٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣٠١
بوليفيا: ٢٠٢، ٢١١
بوينس آيرس: ٣٦
بيت المقدس: ٦١
بيروت: ١٠٢، ١٧٦
بيزنطا: ٢٢، ٧٤، ١٧٤، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٦٤
بيلاروس: ٢٣٨
بادُفا: ٣٢٣
البراغواي: ٢٠٣
باريس: ١٧٧، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣١٥، ٣٢٢
باكستان: ٩٦، ٩٨، ١٦٨، ١٩٠، ٢٨٦
براغ: ٢٩٣، ٣١٤
البرتغال: ٣٠، ٣٩، ٦٥، ٨٦، ١٢٤، ١٣٢، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٣، ٢١٥، ٢٦٩
بولندا: ٣٥، ٤٥، ٤٦، ٥٤، ٦١، ٨٣، ١٣٢، ١٥٨-١٦٠، ١٧٠، ١٧١، ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣١٩، ٣٢٠
بكين: ٢٠، ١٠٤، ١١٣، ١٤٨
بيرو: ٢١٠، ٢١١، ٢١٧
تايلند: ٢٩٦

ت

ركيا: ٢١، ٩٠، ٩٤، ١٠٢، ١٧٥، ١٧٩، ١٩٠، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٢٠
تشيلي: ٨٢، ١٥٠، ٢٠٣، ٢٠٨
تونس: ١٠١، ١٧٥، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٦، ٢٦٥، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٢، ٢٩٩
تيمبكتو: ٢١٩
تيمور الشرقية: ٢٢٢
جبل طارق: ٢٦٣-٢٦٥
جنوب السودان: ٢٠٩
جنوة: ١٣٢
جمهورية التشيك: ١٣١، ١٧٠، ٢٦١، ٢٩٣، ٣١٤
جورجيا: ١٤٣
دبلن: ٤٦، ٥٢-٥٤، ١٣٨، ٢٨٨
الدنمارك: ٦٥، ٨٢، ١٤٨، ٢٦٣
رواندا: ٢٠٩، ٢٧٠، ٢٧١
روسيا: ٢٢، ٣١، ٧٤، ١٤٣، ١٧٤، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧-٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٣-٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١
روما: ٢١، ٢٦-٢٨، ٣٥-٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٦٦، ٧٤، ٨٧، ١٠٤، ١١٩، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٦، ١٦٠، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٧، ٢٨٠
رومانيا: ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤
سارايفو: ١٤٥، ٢٣٠، ٢٤٩
سائوباولو: ٣٥، ٨٧، ٢٠٤
سريلانكا: ١٢١، ١٢٤، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠١
السودان: ٩٧
سوريا: ٣٩، ٩١، ٩٦، ١٠١-١٠٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٧٥-١٧٨، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٣، ٢٣٤، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١
السويد: ٦٥، ٨٢، ١٥٧، ٣١٨
سويسرا: ٧٠، ٢٦٩، ٢٨٦، ٣١٧
الشام: ١٧٣
شبه القارة الهندية: ١٤٢
صربيا: ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٥-٢٤٩، ٢٥٨، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٢٢
الصومال: ٤٣
الصين: ١٢٤، ١٢٧، ١٤٢، ١٥٠، ١٨٩، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٦
طاجكستان: ٣٢٠
طهران: ١٣، ٧٠، ٩٠، ١٢٤، ١٤٣، ١٤٨، ١٦٥، ١٧١، ٢٥٩، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٢١
طوكيو: ١١٨
العراق: ٢١، ٩١، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١١٦، ١٣٢، ١٤٧، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨١، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ٢٨٥، ٣٠٥
غواتمالا: ١٥٠، ٢١١، ٢١٦
الفاتيكان: ١٣، ١٥-١٧، ١٩، ٢٠، ٢٥، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥-٣٨، ٤٠-٤٢، ٤٥-٥١، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٧٠، ٧٢، ٧٦-٧٩، ٨١، ٨٣-٩٤، ١٠٢، ١٠٤، ١١٤-١١٧، ١٢٤، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٤١-١٦١، ١٦٥-١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦، ١٩١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢١-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٥-٢٤٠، ٢٤٢-٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠١، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢١
فاس: ٢١٩

فرنسا: ٣٠، ٤٢، ٤٤، ٥٤، ٩١، ١٣٢، ١٦١، ١٧٠، ١٧٧، ٢٦٥-٢٦٩، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٣-٣١٥، ٣١٩، ٣٢٠-٣٢٢
فلسطين: ١٥٦، ١٥٨، ١٧٣، ١٩٠، ٢٨٥، ٢٩٢
فنلندا: ١٧١، ٣٠٣
فيتنام: ٢٢٢، ٢٩٦
فينسيا: ١٣٢، ٢٣٦
القاهرة: ٢٠، ٥٣، ١٠٤، ١١٣، ١٢٢، ١٤٧، ١٤٨، ٢٠٥، ٢١٩
قبرص: ٢٤٤
قرغيزستان [قرقيزيا]: ٣٢٠
القسطنطنية: ٢٧، ٢٨، ١٧٤، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٨
قطر: ٢١، ٩٤، ١٠٢، ٢٨٥
القوقاز: ١٠٧، ٢٣١
كابول: ٩٩
الكاريبب: ١٩٩، ٢٠٣، ٢٢٤
كمبوديا: ٢٩٦
كندا: ٥٥، ٧٤، ٢٠٠، ٢٨٦، ٣١٧، ٣٢٠
كبنهاغن: ٢٠، ١٠٤
كراكوف: ٤٥، ٨٨
كرواتيا: ٥٤، ١٦٢، ١٧٠، ٢٣٦، ٢٤٥-٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٨٨، ٣٠١، ٣١٣
كوريا الجنوبية: ٨٢، ٢٢٢، ٢٩٤
كولمبيا: ١٥٠، ٢٠٧
الكونغو: ٢٠٩
كوبا: ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٥١
الكويت: ١٣، ٩١، ٩٩، ١٠٠، ٢٢٩، ٢٨٥، ٣٠٥
لبنان: ٢١، ٩٠، ١١٦، ١٤٣، ١٤٧، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢، ٢٦٣، ٣١١
لندن: ١٦٨
ليبيا: ٤٣، ٩٦، ١٠١، ١٧٥، ١٨٦، ١٩٠، ٢٦٤، ٢٦٥
لشبونة: ٨٦
ماليزيا: ١٩٠
المحيط الأطلسي: ٥٥، ٢٦٤
المغرب: ١٣، ١٧، ١١٦، ١٩٠، ٢٦٣-٢٦٥، ٢٧٣-٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٩، ٢٩٦
المملكة العربية السعودية: ١٣، ٢١، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٦-١٠٢، ١٢٤، ١٦٨، ١٧٨، ١٩١، ٢٨٥، ٣٠٠
مصر: ٢١، ٣٥، ٩٠، ٩٤، ٩٧، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٦٤، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣٢٢
المكسيك: ٨٦، ١٢٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٠
موسكو: ٢٣١، ٢٣٨-٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٧-٢٥٠، ٢٥٤
مولدافيا: ٢٣٨، ٢٤٦
مومباسا: ٢١٩
ميلانو: ٣٤، ٤٧، ٤٨، ٥٨
نابولي: ١١٤، ١٢٢، ١٣٥، ١٦٠، ١٦٦، ٣٢٣
النمسا: ٣١، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٧٦، ٨٠، ١٤٣، ٢٠٥، ٢٣٦، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٤، ٢٩٢
نيجيريا: ١٢٥، ١٩٠، ٢٩٨
نيودلهي: ٢١٩
نيوزلندا: ٥٥
نيويورك: ١٤٧، ١٤٨
واشنطن: ١٧٧

هامبورغ: ١٦٨
هنغاريا [المجر]: ٣١، ١٧٠، ٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٣١٣
هولندا: ٣٩، ٦٥، ١٢٤، ١٣٤، ٢١٥، ٢٧٣، ٢٨١، ٢٨٦
هونغ كونغ: ٢٢٢
اليابان: ٨٢، ١١٨، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢١، ٢٨٦، ٢٩٦
يزد: ٢١٩
اليمن: ١٠١، ١٧٥، ١٩٠
يوغوسلافيا: ٨٦، ١٣٣، ١٤٥، ١٧٠، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٨
اليونان: ٣٩، ٦٣-٦٥، ١٤٣، ١٧٤، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٩٤